محاضرات

تاريخ الامم الاسلاميه

الدولة العباسية

لمؤلفه

محمد الخضري

أستاذ تاريخ الامم الاسلامية بالجامعة المصرية

ووكيل مدرسة القضاء الشرعي



طبع بمطبعة الجمالية - بمصر

محاضرات
تاريخ الامم الاسلاميه

الدولة العباسية

لمؤلفه

محمد الخضري
استاذ تاريخ الامم الاسلامية بالجامعة المصرية
ووكيل مدرسة القضاء الشرعي

﴿ طبعة أولى ﴾

سنة ١٣٣٤هـ
١٩١٦م

طبع بمطبعة الجمالية – بمصر

الى صاحب السمو الامير احمد فؤاد بن اسماعيل

مولاى

ان ما تفضلت به من كلماتك المشجعة حدا بى الى السير قدُما فى اظهار ماألقيه من محاضرات التاريخ بالجامعة المصرية وأرجو ان أكون قد وفقت لتحقيق شىء من رغباتكم العالية فى كتابة التاريخ الاسلامى واذا ساعدنى حسن حظى فحازت هذه المجموعة رضا سموكم شجعنى ذلك على اظهار ما يليها من تاريخ مصر الذى كان جدكم ساكن الجنان تغمده الله برحمته واسطة العقد بين مؤسسى دوله الاسلامية .

ولكتابى هذا حق الفخر بظهوره فى عهد محب العلم ومشيد أركانه صاحب العظمة السلطان حسين كامل سلطان مصر سدد الله خطاه وأناله رغباته فى أمته ؟

محمد الخضرى





أما بعد حمد الله فانى أقدم للمشتغلين بالتاريخ مجموعة محاضراتى الثانية فى تاريخ الأمم الاسلامية وهى تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسى فى المشرق والتاريخ العباسى جزء عظيم من تاريخ المسلمين يبتدىء من سنة ١٣٢ الى سنة ٦٥٦ أى ٥٢٤ سنة وقد بقى بيتهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر الى سنة ٩٢٣ ولكنى لم أسر معهم من العراق الى مصر وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك الى تاريخ مصر لما بين التاريخين من الارتباط وقد بذلت جهدى فى تصوير حالهم السياسى من مبتدأ خلافتهم على أيدي دعاتهم بخراسان والعراق الى منتهاها على يد هولاكوخان المغولى حفيد جنكيزخان. بينت تلك الحال فى أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الاسباب التى رفعت هذه الدولة الى الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة والاسباب التى نزلت بها الى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ وقد ختمت الحديث عنها بفصل فيه اجمال تلك الاسباب

وتركت تاريخها العلمى لما رأيت من جعل ذلك فى محاضرات خاصة تنتظم تاريخ الاسلام العلمى كله لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بنى العباس السياسية فقد كانت الدولة العباسية

فى عهد آل سلجوق فى حال ضعف سياسى شديد لأن الخلفاء لم يكن لهم اذ ذاك الا الاسم ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قوية

وانى أعد قراء كتابى هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية فى البلاد الاسلامية وأرجو من الله التوفيق

وقد كانت الاقاليم الاسلامية فى عهد الدولة العباسية ميدانا عظيما للافراد الذين ينتمون الى بيوت قديمة المجد والافراد العصاميين يتسابقون الى التغلب عليها من بلاد الاندلس غربا الى بلاد الترك والهند شرقا فكم من دول قامت وعظمت مدنيتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركا اسم الخلافة لبنى العباس ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعا كالدولة الاموية بالاندلس والادريسية بالمغرب الاقصى والفاطمية بأفريقية ومصر والزيدية بطبرستان فرأيت من الواجب ان أذكر مع كل خليفة عباسي من كان فى عصره متغلبا على أي اقليم من الاقاليم الاسلامية واذا ابتدأت دولة فى عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التى قامت فيها وثبت ملوكها وقصدت بذلك ان تكون الرقعة الاسلامية كلها واضحة الصورة فى جميع العصور وقد ألممت فى أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين فى أوروبا ولا سيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية فى عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا . ومما عنيت به أحوال البيت العلوي الذى ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم الى سقوطها

وقد كانوا من أكبر الاسباب فى ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على بخلافهم فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث وهى الزيدية والامامية الاثنى عشرية والامامية الاسماعيلية وما قامت به كل طائفة من الرجة فى انحاء العالم الاسلامى

وانى أظن ان هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الاسلامى يشعرون بها وأرجو من الله التوفيق لاتمام سلسلة هذا التاريخ انه نعم المعين م



الدولة العباسيه

البيت العباسى

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقى عقبه من كثير من أولاده ولكن العدد الاكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الاقاليم الاسلامية من أقصى حجر فى بلاد المغرب الى بلاد ماوراء النهر فى أواسط آسيا

ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الاسلامية ونحن الآن شارعون فى تاريخ البيت الاول

العباس بن عبد المطلب

أمه نُتَيْلة بنت جناب بن كليب من النَّمِر بن قاسط احدى قبائل ربيعة بن نزار ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين فهو أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين

كان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم وكان صديقا وفيا لأبى سفيان صخر بن حرب. لما جاء الاسلام كان من المخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وان لم يظهر متابعته. وكان هو الذي تولى إحكام الأمر لرسول الله مع الانصار حين الهجرة فقد قال لهم فى ليلة البيعة يامعشر الخزرج انكم قد دعوتم محمدا الى مادعوتموه اليه ومحمد من أعز الناس فى عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم

أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فانها ستر ميكم عن قوس واحدة فارتؤا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع فان أحسن الحديث أصدقه — وأخرى صفوا لى الحرب كيف تقاتلون عدوكم قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو ابن حرام فقال نحن والله أهل الحرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر نرمى بالنبل حتى تفنى ثم نطاعن بالرماح حتي تكسر ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الاعجل منا أو من عدونا . فقال العباس أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع . قالوا نعم شاملة — وقال البراء بن معرور قد سمعنا ماقلت أنا والله لو كان فى أنفسنا غير ماننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم دعاهم الى الله ورغبهم فى الاسلام وذكر الذى اجتمعوا له فأجاب البراء بن معرور بالايمان والتصديق فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد له البيعة تلك الليلة علي الانصار

ولما خرجت قريش الى بدر أخرج العباس وبنو أخيه اليها كرها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه يوم بدر من لقى منكم العباس وطالبا وعقيلا ونوفلا وأبا سفيان فلا تقتلوهم فانهم أخرجوا مكرهين . وكان العباس فى جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة وكان مقامه بها انه كان لايُغَبّى على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرا يكون الا كتب به

اليه وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون اليه وكان لهم عونا على اسلامهم ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي صلى الله عليه وسلم فكتب اليه عليه السلام أن مقامك مجاهَد حسن فأقام بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهاجر الى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة وكان سببا فى نجاة أبى سفيان وفى تشريفه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن . وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج الى المدينة فأقام بها

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة ٣٢ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى وعبدالله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة أمهم جميعا لُبابة بنت الحارث بن حزن من بنى هلال بن عامر من قيس عيلان وفى ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله بن يزيد الهلالى

ما ولدت نجيبة من فحل ... بجبل نعلمه أو سهل

كستة من بطن أم الفضل ... أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كَثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد . والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل . وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب وعقب العباس من سواهم ولا سيما من عبد الله فانه هو الذى انتشر منه عقب العباس وهو جد

الخلفاء العباسيين

عبد الله بن العباس

هو ثانى ولد العباس بن عبد المطلب ولد قبل الهجرة بسنتين فكانت سنه حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال اللهم علمه التأويل فكان رضي الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ماأوتيه من لسان طلق ذلق غواص على موضع الحجة وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوراه الخاص ويستفتيه فى كثير من المسائل على صغر سنه . وولاه عثمان الموسم سنة ٣٥ من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم ولما بويع على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضدا ونصيرا فى حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال انه انحرف عنه فى أواخر أيامه وترك البصرة ورحل الى مكة فأقام بالطائف وقيل ان ذلك كان بعد مقتل علي

ظل ابن عباس مقيما فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد اليه كثيرا كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم وكانت وفاته سنة ٦٨ وعبد الله هو الذي نما من نسله البيت العباسى لأن اخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبد الله الذى نما انما هو من ولده على بن عبد الله بن عباس

على بن عبد الله بن عباس

أمه زُرْعة بنت مِشرح بن معديكرب من كندة ولدليلة قتل على بن

أبي طالب سنة ٤٠ من الهجرة فسمى باسمه وكنى بكنيته أبي الحسن وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيدا شريفا بليغا ويقال كان أجمل قرشى على وجه الارض وأوسمهم وأكثرهم صلاة وكان مفرطا فى الطول اذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله . وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحُمَيْمة بالشُّراة (وهى صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من اقليم البلقا) . فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده وكانت وفاته سنة ١١٧

وأعقب على اثنين وعشرين ولدا ذكرا واحدى عشرة أنثى . وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر واسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الاكبر وعبيد الله وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد الله الاصغر ويحيي واسحاق ويعقوب وعبد العزيز واسماعيل الاصغر وعبد الله الاوسط . ستة منهم لا عقب لهم والباقون أعقبوا كثيرا ومنهم انتشر البيت العباسى وكثر جدا . وبيت الخلافة فى محمد أكبر أولاده

محمد بن على

هو والد ابراهيم الامام وأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية وهو الذى ابتدأت الدعوة على يديه وكان ذلك فى حياة أبيه على ولكن لم يكن لأبيه ذكر فى هذه الدعوة

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد فلنشرع فى بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة اليهم وكيف

تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها

كيف نشأت فكرة الخلافة

فى بنى العباس

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على عليّ بن أبي طالب أن يدخل على رسول الله صلى الله عليه سلم وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فان كانت فيهم والا أوصى بهم من سيكون خليفة فامتنع من ذلك على قائلا انه ان منعنا اياها لاننا لها أبدا

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحال ماذكرنا فمال الجمهور الاسلامي الى مبايعة أبي بكر الصديق رضى الله عنه بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والانصار فى سقيفة بنى ساعدة وكانت هناك فئة قليلة تميل الى أن تكون الخلافة فى بني هاشم رهط النبي الادنين ولم يكن فيهم من أعمامه الا العباس بن عبد المطلب وكان من بنى أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم على بن أبي طالب ومع ان العباس كان فى ذلك الوقت أسن بنى هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على عليّ بن أبي طالب لما لعلى من المزايا الكثيرة التى بيناها فيما سبق . وكان على نفسه يرى انه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبي بكر مدة حياة فاطمة رضي الله عنها فلما ماتت دخل فيما دخل فيه

الجمهور وبايع أبا بكر على ملأ من الناس

عاش علي والعباس في عهد أبي بكر ثم بايعا عمر لما عهد اليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين الى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد اليهم عمر اختيار الخليفة من بعده وكان علي يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه في المدول عنه ٠

وفي أواخر خلافة عثمان توفي العباس بن عبد المطلب تاركا عقبا كثيرا أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثاني أولاده ولم يعلم ان أحدا منهم كان يتطلع الى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده

بعدمضي ست سنوات من خلافة عثمان وجدت حركة في بعض النفوس تتجه الى نقل الخلافة من عثمان بن عفان الى علي بن أبي طالب وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا في الامصار الاسلامية الكبرى وهي الكوفة والبصرة والفسطاط وتذرعوا الى ذلك بالعيب في ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها وكان من في مصر يكتب الى من في المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس فيقول الناس أما نحن ففي عافية مما ابتلي به هؤلاء وجميعهم يكتبون الى ناس في المدينة بمثل ذلك حتى ملؤا البلاد طعنا ٠ ولما وجدوا لذلك ارتياحا من بعض النفوس انتقلوا من ذلك الى الطعن في عثمان نفسه فنسبوا اليه أمورا منها ماهو غير صحيح ومنها ماهو صحيح وقدفعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ماقصدوا اليه

ألفت وفود من غوغاء الامصار الثلاث ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت

الى المدينة وهى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضرة الاسلام الكبرى ومقر الخلافة الاسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان فأشكاهم عثمان من جميع ماشكوا منه ولان لهم جدا حتى لا يوجد لهم سبيلا الى الفتنة فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل الى أوطانهم وسار كل وفد في الطريق التى توصله الى مصره وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادرا من عثمان الى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقابا لهم وتنكيلا والكتاب مختوم بخاتم عثمان فلما أروه اياه حلف لهم انه ما كتبه ولا أمر بكتابته وهو صادق فى يمينه فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه ان يسلمهم اياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما فى أنفسهم من الشر وحصروا عثمان فى داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلما وعدوانا ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لايغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام

بعد ان تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة على علىّ بن أبى طالب فقبلها بعد تردد

أمضى رحمه الله حياته فى حرب مخالفيه فى البصرة والنهروان وصفين ولم تصف له الخلافة يوما واحدا الى ان اغتاله أحد الخوارج في رمضان سنة ٤٠ من الهجرة فى حاضرة خلافته وهى الكوفة

كان الجمهور الاسلامى فى ذلك الوقت قد انضم الى خصمه معاوية ابن أبى سفيان حيث كان فى بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر . أما الكوفة فكانت مقرا لشيعة على ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لاعلى خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من

الخلفاء أيضا ومع هذا فانه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والاخلاص بل كثيرا ما أهملوا أوامره التي كان يصدرها اليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة ان يقوم فى الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن أبوه علىّ بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره ان الذين لم ينل منهم أبوه مايرجوه لايحسن الاعتماد عليهم ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة مفضلا جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام على ذلك حتى توفى بها سنة ٥٠ من الهجرة

ظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاء اليد فاجتمعت الامة على طاعته والرضا به وسكنت الدعوة الى أهل البيت وخبت نار التشيع الا انها كانت مستكنة فى أنفس ذويها تنتظر الوقت الملائم للهبوب

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة فى المدينة ومكة والكوفة

فاما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة

وأما مكة فعاذ بها عبدالله بن الزبير طالبا الخلافة لنفسه

وأما الكوفة فان من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون اليهم الحسين

ابن على شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد فلم يكن من الحسين الا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه وسار اليهم من غير جند يركن اليه ولا مال يستعين به فقابلتـه ببعض الطريق جنود عبيد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكربلاء. ولم تقم شيعة أبيه بشئ من المساعدة بل ظلوا فى مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول

لا الفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى مازودتنى زادى

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد وعظم أمر ابن الزبير ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق وأبى ان يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن على المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم

ظهر فى تلك الاوقات رجل أراد ان ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزا فى البلاد العراقية مستعينا بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لاهل البيت وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى فذهب الى الكوفة لابسا ثوب التشيع ناعيا على من قتل الحسين بن على وداعيا الى الامام المهدى وهو محمد بن على الذى صار بعد أخويه أكبر أبناء على رضى الله عنه وتوسل الى غايته بكل مايمكن من عبارات التأثير حقا كانت أم كذبا وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الاكاذيب التى تؤثر عادة فى أنفس الغوغاء وقد أمكنه ان يجتذب الى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة وأرسل الى محمد بن على وهو

مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا واجتمع فى حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية لواء لابن الزبير ولواء لبنى أمية ولواء للخوارج ولواء لاصحاب محمد بن على الا ان الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التى يكره بعضها بعضا

لم يطل حبل المختار بالكوفة فان عبد الله بن الزبير جهز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسار اليه ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته وبذلك كانت الغلبة لمصعب الا ان ذلك لم يقض على التشيع فى بلاد العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيره لينتفع منه

أما محمد بن على فانه بايع عبد الملك بن مروان بعد ان استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الاقاليم الاسلامية كلها ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة الا انه مغلوب على أمره حتى انه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته وقال انه تغيب وسيرجع وقال فى ذلك شاعرهم السيد الحميرى

الا ان الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء

علىٌّ والأئمة من بنيه ... هم الاسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط ايمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت افكار الشيعة بعد موت محمد بن على فنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا ومنهم من تولى بعده ابنه أباهاشم ويقال لهذا الفريق والذى قبله الكيسانية ينسبون الى كيسان وهو لقب للمختار

ابن أبي عبيد

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه انه طلب الخلافة لنفسه — قال هؤلاء ان الخلافة محصورة فى أولاد على من فاطمة رضى الله عنها ولما كان الحسين هو الذى قتل دون الخلافة فهى فى عقبه وعلى هو الذى بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء . وقد يقولون ان عليا هو الوصى أوصى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخلافة ثم الامام من بعده الحسن ثم الحسين ثم على وهكذا لابد للأمة من امام منصوص عليه ويقال لهؤلاء الشيعة الأمامية

كان أكبر ولد العباس فى ذلك الوقت على بن عبد الله بن عباس وهو الذى انتشر منه العباسيون وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التى أقامه بها بنو أمية والذى أنزله بها الوليد بن عبد الملك وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة الى ولد العباس منذ على هذا ويقال ان السبب فى ذلك ان أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة الى على هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية فى جانب على بن عبد الله بن عباس

أما بقية الشيعة فانهم بعد وفاة على زين العابدين افترقت بهم الطرق فمنهم من تولى بعده ابنه محمد الباقر زاعمين انه الامام بعد أبيه . ومنهم من قال ان الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي بن الحسين وهم المعروفون بالشيعة الزيدية

والذين حاولوا الوصول الى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيي

وكانت وفاة على بن عبد الله ومحمد الباقر فى زمن متقارب بالحيمة فانتقل ولاء الكيسانية الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لان أباه أوصى اليه وانتقل ولاء الأمامية الى جعفر الصادق بن محمد الباقر ولم يفعل أنصار الأئمة شيئاً ليرجعوا الخلافة الى ذوى الحق فيها حسب رأيهم

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم الى النصرة زيد بن على فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالبا الخلافة الا أن بنى أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التى أودت بحياتهم بعد فسرعان ماانتصروا على زيد وأطفؤا ثورته وقتلوه وصلبوه وثار بعده ابنه يحيي فكانت خاتمته خاتمة أبيه

أما محمد بن على بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم فانه رأى أن نقل السلطان من بيت الى بيت لا بد أن يسبق باعداد أفكار الامة الى هذا النقل وان كل محاولة فجائية لا بد ان تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير فى المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم فمهد الى شيعته ان يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس الى ولاية أهل البيت بدون ان يسموا أحدا خوفا من بنى أمية ان يقضوا على المدعو اذا عرف ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هى الكوفة وبلاد خراسان. أما الكوفة فهى مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم ان يأووا اليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم . وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنيـة على أمرين الاول ان فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة لان

مؤداها نقل الخلافة الى بيت النبي صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة وسيد الأمة وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته ولا يجوز نقله الى غير بيت الملك الا ان كان ذلك عن اختلاس — الثاني ان البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد فكان العنصر العربي بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئا من الولايات العامة فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة واخراج الخلافة الى الدولة المستقبلة كي يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية. قال أبو بكر بن احمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان

وقد كان محمد بن على بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيهم الى الأمصار — أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده — وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل — وأما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى — وأما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم — وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الاهواء ولم يتوزعها الدغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج

من أجواف منكرة وبعد فانى أتفاءل الى المشرق والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلى بن عبد الله بن عباس حى لم يمت بعد لانها ابتدأت فى أول القرن الثانى وعلى لم يمت الا سنة ١١٧ على قول وسنة ١١٤ على قول وكان الخليفة من بنى أمية اذ ذاك عمر بن عبد العزيز ابن مروان وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء

وجعل للدعوة مركزان أحدهما بالكوفة التى اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله والثانى بخراسان التى هى محل الدعوة الحقيقى ووجه اليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج واختير من الدعاة اثنا عشر نقيبا وهم

(١) سليمان بن كثير الخزاعى	(٧) لاهز بن قريظ التميمى
(٢) مالك بن الهيثم «	(٨) موسى بن كعب «
(٣) طلحة بن زريق «	(٩) القاسم بن مجاشع «
(٤) عمرو بن أعين «	(١٠) ابو داود خالد بن ابراهيم الشيبانى
(٥) عيسى بن أعين «	(١١) ابو على الهروى شبل بن طهمان الحنفى
(٦) قحطبة بن شبيب الطائى	(١٢) عمران بن اسمعيل المعيطى

واختار سبعين رجلا ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء وكتب اليهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثانى الى سنة ١٣٢ وهى السنة التي تم فيها النجاح وبويع فيها لأبى العباس السفاح

وهذه المدة تنقسم الى قسمين متمايزين الاول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل ان ينضم الى القوم أبو مسلم الخراسانى وذلك في الوقت الذى كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان وذلك نحو ٢٧ سنة والعصر الثانى عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الاسباب الداعية الى ذلك

العصر الاول

(من سنة ١٠٠ الى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية ظاهر أمرهم التجارة وباطنها الدعوة ينتهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم الى القائم بالكوفة وهو يوصلها الى الحميمة أو الى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لامر الدعاة لانهم كانوا اذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً وكانت اقامة محمد بن على بالحميمة سببا آخر فى انتظام المواصلات وكتم سرها

وكان أول ماظهر من أمرهم بخراسان سنة ١٠٢ حيث جاء رجل من تميم الى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص الذي يقال له سعيد خذينة وقال له ان ههنا قوما قد ظهر منهم

كلام قبيح فبعث اليهم سعيد فأتى بهم فسألهم من أنتم قالوا أناس من التجار قال فما هذا الذي يحكى عنكم قالوا لا ندري قال جئتم دعاة فقالوا ان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هـذا فسأل من يعرف هؤلاء فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا ان أتاك منهم شيء تكرهه فخلي سبيلهم

وفى سنة ١٠٥ انضم الى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسرا فساعد القوم بماله وصادف أن توفى فى ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة فأقامه محمد بن على مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بامره ويسيرون فى الطريق التى يشرعها لهم

كان من أول النكبات التى لحقت بهم أنه وشى بجمع من دعاتهم الى أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان وهو وال شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي فقطع أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم وأفلت عمار العبادى حتى أتى الكوفة فاخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشئوم فكتب به الى محمد ابن على فأجابه (الحمد لله الذى صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل) وقد وقع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فالحقه باخوانه

وكان أسد بن عبدالله أشد ولاة خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحدا منهم وقع فى يده بل شرد بهم ونكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة فى أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان سنة ١٠٩ وتلك ولايته الاولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الاولى

ففى سنة ١١٧ أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى ابن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن ابراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال لهم يافسقة ألم يقل الله عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذوانتقام فقال سليمان بن كثير أتكلم أم أسكت قل بل تكلم قال نحن والله كما قال الشاعر

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

تدري ماقصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الامير انا أناس من قومك (اليمن) وان هذه المضرية انما رفعوا اليك هذا لانا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم وانما طلبوا بثأرهم

فانظروا كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية في أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحيانا وقد كان ذلك الجواب سببا فى خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الأمير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد سنة ١٢٠ فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته

حصل بعد ذلك فى العالم الاسلامى ما كان له أعظم الفضل فى نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك

(أولا) انشقاق البيت الأموى حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبدالملك واستعان على ذلك بالقدح فى الوليد ونسبته الى العظائم من الفسوق والكفر واحلال ماحرم الله فكان معه

قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بنى أمية يتمثل بقول الشاعر

انى أعيـذكم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم	فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم	ان الذئاب اذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم	فثم لا حسرة تغنى ولا جزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فانه كتب الى الغمر ابن يزيد أخي الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب (أما بعد فان هذه الخلافة من الله على مناهج رسله واقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحقها ناهض بانصار لها من المسلمين وكان أهل الشام أحسن خلقه فيـه طاعة وأذبه عن حرمـه وأوفاه بعهده وأشـده نكاية فى مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمر بهم الاسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وان كانت القلوب عنه نافرة ـ والمطلوبون بدم الخليفـة ولانه من بنى أمية فان دمه غير ضائع وان سكنت بهم الفتنة والتأمت الامور فأمر الله لا مرد له وقد كتبت بحالك فيما أبرموا أوما ترى فانى مطرق الى أن أرى غيرا فاسطو بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعى قوم أسكن الله طاعتى قلوبهم أهل اقدام الى ماقدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعا وللنقمة دولة تأتى من الله ووقت موكل

ولم أشبه محمدا ولا مروان غير أن رأيت غيرا ان لم أشمر للقدرية ازارى
وأضربهم بسيفى جارحا وطاعنا يرى قضاء الله فى ذلك حيث أخذ أو يرمى
فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما اطراقى الا لما أنتظر مما يأتينى
عنك فلا تدعن ثارك بأخيك فان الله جارك وكافيك وكفى بالله طالبا ونصيرا

وكان مروان فى ذلك الوقت أميرا للجزيرة وأرمينية ومعه جيش
كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكا بهذا
الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق فى
هذا البيت ولا شبهة ان انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال
انشقاقا فى قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها

(ثانيا) ظهور العصبية القومية فى خراسان وانشقاق القبائل العربية
وذلك أن العرب يرجعون الى شعبين عظيمين قحطان ونزار. وملك
العرب القديم كان فى اليمن فلما جاء الاسلام تحول الى نزار لمكان رسول
الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان أمر النبوة والوحى قد باعد بين الناس
وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة الى
أعدائهم فنالوا فى زمن قليل مالم تنله أمة قبلهم فى مثل الزمن الذى
ارتفع فيه قدرهم

ولما طال الزمن تراجع الناس الى شىء مما كانوا عليه فى الجاهلية
بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن
ينظروا الى سوء مغبتها وظهر ذلك فى أقوال شعرائهم التى لها أثر شديد
فى أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث
ابن عبد الله بن الحشرج الجعدي

أبيت أرعى النجوم مرتفقا ... اذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة ... قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن ... بالشام كلٌ شجاه شاغلها
فالناس منها فى لون مظلمة ... دهماء ملتجّة غياطلها
يمسى السفيه الذى يعنف بالجهـــل سواء فيها وعاقلها
والناس فى كربة يكاد لها ... تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها فى كل مبهمة ... عمياء تخفى لها غوائلها
لا ينظر الناس فى عواقبها ... الا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـــلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته ... فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته فى وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم

كان بخراسان واليان مخلفان جاء أحدهما بعد الآخر فأما أولهما فهو أسد بن عبد الله القسري وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية الى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك مايهيجه وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه مع قومه الا أن شيعته بخراسان لم تكن بذاك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذى ولاه يعلم ذلك فانه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمى له أشخاصا بما لهم من محامد ومذام فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال ان اغتفرت له واحدة فانه عفيف مجرب عاقل قال هشام وما هى فقال المشير عشيرته بها قليلة فقال هشام

أتريد عشيرة أكثر مني أنا عشيرته . وهذه جملة صحيحة في زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة

ظهر الانشقاق في عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الامير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرمانى وانما عرف بذلك لانه ولد بكرمان وكان نصر والكرمانى قبل ذلك متصافيين الا ان الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما . وكانت النزارية أيضا منشقة فربيعة في جانب ومضر في جانب وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحرورى الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاثة متعادية

حصلت حروب بين نصر والكرمانى وكانت القوة للكرمانى فأجلي نصراً عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية فقالت امرأة من ضبة وهي أم كثير الضبية

لا بارك الله في انثى وعذبها ... تزوجت مضريا آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة ... أحللتموها بدار الذل والفقر
ان أنتم لم تكروا بعد جولتكم ... حتى تعيدوا رجال الازد والظهر
انى استحييت لكم من بذل طاعتكم ... هذا المزونى يجبيكم على قهر

وقال شاعر آخر

ألا يانصر قد برح الخفاء ... وقد طال التمنى والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو ... تقضي في الحكومة ماتشاء
يجوز قضاؤها في كل حكم ... على مضر وان جار القضاء
وحمير في مجالسها قعود ... ترقرق في رقابهم الدماء

فان مضر بذا رضيت وذلت   فطال لها المذلة والشقاء
وان هى اعتبت فيها والا   فحل على عساكرها العفاء

فى أثناء وقوع هذه الحوادث توفى محمد بن على أمام الشيعة الذى يدعون اليه وأدلى بالامر من بعده الى ابنه ابراهيم وأعلم الشيعة بذلك فقاموا بالدعوة اليه مكان أبيه . ثم توفى بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام ابراهيم بن محمد مكانه حفص بن سليمان المعروف بابي سلمة الخلال وأصله مولى لبنى الحارث بن كعب وكان صهرا لبكير بن ماهان فاوصى ابراهيم ان يقيمه مكانه

واتصل بابراهيم في تلك الاوقات شاب من نوابغ الشبان وذوى المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراساني وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع ثم اتصل بمحمد ابن على سنة ١٢٥ ثم بابنه ابراهيم وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم وكانت الشيعة بخراسان في حاجة الى مثله ليشرعوا فى العمل بعد ان أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما وقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار ابراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب الى أصحابه انى قد أمرته بأمرى فاسمعوا منه واقبلوا قوله فانى قد أمّرته على خراسان وماغلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصي به أبا مسلم قوله

« ياعبد الرحمن انك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتى . وانظر هذا الحي من اليمن فاكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لايتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم في أمرهم . وانظر هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان فى

أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل فأيما غلام بلغ خمسة اشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصه وان أشكل عليك أمر فاكتف به منى »

وانما أمره بتقريب أهل اليمن لانهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التى كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان اذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر فانهم كانوا أصحاب الدولة . ومما يدل على اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب قول الامام (وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل) سار أبو مسلم مزودا بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك سنة ١٢٨ وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فاقام يدبر الأمور . وبعد سنة تهيأ لزيارة الامام ومعه عدد كبير من الدعاة ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الامام يقول فيه (انى قد بعثت اليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابى ووجه الى قحطبة بما معك يوافنى به فى الموسم) فعاد ابو مسلم الى مرو مستعدا للعمل

دور العمل

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج وهناك بث دعاته فى الناس ليجتمعوا اليه فاثال اليه الناس وكان ذلك فى رمضان سنة ١٢٩ . ولخمس بقين منه عقد اللواء الذى بعث به الامام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعا وعقد الراية التى تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو قوله تعالى (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا

وأن الله على نصرهم لقدير) ولبسوا السواد الذى جعل شعارا للدولة العباسية وقدم على أبى مسلم الدعاة من أهل مرو بمن أجاب الدعوة

كان أول مافعله أبو مسلم ان أمر برم حصن سفيذنج واقام به هو ومن معه ولما حضر عيد الفطر سنة ١٢٩ امر سليمان بن كثير ان يصلى به وبالشيعة ونصب له منبرا فى العسكر وامره ان يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا اقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والاذان ثم بالصلاة بالاقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوسا فى الجمعة والاعياد. وأمره ان يكبر ست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر فى الركعة الاولى اربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانيه ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه الى طعام اعد لهم مستبشرين

كتب أبو مسلم الى نصر بن سيار يقول له (أما بعد فان الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عير أقواما فى القرآن فقال وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا فى الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما انه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه

وكان جوابه ان وجه الى أبى مسلم مولى له اسمه يزيد فى خيل عظيمة فوجه اليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعى فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس

جند نصر بعد ان جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل فى دعوته وأن يرجع الى مولاه سالما ويعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم ما رأى فاختار الرجوع الى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه أن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فانا مانحن عندهم على الاسلام

قدم يزيد على نصر فقال له نصر لا مرحبا بك والله ما ظننت استبقاك القوم الا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد هو والله ماظننت وقد استحلفونى ألا أكذب عليهم وأنا أقول انهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان واقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيرا ويدعون الى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أحسب أمرهم الا سيعلو ولولا انك مولاى أعتقتنى من الرق مارجعت اليك ولأقمت معهم

كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبى مسلم ووجدت الدعوة في قلوبهم مكانا صالحا فضاقت عليه سفيذنج فرحل الى الماخُوان وهى قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبى العلاء خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه فى الخندق سبعة آلاف رجل

رأى عرب خراسان ان ماينهم من هذه الفرقة والحروب يشدأزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرمانى قد قتل فى احدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه فى قيادة اليمانيين ابنه علىّ فكتب نصر الى شيبان الحرورى يقول له ان شئت فكف عنى حتى أقاتله وان شئت فاتفق معى على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود الى

أمرنا الذي كنا عليه فهم شيبان ان يفعل ولكن أبا مسلم كانت له عين لاتنام فأرسل الى عليّ بن الكرمانى يقول له انك موتور قتل أبوك ونحن نعلم انك لست على رأى شيبان وانما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرمانى على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر الى شيبان انك لمغرور وأيم الله لينفاقمن هذا الأمر حتى تستصغرنى بجانبه

وفى أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر . ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة امر ابى مسلم ارسلت الى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب الى ذلك وتوادعوا سنة . بلغ ذلك ابا مسلم فأرسل الى ابن الكرمانى يهيجه بأخذ الثأر فقال انى ماصالحت نصرا وانما صالحه شيبان وانا لذلك كاره وانا موتور ولا ادع قتاله فعاود القتال وابى شيبان ان يعينه وقال لايحل الغدر فأرسل ابن الكرماني الى أبى مسلم يستنصره وهذا كل مايريده فأرسل اليه انى معك على نصر فاشتد ذلك على نصر وكتب الى أبى مسلم يلتمس منه ان يدخل مع نصر وبعثت اليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا الفتاك الذى ليست له غاية الا الفتك بهم جميعا فأمرهم أبو مسلم ان يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر ابو مسلم متكلمى الشيعة ان يختاروا وفد ربيعة وقحطان فان السلطان فى مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد . ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ماأمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ماخبأه لهم الغيب

بذلك ظفر أبو مسلم ظفرا عظيما فانه فرق كلمة العرب بعد ان كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان فى جمادى الاولى سنة ١٣٠ يريد مرو وأرسل اليه ابن الكرمانى ان أدخل حائط مرو من قبلك وأدخل انا وعشيرتى من قبلى فأرسل اليه أبو مسلم ان لست آمن ان تجتمع يدك ويد نصر على حربى ولكن ادخل أنت فانشب الحرب فدخل ابن الكرمانى وأنشب الحرب وأمر ابو مسلم احد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه ابو مسلم دخل والقتال دائر بين الكرمانى ونصر فامر الفريقين ان يكفا وهو يتلو ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه . ومضى ابو مسلم حتى دخل دار الامارة وهرب نصر مستخفيا

صفت مرو لأبي مسلم وامر احد النقباء باخذ البيعة على اهلها ونص البيعة (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله الحرام وعلى ألا تسالوا رزقا ولا طمعا حتى يبدأكم به ولاتكم وان كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولاتكم) واخذ ابو مسلم ثقات اصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم

ارسل بعد ذلك الى شيبان الحروري يدعوه الى بيعته فابى وسارعن مرو الى سرخس فوجه اليه ابو مسلم جندا فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه . وبعد نيل هذا الانتصار عمد الى ابنى الكرمانى علىّ وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما واكثر اصحابهما

صفت خراسان كلها لأبى مسلم فبعث العمال الى جميع الولايات

وامر احد قواده قحطبة بن شبيب ان يتبع نصرا ومعه لواء عقده له ابراهيم الامام فسار وراءه من بلد الى بلد حتى مرض نصر بالرى ومات بساوة فاقبل قحطبة بجنوده واستولى على الرى فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار الى نهاوند لحصرها ولحقه بها ابوه فاجتمعا عليها ثلاثة اشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور والموصل . سار قحطبة بعد ذلك واغلا فى بلاد العراق فقصده ابن هبيرة اميرالعراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربى الفرات على نحو ٢٣ فرسخا من الكوفة وقبل ان تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى أمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال اذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد ابو سلمة الخلال فسلموا الامر اليه

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى اتى واسطا. وقبل ان يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسوّدا فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب اليه يعلمه فوصل الكتاب الى ابنه الحسن فارتحل الى الكوفة فدخلها فى المحرم سنة ١٣٢ وسلم الامر لأبى سلمة الخلال فوجه الحسن الي قتال ابن هبيرة بواسط وضم اليه قوادا . ووجه حميد بن قحطبة الى المدائن. ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك الى دير قنى . وبعث المهلبى وشراحيل الى عين التمر . وبسام بن ابراهيم الى الاهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام وبالحجاز .

افتضاح الامر

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو اليه الشيعة فانهم كانوا يدعون الى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ولا يعلم السر الا النقباء والدعاة أما العامة فبلغ علمها انها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع فى يد مروان بن محمد كتاب لابراهيم الى أبى مسلم جواب كتاب لابي مسلم يامره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فارسل مروان فى الحال الى عامله بدمشق يامره بالكتاب الى صاحبه بالبلقاء ان يسير الى الحميمة ويأخذ ابراهيم بن محمد ويوجه به اليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على ابراهيم ولما أحس ابراهيم بما يراد به نعى نفسه الى أهل بيته وأوصى الى أخيه أبى العباس وأمر أهله بالسير الى الكوفة والسمع والطاعة لابى العباس . أما ابراهيم فحبس فى سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بنى أمية ولم يزل فى سجنه حتى مات وكيفية موته مبهمة اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال انه سقى سما ومنهم من قال هدم عليه بيت فمات . ومما قيل في رثائه

قد كنت أحسبنى جلدا فضعضعنى	قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الامام وخير الناس كلهم	بين الصفائح والاحجار والطين
فيه الامام الذى عمت مصيبته	وعيّلت كل ذى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة	لكن عفا الله عمن قال أمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها فى صفر سنة ١٣٢ ورئيس القوم وقائدهم ابو سلمة الخلال الذى كان يعرف فى ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلهم في احدى دور الكوفة وكتم أمرهم

عن سائر القواد أربعين ليلة .وكان لايزال فى معسكره بحمام أعين خارج الكوفة

ويقال انه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم الي بنى على فكاتب ثلاثة من أعيانهم جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الأشرف بن زين العابدين وارسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له اقصد أولا جعفر بن محمد فان أجاب فأبطل الكتابين الآخرين وان لم يجب فالق عبد الله المحض فان أجاب فأبطل كتاب عمر وان لم يجب فالق عمر فذهب الرسول الى جعفر بن محمد أولا ودفع اليه كتاب أبى سلمة فقال مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى فقال له الرسول اقرأ الكتاب فقال جعفر لخادمه أدن السراج منى فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول ألا تجيبه فقال قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع اليه الكتاب فقرأه وقبله وركب فى الحال الي جعفر وقال هذا كتاب ابى سلمة يدعونى فيه الى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر ومتى صار اهل خراسان شيعتك أأنت وجهت اليهم ابا مسلم هل تعرف احدا منهم باسمه او بصورته فكيف يكونون شيعتك وانت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك فقال عبد الله كان هذا الكلام منه لشيء فقال جعفر قد علم الله أني أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف ادخره عنك فلا تمن نفسك الاباطيل فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءنى مثل الكتاب الذي جاءك فانصرف عبد الله من عنده غير راض . واما عمر بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال

انا لااعرف صاحبه فأجيبه. أحس بعض القواد بأمر ابى سلمة فأحبطوا ماأراده وذهبوا الى الكوفة فقابلوا ابا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا . وقد ابقى هذا العمل فى نفس ابى العباس ماابقى فترتب عليه مايأتى ذكره

خرج ابو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول فصلى بالناس وكان فى خطبته بعد حمد الله والثناء عليه ان افتخر بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بنى حرب وبنى مروان اثرتهم وظلمهم ثم قال (وانى لأرجوا لا يأتيكم الجور من حيث اتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت الا بالله ياأهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا انتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى ادركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم اسعد الناس بنا واكرمهم علينا وقد زدتكم فى اعطياتكم مئة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح) وبهذه الجملة الاخيرة لقب السفاح

كان السفاح اذ ذاك موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داود بن على عمه وكان من أفصح بنى العباس فخطب خطبة جاء فيها (انا والله ماخرجنا فى هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا وانما أخرجنا الانفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم لكم ذمة الله وذمة

رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله ان نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم منى أهل الكوفة بما يحلو فى أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم واعادة حقوقهم وقال فى آخر خطبته (ألا وانه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده الى أبى العباس) فاعلموا ان هذا الأمر فينا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم صلوات الله عليه

بعد ان تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح الى القصر وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل

ثم خرج أبو العباس الى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن على

بعد ان بلغوا هذا المبلغ بقى عليهم ان يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التى معه بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التى معه بواسط

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن على ليكون قائدا للجنود التي اختيرت لحرب مروان وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق وكانت الوقعة شديدة جدا انتهت بانتصار عبد الله وجنوده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لاحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة

١٣٢ وكان مع مروان من الجنود ١٢٠ ألفا من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها

انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه ابان بن يزيد بن محمد فاقام بها نيفا وعشرين يوما ولما دنا منه عبد الله رحل عنها باهله وولده وقدم عبد الله فلقيه ابان مسودا مبايعا له فبايعه ودخل فى طاعته فامنه ومن كان بحران والجزيرة

مضى مروان حتي أتى قنسرين وعبدالله يتبعه ثم مضى منها الى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان فلما أحس باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضا أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل

مر مروان بالاردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج الى بوصير وهى قرية من مركز الواسطى ببنى سويف

أما عبد الله بن على فجاءه كتاب من أبى العباس يأمره ان يوجه صالح بن على فى ملاحقة مروان فسار صالح فى ذى القعدة سنة ١٣٢ وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاءه حتى وصل الى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوصير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت دولة بنى أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة العباسية

وأما يزيد بن عمر بن هبيرة فانه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطا وتحصن بها وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب الى الكوفة فيقاتل حتي يقتل أو يظفر وحذروه واسطا كيلا يصير فى حصار وليس

بعد الحصار الا القتل نخالف تلك الشورى فسير اليه ابو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم . ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهرا ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب بمن معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر حتى جعل له أمانا وكتب به كتابا مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه الى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر الى السفاح فامر بامضائه وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لا يقطع أمرا دون أبي مسلم فكتب أبو مسلم الى السفاح يقول له ان الطريق السهل اذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة الى أبي جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الامان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالي بقوله :

منع العزاء حرارة الصدر	والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت	بالشيب لون مفارق الشعر
أفني الحماة الغر ان عرضت	دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حبائل أمرهم بفتى	مثل النجوم حففن بالبدر
عالى نعيهم فقلت له	هلا أتيت بصيحة الحشر
لله درك من زعمت لنا	ان قد حوته حوادث الدهر
من للمنابر بعد مهلكهم	أو من يسد مكارم الفخر

فاذا ذكرتهم شكا ألما   قلبي لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما ينهنهم   الاعباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم   خير الحماة ليالى الذعر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ آخر مصباح للدولة الاموية

قامت الدولة العباسية ودخل فى حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذي وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس وسنأتى على وصفه بعد أن نبدى ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة

قامت هذه الدولة باسم الدين والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو اعادة الامر لآل محمد صلى الله عليه وسلم ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفها رجال النقد من المحدثين . كان ذلك السلاح يصل الى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها

اختار القوم لغرس دعوتهم بلادا كانت قبل مهدا للتشيع وحب آل البيت وهى الكوفة وخراسان فقديما قامت بلاد العراق بنصر على ابن أبي طالب وقامت لثأر بالحسين بن على وجاهدت في نصرة زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فلم تترك فرصة لذلك الا انتهزتها . ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقا لقوتهم وأذاعوا فى ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهليها لذلك . وكان الذين دخلوا فى الاسلام من الفرس أقرب

من غيرهم الى التأثر بآراء الشيعة لأنهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالارث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فاذا ألقى اليهم في التعاليم أن بنى أمية غصبوا أهل بيت النبي حقهم سهلت الى ذلك اجابتهم واعتقدوا ان بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ولهذا كان من الوصايا التي بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية (ان قدرت ألا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهي وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وانما لوحظت فيها الفوائد العاجلة

وفوق ما تقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على أكثر الامم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالى للعرب يتحكم العرب فى رقابهم وفى أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ . وتأثير هذا السبب فى الخاصة أكثر منه فى العامة . فهذا النزاع كان فى الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بنى أمية والعباس وحدهم

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذى احيته العصبية الجاهلية وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن اخمادها الا من طريق الدين وكان تأثيره قد ضعف اذ ذاك على ان الامراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم اذا اجتمعت الامة . وقد أثبت التاريخ ان جميع الاغبياء من الملوك

والامراء متى رأوا مصلحتهم فى ايقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا لذلك يزول بسرعة ملكهم

استعمل فى الوصول الى أحياء الدولة العباسية عسف شـديد جداً فقد كان من الوصايا التي القيت الى أبى مسلم (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبى مسلم كان يسوقه الى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتـل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل الى غرضه وسنبين ان هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبى مسلم أيضاً وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبرا فكان ستمائة ألف

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهـذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم وفى بدء اسلامهم وفى فتوحهم فقد كان الوفاء عندهم من ألزم مايجب عليهم ووصايا أمرائهم فى ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء الاغتام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن على بن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى فى الآداب السلطانية قال اعلم ان الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة

وصف المملكة الاسلامية حين استيلاء بنى العباس

كانت المملكة الاسـلامية تمتد من أقصى المشرق عنـد كاشغر الى السوس الاقصى على شاطىء بحر الظلمات وطولها على ماذكره أبو عبدالله

محمد بن احمد المقدسي المعروف بالبشارى فى كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضاً من شواطىء بحر قزوين الى أواخر بلاد النوبة وهى منقسمة الى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات وها نحن أولاء نذكر هذه الاقسام ومافيها من الولايات

(١) جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة

الأولى — الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها

الثانية — اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء

الثالثة — عمان وقصبتها صحار على شاطىء بحر الهند

الرابعة — هجر وقصبتها الاحساء

ويتبع اليمن من النواحى الاحقاف وبها من المدن حضرموت . ومهرة وبها من المدن الشحر . ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر . ويتبع الحجاز وادى القري

وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التي جعلها الله قياما للناس وهى قبلة المسلمين كافة فى صلاتهم — وبها طيبة وهى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعث النور الاسلامى

وأمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربى الا بصحار فان نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس الا ان اللغة عربية

ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر

والسنة فيما عداهما .

وبشمال هذا القسم بادية العرب وهى بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفية الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر الا الازرق ولا مدينة الا تيماء وفيها اثنا عشر طريقا توصل الى مكة منها تسع طولا يؤدين الى مكة وثلاث عرضا يؤدين الى الشام وبها طريق آخر لوادى القرى يؤدى اليها من البصرة ثم الى مصر وهذه الطرق هى (١) طريق مصر (٢) طريق الرملة (٣) طريق الشراة (٤) طريق تبوك (٥) طريق وُيَيْر (٦) طريق بطن السّر (٧) طريق الرحبة (٨) طريق هيت (٩) طريق الكوفة (١٠) طريق القادسية (١١) طريق واسط (١٢) طريق وادي القرى (١٣) طريق البصرة وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى فى كتابه أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ وما بعدها فراجعه

(٦) اقليم العراق وبه ست كور

الاولى — الكوفة وقصبتها الكوفة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن القادسية وعين التمر

الثانية — البصرة وقصبتها البصرة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن الابلة وعبادان

الثالثة — واسط وقصبتها واسط وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن فم الصلح

الرابعة — المدائن وقصبتها المدائن وهى مدينة كسروية وبها النهروان والدسكرة وجلولاء

الخامسة — حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان

السادسة — سامراء وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وعكبرا والانبار وهيت وتكريت

وهذا الاقليم كان يسمى فى القديم اقليم بابل وهكذا كان اسمه فى التقويم لأول عهد العباسيين ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا واثراها ورافداه الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا

وأمة هذا الاقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم ولذلك صارت لغة هذا الاقليم عربية وأصبح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الاقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأى اقليم آخر ماعدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الاقاليم الثلاثة قبل الاسلام وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام الا انهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم فلما جاء الاسلام اتسق لهم الملك بالاقليمين وكان الشام مهد الدولة الاموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية

ومساحة العراق طولا من البحر الى السن ١٢٥ فرسخ وعرضه من العذيب الى عقبة حلوان ٨٠ فرسخا فاذا كسرته كان ١٠٠٠٠ فرسخ

(٣) اقليم الجزيرة جزيرة أقور أوأثور أو اشور وهى مابين دجلة والفرات وبها ثلاثة كور

الاولى — ديار ربيعة وقصبتها الموصل ومن مدنها الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر

الثانية— ديار مضر وقصبتها الرقة وبها من المدن باجروان وحصن مسلمة وحران والرها

الثالثة— ديار بكر وقصبتها آمد وبهامن المدن ميافارقين وحصن كيفا

وقد نزل العرب قبل الاسلام بهذا الاقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره باسمائهم ولذلك يعتبر اقليما عربيا محضا لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم وينتهى هذا الاقليم الى حدود الروم وارمينية

(٤) اقليم الشام وبه ست كور

الاولى — قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها انطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش واسكندرونة ومعرة النعمان

الثانية — حمص وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية وانطرسوس

الثالثة— دمشق وقصبتها دمشق ومن مدنها بانياس وصيدا و بيروت واطرابلس

الرابعة — الاردن وقصبتها طبرية ومن مدنها صور وعكا وبيسان وأذرعات

الخامسة — فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وارسوف وقيسارية واريحا وعمان

السادسة — الشراة وقصبتها صُغَر ومن مدنها مآب وعمان وتبوك واذرح

وهذا الاقليم دخله العرب قبل الاسلام وملكوا به وزاحموا من

كان به من الامم القديمة

ولما جاء الاسلام كان مهـدا عظيما من مهاد الحضارة العربية الاسلامية ولغة أهله عربيه

وحدود هـذا الاقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التى على حدوده وحدود الجزيرة يقال له الثغور وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الاسلامية وفتح مايمكن فتحه من البلدان

وبهذا الاقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان ابن داود عليهما السلام حينما كان ملـكا على اسرائيـل واحتفل فى بنائه كثيرا ويعظمه جميع الاديان من موسوى وعيسوى ومحمدى

(٥) اقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم

الاولى — الجفار وقصبتها الفَرِما وبها من المـدن البقارة والورادة والعريش

الثانية — الحوف وقصبتها بلبيس وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرها

الثالثة — الريف وقصبتها العباسية وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الـكبيرة ودقهله

الرابعة — اسكندرية وقصبتها اسكندرية وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام

الخامسة — مقدونية وقصبتها الفسطاط ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس

السادسة — الصعيد وقصبتها اسوان وبه من المدن قوص واخميم والبلينا

والفيوم وغيرهما

السابعة — الواحات

وأمة هذا الاقليم كانت فى القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الامم التى ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها ولما جاء الاسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فاقاموا فى مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس فى عهد الدولة الاموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت هذه الامة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربى والدين الاسلامى وذلك بعد تملك الدولة العباسية

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطا لايزالون على دينهم

(٦) اقليم المغرب وهو ثمانى كور

الاولى — برقة وقصبتها برقة وبها من المدن رمادة واطرابلس

الثانية — افريقية وقصبتها القيروان وبها من المدن اسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بنى زَغَنايه ـ ومنستير

الثالثه — تاهرت وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرها

الرابعة — سجلماسة وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وإنصَلى وتازروت

الخامسة — فاس وقصبتها فاس وتسمى الكورة السوس الادنى وأما فاس فحدثة بعد عهد العباسيين ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة

وهوارة وسلا

السادسة — السوس الاقصى وقصبتها طرفانه ومن مدنها اغمات وماسة وغيرهما

السابعة — الأندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بنى أمية تتبع أميرافريقية وعليها وال من قبله. وهذا الاقليم كان يسكنه قبل الاسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر الا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربى بها الا بعد ذلك فى منتصف القرن الخامس فامة هذا الاقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربرى

(٧) اقليم المشرق وهو اقليم ذوجانبين الاول فى الشرق وهو ما كان شرق جيحون أوأموداريا ويسمى بما وراء النهر أوهيطل والثانى فى الغرب وهو ما كان غربى جيحون ويسمى خراسان

(١) ماوراء النهر قال البشارى هـذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيرا وفقها وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين وأشـد بأسا وأغلظ رقابا وأدوم جهادا وأسلم صدورا وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم

وبهذا القسم ست كور

الاولى — فرغانة وقصبتها اخسيكت ومن مدنها نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها

الثانية — اسبيجاب وقصبتها اسبيجاب ومن مدنها فاراب وترار وطراز

وبلاسكون وغيرها

الثالثة — الشاش وقصبتها بنكث ومن مدنها نكث وغيرها

الرابعة — أشروسنة وقصبتها بنجكث

الخامسة — الصغد وقصبتها سمرقند وهى مصر الاقليم

السادسة — بخارى وقصبتها بخارى ومن مدنها بيكند

وهذا الاقليم يمر به نهر جيحون العظيم وينشعب منه أنهار كثيرة ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن فالكور هى الخُتَّل وقصبتها هُلْبك ثم قُوَاديان ومدينتها نير — ثم خوارزم وهى على حافتى جيحون قصبتها العظمى شرقى النهر وهى كاث ولها قصبة أخرى غربية وهى الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زَمّ وفِرَبْر وآمل

(ب) خراسان وبها تسع كور وهى

الاولى — بلخ وقصبتها بلخ وبها ناحية طخارستان ومن مدنها ولوالج والطالقان

الثانية — غزنين وقصبتها غزنين وبها من المدن كابل

الثالثة — بُسْت وقصبتها بست. وبعض الناس يجمع غزنين الى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان

الرابعة — سجستان وقصبتها زَرَنْج

الخامسة — هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذغيس

السادسة — جُوزْجانان وقصبتها اليهودية

السابعة — مرو الشاهجان وهى القصبة وبها ناحية مرو الروز

الثامنة — نيسابور والقصبة ايرانشهر وبها من المدن بيهق وطوس ونسا

وابيورد

التاسعة — قهستان وقصبتها قاين

وهذا الاقليم من أعمر الاقاليم الاسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم أما أهل ماوراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الاسلام قد شملهم لاول عهد العباسيين . وقد دخل العرب هذا الاقليم ولم يتجاوزوا النهر الا فى عهد الدولة الاموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج . ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الاقليم وما يأتى بعد من الاقاليم الفارسية ولكن الدين الاسلامى شملهم فصار منهم أمة اسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الديني ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة

قال البشارى فى أحسن التقاسيم وألسنتهم مختلفة أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج وأهل طوس ونسا أحسن لسانا وفي كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه . ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا فى أواخر الكلم . ولسان بلخ أحسن الالسن الا أن لهم فيه كلمات تستقبح . ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثا بالكوه الى آخر ماقال

(٨) اقليم الديلم وبه خمس كور

الاولى — قومس وقصبتها الدامغان ومن مدنها سمنان وبسطام

الثانية — جرجان وقصبتها شهرستان ومن مدنها استراباذ وآبسكون

الثالثة — طبرستان وقصبتها آمل ومن مدنها سالوس وسارية

الرابعة — الديلمان وقصبتها بروان

الخامسة — الخزر وقصبتها اتل ومن مدنها بلغار وسمندر وبهذه الكورة نهر اتل

وهذا الاقليم لم يفش الاسلام به إلا فى عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيرا باللغة العربيه

(٩) اقليم الرحاب وهو ثلاث كور

الاولى — أران وقصبتها برذعة ومن مدنها تفليس وشروان وباب الابواب وملازكرد

الثانى — ارمباية وقصبتها ديبل ومن مدنها بدليس وخلاط وخُوَى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا

الثالث — اذربيجان وقصبتها اردبيل ومن مدنها تبريز

وهذا الاقليم به كثير من الاجناس والالسنة فيه الكرد والارمن والفرس وغيرهم . ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الاسلام بهذه البلاد الا فى عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة

(١٠) اقليم الجبال وبه ثلاث كور

الاولى — الرى وقصبتها الرى وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر

الثانية — همذان وهى القصبة ومصر الاقليم

الثالثة — اصفهان وقصبتها اليهودية

(١١) اقليم خوزستان ويعرف بالاهواز وبه سبع كور وهى

الاولى — السوس وهى تتاخم العراق والجبال

الثانية — جند يسابور وهى القصبة وكانت مصر الاقليم

الثالثه — تستر وهى القصبة وليس بالاقليم أجل منها

الرابعة — عسكر مُكرَم وهى القصبة وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء

الخامسة — الاهواز وبها من المدن تيري ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى

السادسة — الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرهما وقصبتها الدورق

السابعة — رامهرمز كورة تتاخم فارس وهى القصبة

ولهذا الاقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزى

(١٢) اقليم فارس وبه ست كور

الاولى — أرجان وهى القصبه

الثانيه — اردشير خرة وقصبتها سيراف وهى ممتدة على البحر

الثالثة — درابجرد وهى القصبة وكانت فى القديم مصر الاقليم

الرابعة — شيراز وقصبتها على اسمها وهى مصر الاقليم وبها من المدن البيضاء وفسا

الخامسة — سابور وقصبتها شهرستان ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوّز

السادسة — اصطخر وهى أوسع الكور وقصبتها على اسمها

وبهذا الاقليم عدد عظيم من الاكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها

(١٣) اقليم كرمان وبه خمس كور

الاولى — بردسير وقصبتها على اسمها ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند

الثانية — نرماسير وهى القصبة

الثالثة — السيرجان وقصبتها على اسمها وهى مصر الاقليم

الرابعة — بَمّ وهى تتاخم فارس

الخامسة — جيرفت وهى على البحر

(١٤) اقليم السند وبه خمس كور

الاولى — مُكْران وقصبتها بنّجبور

الثانية — طوران وقصبتها قصدار

الثالثة — السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل

الرابعة — ويْهند والفصبة باسمها

الخامسة — قنوج وهى القصبة

وبهذا الاقليم نهر مهران وهو يشبه النيل في الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح. فهذه أربعة عشر اقليما منها ستة عربية وثمانية أعجميه والمراد بكونها عربية تغلب اللسان العربى على أهلها والا فاصل اقليم العرب هو جزيرتهم فحسب

وتشتمل هذه الاقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبي منها جميعها الخراج الى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقى عن مصروفها وذلك شىء عظيم

هذا هو الملك الطويل العريض الذى ورثه العباسيون بهمة شيعتهم

من أهل خراسان . وليس عدد ولاة هـذه الدولة بعـدد الاقاليم التى بيناها بل كان بعض الاقاليم فيـه الواليان والثلاثة وبعضها قد يضم الى والى اقليم آخر حسب الاحوال

ففى بعض ايام بنى أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوال واحـد كما كان الحجاج بن يوسف فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات الى نهر جيحون وله ولاة من قبله على الاقاليم أو الكور التى تحت يده. وفى بعض الاحيان كانت تضم أفريقية كلها الى والى مصر ويرسـل من قبله واليًا على أفريقية

والجزيرة العربيـة لم تجتمع كلها لوال واحـد بل كان للحجاز وال ولليمن وال اما اليمامة وعمان فربما أضـيفتا الى والى العراق كما كان الحجاج بن يوسف

ونحن الآن شارعون فى تفصيل أحوال بنى العباس وتبيين مافعلوه فى هـذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بمـا كان عليه الحال فى الدولة الأموية

فصل فى ولاية العهد والبيعة

الأصل فى انتخاب الخليفة رضا الامة فمن ذلك يستمدقوته. هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم لا استنادا الى نص أو أمر من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وبعـد ان انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهـدوه على السمع والطاعة فيما فيه رضـا الله سبحانه كما انه عاهدهم على العمل فيهم

باحكام الدين من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيعة تشبيها له بفعل البائع والمشترى فانهما كانا يتصافحان بالأيدى عند اجراء عقد البيع

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم مايوجبه الدين وتحتمه الشريعة

وقد سن أبو بكر رضي الله عنه طريقة أخرى فى انتخاب الخليفة وهى أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة وقد وافق الجمهور الاسلامى على هذه الطريقة ورأى ان هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط وقد بينا فى تاريخ الدولة الأموية الاغلاط التى ارتكبها الأمويون فى ولاية العهد وانها كانت من الاسباب التى قضت عليهم

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الاسلوب الذى سار عليه الامويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الابناء والاخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتى

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه

محمد المهدى عز عليه أن يلى بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدى فأظهر عيسى اباء فساموه خطة لا يرضى بها الا الذليل حتى أظهر ذات نفسه فى شعر قاله وهو

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما اما صغار واما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

ويقال ان أبا جعفر سقاه شرابا يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبلّ من علته فقال فى ذلك أحد شعراء الدولة

أفلت من شربة الطبيب كما أفلت ظبي الصريم من قتره
من قانص ينفذ الفريص اذا ركّب سهم الحتوف فى وتره
دافع عنك المليك صولة ليـــث يريد الأسد فى ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة تعرف فى سمعه وفى بصره
أزعر قد طار عن مفارقه وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى الى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى ابن موسى فى الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور

لما ولى المهدى وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولى المهدى العهد ولده فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ماراه المهدى من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادى فهارون الرشيد

جاء الهادى فحاول ان يخلع أخاه هارون مع ان ابنه لم يبلغ الحلم فلم

يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قويا وقربت منية الهادى فأخرت النتائج السيئة ويقال انه مات مسموما

ولى الرشيد ففكر فى ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه الى أخيه محمد الأمين لانه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جليبة من بلاد فارس وكان ذلك العقد سنة ١٧٣ وسن الامين لا يتجاوز ثلاث السنوات وبعد عشر سنين رأى ان يضم المأمون ليكون ولى العهد بعد الأمين وذلك برأى جعفر بن يحيي البرمكى وسعيه فعقد له سنة ١٨٣ . ثم طلب عبد الملك بن صالح بن على من الرشيد ان يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى الى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر

أقول لغـمّة فى النفس منى	ودمع العين يطّرد اطرادا
خذى للهول عـدته بحزم	سنلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك ان بقيت رأيت أمرا	يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى	بقسمته الخليقة والبلادا
رأى مالو تعقبه بعلم	لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيـه	خـلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل	وأورث شمل لفتهم بدادا
والقح بينهـم حربا عوانا	وسلس لاجتنابهـم القيـادا

فويل للرعيـة عن قليـل ‏ ‏ لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غـير فان ‏ ‏ وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهـم بحور ‏ ‏ زواخر لا يرون لهـا نفـادا
فوزر بلائهـم أبدا عليه ‏ ‏ أغيا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشـيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد الله المأمون ابنـه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الامين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعـل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد واشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام وتقدم الى الحجبة فى حفظهما ومنع من أراد اخراجهما والذهاب بهما وقرئ الكتابان في داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون

وقد أكد الأمر فى العهدين تأكيدا بلغ الغاية من التشديد ولكن طبيعة الملك غلاّبة، ماعتم الامين ان استخلف حتي حاك فى صدره ماحاك فى صدر أسلافه وهو تقديم ابنه في ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فاباه طبعا لأن من ورائه قوة تدفع عنه وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التى كانت بين جند الامين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصرا شنيعا وانتهى الامر بخلع الامين ثم قتله وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة فى أكثر البلدان الاسلامية ولو كانت لخصومهم من آل

على قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين

لم يعهد المأمون الا لاخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد الا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لاولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وابراهيم المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما اسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والاهواز والسند ومكران واقطع ثانيهما خراسان ومايضاف اليها وطبرستان والرى وأرمينية واذربيجان وكور فارس وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين

حذا هذا الرجل حذو جده مع مارأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم في أخريات أيامه ان يخلع المنتصر أكبر الاخوة من ولاية العهد فمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث ان خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته فاما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة وأما المعتز فأبى وقال ان أردتم القتل فشأنكم ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الاخوين على نفسه بالخلع القضاة وبنى هاشم والقواد ووجوه الناس هذا مع ان المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح ان يلى العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يسمع بما استعجل به فمات من غير عهد

اختير للخلافة بعده احمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالى عن أولاد المتوكل خوفا أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم

اختل نظام الخلافة ببغداد فى ذلك الوقت اذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاؤا وبعد زمن يخلعونه ثم يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد الى ابن أخيه احمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد الى ابنه المكتفى ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل فى الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه وفى عهدهم لم يكن للخلفاء الا الاسم والتولية والعزل لبنى بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا فى عهدهم خلعوا الا احمد القادر بالله فانه طال حكمه وعهد من بعده الى ابنه القائم

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة الى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكو خان حفيد جنكيز خان موحد التتر وقتل المستعصم سنة ٦٥٦

وخلاصة القول أن ولاية العهد فى النصف الاول من خلافة بنى العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان . أما البيعة فكانت فى الصدر الاول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم زيدت عليها ايمان فى أواخر الدولة الأموية وزادت الايمان كثيراً فى أوائل عهد الدولة العباسية ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا

فى البيت الحرام وقد أثارت تلك الايمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية

أولاهما طلاق المكره لانه لايخفى ان من ضمن تلك الايمان يمين الطلاق ومن رأي فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لاهانات شديدة اصابته فى عهد المنصور ثانى خلفاء العباسيين وقد تغلب بسبب ذلك رأي فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع

الثانية اضافة الطلاق الى الزوجة التى لم تكن وقت اليمين فان البيعة لم تكن لتكتفى بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك الى من يتزوجهن الحالف الى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك اضافة العتق الى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة الى أجل معين أو غير معين . قال فقهاء العراق ان ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعى محمد بن ادريس وقد تغلب طبعا رأي فقهاء العراق

(١) السفاح

هو أبوالعباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي ولد سنة ١٠٤ بالحميمة وهى القرية التى كان أبوه وجده نازلين بها وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه ابراهيم ولما أحس ابراهيم باقتراب منيته عهد لاخيه أبى العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته الى الكوفة فسار اليها

وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الاول سنة ١٣٢ (٣٠ اكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لا يزال حيا ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ (٥ أغسطس سنة ٧٥٠) ومن هذا اليوم يبتدىء التاريخ خلافة أبى العباس ولم يزل خليفة الى أن توفى بمدينة الأنبار يوم الاحد لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ١٣٦ (٩ يونيه سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع الى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوما من لدن قتل مروان

وكان يعاصره فى مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) وكان يملك فرنسا فى عهده بابن لبراف من العائلة الثانية الكارلونجيانية

ابتدأ ملك أبى العباس بالكوفة ومنها انتقل الى الحيرة ثم الى الانبار ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفه لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبى طالب

الاحوال الداخلية

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فانه كان لا يزال فى الامة العربية قواد ضلعهم مع بنى أمية ولا يزال عندهم شئ من القوة فكانوا يثورون اما خوفا على أنفسهم من بنى العباس الذين أظهروا قسوة شديدة فى معاملة مغلوبيهم واما طمعاً فى اعادة تلك الدولة العربية التى كان لهم منها نصيب وافر فقضى أبو العباس أكثر حياته فى اخماد تلك الثورات التى كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على

يزيد بن هبيرة الذى كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التى لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بنى أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود فى احيائها

من الناس من اذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم ولعمرى ان ذلك لمن عزم الأمور وليس يكون الا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى ان سلطانه انما يتم اذا ائتلفت القلوب المتنافرة فاما من خاف عود القوة الى عدوه المغلوب أو كان يرى سلطانه لا يكون الا على فرقة رعيته فانه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الاحوال والاستعداد

انظروا الى مافعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الاحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه فى دار هجرته انهم فعلوا ذلك لكنه لما ظفر بهم فى السنة الثامنة من الهجرة قال لهم ما تظنون انى فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم كما قال يوسف الصديق لاخوته « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » أما بنو العباس فقد قسوا فى معاملة بنى أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلا فى الدول التى قامت على أثر دولة أخرى . فعل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن على بالشام ونهر أبى فُطْرس وسليمان بن على بالبصرة وداود بن على بالحجاز

فاما السفاح فقد روى أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الاغانى بسنده قال كان أبو العباس جالسا فى مجلسه على سريره وبنو هاشم دونه على الكراسى وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم وكانوا فى أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسى فدخل الحاجب فقال يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازي أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك قال هذا مولاى سديف يدخل فدخل فلما نظر الى أبى العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
بالصدور المقدمين قديما ... والرؤس القماقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ويا ... رأس منتهى كل راس
أنت مهدى هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
انزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم ... وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الارجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيدا ... وقتيلا بجانب المهراس
والامام الذى بحران أمسى ... رهن قبر ذى غربة وتناسى

فتغير لون أبى العباس واصابه زمع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان ابن عبد الملك الى رجل منهم فقال قتلنا والله العبد ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال يابنى الفواعل أرى قتلا كم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء

تتلذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافر كوبات فأهمدوا الا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فانه استجار بداود بن على فأجاره واستوهبه من السفاح

وهذا عمل شنيع جدا ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها وقد بلغ الضعف الانسانى حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جملة كان من أصولهم قتل أوليائهم لاقل ريبة أو شبهة . وهؤلاء أعداؤهم بالأمس ويخافون ان تكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده

لايغرنك ما ترى من أناس ... ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها امويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل . ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح

كيف بالعفو عنهم وقديما ... قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحي بن زيد ... يالها من مصيبة وترات
والامام الذي أصيب بحرا ... ن امام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل احمد لاعفا الذ ... ب لمروان غافر السيئات

وأما عبدالله بن على فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبى فُطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم أحد الا رضيع أو من هرب الى الأندلس فقتلهم ولما فرغ من قتلهم قال

بنى أمية قد أفنيت جمعكم ... فكيف لى منكم بالاول الماضى
يطيب النفس ان النار تجمعكم ... عوضتم من لظاها شر معتاض

منيتم لا أقال الله عثرتكم   بليث غاب الى الاعداء نهاض
ان كان غيظى لفوت منكم فلقد   منيت منكم بما ربى به راضى

ولم يكفه ذلك بل عمد الى قبور بنى أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان فلم يجدوا فيه الا خيطا مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كانه الرماد . ونبش قبر عبدالملك ابن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد فى القبر الا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فانه وجد صحيحا لم يبل منه الا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح

وأما سليمان بن على فانه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق

وأما داود بن على فقتل منهم بمكة والمدينة عددا وافرا وكان قد حضر الى مكة ومعه عدد من بنى هاشم وعدد من بنى أمية فأنشده ابراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها

فلا عفا الله عن مروان مظلمة   ولا أمية بئس المجلس البادى
كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم   بمثل ما أهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبنى من هاشم أحد   فيما أقول ولو أكثرت تعدادى

فشمر عن ساعده فى قتل الامويين حتى لم يبق منهم أحدا ارضاء لشهوة الانتقام التى تمكنت من قلوب بنى العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية

ومما قيل من الكلام الجيد فى رثاء هؤلاء التعساء ماقاله مولاهم عبد الله بن عمر العبلى

تقول امامة لما رأت ‏ نشوزي عن المضجع الانفس

وقلة نومي على مضجعي ‏ لدى هجمة الاعين النعّس

أبي ماعراك فقات الهمو ‏ م عرون أباك فلا تبلسى

لفقد الاحبة اذ نالها ‏ سهام من الحدث المنبئس

رمتها المنون بلا نكل ‏ ولا طائشات ولا نكس

باسهمها المتلفات النفو ‏ س متى ماتصب مهجة تخلس

فصرعهم فى نواحي البلا ‏ د ملقى بارض ولم يرمس

تقى أصيب وأثوابه ‏ من العيب والعار لم تدنس

وآخر قد دس فى حفرة ‏ وآخر قد طار لم يحسس

أذاعنّ ذكرهم لم ينم ‏ أبوك وأوحش فى المجلس

فذاك الذى غالنى فاعلمى ‏ ولا تسألى بامرىء متعس

أذلوا قناتى لمن رامها ‏ وقد الصقوا الرغم بالمعطس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سببا لهروب يعسوبهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت تناصى فى العلو والاحترام خلافة بنى العباس فى المشرق على صغر رقعتها

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بنى أمية سوء العذاب فاختفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان فلما رأى أنه لا يكون فى قبيلة ولا ناحية الا شهر أمره بها اعتزم أن يفدى حرمه بنفسه وصار الى سليمان بن على بالبصرة فقال له أصلح الله الأمير لفظتنى البلاد اليك ودلنى فضلك عليك فاما قتلتنى غانما

واما رددتنى سالما فقال ومن أنت ماأعرفك فانتسب له فقال سليمان مرحبا بك اقعد فتكلم آمنا غانما ماحاجتك فقال ان الحرم اللواتى أنت أقرب الناس اليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه فدمعت عينا سليمان ثم قال ياابن أخي يحقن الله دمك ويحفظك فى حرمك ويوفر عليك مالك والله لوأمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت فكن متواريا كظاهر وآمنا كخائف ولتأتنى رقاعك فكان عمرو يكتب اليه كما يكتب الرجل الى أبيه وعمه . ثم كتب سليمان الى السفاح (ياأمير المؤمنين انه قد وفد وافد من بنى أمية علينا وأنا انما قتلناهم على عقوقهم لاعلى أرحامهم فاننا يجمعنا واياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع فان رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل وان فعل فيجعل كتابا عاما الى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا واحسانه الينا) فاجابه الى ماسأل فكان هذا أول أمان بنى أميه بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلا وتشريدا واطمأن من جهتهم بال السفاح ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده من آل بيته فتحا لايمكنهم رتقه وهو وجود خلافة أخرى اسلامية بالجنوب الغربى من قارة أوربا

ولم تكن هذه الشدة فى المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أولياءهم منها شىء عظيم

لاننسى أن من أعظم الرجال أثرا في قيام هذه الدولة أباسلمة حفص ابن سليمان الذى كان يقال له وزير آل محمد . لما تم الامر لبنى العباس اتهموه بانه كان يريد تحويل الخلافة عنهم الى آل على بن أبى طالب وكانوا يريدون قتله لكنهم أحبوا مشاورة أبى مسلم فى ذلك فبعث السفاح أخاه

أبا جعفر الى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته فى ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبى سلمة فقال أكفيكموه ثم انتدب رجلا وأمره أن ينطلق الى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وتربص لابى سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة فى طريقه وأشاعوا ان الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عماله بفارس . هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذى الأثر الصالح فى دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة

وفى هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلا آخر لا يقل أثرا عن أبى سلمة وهو سليمان بن كثير الذى قال له فى حقه ابراهيم الامام (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه واذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى) فأحضره وقال له أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله قال نعم قال فانى قد اتهمتك . فقال أنشدك الله قال لا تناشدنى الله وأنت منطو على غش الامام فامر به فضرب عنقه . قتل الرجل بعد استقرار الامر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره

وعلى الجملة فان حياة أبى العباس انقضت كلها فى الخلاص من بنى أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون فى اخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة فى نكث العهود واغتيال المخالفين

وكان أكبر الرجال فى عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال (١) أبو مسلم الخراسانى بالمشرق (٢) أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق (٣) عبدالله بن على بالشام ومصر فهؤلاء الثلاثة كانوا

أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل مايجرى فيها من خير وشر الا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم اخلاص بعضهم لبعض فان أبا جعفر كان يحسد أبامسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعـة حتى طلب من السفاح أن يقتاله وأكثر فى ذلك وكاد السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة . وعبـدالله بن على كان يطمع أن تكون الخلافة له بعـد السفاح لما له من سابق الخدمة فى تأسيس الدولة وانه الذى قام بهزيمـة مروان وقطع دابر بنى أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر . فـكانت هذه الافـكار سببا فى حوادث جسام سيمر بكم ذكرها

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فـكتب اليه يستأذنه في الحج وأذن له . ولمـا كان السفاح لايميل الى تولية أبى مسلم موسم الحج أرسل الى أخيه أبي جعفر يأمره أن يستأذنه فى الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاه الموسم ولم يكن لابى مسـلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبى جعفر عليه وان كان قد قال شيئا من ذلك لبعض خاصته حيث قال أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا

لمـا وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح لولا أن ابا جعفر أرسـل الىّ يستأذننى فى الحج هذا العام لوليتك الموسم . وقد حج فى هـذا العام وهو سنة ١٣٦ الخلان ومرامن طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق مايزيد فى حسـد أبى جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به

كان معظم الولاة للسفاح من أعمامه و بني أعمامه . وكان فى عهده من الاصلاح الداخلى ضرب المنار والاميال من الـكوفة الى مكة وكانوا

يمسحون الارض بالذراع الهاشمية وعند تمـام الميل يكتبون عليه كلمـة واحـد ثم اثنين وهكـذا وقد جعلوا فى الطريق منارا به يأمن السارون الضلال في تلك الفيافى وهو عمل عظيم

وكانت قاعدة الخلافة في عهـد السفاح الـكوفة أولا ثم انتقل منها الى الحيرة ثم انتقل أخيرا الى الأنبار ونقل اليها دواوينه وهى التى مات فيها

ولاية العهد

فى سنة ١٣٦ عقد السفاح لاخيه أبى جعفر الخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن على وكتب العهد بذلك وصيره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه الى عيسى بن موسى . وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التى سبق بها فى عهد بنى أمية وهى تولية اثنين العهد وكانت من أسباب ماأصاب بنى أمية من الخلاف والفرقة

وفاة السفاح

أصيب السفاح بالجدرى وهو بالأنبار وتوفى بها فى ١٣ ذى الحجة سـنة ١٣٦ ودفن بالأنبار فى قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته

(٢) المنصور

هو أبو جعفر عبدالله بن محمد بن على وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة سنة ١٠١

ولما انتقل ابو العباس من الحميمة الى الكوفة كان فيمن معه. ولما أفضت الخلافة الى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الاشد فى تدبير الخلافة . وفى السنة التي توفى فيها أبو العباس عقد العهد لاخيه ابى جعفر وكان اذ ذاك أميرا على الحج . ثم توفى السفاح وأبو جعفر بالحجاز فاخذ البيعة له بالانبار ابن أخيه عسى بن موسى وكتب اليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول باحدى المنازل عائدا بعد انتهاء الحج . وقد تمت البيعة له فى اليوم الذى توفى فيه أخوه (٨ يونيه سنة ٧٥٤) واستمر خليفة الى أن توفى يوم الاحد سابع ذي الحجة سنة ١٥٨ (٨ اكتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية الا ستة أيام

وكان يعاصره فى الاندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام ابن عبدالملك (١٣٨ ـ ١٧٢)

ويعاصره فى فرنسا بابن لبراف ثم شرلمان (٧٦٨ — ٨١٤) ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس

الاحوال لعهد المنصور

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها . لم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الاموبين لانه لمن تبق لهم بقية يخاف منها وانما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات

الاولى منافسة عمه عبدالله بن على له فى الامر لما كان له من نباهة الذكر فى بنى العباس ولانه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل الذين أمره عليهم السفاح قبل وفاته

ليغزو بهم الروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لابي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له

الثانية من عظمة أبى مسلم الخراسانى مؤسس الدولة فانه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن فى حياة أخيه مالم يكن يرى معه لهم أمرا ولا حكما ومثل المنصور فى علو نفسه لا يرضيه أن يكون له فى الامر شريك ذو سطوة وسلطان مثل أبى مسلم على أن هناك أمرا آخر ربما كان يدور بخاطره وهو أن يستقل أبو مسلم بأمر خراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلا آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الامر لاهل فارس .

الثالثة وهى أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بنى عمه آل على ابن أبى طالب الذين لا يزال لهم فى قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب لما سيأتى بيانه فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالبا بالخلافة والذى كان يزيد هواجسه أنه عام حج فى حياة اخيه لم يحضره محمد ولا اخوه ابراهيم ابنا عبدالله مع من شهده من سائر بنى هاشم

كان المنصور يجمع الى الجرأة وبعد الهمة المكر والدهاء فعزم ان يضرب اعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعا

عبدالله بن على

أرسل عيسى بن موسى الى عبد الله بن على ببيعة المنصور وعبد الله غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران . علم

بذلك المنصور وقد نزل الانبار وجمع بها خزائنه ودواوينه فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله فسار أبو مسلم نحو عبد الله بحران وقد جمع اليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مؤلفا من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان اذا رأوا أبا مسلم مطلا فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفا أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغا فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عددا كبيرا فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار مالا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم . ومما دل على قلة حزمه انه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد فى الدولة العباسية فأراد ان يستريح منه ولكنه لم يجرأ ان يقتله في المعسكر خوفا من تغير الجند فكتب له كتابا ووجهه الى حلب وعليها زفر بن عاصم وفى الكتاب اذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه ولما كان حميد ممن لاتغرهم هذه الخدعة فك الكتاب فى الطريق وقرأه ولما علم مافيه دعا أناسا من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى اليهم أمره وشاورهم وقال من أراد منكم ان ينجو ويهرب فليسر معى فانى أريد أن آخذ طريق العراق ومن لم يرد منكم ان يحمل نفسه على السير فلا يفشين سرى وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائدا محنكا مثل حميد

ترك عبد الله مدينة حران وأقبل الى نصيبين فاتخذها معسكرا وحصنها فأقبل اليه ابو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره فأراد ان يحتل موقع عبد الله

لحصانته فكتب اليه انى لم أومر بقتالك ولم أوجه له ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام وانما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطلى على عبد الله لانه يعرف مكايد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له كيف نقيم معك وهذا يأتى بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا ولكنا نخرج الى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله ان قاتلنا فقال لهم عبد الله والله ما يريد الشام وما وجه الا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم فلم تطب أنفسهم وأبوا الا المسير الى الشام . فارتحل عبد الله متوجها الى الشام وحينئذ تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن على ولما بلغ ذلك عبد الله علم ان الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبى مسلم

كان أهل الشام أكثر فرسانا وأكمل عدة ولكن المركز الحصين الذى احتله أبو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة أشهر والحرب بينهما سجال الا ان القوة راجحة في معسكر أهل الشام حتى اذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الاخرة سنة ١٣٧ كانت بينهما الموقعة الفاصلة وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربى فاكتسب الظفر وذلك انه أرسل الى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها الى الميسرة وليكن فى الميمنة حماة أصحابك فلما رأى ذلك عبد الله أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبى مسلم وضم أكثر جنودها الى الميمنة بازاء ميسرة أبى مسلم ثم أرسل أبو مسلم الي الحسن ان مر أهل القلب فليحملوا مع من بقى فى الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فحطموها وجال أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة

وهنا فعل عبد الله بن على فعلا لا يليق بشرف بنى هاشم وعلو اسمهم فى ميادين القتال فانهم كانوا يرون الفرار عارا لا تحتمله أنفسهم الأبية فاما ظفر أو قتل ولكن عبد الله قال لأحد قواده ما ترى فقال أرى ان تصبر وتقاتل حتى تموت فان الفرار قبيح بمثلك وقبل عبت على مروان فقلت قبح الله مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأي وفر الى العراق تاركا معسكره فاحتواه أبو مسلم فآمن الناس ولم يقتل أحدا وأمر بالكف عنهم

أما عبد الله فانه سار الى البصرة وكان أميرها اخاه سليمان بن على فآواه وأقام عنده مدة متواريا ولما علم المنصور بذلك أرسل الى سليمان يأمره بأشخاص عبد الله بن على اليه وأعطاه من الامان لعبد الله مارضيه ووثق به فخرج به سليمان حتى قدم به الى المنصور سنة ١٣٩ فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم الى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد الله فى محبسه حتى مات سنة ١٤٧

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذى كان على يده أكبر عمل فى تأسيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفظائع فى اهلاك البقايا من بنى أمية ولا نحجم عن اظهار نفورنا من هذه الطرق التى يلجأ اليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين الى النتائج الخبيثة التى تجاب الشر على أمتهم فان المنصور لم يعبأ بتلك المواثيق التى أعطاها لعبد الله واستخف بها كما استخف بأمان ابن هبيرة قبل ذلك كما انا لا نحجم عن أن نقول ان عبد الله ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال فان طلاب العظائم اذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنية

لانفسهم ويموتون دون العار الذي يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم

أبو مسلم

استراح المنصور من عبد الله بن علي على يد أبي مسلم فوجه الهمة الى الراحة من هدا العدو الثانى الذى لا يطمئن على ملكه وهو حى لانه أصبح صاحب الشوكة والسلطان فى الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك ، والذي زاد الامر عنده أنه قد ألقى اليه أن أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزئ بها اذا وردت اليه فصمم على الفتك بابى مسلم

حصلت حادثة أوقعت الريبة فى قلب أبى مسلم وذلك أنه بعد تمام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى المغانم التى غنمت من عبدالله فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاديقتل الرسول لولا أن قيل له ما ذنبه انما هو رسول فخلى سبيله ولم يمكنه مما جاء له وقال أكون أمينا على الدماء غير أمين على الاموال ، فعاد الرسول وأخبر المنصور ، لم يكن يحب أن تدخل أبا مسلم أقل ريبة منه لخوفه أن يمضى الى خراسان وبذلك لا يتمكن منه الا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب الى أبى مسلم (انى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فان أحب لقاءك أتيته من قريب) فلما جاء الكتاب أبا مسلم غضب وقال هو يولينى الشام ومصر وخراسان لى وصمم على المضى الى خراسان واقبل من الجزيرة مجمعا على الخلاف مريدا خراسان. رأى المنصور انه لم يبق الا استعمال الدهاء لايقاع أبى مسلم فى فخ ينصبه له

حتي لا يثير عليه حربا شعواء لا تعلم نتيجتها فتوجه الى المدائن وكتب الى أبى مسلم بالمصير اليه فكتب اليه أبو مسلم (انه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو الا أمكنه الله منه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ان أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك فان أبيت الا ان تعطى نفسك ارادتها نقضت ما ابرمت من عهدك ضنا بنفسى) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالا فى قلب المنصور لانه كتاب رجل مدلّ بما له من القوة حتي وضع نفسه قرنا للخليفة ادلالا بمركزه وسابقته فى اقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب اليه المنصور (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فانما راحتهم فى انتثار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من اعباء هذا الأمر على ما انت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع ولا طاعة وحمل اليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن اليها ان اصغيت اليها واسأل الله ان يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك)

ارسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسي ووجه معه ابا حميد المروزى وامره ان يكلم ابا مسلم بألين ما يكلم به احدا وان يمنيه فان أبى قال له — يقول لك امير المؤمنين لست للعباس وانا برىء من محمد ان مضيت مشاقا

ولم تأتني ان وكلت امرك الى احد سواى وان لم أل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى اقتلك او اموت قبل ذلك

سار ابو حميد حتى ورد على ابى مسلم فكلمه كلاما رقيقا فيه نصيحة وتذكير بحقوق الامام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار ابو مسلم مخلصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور لانه لم يعد يأمنه بعد ان وقع فى نفسه ماوقع فقال لأبى حميد ارجع الى صاحبك فليس من رأيى ان آتيه وحينئذ بلغه ابو حميد الرسالة الاخيرة فوجم لها ابو مسلم لأن هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن اذا هم وصلوا الى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع ويلين والذى زاده حيرة وارتبا كا مافعله المنصور من التدبير العظيم الذى يضعف آمال ابى مسلم من خراسان وجنودها ذلك انه كتب الى خليفة ابى مسلم على جند خراسان يعطيه امارة خراسان ماعاش ولا شىء اكبر من ذلك يقطع صلته بأبى مسلم فكتب اليه حين بلغته الاخبار بقرب مجيئه الى خراسان (انا لم نخرج لمعصية خلفاء الله واهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فلا تخالفن امامك ولا ترجعن الا باذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجىء رسالة المنصور فزاده ذلك رعبا ولم يجد بدا من ان يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور . كان المنصور مصمما على قتل ابى مسلم ولكن اجتهد ان يكون الرجل آمنا لايحس بشىء من الجفاء فلما قارب ابو مسلم المدائن امر الناس وبنى هاشم فتلقوه حتى اذا دخل على المنصور سلم عليه سلاما لا يشوبه شىء مخيف وامره ان ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة . ولما جاء

الغد امر عثمان به نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من الحرس وامرهم ان يكونوا خلف الرواق فاذا هو صفق خرجوا فقتلوا ابا مسلم . ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه . ومن تمام تدبيره انه شرع يسأله عن نصلين اصابهما فى متاع عبد الله بن على فقال هذا احدهما للذى هو معه فقال المنصور ارنيه فانتضاه وناوله اياه فهزه ابو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وانما فعل ذلك ليأمن على نفسه ان يفتك به ابو مسلم اذا احس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء اخذها عليه واخيرا سأله عن سبب قصده خراسان مراغما فقال له دع هذا فما اصبحت اخاف احدا الا الله فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الاربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهبت نفسه . ثم اراد ان يفرق الجمع الذى اقبل مع ابى مسلم فأعطاهم جوائز ألهتهم عن التفكير فى الخلاف ثم ارسل الى القواد الذين فى جيش ابى مسلم جوائز سنية وارضى جميع الجند حتى رضوا

وبقتل ابى مسلم عرف المنصور انه ابتدأ سلطانه الحقيقى الذي لايشارك فيه ولم يأس على ابى مسلم لانه رأى امام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه

من الضروري ان ننبه الافكار الى ان نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم فى الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبى مسلم وسبب ذلك ان هؤلاء القواد يكونون فى بادئ الامر ذوي الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لانهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فاذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم

لم يكن لنفوذهم فى الدولة حد يقفون عنده لانهم يرون ان الامر انما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذي بذلوه فاذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكى الفؤاد لم يسعه ان يحمل كل هذا واذا ألجأته الضرورة حمله على مضض واذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها . وليس من طبيعة القائد الفاتح ان يضرب صفحا عما له من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت ادراكها

ومع مابدا من أبي مسلم من العسف الشديد لانبخسه حقه ولا نتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس الا انه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة فى نظره كافية لازهاق نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء ولكنا لانصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبي مسلم فى قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الامام لى من اتهمته فاقتله فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجبا أفلا يكون فيما صنعه مع أبي جعفر مايدعو الى الريبة فيه واستحقاقه القتل فهو اذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيرا مانفذه ولذا لايكون قتله محلا للنظر والاستغراب (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)

محمد بن عبد الله وبنو الحسن بن على

قدمنا ان المتشيعين لآل البيت كانوا فرقا ثلاثة فرقة ترى ان امام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء

امامية وكانوا يتولون الى وقت المنصور جعفر بن محمد بن على بن الحسين المعروف بالصادق . وفرقة ترى ان امام المسلمين يكون من بنى فاطمة الا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء امامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا الى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب ان تكون فى الامام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن على وابنه يحيي . وفرقة ترى امامة أهل البيت من غير تقييد ببنى فاطمة وهم الذين نصروا بنى العباس وكانت الفرقتان الاوليان منتشرتين فى كثير من الاقاليم العربية والاعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لأنها كانت الى الرضا من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بنى أمية من قبلهم وأعظمهم في ذلك رجلان أحدهما جعفر الصادق امام الامامية ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالخلود الى السكينة لانه لم ير فرصة معقولة وثانيهما محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب وهذا كان أطمع فى الأمر لما زعموه من ان بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها فى أواخر عهد بنى أمية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لا لأبى العباس ولا لأبى جعفر ولما حج أبو جعفر فى عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعا الا محمد بن عبد الله وأخاه ابراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبيد الله الحارثى أمير المدينة مايهمك من أمرهما انا آتيك بهما فضمنه اياهما وأبقاه عاملا على المدينة . ثم انه دعا بنى هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه

فيسأله عن محمد فيقول ياأمير المؤمنين قد علم انك قد عرفته يطلب هذا الشان قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة الا حسن بن زيد بن حسن بن على فانه أخبره خبره وقال والله ما آمن وثوبه عليك فرَّ رأيك فأيقظ بقوله من لا ينام

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل لتعرف الاخبار عن محمد واستخراج ماعند أبيه عبد الله بن حسن من أخباره ولما علم ان عبد الله يعرف نية ابنه حج سنة ١٤٠ وسأل عبد الله عن ابنيه فأنكر ان يكون عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقا فى الحصول على محمد وابراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسري وبسط يده فى النفقة فى طلبه فأنفق كثيرا من المال فى هذه السبيل وبحث بحثا كثيراً فى المدينة وخارجها فلم يصل الى نتيجة فعزله المنصور وأشير عليه ان يولى المدينة رجلا من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل على من العداوة سائقا له الى البحث الشديد والجد فى الامر فلم يرق هذا فى عيني المنصور وقال أعاهد الله الا أثأر من أهل بيتي بعدوى وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكا من صعاليك العرب فولى على المدينة رباح بن عثمان بن حيان المرى فورد المدينة فى شهر رمضان سنة ١٤٤ وهو عازم على عسف الاعراب الذين يستخفى محمد بن عبد الله عندهم فكان أول شيء فعله ان استهان بمحمد بن خالد القسرى الذي كان قبله واليا وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبد الله طلبا حتى لقى شدائد ما كان يراها فى

عهد أسلافه من ولاة المدينة فقال في ذلك

منخرق السربال يشكو الوجي | تنكبه أطراف مرو حداد
شرده الخوف وأزرى به | كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان في الموت له راحة | والموت حتم في رقاب العباد

وزاد المنصور في ارهاق محمد فأمر بأخذ بني الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلا وحبسهم بالمدينة ولما علم محمد بذلك جاء الى أمه هند وقال لها انى قد حملت أبي وعمومتي مالا طاقة لهم به ولقد هممت ان أضع يدى فى أيديهم فعسى ان يخلى عنهم . فتنكرت هند ولبست اطمارا ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها عبدالله أبو محمد أثبتها فنهض اليها فأخبرته بما قال محمد فقال كلا بل نصبر فوالله انى لأرجو ان يفتح الله به خيرا قولى له فليدع الى أمره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله . فانصرفت وتم محمد على اختفائه

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة ١٤٤ فلما لم يجد عندهم مايبرد غلته من جهة محمد وأخيه ابراهيم أمر بحملهم الى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بنى حسن بن حسن لأمهم أمهم جميعا فاطمة بنت حسين ابن على وكان ابراهيم بن عبد الله صهره على ابنته حملوا مقيدين بالاغلال والاثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقى الكوفة مما يلى بغداد على نهر الفرات . وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع مالا طاقة للانسان على تسطيره وكان عظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان . وكانت نتيجة هذا

الحبس الشديد ان مات أكثرهم فى الحبس مع ان بنى العباس ملؤا الدنيا تهويلا ورياء بأنهم خرجوا انتقاما من قتلة الحسين بن على وزيد بن حسن ويحيي بن زيد وهؤلاء انما قتلوا فى ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحدا من آل على بالشكل الفظيع الذى ذهب به بنو حسن فى عهد بنى عمهم من آل العباس

كانت نتيجة هذا الاحراج وهذه الفظائع ان عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمير المدينة فأحب ان يعد عدته لذلك فموجل . دخل محمد المدينة ومعه ٢٥٠ رجل فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحا وكان خروجه في أول يوم من رجب سنة ١٤٥ وبعد ان استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال (أيها الناس انه كان من أمرنا وأمر الطاغية عدو الله أبي جعفر مالم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندالله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وانما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وان أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الاولين والانصار المواسين اللهم انهم قد أحلوا حرامك وحرموا احلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من آمنت اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا أيها الناس اني والله ماخرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكنى اخترتكم لنفسى والله ماجئت هذه وفى الارض مصر يعبد الله فيه الا وقد أخذت لى فيه البيعة)

وكان الذى أوقع محمدا فى هذا الغلط وجعله يفهم ان دعوته عمت البقاع ان المنصور كان يكتب لمحمد عن ألسن قواده يدعونه الى الظهور

ويخبرونه انهم معه فكان محمد يقول لو التقينا مال الى القواد كلهم فهذا الذى جعله يظن هذا الظن .

ومما زاده خطأ في قدر قوة نفسه انه كان متفقا مع أخيه ابراهيم ان يخرج بالبصرة فى اليوم الذى يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أبا جعفر فيفت ذلك فى عضده ولكن ابراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو ان محمدا سبق الميعاد والنتيجة انهما لم يخرجا معا . واعظم خطر على الانسان مايصيبه من قبل فهمه فى نفسه فانه اذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ماليس لها كان حريا بالفشل والخيبة

على انه فضلا عن ذلك كله جعل نفسه محصورا بالمدينة وهى ليست بمركز حربى يمكن القائد ان يبقى فيه على الدفاع طويلا وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار الا قليلا فلم يكن محمد موفقا فى تدبيره مع ما كان يتحلى به من الخصال التى كانت ترفعه في أعين اهل المدينة على ابى جعفر فانهم كانوا لا يرون فيه غشم أبى جعفر ولا ميله للعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ماوجد الى ذلك سبيلا ويحب الخير للناس وكان لذلك يلقب عندهم بالنفس الزكية وبالمهدى . ولما استفتى مالك امام دار الهجرة فى الخروج مع محمد وقيل له ان في أعناقنا بيعة للمنصور قال انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ولكن هذا كله لا يفيد مع ضعف المركز الطبيعى ولذا قال له محمد بن خالد القسرى لما ظهر انك قد خرجت فى هذا البلد والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات اهله جوعا وعطشا فانهض معى فانما هى عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف فأبى عليه ذلك .

ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان خرج محمد

فقال أين قال بالمدينة فقال الربيع هلك والله خرج فى غير عدد ولا رجال

كان المنصور حين بلوغه الخبر مشتغلا يبناء بغداد فسار الى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لان اهلها شيعة لآل على ويخاف منهم ان يخرجوا لمساعدة محمد فاقفل ابوابها حتى لايخرج منها احد ولا يدخلها احد . ثم احب ان يراسل محمدا قبل الحرب فكتب اليه كتابا هذه نسخته (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبدالله امير المؤمنين الى محمد بن عبد الله اما بعد فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم . ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ان تبت من قبل ان أقدر عليك ان أؤمنك على نفسك وولدك واخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وان أعطيك ألف ألف درهم وان أنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ماشئت من الحاجات وان اطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع احدا منكم بمكروه فان شئت ان تتوثق لنفسك فوجه الىّ من يأخذ لك من الميثاق والعهد والامان ماأحببت والسلام)

فكتب اليه محمد بن عبد الله (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدى امير المؤمنين الى عبد الله بن محمد اما بعد طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح

أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى وقد تعلم ان الحق حقنا وانكم انما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا وان أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت انه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وانا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة فى الاسلام من بينكم فأنا أوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا لم تلدنى العجم ولم تعرق فىّ أمهات الاولاد وان الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه أقدمهم اسلاما وأوسعهم علما وأكثرهم جهادا على بن أبى طالب ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى الى القبلة ومن بناته افضلهن وسيدة نساء اهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ثم قد علمت ان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد الحسن مرتين وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل جدىّ الحسن والحسين فما زال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون اهل النار عذابا فأنا ابن خير الاخيار وابن خير الاشرار وابن خير اهل الجنة وابن خير اهل النار ولك عهد الله ان دخلت فى بيعتي ان أؤمنك على نفسك وولدك وكل ما اصبته الا حدا من حدود الله او حقا لمسلم او معاهد

فقد علمت مايلزمك فى ذلك فأنا أوفى بالعهد منك واحرى لقبول الامان فاما امانك الذى عرضت علىّ فاى الأمانات هو أأمان ابن هبيرة ام امان عمك عبد الله بن علي ام امان ابى مسلم والسلام

فكتب اليه ابو جعفر (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله امير المؤمنين الى محمد بن عبد الله اما بعد فقد اتانى كتابك وبلغنى كلامك فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والاولياء ولقد جعل العم ابا وبدا به على الوالد الادنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسمعيل واسحاق ويعقوب . ولقد علمت ان الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته اربعة فاجابه اثنان احدهما ابى وكفر به اثنان احدهما ابوك . فاما ماذكرت من النساء وقراباتهن فلو اعطين على قرب الانساب وحق الاحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فاما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب فان الله لم يهد من ولدها أحدا الى الاسلام ولو فعل لكان عبدالله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والاولى وأسعدهم بدخول الجنة غدا ولكن الله أبى ذلك فقال انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . فاما ماذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب وفاطمة أم الحسن وان هاشما ولد عليا مرتين وان عبد المطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم الا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب الا مرة واحدة وأما ماذكرت من انك ابن رسول الله فان الله عزوجل أبى ذلك فقال ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول

الله وخاتم النبيين ولكنكم بنو ابنته وانها القرابة قريبة غير أنها لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فاخرجها تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا فابى الناس الا تقديم الشيخين ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فامر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان فى أصحاب الشورى فكل دفعه عنها بايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعدا الى بيعته فاغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك الى ابيك الحسن فسامه الى معاويه بخرق ودراهم وأسلم فى يديه شيعته وخرج الى المدينة فدفع الامر الى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فان كان لكم شيء فقد بعتموه . فاما قولك ان الله اختارلك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . وأما قولك انك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الاولاد وانك أوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم أما وابا فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا فخرت على ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غدا وما ولد فيكم مولود بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهو لام ولد ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر وهو خير منك . ولقد علمت ان جدك عليا حكم حكمين وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما

حكم به فاجتمعا على خلعه . ثم خرج عمك الحسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الاقتاب بغير أوطية كالسبي المجلوب الى الشام . ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم اذلم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد ان كانوا يلعنون أباك فى ادبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنالما ذكرنا من فضل على انا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلما منهم وابتلى ابوك بالدماء . ولقد علمت ان مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الاعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون اخوته فنازعنا فيها أبوك الى عمر فقضى لنا عمر . وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا الا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينلها الا ولده فاجتمع للعباس انه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث . ولولا أن العباس أخرج الى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم ثم فدى عقيلا يوم بدر فقدمناكم فى الكفر وفدينا كم من الاسر وورثنا دونكم خاتم الانبياء وحزنا شرف الآباء وادركنا من ثأركم ماعجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

بعد هذه المكاتبة التى لم تجد الا اظهار العيوب لم يكن الا الجد فى

الامر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد اهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمى الاخبار عليهم . واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسى الذى كان السفاح جعله ولى عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور شاور عمومتك فقال امض أيها الرجل فوالله مايراد غيرى وغيرك وما هو الا أن تشخص او أشخص وزود عيسى بوصية يحمد عليها اذ قال ياعيسى انى بعثتك الى مابين هذين (وأشار الى جنبيه) فان ظفرت بالرجل فشم سيفك وان تغيب فضمنهم اياه حتى يأتوك به فانهم يعرفون مذاهبه . وجهز المنصور الجيش أحسن جهاز فلما وصل الى فيد بعث الى رجال من أهل المدينة فى خرق من الحرير فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم الى عيسى ومنهم ناس من آل على

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة اما عيسى فانه أقبل بجنوده حتى وصل الى المدينة وهناك ارسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى اذا اراد محمد الهرب اليها لم يجد طريقا وكان نزول عيسى على المدينة فى ١٢ رمضان سنة ١٤٥ . وقبل اللقاء قدم دعوة محمد الى الخضوع فلم يجبه ثم دارت الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبدالله ظهورا عظيما ولكن عدوه كان عظيما فلم يلبث أن قتل وظهرت الاعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوى فسلم المحاربون وكان قتل محمد لاربع عشرة ليلة خلت من رمضان .

وعند ذلك أرسل عيسى الى أبى جعفر ببشارة الفتح وبرأس محمد ابن عبد الله وأمن المدينة وأهلها وفى ١٩ رمضان شخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بنى حسن كلها .

وكان مكث محمد منذ قام الى أن قتل شهرين و١٧ يوما

ابراهيم بن عبدالله

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سرا الى أخيه فبايعه كثير من أهلها وأجابه فتيان من العرب وكان ابو جعفر يظن انه يخرج بها فانه لما بلغه خروج محمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهرانى وكان صاحب رأى فقال حصّن البصرة لأن محمدا ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبي طالب فلم يبق الا البصرة فاهتم بارسال الجنود واقامة المسالح بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة ابراهيم

ظهر ابراهيم بالبصرة واستولى عليها وعلى ماقرب منها والاهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار

أرسل أبو جعفر الى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب ابراهيم فجاء مسرعا وسار نحو البصرة وخرج ابراهيم لملاقاته فالتقيا عند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى فقتل ابراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥

وكان محمد وأخوه ابراهيم من أحسن الطالبيين خلقا وأنظفهم تاريخا لم يعرف عنهما مايشينهما فى معاملة الناس وفى صدق العزيمة الا أن الحظ خانهما

وللمنصور خطبة نفيسة يبرر بها عمله مع بنى الحسن امام شيعته من

أهل خراسان وغيرهم قال فيها :

ياأهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وان أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والذي لا اله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام علي بن ابي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الاموال فقبلها فدس اليه معاوية اني أجعلك ولي عهدي من بعدي فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه فاقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة اهل الشقاق والنفاق والاغراق والفتن اهل هذه المدرة السوداء (وأشار الى الكوفة) فوالله ماهي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسالمها فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه . ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه أظهروه وأسلموه وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال انا نجد في بعض علمنا ان بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف ان تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر اهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف

ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم اهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار الينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فقر الحق مقره واظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الامور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا عليّ وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

انى والله ياأهل خراسان ماأتيت من هذا الامر ماأتيت بجهالة بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يافلان قم يافلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا اليهم تلك الاموال فوالله مابقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير الا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون انى أتيت ذلك على غير يقين) ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية (وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب

وقد بقيت بقايا بنى الحسن مشردين فى عهد أبى جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس ومن غريب مارأيت من رواية محمد بن جرير الطبرى أن المهدى آلت اليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجه ريطة فاذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفى آذانهم

رقاع فيها أنسابهم واذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان اه هذه كبرى الحوادث التي حصلت لعهد المنصور

وكانت الطريقة التي تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بني أمية فكان فى كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هى اقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالى تسند اليه أحيانا هذه الأمور الخمسة فيكون أمام القوم وقائد الجند وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها وأحيانا يكون اليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضى من قبل الخليفة رأساً

ولم تكن الولايات متعينة الحدد بل تارة يضم ولايتان الى وال واحد وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة فى مقدرة الوالى فكان ابو مسلم مثلا والياً لخراسان كلها وبلاد الرى والجبل وعليها ولاة من قبله . وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من اهل بيته وممن اصطنعهم من العرب والموالى ولم يكونوا يحبون ان تطول مدة الوالى فى ولاية ولا سيما فى الاطراف كمصر وخراسان خوفا ان تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ذلك حوادث فى خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته

وجميع امور الولايات ترجع الى الخليفة الذى هو صاحب الأمر المطاع ومعينوه هم

(أولا) الوزير والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم فى عهد الدولة

الاموية وأول من سمي بها لعهد أبي العباس السفاح ابو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد واصله مولى لبني الحرث بن كعب وكان سمحاً كريما مطعاما كثير البذل مشغوفا بالتنوق فى السلاح والدواب فصيحا عالما بالاخبار والاشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة وقد قدمنا خبر اتهامه بالميل لآل على ومقتله بسبب ذلك فقال شاعر فى رثائه

ان الوزير وزير آل محمد ... اودى فمن يشناك كان وزيرا

ان السلامة قد تبين وربما ... كان السرور بما كرهت جديرا

فاستوزر السفاح بعده ابا الجهم الى ان مات السفاح وولى المنصور فكان فى نفسه منه اشياء فيقال انه سمه والصحيح ان السفاح استوزر بعد ابى سلمة خالد بن برمك جد البرامكة الذين ظهر مجدهم فى عهد هرون الرشيد وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين اقاموا دولتها وهو من ابناء رؤساء الفرس الذين كانت اليهم بيوت العبادة قبل شيوع الاسلام بالبلاد الفارسية وهو اول من اعتنق الاسلام من اهل بيته وكان خالد فاضلا كريما حازما يقظا استوزره السفاح ويقال انه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيرا مما جرى على ابي سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة فى ايامه ابهة ولا كبير قدر لما كان موصوفا به من الاستبداد بأموره ابقى فى وزارته خالدا مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى

أبا أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلد الموريانى الخوزى

وموريان قرية من قرى الاهواز كان فى اواخر دولة بنى امية كاتبا لسليمان بن حبيب بن المهلب بن ابى صفرة وكان المنصور فى ذاك الزمن ينوب عن سليمان هذا فى بعض كور فارس فاتهمه بانه احتجز مالا لنفسه فضربه بالسياط ضربا شديدا وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه ابو ايوب فاعتدها المنصور يدا له فضلا عما عرف به ابو ايوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان مع هذا يخشى المنصور جدا وترعد فرائصه اذا دعاه اليه روى ابن خلكان ان خالد بن يزيد الارقط قال بينا ابو ايوب جالس فى امره ونهيه اتاه رسول المنصور فتغير لونه فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلا لذلك وقال زعموا ان البازي قال للديك مافى الارض حيوان اقل وفاء منك قال وكيف ذلك قال اخذك اهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على ايديهم وأطعموك فى اكفهم ونشأت بينهم حتى اذا كبرت صرت لا يدنو منك احد الا طرت ههنا وههنا وصوتت واخذت أنا مسنا من الجبال فعلمونى وألفونى ثم يخلى عنى فآخذ صيدا فى الهواء وأجيء به الى صاحبي فقال له الديك انك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم المعدة للشى مثل الذى رأيت من الديوك لكنت انفر منى ولكنكم انتم لو علمتم ما اعلم لم تعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى

وقد كان ما خافه أبو ايوب فان المنصور غضب عليه سنة ١٥٣ وعذبه واخذ امواله وحبس اخاه وبنى اخيه سعيدا ومسعودا ومخلدا ومحمدا وطالبهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال فى هذه النكبة أحد

شعراء العصر

قد وجدنا الملوك تحسد من أعـ ... طته طوعا أزمة التدبير

فاذا ما رأوا له النهى والامـ ... ـر أتوه من بأسهم بنكير

شرب الكأس بعد حفص سليـ ... ـمان ودارت عليه كف المدير

ونجا خالد بن برمك منها ... اذ دعوه من بعدها بالامير

أسوأ العالمين حالا لديهم ... من تسمى بكاتب أو وزير

وهذه الابيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم اذ ذاك فى نكبات الوزراء التى لم تكن قليلة بل قلما نجد فى وزراء بنى العباس من سلم منها . ويقال ان سبب نكبة ابى ايوب سعى ابان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته سنة ١٥٤

الربيع بن يونس

استوزر المنصور بعد ابى ايوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده ابوفروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبى حبل الخليل ونشأ اولاده فى الكتابة فى عهد بنى أمية ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل اليه حسن الاعتماد عليه فكانت اليه الحجابة وهى من الوظائف الكبرى فى الدولة وسيأتي شرحها

ولما قبض المنصور على أبى أيوب استوزره بعده فظل فى خدمته الى أن مات المنصور . وكان الربيع عارفا بخدمة الخلفاء محبوبا عندهم ولا سيما المنصور وكان جليلا نبيلا منفذا الامور مهيبا فصيحا كافيا حازما عاقلا فطنا خبيرا بالحساب والاعمال حاذقا بأمر الملك بصيرا بما يأتي ويذر محبا لفعل الخير

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذى أخذ البيعة للمهدى بعده وكان ذلك مما جعل المهدى يبقيه على درجته التى كان عليها فى عهد أبيه الا أنه كان حاجبا لا وزيرا وكانت وفاته سنة ١٧٠ فى عهد الهادي ويقال انه سمه

(ثانيا) الحاجب وهو موظف كبير لا يمثل احد بين يدي الخليفة الا باذنه وقد وجد الحاجب فى عهد بنى أمية وقد احدثوه لما خشوا على انفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع على وعمرو بن العاص ومعاوية بن ابى سفيان مع ما فى فتح ابوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد روى ان عبد الملك قال لحاجبه قد وليتك حجابة بابي الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعى الله وصاحب البريد فأمر ماجاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد وكان الى الحاجب التقديم والتأخير فى الاذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم

وقد ظلت الحجابة فى ارتقاء كلما ارتقت الحضارة وقد سار خلفاء بنى العباس على نمط بنى أمية فى ذلك وكان للحاجب في عصرهم مرتبة علية وكثيرا ما كان يستشار فى الامور التى تنزل بالخلافة

(ثالثا) الكاتب وهو الذي يتولى مخاطبته من بعد عن الحضرة من الملوك والامراء وغيرهم وكثيرا ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبدالله قال له كاتبه دعنى أجيبه عنها فقال ابو جعفر لا بل انا اجيبه عنها اذ تقارعنا على الاحساب فدعنى واياه . واحيانا كان يتولى الكتابة الوزير

(رابعا) صاحب الشرط وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار لصاحب الشرط آمن الرجال واشدهم وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة الا ان استبداد المنصور بالامور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من اهمية كل عامل

(خامسا) القاضي وكان ينظر في قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الاقاليم لأن منصب قاضي القضاة لم يكن أنشئ بعد . ومن مشهوري قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن ابي ليلى ولد سنة ٧٤ للهجرة وتفقه بالشعبي اقام قاضيا بالكوفة ثلاثين سنة فى الدولتين الاموية والعباسية وهو معدود من فقهاء اهل الرأي وكان بينه وبين ابي حنيفة الامام وحشة يسيرة وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه في بعض أحكامه وهو أصغر منه سنا فشكاه ابن أبي ليلى للامير فمنعه الامير من الفتيا وكانت وفاة بن أبي ليلى سنة ١٤٨

هذه المناصب الخمسة هى أهم المناصب فى الدولة وجميع الوظائف الأخرى ترجع اليها وكان في كل ولاية صورة من ذلك

الجيش

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذى يذود عن حياضها ويحمى بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الاموية عربيا محضا جنوده وقواده فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع اليهم أكبر الفضل فى ثل عرش الدولة الاموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها لذلك كان جيش الديوان فى أول عهد العباسيين مؤلفا من فريقين

(الاول) الجيوش الخراسانية — الثانى الجيوش العربية وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالى وكان التنازع شديدا بين الفريقين بداعى العصبية كل يتعصب لابناء جنسه . وكان أكبر القواد المعروفين فى أول عهد الدولة ابومسلم الخراسانى لجيوش المشرق الخراسانية وعبد الله بن على لجيوش المغرب واعظمها عربى من الجزيرة والشام . ولما خرج عبد الله بن على عن طاعة المنصور وأرسل ابو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبي مسلم الذي نظر اليه نظرة الشريك المساوي فى القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته ان تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيرا من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان باهل بيته ومن اعظم قوادهم عيسى بن موسى الذى سيره المنصور لحرب محمد بن عبد الله واخيه ابراهيم

ومن مشهورى قواده العرب . معن بن زائدة الشيبانى وهو قائد شجاع كان في أيام بنى امية متنقلا فى الولايات ومنقطعا الى يزيد بن عمر ابن هبيرة الفزارى أمير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط ابلى معه يومئذ بلاء حسنا فلما سلم يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أظرفها انه تنكر وركب جملا يقصد البادية فبينا هو خارج من باب المدينة تبعه عبد اسود متقلد سيفا فقبض علي خطام جمله فأناخه وقبض على يدى معن وقال انت طلبة امير المؤمنين انت معن بن زائدة فلما رأي الجد منه اخرج عقد جوهر ثمنه اضعاف ماجعله المنصور لمن يأتى بمعن فقال

للاسود خذه ولا تكن سببا لسفك دمى فتأمله الاسود وقال لست اقبله حتى اسألك عن شيء فان صدقتني أطلقتك ان الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله قال لا قال فنصفه قال لا ولم يزل حتي بلغ العشر فقال معن نعم فقال له الاسود انا رزقى من المنصور كل شهر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته الوف دنانير وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمي العقد في حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفا فقال له معن قد والله فضحتني ولسفك دمى أهون علي مما فعلت نخذ مادفعته لك فاني فى غنى عنه فضحك وقال أردت أن تكذبني فى مقالى والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفى ثمنا ومضى لسبيله . وما زال معن مستترا حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون الى بليدة قرب قاشان وكانوا على رأى ابي مسلم صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الارواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة انهم كانوا يريدون الاخذ بثأر أبى مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور فتنادى الناس وغلقت ابواب المدينة فلم يدخل احد فخرج المنصور من قصره وفى ذلك الوقت ظهر معن فانتهى الى ابي جعفر فرمى بنفسه وترجل وادخل خرقة قبائه فى منطقته واخذ بلجام دابة المنصور وقال أنشدك الله يا أمير المؤمنين الا رجعت فانك تكفى فلم يرجع وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن ليس هذا من ايامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعا وشرفت

تلك الفعلة معنا فى نظر أبى جعفر حتى سماه اسد الرجال فقال معن والله يا امير المؤمنين لقد أتيتك وانا وجل القلب فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الاقدام عليهم رأيت امرا لم أره من خلق فى حرب فشد ذلك من قلبي وحملنى على ما رأيت منى . وكان ذلك سببا لاعطائه الامان ووصله بعشرة آلاف درهم وتوليته اليمن فمكث فيها مدة أ. سن فيها السيرة فى اهلها حتى ردهم الى الطاعة والجماعة . ثم ولى فى آخر أمره سجستان. ولما كان سنة ١٥١ كان فى داره صناع يعملون له عملا فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بُست . وكان معن جوادا ممدحا وشاعره الخصيص به مروان بن ابى حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثى المشجية ومن طرف بدائهه ان معنا دخل على المنصور مرة فقال له ايه يامعن تعطى مروان بن ابى حفصة مئة الف درهم على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به   شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا ياأمير المؤمنين وانما اعطيته على قوله

ما زلت يوم الهاشمية معلنا   بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه   من وقع كل مهند وسنان

ومنهم عمر بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذى يقول فيه بشار بن برد الشاعر

فتى لمخيفة ان جئته   نصيحا ولا خير فى المتهم
اذا أيقظتك حروب العدا   فنبه لها عمرا ثم نم
فتى لاينام على دمنة   ولا يشرب الماء الا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية

ان المطايا تشتكيك لأنها   قطعت اليك سباسبا ورحالا
فاذا وردن بنا وردن مخفة   واذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجهه المنصور سنة ١٤١ لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك دنباوند والاصبهبذ وكان توجيهه اليها بمشورة أخي المصمغان فانه قال للمنصور يا أمير المؤمنين ان عمرا علم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم اليه خازم بن خزيمة وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الاصبهبذ الى قلعته وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للاصبهبذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهي ام ابنه ابراهيم . وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به

ولم يزل عمر بن العلاء في رتبته الى مدة المهدي محمد بن أبي جعفر

حاضرة الخلافة

لما ولي أبو جعفر انتقل من الانبار الى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها الى ان عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم وكان يريد ان يكون بعيدا عن الكوفة فخرج يرتاد مسكنا لنفسه وجنده ويبتني به مدينة حتى صار الى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما

حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصَّرة وهو نهر بين دجلة والفرات
ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهى مدورة الشكل تقريبا وجعل
لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه فى السماء ٣٥ ذراعا
وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور
شرف . وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعا ويليه من الخارج
فصيل بين السورين وعرضه ٦٠ ذراعا ثم السور الأول وهو سور الفصيل
ودونه خندق . وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها
باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل الى الفصيل الدائر بين السورين
فالأول باب الفصيل والثانى باب المدينة فاذا دخل الداخل من باب خراسان
عطف على يساره فى دهليز ازج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون
ذراعا وطوله ثلاثون المدخل اليه فى عرضه والمخرج منه من طوله يخرج
الى رحبة مادة الى الباب الثانى طولها ٦٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ولها فى
جنبتيها حائطان من الباب الاول الى الباب الثانى فى صدر هذه الرحبة
فى طولها الباب الثانى وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله فى جنبتى هذه
الرحبة بابان الى الفصيلين . والابواب الاربعة على صورة واحدة فى
الأبواب والفصلان والرحاب والطاقات . ثم الباب الثانى وهو باب المدينة
وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير الى دهليز ازج معقود
بالآجر والجص طوله ٢٠ ذراعا وعرضه ١٢ وعلى كل ازج من
آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها . على
هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة فى السماء سمكها ٥٠ ذراعاً مزخرفة وعلى
رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان

وابتنى قصره الذي يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان . ومد المنصور من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما الى المدينة فى عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ فى الشوارع والدروب والارباض وتجرى صيفا وشتاء لا ينقطع ماؤها فى وقت وجر لاهل الكرخ أربعه أنهر يقال لأحدها نهر الدجاج وللثاني نهر القلائين وللثالث نهر طابق وللرابع نهر البزازين . والكرخ هو اسواق المدينة التى نقلها المنصور من مدينته فى الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها فى موضعه وبنى لأهل الاسواق مسجدا يجمعون فيه ولا يدخلون المدينة وسميت الشرقية لانها شرقى الصراة . ولابى عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه فى الكرخ

سقى أربع الكرخ الفوادى بديمة وكل ملثٍّ دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل

وفى سنة ١٥١ بنى المنصور الرصافة للمهدى ابنه وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا وأجرى لها الماء . وربع الرصافة يسمى عسكر المهدي لان المهدى عسكر به عند شخوصه من الرى

وبني المنصور قصره والجامع فى وسط المدينة وكان فى صدر قصر المنصور ايوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وفى صدر الايوان مجلس عشرون ذراعا فى عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس

فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعا فصار
من الارض الى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا . وعلى رأس القبة تمثال
فرس عليه فارس بيده رمح

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر الف الف دينار على
ماحكاه ياقوت . وفى بعض الروايات أقل من ذلك . ولما تم بناؤها حشر
اليها المنصور العلماء من كل بلد واقليم فأمها الناس أفواجا ولم تزل تتعاظم
ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية
فى عهد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين . قال الخطيب البغدادى
لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها
وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة
دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها
ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد
ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة
ماحصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام الرشيد اذ
الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع موردة المشارع

الاحوال الخارجية

فى عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك
ابن مروان الى بلاد الاندلس وأسس بها الدولة الاموية الثانية وكان
المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يؤسس
ملكا فى هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة

ولم يتسم عبدالرحمن بأمير المؤمنين بل تسمى بالامير فقط . وهـذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الاسلامية الـكبرى بالمشرق .

أما مملـكة الروم التي كانت تحاد الخلافة الاسلامية من الشمالى فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس كما قدمنا وكانت العلاقة بين الامتين منقطعة لاتترك احداها قتال الاخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع فى الخلافة ارسال الجيوش تغزو الروم فى الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع الا لمانع .

أول ماحصل فى عهد المنصور ان الروم بقيادة ملـكهم أغاروا سنة ١٣٨ على ملطية وكانت اذ ذاك من الثغور الاسلاميـة فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولـكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن على ومعه أخوه العباس بن محمد بن على فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطيـة وقد أقام فى استتمام ذلك الى سـنة ١٣٩ . ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغـلا فى أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا على وكانتا نذرتا ان زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله — وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى

وفى هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين .

وفى سنة ١٤٠ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبـد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبـل قسطنطين صاحب الروم فى جيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فاحجم عنهم . ثم لم تكن صائفة بعد ذلك الى

سنة ١٤٦ لاشتغال أبى جعفر بأمر محمد وابراهيم ابنى عبدالله

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى الى سنة ١٥٥ وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين الجزية

وكانت هذه الحروب بين الطرفين اغارات لم يقصد بها فتح بل كان كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التى لصاحبه ثم يعود الى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان مايعودون الى ما كانوا عليه

أما حدود المملكة من الجهات الاخرى فكانت فى الغالب محلا للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالا بما يبذله المنصور من الهمة فى ارسال الجنود اليها ليقظته ومعرفته بالامور على وجهها . وكان فى كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء فى الديوان ومن المطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد فى سبيل الله لايطلبون على ذلك أجرا الا من الله وكان الخليفة هو الذى يعين قائدهم وكان عددهم فى ذلك الوقت كثيرا

صفات المنصور وأخلاقه

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأسا ويقظة وثباتا ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم فى الاذهان

كيف كان يقضى وقته

كان شغله فى صدر النهار بالآمر والنهى والولايات والعزل وشحن

الثغور والاطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدئهم فاذا صلى العصر جلس لاهل بيته الامن أحب أن يسامره . فاذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والاطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب . فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره فاذا مضى الثلث الثانى قام من فراشه فاسبغ وضوءه وصف فى محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس فى ايوانه

كيف كان خلقه فى بيته وخارجه

قال سلامة الابرش كان المنصور من أحسن الناس خلقا مالم يخرج الى الناس وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان فاذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فاذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله فى ممشاه فربما عاتبنا . وقال له يوما يابنى اذا رأيتنى قد لبست ثيابى أو رجعت من مجلسي فلا يدنون منى أحد منكم مخافة أن أعره بشيء

الجد فى بلاطه

قال يحيي بن سليم كاتب الفضل بن الربيع لم ير المنصور فى لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث الا يوما واحدا فانا رأينا ابنا له يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكبا قوسا متعمما بعمامة مترديا ببرد فى هيئة غلام اعرابى راكبا على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال ومايهديه الاعراب فعجب الناس من ذلك وأنكروه فمضى الغلام

حتى عبر الجسر وأتى المهدى بالرصافة فاهـدى اليه ذلك فقبل المهـدى الجواليق وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم انه ضرب من عبث الملوك . وذكر عن حماد التركي قال كنت واقفا على رأس المنصور فسمع جلبة فى الدار فقال ماهـذا ياحماد انظر فذهبت فاذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فاخبرته فقال وأى شيء الطنبور فوصـفه له فقال له أصبت صفته فما يدريك أنت ماالطنبور فقال رأيتـه بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فاخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره

كيف كان يهتم بعماله

قال المنصور ما كان أحوجنى الى ان يكون على بابى أربعـة نفر لا يكون على بابى أعف منهم قيل له يا أمير المؤمنين من هم ، قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهـم كما ان السرير لا يصلح الا بأربعـة قوائم ان نقصت واحدة تداعى وهى : اما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم — والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى — والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غنى — والرابع — ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه . قيـل له ومن هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة

وولى رجلا من العرب حضرموت فكتب اليه والى البريد انه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها فعزله وكتب اليه (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش انا

انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك امور الوحش سلم ما كنت تلى من عملنا الى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوما مدحورا)

وظفر مرة برجل من كبراء بنى أمية فقال انى سائلك عن أشياء فاصدقنى ولك الامان. قال نعم . فقال المنصور من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم . قال من تضييع الاخبار . قال فأى الاموال وجدوها أنفع قال الجوهر . قال فعند من وجدوا الوفاء . قال عند مواليهم — فأراد المنصور ان يستعين فى الاخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه

وذكر ابراهيم بن موسى بن عيسى ان ولاة البريد فى الآفاق كلها كانوا يكتبون الى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضى به القاضى في نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب ويكتبون اليه بما كان فى كل ليلة اذا صلوا الغداة فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الاسعار على حالها أمسك وان تغير شيء عن حاله كتب الى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذاك عن سعره فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك الى حاله . وان شك في شيء مما قضى به القاضى كتب اليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان انكر شيئا عمل به كتب اليه يوبخه ويلومه

ثباته عند الشدائد

من الخلال التى ذللت للمنصور طريق النجاح انه لم يكن من أولئك

الرجال الذى علأ الهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعا اذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالى فيعد له ما يلزم من المدة . لما تتابعت الاحداث على أبى جعفر فى عهد محمد وابراهيم ابنى عبد الله تمثل

تفرقت الظباء على خداش   فما يدرى خداش ما يصيد

ثم أمر باحضار القواد والموالى والصحابة واهل بيته وأمر حمادا التركى باسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الابواب ثم خرج فى يوم من أيامه حتى علا المنبر فازم عليه طويلا لا ينطق ثم قال :

مالى أكفكف عن سعد ويشتمنى   ولو شتمت بنى سعد لقد سكنوا
مهلا وجبنا عن عدوهم   لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس وقال

فألقيت عن رأسى القناع ولم أكن   لأكشفه الا لاحدى العظائم

والله لقد عجزوا عن أمر أقمنا به فما شكروا الكافى ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا اشرب رنقا على غصص ام أقيم على ضيم ومضض والله لا أكرم احدا باهانة نفسى والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندى والسعيد من وعظ بغيره . قدم يا غلام ثم ركب

ولما قصد الكوفة حين علم بخروج محمد كان معه عثمان بن عمارة واسحاق بن مسلم العقيلى وعبد الله بن الربيع المدانى فقال عثمان أظن محمدا خائبا ومن معه من أهل بيته ان حشو ثياب هذا العباسى لمكر ودهاء . وانه

فيما نصب له محمد من الحرب لكما قال ابن جذل الطعان

فكم من غارة ورعيل خيل　　تداركها وقد حمى اللقاء
فرد خيلها حتى ثناها　　بأسمر ما يرى فيه التواء

فقال له اسحاق بن مسلم قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشنا وغمزته فوجدته صليبا وذقته فوجدته مرا وان من حوله من بنى ابيه لكما قال ربيعة بن مكدم

سما لي فرسان كأن وجوههم　　مصابيح تبدو فى الظلام زواهر
يقودهم كبش أخو مصمئلة　　عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع هو والله خيس ضيغم شموس للاقران مفترس وللارواح مختلس وانه فيما يهيج من الحرب كما قال ابو سفيان بن الحرث

وان لنا شيخا اذا الحرب شمرت　　بديهته الاقدام قبل النوافر

ويكفيه فخرا أنه قام فى وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون فى جهات شتى فقهرهم جميعا ووطد دعائم الملك بعد ان كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر الا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التى عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد ان أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شئ يريب وغدر بعمه عبد الله بن على بعد ان أعطاه الأمان وغدر بأبى مسلم . وربما تكون له شبهة فى القضاء على عمه وعلى أبى مسلم ولكن الذى لا يليق بخليفة المسلمين وامامهم أن يستعمل الايمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم

ومن غريب أمره انه كان تزوج أروى بنت منصور الحميرى وهى أم ولديه محمد وجعفر الاكبر وكان شرط لها ان لا يتزوج عليها ولا

يتسرى وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين في سلطانه فكان يكتب الى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل اليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى اذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت اليه بمال جزيل فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد . فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقى تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم وان كان هذا الحديث فى الجملة يدلنا على ان الغدر لم يصر طبعا للمنصور وانما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذى لم يمكنه تلافيه

اقتصاده

عرف المنصور بميله الى الاقتصاد فى النفقات حتى امتلأت بالاموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدى ثروة جعلته مدة حكمه هادىء البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفادا . ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وانما كانت أعطياته الى القلة اميل وكان يراقب أولاده كى لا يدعهم يميلون الى السرف

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الأمر على ذلك الى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الارزاق الفضل بن سهل

وعلى الجملة فلم يقم فى بنى العباس مثل المنصور فى ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده فى بلاطه — وكان فوق

ذلك كله فصيحا يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة

وكانت القوة الاسلامية فى يده وطوع أمره الا انها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال فى الدولة الاموية وكانت قوة العرب لعهده لاتزال راجحة

وفاة المنصور

فى سنة ١٥٨ حج المنصور شخص من مدينة السلام متوجها الى مكة فى شوال فلما سار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذى توفى به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه ثم صار الى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصي الربيع بما يريد وتوفى فى سحر ليلة السبت ٦ ذى الحجة سنة ١٥٨ ولم يحضره عند وفاته الا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لامير المؤمنين المهدى ولعيسى ابن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن على ومحمد بن سليمان بن على الى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدى بين الركن والمقام

ثم أخذ فى جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفا من أجل أنه مات محرما وصلى عليه عيسى ابن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها ٢٢ سنة الا ستة أيام رحمه الله .

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت . فالذكور محمد المهدى وجعفر

الأكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله — وجعفر الاصغر وأمه أم ولد كردية . وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية . والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الاكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية أمها امرأة من بنى أمية وقد تزوج العالية اسحاق بن سليمان ابن على .

(٣) المهدى

هو محمد المهدى بن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى ولد سنة ١٢٦ بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه اذ جاءتهم الخلافة ست سنوات . ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات . ولما بلغ مبلغ الرجال كان ابوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة ١٤١ وسنه ١٥ سنة قيادة الجنود المتوجهة الى خراسان وأمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان . وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان . ثم انصرف عائدا من خراسان سنة ١٤٤ فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً الى الجزيرة لمراقبة ثغورها — وفى هذه السنة بنى المهدى بريطة بنت أبى العباس السفاح

وفى سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد الى الرى فأقام الى سنة ١٥١ وفيها قدم على أبيه فبني له ولجنده الرصافة وهى الجانب الشرقى من بغداد وولاه الحج سنة ١٥٣ . وفى سنة ١٥٥

أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد . ولم يزل يستعين به فى الاعمال حتى توفى فى التاريخ الذي تقدم ذكره ٦ الحجة سنة ١٥٨ (٧ اكتوبر سنة ٧٧٥)

بيعة المهدى

بعد ان اخذ الربيع بيعة المهدى على بنى هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور فى حجه وجه رسولا الى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي صلى الله عليه وسلم وبردته التى يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة . وفى ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام . ومكث فى خلافته الى أن توفى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بماسبذان فتكون مدته عشر سنين وشهرا ونصفا

وكان يعاصره فى بلاد الاندلس عبد الرحمن الاول مجدد الدولة الاموية فى المغرب . ويعاصره فى فرنسا شارلمان . ويعاصره فى مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه ايرينى تدبر أمره

الحال فى عهد المهدى

كانت خلافة المهدى مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم فكان يكتفى بالريبة والظنة فيعاقب بهما وفى مثل ذلك كثيرا ما يؤخذ البرئ بالمذنب والمطيع بالعاصى فلما جاء المهدى كانت الخلافة العباسية قد توطدت

وأنياب العلويين قد كسرت وان كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لا يحتاجون فى الاحتراس منهم الى مثل ما كان المنصور يحتاج اليه من الشدة فان كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الامير لهم فكانوا يعرضون عليه كل يوم ولذلك كانت حياة المهدى حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه فى كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه

فى أول ولايته أمر باطلاق من كان فى سجن المنصور الا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفا بالسعى فى الارض بالفساد أو كان لاحد قبله مظلمة أو حق فالذين أطلقهم هم من كان جرمهم سياسيا أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فانهم ظلوا فى حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذى سيأتى ذكره فى كبار الرجال فى عهد المهدى

ومما أجراه من الاصلاح أمره ببناء القصور فى طريق مكة أوسع من القصور التى كان السفاح بناها من القادسية الى زبالة وأمر بالزيادة فى قصور السفاح وترك منازل المنصور التى بناها على حالها. وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل وهى حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلا على رجل القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات . وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وجعل لذلك عاملا خاصا يقوم به . وأمر أن يجري على المجذمين وأهل السجون في جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذمون الى المشى فى الطرق وسؤال الناس فيكونون سببا فى انتشار المرض وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا

جوعاً الا من كان له أهل يسألون عنه

وأقام البريد بين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكة واليمن بغالا وابلا ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك

ومن آثاره زيادته فى المسجد الحرام فأدخل فيه دورا كثيرة مما يحيط به . ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوى وكتابة اسمه مكانه . وقديما شغف الملوك بهذه الاغارات التى تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشاً على الآثار فان الخلف منهم كان اذا رأى للسلف أثرا باقيا يستحق به المدح والثناء فسرعان مايأمر بازالة اسم البانى ويضع اسمه مكانه كما حكى ذلك فى الآثار المصريه وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلا عن الملوك ولكن هكذا كان.

وكان المهدي يجلس للمظالم وتدخل القصص اليه فارتشي بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص وكان يدخله وحده فيأخذ مايقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض

وكان المهدى مغرى بالزنادقة الذين يرفع اليه أمرهم فكان دائما يعاقبهم بالقتل ولذلك كانت هذه التهمة فى زمنه وسيلة الى تشفى من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم . والذى أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراسانى كان من احدى قرى مرو وكان يقول بتناسخ الارواح فاستغوى بشرا كثيرا وصار الى ماوراء النهر فوجه المهدى لقتاله عدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدى لمحاربته سعيد الحرشي

وضم اليه القواد فاستعد المقنع للحصار فى قلعة كش فحاصره سعيد بقلعته
ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه نساءه وأهله
فمات وماتوا جميعا ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه

الوزاره

كان مظهر الوزارة فى عهد المهدى أوضح منه فى عهد أبيه المنصور
لما كان من ركون المهدى الى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان
يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فانه جمع له حاصل المملكة
ورتب الديوان وقرر القواعد وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا
وعلما وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الاشعريين كان كاتب
المهدى ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور اليه وكان قد عزم على أن يستوزره
لكنه آثر به ابنه المهدى فكان غالبا على أموره لا يعصى له قولا وكان
المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته فلما مات المنصور وولى
المهدى فوض اليه تدبير المملكة وسلم اليه الدواوين وكان مقدما فى صناعته
وله ترتيبات فى الدولة منها انه نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ
على الغلات خراجا مقررا ولا يقاسم فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر
أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتابا فى الخراج
ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنف كتابا
فى الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتبا فى الخراج سيأتى ذكرها

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عندالمنصور
اذا شكاه أحد بشكوى فلما توفى المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدى بمكة

عاد الى دار السلام فرأى ان يقابل أولا أبا عبيد الله قبل ان يرى المهدى فحضر اليه واستأذن عليه فلم يأذن له الا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئا فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكئ فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل فى أمر بيعة المهدى فذهب الربيع يبتدئ بذكره فقال له قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبى عبيد الله وقال لابنه الفضل والله الذى لااله الا هو لأخلعن جاهى ولانفقن مالى حتى أبلغ من أبى عبيد الله .
كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التى كانت فى تلك الازمنة سلما للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حيلته مطعنا فى أبى عبيد الله لانه كان بعيدا عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم

كان لابى عبيد الله ابن متهم فى دينه وقد أسلفنا ما كان المهدى يكره من الزندقة فرأى الربيع ان ذلك خير وسيلة للافساد بين الخليفة ووزيره فما زال يحتال فى ذلك حتى أتهم المهدى ابن أبى عبيد الله فأمر باحضاره وقال يامحمد اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن فقال لابى عبيد الله يامعاوية ألم تخبرنى ان ابنك جامع للقرآن فقال بلى ياأمير المؤمنين ولكنه فارقنى منذ سنين وفي هذه المدة نسى القرآن فقال (قم فتقرب الى الله بدمه) فذهب ليقوم فوقع فقال العباس بن محمد ياأمير المؤمنين ان شئت ان تعفى الشيخ ففعل وأمر المهدى بابنه فضربت عنقه

كان بعد ذلك من السهل ان يتخوف المهدي من أبى عبيد الله لانه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ماأراد واشتفى وزاد وتلك حال

الامراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيدا لكل قول فلايزال أهل الاهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التى من السهل على المفسدين توجيهها لانهم لا ينتظرون تحقيقا لها وكانت وفاة أبى عبيد الله معزولا سنة ١٧٠ وكان عزله سنة ١٦١ .

استوزر المهدي بعده أباعبدالله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى سليم . كان أبوه قديما كاتبا لنصر بن سيار عامل بنى أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فاذا ليس لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يجول البلاد منفردا بنفسه ومع ابراهيم بن عبد الله أحيانا فى طلب البيعة لمحمد بن عبد الله فلما ظهر محمد وابراهيم كان على بن داود كاتبا لابراهيم وكان يعقوب من الخارجين مع ابراهيم فلما قتل توارى على ويعقوب واخوتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ عليا ويعقوب وحبسهما فى المطبق أيام حياته فلما مات المنصور وبويع المهدى من عليهما فيمن من عليه وكان معهما فى المطبق اسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة

كان المهدي يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد للملك فكان يطلب رجلا له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل على يعقوب فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلا كاملا فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب ان يدخل بينه وبينه وكان الناس فى ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدى انما

كانت للسعاية بآل على وكان يعقوب يتبرأ من ذلك

قرب المهدى يعقوب بن داود اليه وولاه وزارته بعد أبى عبيد الله فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة فى المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها فى يديه

ومن علو منزلته انه أمره المهدى بتوجيه امنائه فى جميع الآفاق فكان لا ينفذ للمهدى كتاب الى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب الى أمينه وثقته بانفاذ ذلك

كان ذلك العلو داعيا لأن حسده موالى المهدى فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال فى ذلك بشار بن برد

بنى أميــة هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لاسحاق بن الفضل وانه يربص له الامور وافهموا المهدى ان اسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب فى يده وفى أيدى أصحابه وانما يكفيــه ان يكتب لهم فيثوروا جميعا فى يوم واحد على ميعاد فيأخــذوا الدنيا لاســحاق بن الفضل فملأ ذلك قلب المهدى وصادف ان طلب يعقوب من المهــدى عقب ذلك ولاية مصر لاسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدى ثم دس اليه جارية من جواريه ووهبها له تتسمع ما يبدر منه ثم سلم اليه علويا أمره بقتله فمن عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدى انه قتــله وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوي اليه فأرسل من جاءه به من الطريق ولما رآه

يعقوب سقط فى يده وأمر المهدى باعادته الى المطبق فحبس ولم يزل محبوسا حتى أخرجه الرشيد من سجنه . وأمر المهدى بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات فى الشرق والغرب وأمر ان يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك سنة ١٦٦ فكانت وزارته خمس سنوات

وفى هذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزمّة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك انه لما جمعت له الدواوين فكر فاذا هو لا يضبطها الا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولى كل ديوان رجلا فكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صبيح ولم يكن لبنى أمية ديوان أزمة وفى سنة ١٦٨ ولى المهدى على بن يقطين ديوان زمام الازمة على عمر بن بزيع

استوزر المهدى بعده الفيض بن أبي صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى فانتقلوا الى بنى العباس وأسلموا وتربى الفيض فى الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخيا مفضالا متخرقا فى ماله جوادا عزيز النفس كبير الهمة كثير الكبر والتيه واستمر الفيض وزيرا للمهدى حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات فى أول أيام الرشيد سنة ١٧٣

الاحوال الخارجيه

كما كان منظر الخلافة فى داخل المملكة باهرا كان كذلك مظهرها فى نظر الامم الاخرى الاانه مما يؤسف له سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الاندلس عبدالرحمن الداخل فقدكان المنصور

والمهدى يهتمان بامره ويودان ازالة دولته ولكن الشقة بين الرجلين بعيدة فلم يمكن واحدا منهما أن يجرد له جيشا يخترق صحارى افريقية ويغزوه فى بلاد الاندلس فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر . وكان شارلمان فى ذلك الوقت مهتما باعادة الدولة الرومانية الغربية التى امحت آثارها وقد فطن الى مابين الطرفين المسلمين من العداوة فاحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الاندلس الى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذا فى الخلافة الاسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم فى القسطنطينية وجد فى ذلك حتى تمكن من اتمام هذه المواصلات في عهد الرشيد كما سيأتى

أما العلاقات بين المهدى وبين ملك الروم فكانت سيئة فلم تكن الا غارات من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الاغارات من ملك الروم وكانت الحروب برا وبحرا

وفي سنة ١٦٣ احتفل المهدى بامر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الاجناد من أهل خراسان وغيرهم وخرج المهدى مع الجيش حتى أتى البردان فاقام به نحوا من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطى الجنود وأخرج صلات لاهل بيته الذين شخصوا معه . وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات فى عهد المهدى فتح الله عليهم فيها فتوحا كثيرة وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاء جميلا ففتحوا حصن سمالا بعد أن أقاموا عليه ثمانيا وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فاعطوا ذلك فنزلوا ووفى لهم هارون ثم قفل بالمسلمين سالمين الا من كان أصيب

منهم بسمالا

وفى سنة ١٦٥ غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل فى بلاد الروم وكان عدد جيشه ٩٥٧٩٣ رجلا حمل لهم من العين ١٩٤٤٥٠ دينارا ومن الورق ١٤١٤٨٠٠ درهم ولم يزل هذا الجيش سائرا حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية وكان الذى يقوم بامر الروم ايرينى أم الملك نيابة عن ابنها فجرت بينها وبين هارون مكاتبات فى طلب الصلح والموادعة واعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والاسواق فى طريقه لانه كان قد دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فاجابته الى ماسأل . والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها ٩٠٠٠٠ دينار تؤديها فى نيسان من كل سنة وفى حزيران فقبل ذلك وأقامت له الاسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا الى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة الى ثلاث سنوات وسلمت الاسارى . وقال مروان بن أبي حفصة فى هذه الغزوة لهارون

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا   اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها   بجزيتها والحرب تغلى قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا فى محرم سنة ١٦٦ وقدمت الروم بالجزية معه وذلك ٦٤٠٠٠ دينار رومية و ٢٥٠٠ دينار عربية و ٣٠٠٠٠ رطل مرعزى

وفى رمضان سنة ١٦٨ أى قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه اليهم على بن سليمان بن على وهو والى الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال فى سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا .

والنتيجة ان مـدة المهدى كان أكثرها حربا مع المسلمين والروم وكان الفريقان فى موقف الدفاع احيانا والهجوم احيانا الا أن الظفر كان فى الغالب للمسلمين

غزو الهند

كان المسلمين يملكون الى نهر مهران الفاصل بين السـند والهند فأراد المهدى أن يغزي جنوده بلاد الهند ففى سنة ١٥٩ وجه عبد الملك ابن شهاب المسمعي فى البحر الى بلاد الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الاجناد واشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ١٥٠٠ ووجه معه قائدا من أبناء الشام فى ٧٠٠ من أهل الشام وخرج معه من مطوعة أهل البصرة ١٠٠٠ رجل ومن الاسواريين والسبابجة ٤٠٠٠ فكان تمام عدتهم ٩٢٠٠ رجـل مضوا حتى أتوا مدينـة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ فناهضوها بعد قدومهم بيوم وأقاموا عليها يومين فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضا حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجؤهم الى بلدهم فأشـعلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم بعـد ان قتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلا ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصـابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حـين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلا من فارس يقال له بحر حمران فعصفت عليهم فبه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض . ويظهر ان هذه الغزوة ليست الا اغارة لا عملا يقصد به توسيع المملـكة

صفات المهدى

كان المهدي لا يشرب النبيذ وان كان سماره يشربونه فى مجلسه وكان يسمع الغناء

وكان من خلقه الحياء والعفو فكان اذا وقع أحد من خصومه في يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن . كان في حبسه موسى بن جعفر العلوى فقرأ مرة فى صلاته « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم » فأتم صلاته والتفت الى الربيع وأمره باحضار موسى فلما جيء به قال له ياموسى انى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لى انك لاتخرج على فقال نعم فوثق له فخلاه

وكان خليفة عادلا يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان اذا جلس للمظالم قال ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى ، قال المسور بن مساور ظلمنى وكيل المهدى وغصبنى ضيعة لى فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى فأمر المهدى بادخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له ترضى باحد هذين فقال نعم فقال تكلم فقال مساور أصلح الله القاضى ان هذا ظلمنى فى ضيعتى وأشار الى المهدى فقال القاضى ما تقول ياأمير المؤمنين . قال ضيعتى فى يدى فقال مساور أصلح الله القاضى سله صارت اليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها فقال المهدى بعد الخلافة فقال القاضى أطلقها له قال قد فعلت والعدل والحلم والعفو فى الخلفاء من الصفات التى تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان المهدى مع ما امتاز به

الجود وفصاحة اللسان وكان أبوه قد علمه تعليما عربيا محضا في صغره وقد الف له المفضل الضبي أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم . وكان يقول ماتقرب الى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هى أقرب من تذكيره اياى يد اسلفت منى اليه اتبعها أختها فاحسن ربها لان منع الأواخر يقطع شكر الاوائل

وكان المهدى ميالا الي السنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصيير منابرها الى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب بذلك الى الآفاق فعمل به . وزار مرة مولاه أبا عون وهو مريض فقال له أوصنى بحاجتك فشكره ابو عون وقال ياأمير المؤمنين حاجتى أن ترضى عن عبد الله بن ابى عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه فقال ياأبا عون انه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك انه يقع فى الشيخين ابى بكر وعمر ويسيء القول فيهما فقال ابو عون هو والله ياأمير المؤمنين على الامر الذى خرجنا عليه ودعونا اليه فان كان قد بدا لكم فرونا بما أحببتم حتى نطيعكم . ويظهر ان هذه الفكرة كانت موجودة حقيقة فى مبدأ الدعوة العباسية ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبيين وثوراتهم المتتالية فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلى رضى الله عنه على الدرجة التي كان عليها من التأخر فى الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين

ولاية العهد

قدمنا ان المهدي نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن على

وجعل محله ابنه موسى الهادى ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد

وفاة المهدى

فى سنة ١٦٩ آراد المهدى الخروج الى جرجان فلما وصل الى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم فى قرية يقال لها الروذ وصلى عليه ابنه هارون لانه كان فى صحبته

(٤) الهادى

هو موسى الهادى بن محمد المهدى بن أبي جعفر المنصور وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملكا للمهدى وفى سنة ١٥٩ أعتقها وتزوجها أي بعد ان ولدت له الهادى والرشيد . ولد الهادي سنة ١٤٤ وولاه ابوه العهد وسنه ١٦ سنة وكان يوليه قيادة الجنود فى المشرق فقادها في نواحى جرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين . وفي اليوم الذى توفى فيه ابوه كان مقيما بجرجان وكان مع المهدى ابنه هارون فاخذ له البيعة على الجند وأرسل اليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك فى ٢٢ محرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفى فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ (١٥ سبتمبر سنة ٧٨٦) فكانت مدته سنة وشهرا و٢٢ يوما وسنه حين مات ٢٦ سنة

وكان يعاصره فى الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه

الحال فى عهده

كان الهادى على سنن أبيه فى كراهة الزنادقة فالتفت اليهم ونكل

بهم تنكيلا والزندقة على مايظن كانت عندهم عنوانا على ترك التدين والمجازفة في التعبير عن الدين روى الطبري ان ممن قتل المهدى يزدان بن باذان الكاتب ذكر عنه انه حج فنظر الى الناس فى الطواف يهرولون فقال ماأشبههم الا ببقر تدوس فى البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الاعمى

أيا أمين الله فى خلقه ووارث الكعبة والمنبر
ماذا تري في رجل كافر يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس اذاماسعوا حمرا تدوس البر والدوسر

وروى الطبرى بسنده ان المهدي قال يوما لموسى وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه يابنى ان صار لك هذا الامر فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجهما من هذه الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة الى هدايه النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها الى الله لاشريك له فاني رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين .

ومن غريب ماروى انه أتى للمهدى برجلين من بنى هاشم أحدهما ابن لداود بن على والثانى يعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة فاما يعقوب بن الفضل فقال له أقر بها بيني وبينك فاما ان اظهر ذلك عند الناس

فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض فقال له ويلك لو كشفت لك السموات وكان الامر كما تقول كنت حقيقا أن تعصب لمحمد ولولا محمد صلى الله عليه وسلم من كنت هل كنت الا انسانا من الناس

أما والله لولا انى كنت جعلت لله علىّ عهدا اذ ولانى هذا الامر ألا أقتل هاشميا لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت الى موسى الهادى فقال ياموسى أقسمت عليك بحقى ان وليت هذا الامر بعدى ألا تناظرهما ساعة واحدة فمات ابن داود بن على فى الحبس قبل وفاة المهدي واما يعقوب فبقى حتى مات المهدي وقدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدي فأرسل الى يعقوب من القى عليه فراشا واقعدت الرجال عليه حتى مات

ثورة الحسين بن على

فى عهد الهادى خرج عليه بالمدينة الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ وكان والى المدينة لوقته عمر بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عبدالله ابن عمر بن الخطاب وسبب خروجه ان عمر بن عبدالعزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعا ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة فصار اليه الحسين بن على فكلمه فيهم وقال له ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأسا فلم تطوف بهم فبعث اليهم وقد بلغوا البلاط فردهم وأمر بهم الى الحبس فحبسوا يوما وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعا وكانوا يعرضون كما قدمنا (يراقبون) ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين بن على ويحيي بن عبدالله بن الحسن كفيلاه لان العمرى كان

كفل بعضهم من بعض فناب عن العرض ثلاثة أيام فأخذا الكفيلين وسألهما عنه فحلفا انهما لا يدريان موضعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه فحلف يحيى بن عبدالله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم انه قدجاءه به فلما خرجا قال الحسين سبحان الله مادعاك الى هذا وأين تجد حسنا حلفت له بشيء لا تقدر عليه قال والله لانمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال حسين تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قال قد كان الذى كان فلابد منه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة ايام الموسم وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن على ففى آخر الليل خرجوا وجاء يحيي بن عبدالله حتى ضرب باب دار مروان على العمرى فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤا حتى اقتحموا المسجد . ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فاذا رأوهم رجعوا ولا يصلون فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم للمرتضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا . ولما تم للحسين بن على ماأراد انتهبت جماعته مافى بيت المال .

أقام الحسين بالمدينة بعد اعلان الخروج احدعشر يوما ثم فارقها لست بقين من ذى القعدة قاصدامكة

انتهى خبر الحسين الى الهادى وقد كان حج فى تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن على والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الاحداث وكان على الموسم سليمان بن أبى جعفر المنصور فامر الهادى بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب فلقيهم الكتاب

وقد انصرفوا عن الحج . وكان محمد بن سليمان قد خرج فى عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين بن على فلقيه بفخ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن على الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الادارسة بالمغرب الاقصى والثانى أخوه يحي بن عبدالله الذى ذهب الى بلاد الديلم وسيأتى خبرهما فى دولة الرشيد

ومما يحسن ذكره مارواه الطبرى قال دخل عيسى بن داب على موسى ابن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفا يلتمس عذرا من قتل من قتل فقال أصلح الله الامير أنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية الى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن على رضي الله عنه قال أنشدنى فانشده

يا أيها الراكب الغادى لطيته ... على عذافرة فى سيرها قحم

أبلغ قريشا على شحط المزار بها ... بينى وبين حسين الله والرحم

وموقف بفناء البيت أنشده ... عهد الاله وما توعى به الذمم

عنفتم قومكم فخرا بامكم ... أم حصان لعمرى برة كرم

هى التى لا يدانى فضلها أحد ... بنت النبي وخير الناس قد علموا

وفضلها لكم فضل وغيركم ... من قومكم لهم من فضلها قسم

نى لاعلم أو ظنا كعالمه ... والظن يصدق أحيانا فينتظم

ان سوف يترككم ما تطلبون بها ... قتلى تهاداكم العقبان والرخم

ياقومنا لا تشبوا الحرب اذ خمدت ومسكوا بحبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البغي ان البغي مصرعة وان شارب كأس البغي يتخم
قدجرب الحرب من قد كان قبلكم من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخا فرب ذي بذخ زلت به القدم

قال فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه

صفات الهادى

كان الهادى شديد الغيرة على حرمه ويشبه في ذلك سليمان بن عبد الملك في بنى أمية وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد ان كان لها من نفوذ الامر فى عهد المهدى مالم يكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران فى أول خلافة موسى الهادى تفتات عليه فى أموره وتسلك بهمسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى فأرسل اليها ألا تخرجى من خفر الكفاية الى بذاءة التبذل فانه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك وكانت الخيزاران فى خلافة موسى كثيرا ما تكلمه فى الحوائج فكان يجيبها الى كل ما تسأله حتي مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو الى بابها فكلمته يوما فى أمر لم يجد الى اجابتها اليه سبيلا فاعتل بعلة فقالت لا بد من اجابتى قال لا أفعل قالت فانى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب موسى وقال ويلى على ابن الفاعلة قد علمت انه صاحبها والله لاقضيتها لك قالت اذا والله لا أسألك حاجة ابدا قال اذا والله لا

أبالي وحمى غضبه فقامت مغضبة فقال مكانك تستوعي كلامي والله والا فانا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحـد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولاقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم اما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك اياك ثم اياك مافتحت بابك لملي أو ذمي فانصرفت ما تعقل ماتطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها .

وكان شجاعا قويا روى عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان

وكان يرى أن الناس لا يصلحون اذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنه قال للفضل بن الربيع الذي أقامه في حجابته بعد أبيه لاتحجب عني الناس فان ذلك يزيل عني البركة ولا تلق الي امرا اذا كشفنه أصبته باطلا فان ذلك يوقع الملك ويضر بالرعية . وقال مرة لعلي بن صالح ائذن للناس علي بالجفلى لا النقري ففتحت الابواب فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر في المظالم الى الليل

وكان الهادي يشرب النبيذ ويسمع الغناء وهو أول من فعل ذلك من خلفاء بني العباس وأهل العراق يتوسعون في أمر النبيذ فيجيزون منه ما لا يسكر

وكان كثيرا ما يشبه أباه في أعصابه . ولم تطل مدته في الخلافة يكون له في أحوال الأمة اثر ظاهر

ولاية العهد

كان الرشيد ولي العهد بمقتضى عقد المهدي فخطر للهادي ان يخلعه

ويعهد الى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا الى الشيعة فتكلموا فى أمر الرشيد وتنقصوه فى مسجد الجماعة وقالوا لا نرضى به . وأمر الهادى الأ يسار بحربة أمام الرشيد ومر يوما هو وجعفر بن الهادى راكبين فبلغا قنطرة من قناطرة عيسا باذ فالتفت ابو عصمة الشرطى الى هارون فقال له مكانك حتى يجوز ولى العهد فقال هارون السمع والطاعة للامير فوقف حتى جاز جعفر . دعا ذلك الى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه ولا يقربه وكان يحيى بن خالد يقوم بانزال الرشيد ولا يفارقه فسعى الى الهادى أن الذي يفسد عليك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فدعا الهادى بيحيى وكلمه فى ذلك فقال يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمان هانت عليهم ايمانهم وان تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك اوكد لبيعته فقال له الهادى صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير . مع ظهور اقتناع الهادى بصحة رأى يحيى لم يتركه مشيروه بل مازالوا يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه فى الخروج الى الصيد فأذن له الهادى . فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب اليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادى شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادى الذي لم يمهله الا ثلاثة أيام . وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة فى أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول اليها وانضم الى ذلك ما أولع به الهادى من الاساءة الى الرشيد وارادة عزله أو قتله وكان الرشيد برابها

وقد يؤكد ذلك انها أرسلت الى يحيى والهادى مريض تعلمه ان الرجل لما به وتأمره بالاستعداد لما ينبغى فاستعد يحيى للامر اكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادى وانهم قد ولاهم الرشيد ما كانوا يلون . فلما مات الهادى نفذت الكتب على البرد . وكانت وفاته بعيساباذ

(٥) الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى وأمه ام الهادى ولد بالرى سنة ١٤٥ ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الامور . جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ وفى سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الانبار الى أطراف افريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفى سنة ١٦٦ جعله ابوه ولى عهد بعد الهادى . وفى سنة ١٦٩ وهى السنة التى توفى فيها المهدى أراد أن يقدمه على الهادى لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدى دون ذلك

بويع الرشيد بالخلافة يوم ان مات أخوه الهادي فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ (١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة ولم يزل خليفة الى أن توفى فى ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣ (٢٤ مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته ٢٣ سنة وشهرين و ١٨ يوما وكان سنه اذ توفى ٤٨ سنة

وكان يعاصره فى الاندلس الامير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ — ١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ — ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦)

وفى المغرب الاقصى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن

على بن أبى طالب (١٧٢ — ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الادريسى ثم ابنه ادريس (١٧٧ — ٢١٣)

ويعاصره فى فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ — ٨١٤)

ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس وكانت تدبره لصغره أمه ارينى (٧٨٠ — ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من سنة ٧٩٧ الى سنة ٨٠٢ ثم خلعت وخلفها نقفور (٨٠٢ — ٨١١)

الحال لعهده

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة الى أفخم درجاتها صولة وسلطانا وثروة وعلما وأدبا ارتقت فيه حضارة الدولة العلمية والادبية والمادية الى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد ووصل ترف الامة فى حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر الى حد يؤذن بقرب الهبوط وكان فى عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الادارة والحرب فعظمت الهيبة فى الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقى كما سنبين ذلك كله مفصلا ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التى كان لها أثر فى مستقبل الامة

الطالبيون

كان الطالبيون شغل بنى العباس الشاغل فانهم كانوا لا يزالون متطلعين الى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لاقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد فى أول ولايته أراد ان يستميل قلوبهم بشىء من الاحسان اليهم وكان أول مافعله

معهم ان رفع الحجر على من كان منهم ببغداد وسيرهم الى المدينة ماخلا العباس ابن الحسن بن عبد الله بن على وكان أبوه الحسن فيمن أشخص . ومع هذا الذى بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحي بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت فى عهد الهادي ذهب الى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بها وقوى أمره ونزع اليه الناس من الامصار والكور فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب الى قتاله الفضل بن يحيي بن خالد فى خمسين الفا ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيي فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له الف الف درهم على أن يسهل له خروج يحيي وحملت اليه فاجاب يحيي الى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه فكتب الفضل بذلك الى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الامان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل بذلك الى يحيي فقدم عليه وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقا سنية وأنزله منزلا سريا بعد ان أقام بمنزل يحيي بن خالد أياما وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيي والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من اكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره فى حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيي هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الاسلامية

ادريس بن عبدالله

كان ادريس بن عبدالله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ وهذا أخو يحيى سار الى مصر ومنها اتجه الى بلاد المغرب الاقصى فالتف عليه برابرة أوربة فكون هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الادارسة وكان نزوله بمدينة وليلي سنة ١٧٢ وكانت بيعته فى تلك السنة ولما بلغ هارون ان أمر ادريس قد استقام ببلادالمغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وانه عازم على غزو افريقية هم ان يرسل اليه جيشا ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلا داهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال فى قتل ادريس وزوده مالا وطرفا يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل الى ادريس مظهرا النزوع اليه متبرئا من الدعوة العباسية فقبله ادريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه اما فى طيب واما فى سنون وفر هاربا فمات ادريس سنة ١٧٧ ولم يكن له ولد الا أمة كانت حاملا فانتظروا وضع حملها فوضعت ولدا ذكرا سمي ادريس على اسم ابيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الادارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد

بذلك تم خروج اقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الاندلس على يد عبدالرحمن بن معاوية الاموى وبلاد المغرب الاقصى مع تلمسان على يد ادريس بن عبد الله

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جدا ومن اتهم من الناس بالميل اليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم الى بغداد فاقام بها الى ان مات وهو السادس من أئمة الشيعة الامامية

الخارجون عليه من غير العلويين

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئا من العلويين وحدهم بل كان هنالك فريق من الأمة ينعى على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الاوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على على بن أبى طالب الى زمن الرشيد الا ان خلفاء بنى أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبى صفرة وغيره ومع ذلك فانهم لم يقدروا على افناء روحهم الثوريه من الامة فكان لا يزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب . وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولى بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم فى عهد بنى أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكرا وأعظمهم أثرا الوليد بن طريف الشارى الشيبانى كان بطلا شجاعا يقيم بالجزيرة بنواحى نصيبين خرج على الرشيد سنة ١٧٨ ففتك بابراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها الى أرمينية ثم رجع الى الجزيرة سنة ١٨٩ واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد انهزم للرشيد جيوشا عدة فاهتم الرشيد بامره جد الاهتمام ورأى ان يوجه اليه من ربيعة من يمكنه القيام فى وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيبانى وهو ابن أخى معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعا فى ذلك طريقة المهلب بن أبى صفرة مع قطرى بن الفجاءة وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له انه يراعيه لاجل الرحم والا فشوكة الوليد يسيرة فوجه اليه الرشيد كتاب مغضب وقال ولو وجهت أحدا من الخدم لقام بأكثر مما تقوم

به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن اليك من يحمل رأسك الى أمير المؤمنين فلقى يزيد الوليد ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه ياوليد ماحاجتك الى التستر بالرجال ابرز لى فقال نعم والله فبرز الوليد وهو يرتجز

أنا الوليد بن طريف الشاري   قسورة لا يصطلي بناري

جوركم أخرجني من داري

وبرز اليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لايقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه . وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الانبار سنة ١٧٩ . ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح الى الرشيد . ومن ألطف الرثاء ماقالته الفارعة أخت الوليد

بتل نهاكى رسم قبر كانه   على جبل فوق الجبال منيف

تضمن مجدا عُدْمُلِيًا وسوددا   وهمة مقدام ورأس حصيف

فيا شجر الخابور مالك مورقا   كانك لم تجزع على ابن طريف

فتى لايحب الزاد الا من التقى   ولا المال الا من قنا وسيوف

ولا الذخر الا كل جرداء صلدم   معاودة للكر بين صفوف

كانك لم تشهد هناك ولم تقم   مقاما على الاعداء غير خفيف

ولم تستلم يوما لورد كريهة   من السرد فى خضراء ذات رفيف

ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح

وسمر القنا ينكزنها بانوف

حليف الندى ماعاش يرضى به الندى
فان مات لا يرضى الندى بحليف

فقدناك فقدان الشباب وليتنا
فديناك من فتياننا بألوف

ومازال حتى أزهق الموت نفسه
شجا لعدو أو نجا لضعيف

ألا يالقومى للحمام وللبلى
وللارض همت بعده برجوف

ألا يالقومى للنوائب والردى
ودهر ملح بالكرام عنيف

وللبدر من بين الكواكب اذ هوى
وللشمس لما أزمعت لكسوف

ولليث كل الليث اذ يحملونه
الى حفرة ملحودة وسقيف

ألا قاتل الله الحشى حيث اضمرت
فتى كان للمعروف غير عيوف

فان يك أوداه يزيد بن مزيد
فرب زحوف لفها بزحوف

عليه سلام الله وقفا فانى
أرى الموت وقاعا بكل شريف

خطر المشرق

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتقصت أطرافها بخروج عبد الرحمن بن معاوية وادريس بن عبد الله وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثرا من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والى خراسان

استشار الرشيد وزيره يحيي بن خالد فى تولية على بن عيسى بن ماهان خراسان فأشار عليه ألا يفعل فخالفه الرشيد وولاه اياها فلما شخص اليها ظلم الناس وجمع مالا جاثلا ووجه الى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والآنية والمال فقعد الرشيد بالشماسيه على دكان مرتفع حين

وصل اليه مابعث به على بن عيسى والى جانبه يحيى بن خالد فقال له هذا الذى أشرت الا نوليه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان فى خلافك بركة وهو كالمازح معه اذ ذاك فقال يحيى يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك أنا وان كنت أحب أن اصيب فى رأيي وأوفق فى مشورتى فأنا أحب الىّ من ذلك ان يكون رأى أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمي ومعرفته فوق معرفتي وما احسن هذا واكثره ان لم يكن فيه مايكره امير المؤمنين وما اسأل الله أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه قال وما ذاك قال أحسب ان هذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف واخذ أكثرها ظلماً وتعديا ولو أمرنى امير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الكرخ قال وكيف ذاك قال قدساومنا عونا على السفط الذى جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبي أن يبيعه فأبعث اليه الساعة بحاجبي يأمره ان يرده الينا لنعيد فيه نظرنا فاذا جاءنا به جحدناه وربحنا سبعة آلاف ألف ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الكرخ مثل ذلك وعلى ان هذا أسلم عاقبة وأستر أمرا من فعل على بن عيسى فى هذه الهدايا بأصحابها فأجمع لامير المؤمنين فى ثلاث ساعات اكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعي وأيسر أمر وأجمل جباية ماجمعه على فى ثلاث سنين . فوقرت فى نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر على بن عيسى فلما عاث على بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ اموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائها ووجهائها الى الرشيد وكتب جماعة من كورها الى قراباتهم واصحابهم يشكون سوء سيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه وتسأل أمير المؤمنين ان يبدلها به فدعا يحيى بن خالد

فشاوره فى امر على بن عيسى وفى صرفه فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته . وكان قيل للرشيد ان على بن عيسى اجمع على خلافك فشخص الى الرى من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادى الاولى سنة ١٨٩ ثم صار الى الرى ثم الى قرماسين ثم عاد الى الرى فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه على بن عيسى من خراسان بالاموال والهدايا والطرف واهدى بعد ذلك الى جميع من كان معه من ولده واهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضى عنه ورده الى خراسان وخرج وهو مشيع له

عاد على بن عيسى الي مرو ناقما على كل من يظن انه تكلم فيه بسوء فآذى الناس واخذ منهم الاموال ظلماً . وحصل في تلك الظروف ان اعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم فى التاريخ الأموى . أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزوا ولعبا ويتضح ذلك من السبب الذى من اجله ثار . كان يحي بن الاشعث الطائى تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند فلما طال مقامه بها وبلغها انه قد اتخذ امهات اولاد التمست سببا للتخلص منه وبلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفى مالها فدس اليها من قال لها انه لا سبيل لها الى التخلص من صاحبها الا ان تشرك بالله وتحضر لذلك قوما عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للازواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيى بن الاشعث فرفعه الى الرشيد فكتب الى على بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وان يعاقب رافعا ويجلده الحد

ويقيده ويطوف به فى مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الاخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلى بن عيسى طالبا أمانه فلم يجبه علىّ اليه وهم بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن على وجدد طلاق المرأة واذن له فى الانصراف الى سمرقند فانصرف اليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه اليه على بن عيسى ابنه عيسى وكان امره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقى رافع عيسى بن على وهزمه . فأخذ على فى فرض الرجال والتأهب للحرب . أما رافع فانه غلظ أمره وكاتبه اهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه ان يوجه اليهم من يعينهم على قتل عيسى ابن على فوجه صاحب الشاش فى اتراكه وقائدا من قواده فأتوا عيسى بن على فاحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لاصحابه وكان على بن عيسى فى ذلك الوقت ببلخ فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير اليها رافع فيستولى عليها وكان عيسى ابنه قد دفن فى بستان داره ببلخ اموالا عظيمة قيل أنها كانت ثلاثين الف الف ولا يعلم بها على بن عيسى ولا اطلع عليها الا جارية كانت له فلما شخص على الى بلخ اطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال خرج من بلخ بغير اذنى وخلف مثل هذا المال وهو يزعم انه قد افضى الى حلى نسائه فيما انفق على محاربة رافع . فى ذلك الوقت تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لاهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فاحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل فقال له انى لم أشاور فيك أحدا ولم أطلعه على

سرى فيك وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى اذ خالف عهدى ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب اليه فاخبره انى أمده بك وأوجه اليه معك من الاموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن اليه قلبه وتتطلع اليه نفسه وأكتب معك كتابا بخطى فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل الى مدينة نيسابور فاذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه ان شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب اكتبه الى على بن عيسى بخطى ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه امر على فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك انى أوجهك مددا لعلى بن عيسى وعونا له . وكان كتابه لعلى بن عسى مبدوءا بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته واعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه . اما عهده لهرثمة فهو

هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين الى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان واعماله وخراجه امره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وان يجعل كتاب الله اماما له فى كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله وأولى العلم بكتاب الله أو يرده الى امامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده . وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفىء المسلمين فاذا استنظف ماعندهم وقبلهم من ذلك نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق

كل ذى حق حق يرده اليهم فان ثبتت قبلهم حقوق لامير المؤمنين وحقوق للمسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي ان تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فاذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه الي باب امير المؤمنين ان شاء الله فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت اليك فانى آثرت الله ودينى على هواى وارادتى فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن امرك ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك مالا يستوحشون معه الى أمر يريبهم وظن يرعبهم وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره ان شاء الله . هذا عهدي وكتابى بخطى وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيدا . وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره الا الله وملائكته .

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم الى اليوم الذى عينه لهم حتى اذا وصل مرو خرج على بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالا للريبة الى قلبه فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد اليه وأول كلمة منه تنبيء عن بقيته فأسقط فى يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة الى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم ان أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى اليه من سيرة

الفاسق على بن عيسى وما أمره به فيه وفى عماله وأعوانه وانه بالغ من ذلك ومن انصاف العامة والخاصة والاخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء . ثم صادر جميع مايملكه على بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك الى الرشيد وقالوا انه حمل على ١٥٠٠ بعير وأرسل هرثمة الى الرشيد يخبره بما صنع . ولما استوفى ماعند على بن عيسى أرسله هو وأولاده فى الاغلال الى بغداد

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد الى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان فى ربيع الآخر سنة ١٩٣ وهى السفرة التى مات فيها بطوس فلم يصل الى ماأراد وبقى رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال

وزراء الرشيد

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك . ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الاسر تاريخا وأشهرها اسما فى صدر الدولة العباسية أحببنا ان نشرح أوليتها

أسرة البرامكة

تنسب هذه الاسرة الى جدها برمك وهو من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران فكان برمك وبنوه سدنة له وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل أسلم

أولا . لما جاءت الدعوة العباسية خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر فى صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال فكان مدبر أمره غير انه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبى العباس فلما ولى أبو جعفر أبقى خالدا في منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبى أيوب الموريانى الذى تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة ثم انكسرت عليه جملة من المال لحمل الى بغداد وطولب بالمال ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٥٨ أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان فى ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع في يومين ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم . وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل وكان ممدوح الولاية حسن السيرة قال احمد بن محمد بن سوار الموصلي ماهبنا قط أميراهيبتنا خالد بن برمك من غير ان تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هيبة كانت له فى صدورنا واستمر والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالدسنة ١٦٣ فى أوائل خلافة المهدى

أما يحيي بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلا ونبلا وجودا رباه أبوه فأحسن تربيته وكان مولده سنة ١٢٠ فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتى عشرة سنة فتربى في كنف الدولة وكان عضد أبيه فى ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية اذربيجان سنة ١٥٨ قال له قد أردتك لأمر مهم من الامور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لا يولون

ثغورهم الا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار فى ولايته سيرة أبيه فى الموصل واستمر بها حتى مات المنصور

وفى سنة ١٦٢ اختاره المهدى ليكون كاتبا ووزيرا لابنه هارون فكان معه يدبر أمره وهارون لايناديه الا ياأبى وذلك لان زوجة يحيي أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه فى غزوة الصائفة سنة ١٦٣ وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره وكان فى تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازيا عن المهدي فكان الذى بين الربيع ويحيي على حسب ذلك وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما . ولما ندب المهدى يحيي لذلك المهم قال له انى قد تصفحت أبناء شيعتى وأهل دولتى واخترت منهم رجلا لهرون ابنى أضمه اليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خيرتى له ورأيتك أولى به اذ كنت مربيه وخاصته وقدوليتك كتابته وأمر عسكره

ولما ولى المهدى ابنه هارون المغرب كله سنة ١٦٤ من الانبار الى افريقية أمر يحيي بن خالد ان يتولى ذلك فكانت اليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على مايتولاه واستمر [illegible] الى ان مات المهدى [illegible] حتى اذا خطر ببال الهادي ان يخلع [illegible] يحيى فانه هو الذى جرأه على [illegible] الهدى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيي لا تفعل [illegible] الناس يتركونك [illegible] فهما بسدانى واعيش مع [illegible] وكان هرون يجد بأم جعفر وجدا شديدا

يقال له يحي وأين هذا من الخلافة ولعلك الا يترك هـذا في يدك حتى فخرج أجمع ومنعه من الاجابة . فسعى الى الهـادي بيحيي وقيـل له انه ليس عليك من هارون خلاف وانمـا يفسده يحي بن برمك فأرسل اليه الهـادى وقال له لم تدخـل بيني وبين أخي وتفسـده على فقال يا أمـير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما انمـا صيرني المهدى معه وأمرني بالقيام بأمره فقمت بمـا أمرنى به ثم أمرتني بذلك فانتهيت الى أمرك . ثم قال له لمـا كلمه فى أمر الخلع يا أمير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الايمـان هانت عليهم ايمانهم وان تركتهم على بيعـة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير . وممـا قاله له فىهذا ياأمير المؤمنين ارأيت ان كان الأمر اسأل الله ألا نبلغه وان يقدمنا قبله أتظن ان الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون بهلصلاتهم وحجهم وغزوهم — قال والله ماأظن ذلك — قال ياأمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو اليها أهلك وجلتهم مثـل فلان وفلان ويطمع فيها غـيرهم فتخرج من ولد أبيك — فقال له نبهتني يايحيى — قال وكان يقول — ما كلمت أحدا من الخلفاء كان أعقـل من موسى — وقال له لوأنهذا الأمر لميعقدلاخيك أما كان ينبغى أن تعقده له فـكيف بان تحله عنه وقد عقده المهـدى له ولـكن أرى ان تقر هـذا الامر ياأمير المؤمنين على حاله فاذا بلغ جعفر وبلغالله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيهصفقة يده فقبل الهـادى قوله . ولـكن يظهر ان الذى كان يحرك الهادى الى خلع الرشيد ممـا لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذنه فى الخروج الى

الصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الايام ففعل ذلك هارون وخرج الى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادى أمره وغمه احتباسه وجعل يكتب اليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الامر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه وكان الذى ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب الى أبيه بكل مايحدث

ولما لم ير الهادى يحيي بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من اكرام ولا اقطاع ولا صلة بعث اليه يتهدده بالقتل ان لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التى مات فيها فقام يحيي بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى اليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الأمور على ماترى ودفع اليه خاتمه وفى ذلك يقول ابراهيم الموصلى

ألم تر ان الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذى الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هى الناظرة فى الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها

كان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة فى دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد . وقد ضم اليه الرشيد فى سنة ١٧١ خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان

وكان ليحيي أربعة من الاولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر

ومحمد وموسى بنو يحيى

فاما الفضل فهو أكبر الاخوة ولد أواخر سنة ١٤٨ قبل ولادة الرشيد بايام وقد أرضعت كلا منهما أم الآخر ولما شب كان لابيه يحيى كما كان يحيى لابيه خالد ولما ولى أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه فى جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أبا

وفى سنة ١٧٦ كان خروج يحيى بن عبدالله بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال فى أمر يحيى حتى استنزله من معقله بامان من غير أن يريق فى ذلك نقطة دم الا حسن السياسة وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية فى اكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبى حفصة

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فاصبحت قد فازت يداك بخطة ... من المجد باق ذكرها فى المواسم
ومازال قدح الملك يخرج فائزا ... لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب

للفضل يوم الطالقان وقبله ... يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا ... فى غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد الفة هاشم ... بعد الشتات فشملها متدان

عصمت حكومته جماعة هاشم　　من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها　　عظم النبا وتفرق الحكمان

وفى سنة ١٧٨ ولاه الرشيد خراسان وثغورها فاحسن السيرة بها
وبنى بها الرباطات والمساجد . غزا ماوراء النهر فخرج اليه ملك اشروسنة
وكان ممتنعا . ويقال انه اتخذ بخراسان جندا من العجم سماهم العباسية وجعل
ولاءهم لهم وان عدتهم بلغت ٥٠٠٠٠٠ رجل وانه قدم منهم بغداد عشرون
ألف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم
ودفاترهم وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة

ماالفضل الا شهاب لا أفول له　　عند الحروب اذا ما تأفل الشهب
حام على ملك قوم غرّ سهمهم　　من الوراثة فى أيديهم سبب
أمست يدلبنى ساقى الحجيج بها　　كتائب مالها فى غيرهم ارب
كتائب لبنى العباس قد عرفت　　ماالّف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين في عدادهم
من الالوف التى أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم　　أولى باحمد فى الفرقان ان نسبوا
ان الجواد ابن يحيى الفضل لاورق
يبقى على جود كفيه ولا ذهب
مامر يوم له من شد مئزره　　الا تمول أقوام بما يهب
كم غاية فى الندى والبأس أحرزها　　للطالبين مداها دونه تعب
يعطى اللها حين لا يعطى الجواد ولا
ينبو اذا سلت الهندية القضب

ولا الرضا والرضا لله غايته   الى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى مايعادله   غيث مغيث ولا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد الى بستان أبى جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القوادو الكتاب والاشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين باطرافها وذلك سنة ١٧٩

كان الفضل فى جميع الاعمال التى أسندت اليه كفأ نزيها وكان من أكثر البرامكة كرما وكان أكرم من أخيه جعفر . وكان الناس يسمونه فى بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس كافى المهمات حتى كانت النكبة الآتى ذكرها

وأما جعفر فهو ثانى أولاد يحي وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الاخلاق طلق الوجه ظاهر البشر وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من ان يذكر وكان من ذوى الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة وكان ابوه قد ضمه الى ابي يوسف يعقوب القاضى حتي علمه وفهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من انسه باخيه الفضل لسهولة اخلاق جعفر وشراسة اخلاق الفضل وقال الرشيد يوما ليحي مابال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرا بذلك فقال يحي لان الفضل يخلفنى قال فضم الى جعفر اعمالا كأعمال الفضل فقال يحي ان خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل اليه امر دار الرشيد فسمى بالوزير الصغير وقال له يوما قد احببت ان انقل ديوان الخاتم من

الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب انت اليه فكتب يحيي الى الفضل قد امر امير المؤمنين اعلى الله امره ان تحول الخاتم من يمينك الى شمالك فاجابه الفضل قد سمعت ماامر به امير المؤمنين فى اخى وما انتقلت عنى نعمة صارت اليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر لله در اخى ما اكيس نفسه واظهر دلائل الفضل عليه واقوى منة العقل عنده واوسع فى البلاغة ذرعه

وفى سنة ١٧٦ ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الاعمال فى دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران

وفى سنة ١٨٠ هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيي على الشام وقال له اما ان تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر بل أقيك بنفسي فشخص فى جملة القواد والكراع والسلاح فاصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحا ولا فرسا فعادوا الى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك النائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النَّمَرى

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارها
اذا جاش موج البحر من آل برمك عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلافى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية دموغ لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غابة فى رؤسها نجوم الثريا والمنايا ثمارها
اذا خفقت راياتها وتجرست بها الريح هال السامعين انبهارها

فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم حجاكم طويلات المنى وقصارها
فان أمير المؤمنين بنفسه أتاكم والا نفسه خيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه وصمدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب باحياء الامور اذا التوت من الدهر أعناق فأنت جبارها
اذا ما ابن يحيي جعفر قصدت له ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لأهل الشام ياويل أمها أتاها حياها أو أتاها بوارها
فان سالموا كانت غمامة نائل وغيث والا فالدماء قطارها
أبوك أبو الاملاك يحيى بن خالد أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى فى البرمكيين من ندى ومن سابقات ما يشق غبارها
غدا بنجوم السعد من حل رحله اليك وعزت عصبة أنت جارها
عذيرى من الاقدار هل عزماتها مخلفتى عن جعفر واقتسارها
فعين الأسى مطروقة لفراقه ونفسى اليه ما ينام ادّكارها

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له اكراما وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لاهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم

وفى هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان يخلفه فى هذا العمل هرثمة ابن أعين وهو من كبار

قواد الدولة

وفى سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه عبدالله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الامين وضمه الى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لامره كما كان الامين مع الفضل بن يحيي وقد جعل الرشيد الامين والى المغرب كله والمأمون والى المشرق كله وكانت الولاة التى توسل الى الاقاليم من قبل ولى العهد

وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم وأشدهم بأسا لم ينل من الشهرة ماناله أخواه الفضل وجعفر الا انه كان فى تلك الدولة عاملا سريا وقائدا باسلا ولاه الرشيد الشام سنة ١٧٦ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التى ذهب فيها أخوه جعفر وضم اليه من القواد والاجناد ومشايخ الكتاب جماعة فى وردالشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر الى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم الى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد فقيل فى موسى بن يحيى

قد هاجت الشام هيجا	يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها	بخيله وجنوده
فدانت الشام لما	أتى بسنح وحيده
هو الجواد الذى ب	ذ كل جود بجوده
اعداه جود أبيه	يحيي وجود جدوده
ف... موسى بن يحيي	بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المج	د وهو حشو مهوده

خصصته بمديحي منثوره وقصيده
من البرامك عود له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا خفيفه ومديده

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب فى اضطراب خراسان عليه وأطمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم اياه وانه يكاتبهم ويعمل على الانسلال اليهم والوثوب به معهم فوقر ذلك فى نفس الرشيد عليه وأوحشه منه فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك فى الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار الى خراسان كما قيل له فلما صار الى الحيرة فى حجة سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى فى أمره ولم يكن الرشيد يردها فى شيء فقال يضمنه أبوه فقد رفع اليه فيه فضمنه يحيى ودفعه اليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه

وأما محمد بن يحيى فكان سريا بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لاخوته

كانت هذه الأسرة فى عهد الرشيد غرة فى جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانوا مبرزين فى حلبة الجود والسخاء تهزهم الاريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الاولين

خدمت هذه الاسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد

ابن برمك من كبار دعاتها وقوادها الى هذه السنة سنة ١٨٧ التى نسطر فيها أخبار نكبتها على يدى الرشيد

نكبة البرامكة

اولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم فى تعرف أسباب ايقاع الرشيد بهم . لم يكن هذا العمل بدعا فى الدولة العباسية فان للمنصور والمهدى سلفا فى ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبى أيوب الموريانى قتله هو وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم واوقع المهدى بوزيريه أبى عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الاول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الولوع بالثانى حتى كتب للجمهور أنه اتخذه أخا فى الله . كل هذا قد سبق به الرشيد

يرى المؤرخ ان هذا طبيعة الملك الاستبدادى يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذى لا يشارك والحول الذى لا يقاوم واليد الطولى التى لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد فى الانتفاع بتلك السابقة لهم فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه اليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه اليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة فى قلوب اولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب اولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الايقاع بمن كان سيفه الذى لا ينبو فى

الخطوب اشفاقا من هذا السيف ان ينقلب عليه فيقتنص منه ملكه الذى دونه كل شيء وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه الا قليلا من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء اندر من الكبريت الأحمر لانهم يتغلبون على مافى طبع الانسان من عدم الوقوف عند حد في العظمة والتكاثر فى الاموال على أن اباعبيدالله وزير المهدى مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه اعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدى انه زنديق فقتله المهدى فكان ذلك سببا للوحشة بين المهدي ووزيره

كان يحيي بن خالد هو القائم بامر الرشيد أيام المهدى وكان الرشيد يدعوه بأبى وكانت أم الفضل بن يحيي ظئرا للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن يحيي فكان يحيي هو الذى يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد الى أن شب . وهو الذى كانت له اليد الطولى فى اخفاق المساعى التي بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادى فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم اليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسى فاجتمعت له الوزارتان . وأعانه فى العمل أبناؤه الا ان الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعا من الكفاية حتى روى القاضى يحيي بن أكثم قال سمعت المأمون يقول لم يكن كيحيي بن خالد وولده أحد فى الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة قال القاضي فقلت يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فتعرفها فيهم ففيمن الشجاعة فقال فى موسى بن يحيي وقد رأيت أن أوليه ثغر السند

ولم يكونوا في الاتصال بالرشيد على درجة واحدة فكان يحي صاحب المقام الارفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله فى سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو اليه الشباب من المنادمة وكان الفضل فى الاخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه فكان الفضل يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ما شربته وكان مشغوفا بالسماع . أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره بترك الانس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه اليه ويقال انه كتب اليه حين أعيته الحيلة فيه . انى أنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وان كنت لأخشى أن تكون التى لاشوى لها . وقد كان يحي قال للرشيد يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك على منك فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتى وأمنّ لك على . قال الرشيد يا أبت ليس بك هذا ولكنك انما تريد أن تقدم عليه الفضل . ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيما جدا حتى كان يقضى أعظم الامور فلا يرد له الرشيد قضاء

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد ابن يحي وأخى الفضل وحبيب جعفر . فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الانبار فى آخر ليلة من محرم سنة ١٨٧ بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدى ولديه الأمين والمأمون — ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق . ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون .

ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق — ورأوا كتبا أرسلت الى جميع العمال فى نواحي البلدان والاعمال بقبض اموالهم وأخذ وكلائهم . وامرا بالنداء فى جميع البرامكة أن لا امان لمن آواهم الا محمد ابن خالد بن برمك وولده واهله وحشمه فان الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والاوهام ناسبين ذلك لحادث فجائى حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير وأداه الى هذا العمل شأن الناس في الاعصار كافة اذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع

نسب ذلك بعضهم الى مجرد الملل والغيرة . سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وامنا وسعة اموال وفتوح وايام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهما . ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الادلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فانه كان احكم خبرة واكثر ممارسة للامور ولاذ من اعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن واظهروا القبائح حتى كان ما كان

ونسب ذلك بعضهم الى حادثه يحيى بن عبد الله بن الحسن الذى

روينا حديث ذهابه الى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى اياه بأمان الرشيد — ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال من قال ان الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلاتصدقه وذلك ان الرشيد دفع يحيى الى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالى فسأله عن شيء من أمره فأجابه الى ان قال اتق الله فى أمرى ولا تتعرض ان يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم فوالله ماأحدثت حدثا ولا آويت محدثا فرق عليه وقال اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأرد اليك أو الى غيرك فوجه معه من أداه الى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه فعلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه انه لا يعبأ بخبره وقال وما أنت وهذا لاأم لك فلعل ذلك عن أمري فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه الى ان كان آخر مادار بينهما ان قال مافعل يحيى بن عبد الله قال بحاله ياأمير المؤمنين فى الحبس الضيق والاكبال — قال بحياتى — فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا فهجس فى نفسه انه قدعلم بشيء من أمره فقال لا وحياتك ياسيدى ولكن أطلقته وعلمت انه لا حياة به ولا مكروه عنده قال نعما فعلت ماعدوت ما كان فى نفسى فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ان لم أقتلك فكان من أمره ما كان

ونسب ذلك بعضهم الى حديث العباسة بنت المهدى التى رواها

الطبرى عن زاهر بن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليها ونقصوا منها وهى حكاية مشهورة

ونحن نريد ان نبين ان نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هى حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضا

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس فى حياة المنصور والمهدى ولم يكن للفضل فى أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه ان يوليه شيئاً ففى اليوم الذى توفيت فيه سنة ١٧٤ دعا به هارون فقال له وحق المهدى انى لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعنى أمي فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل ابن الربيع لاسماعيل بن صبيح الكاتب أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب اليه وآخذه ولكن أرى ان يبعث به . وهذه مجاملة سببها ان الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فأحب ان يتخذ عندهم يدا حتى لا يتخوفونه . وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى

فى سنة ١٧٦ حصلت حادثة يحيى بن عبد الله فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر الى بغداد وأكرمه الرشيد لكن الزمان لم يطل على هذا الاكرام فان السعاة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرفع اليه ان يحيى لا يزال يدعو الى نفسه وانما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية فى ذلك بكار بن عبد الله الزبيري وكان شديد البغض لآل أبى طالب ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من

وراء تلك السعايات ان حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول ان يقتله ولم يكن يمنعه الا خيفة ان يقول الناس فيه شيئا لما كتبه من كتاب الامان الذي استنزل به يحيى فأراد ان يأخذ من العلماء قولا فى ان ذلك الامان لاغ فأحضر أبا البختري القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف فأما محمد بن الحسن فانه قال له ما تصنع بالامان لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا . وليس هذا الجواب موافقا لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد — وأما أبو البختري فقال ان الامان منتقض وأقبل يعدو وجوه نقضه ولذلك قال له الرشيد أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك نخرق الامان

ويظهر ان الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة للسعى بيحيي ابن عبدالله عند الرشيد لان فى قتله اذلالا لمن كان السبب فى استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذى أوضح لنا ان الفضل بن الربيع هو الذى كان يحرك السعاة بيحيي أن الرشيد لما كان يحاج يحيي نظر يحيي الى الفضل بن الربيع وقال له — هذا والله من آفاتك

كان من المفهوم بعد ذلك ان يجتهد البرامكة فى تخليص يحيي ففعل جعفر فعلته التى قدمنا ذكرها والرشيد وان كان يحتمل لجعفر كثيرا من الادلال لا يحتمل له هذا لانه متعلق بملكه — ومن الغريب ما ورد فى هذه الحادثة من ان الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاص خدمه جاسوسا يعلم أخباره ويلقى بها اليه

كانت هذه الحادثة سببا للوشاية بالبرامكة فى أخص صفات الوزراء وهى الاخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ. وقر فى نفس الرشيد شيء من ذلك وان البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدى وهى التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدى حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم وأثرتهم وينفس عليهم ماصار اليهم من عظيم الاموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم فى الآخر الظنون روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال انى لقاعد فى مجلس الرشيد اذ طلع يحي بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا اذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه ردا ضعيفا فعلم يحي ان أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا اذنك فقلت لا ولا يطمع في ذلك قال فما بالنا يدخل علينا بلا اذن فقام يحي فقال ياأمير المؤمنين قدمنى الله قبلك والله ماابتدأت ذلك الساعة وما هو الا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى ان كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه مجردا حينا وحينا فى بعض ازاره وما علمت ان أمير المؤمنين كره ما كان يحب واذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الاذن أو الثالثة ان أمرني سيدى بذلك قال فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجها وعيناه في الارض مايرفع اليه طرفه ثم قال — ماأردت ماتكره ولكن الناس يقولون. قال جبريل فظننت انه لم يسنح له جواب يرتضيه فاجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى . وحدث

محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان اليه فقال الرشيد لمسرور الخادم مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى اذا دخل الدار قال فدخل فلم يقم اليه أحد فاربدّ لونه قال وكان الغلمان والحجاب اذا رأوه أعرضوا عنه قال فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحري ان سقوه أن يكون ذلك بعد ان يدعو بها مرارا .

وحدث يعقوب بن اسحاق عن ابراهيم بن المهدى قال أتيت جعفر ابن يحيى فى داره التى ابتناها فقال أما تعجب من منصور بن زياد قال قلت له فيماذا قال سألته هل ترى فى دارى عيبا قال نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة قال ابراهيم فقلت له الذى يعيبها عندى انك أنفقت عليها نحوا من عشرين الف الف درهم وهو شىء لا آمنه عليك غدا بين يدى أمير المؤمنين — قال هو يعلم انه قد وصلنى بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضنى له قال قلت ان العدو انما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول له ياأمير المؤمنين اذا انفق على دار عشرين الف الف درهم فاين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التى تنوبه وما ظنك ياأمير المؤمنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعة الى القلب والوقف على الحاصل منها صعب — قال ان سمع منى قلت ان لأمير المؤمنين نعما على قوم قد كفروها بالستر أو باظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت الى نعمته عندى فوضعتها في رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا فانظروا . وحدث زيد بن على عن ابراهيم بن المهدى ان جعفر بن يحيى قال له يوما (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذى قربه منه) انى قد استربت بأمر هذا الرجل (يعنى الرشيد) وقد ظننت ان ذلك لسابق

سبق لي منه فاردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ماتري منه قال ابراهيم ففعلت ذلك في يومي . فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت الى شجر في طريقي فدخلتها ومن معي وأمرتهم باطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بي واحدا بعد واحد فأراهم ولا يروني حتى اذا لم يبق منهم أحد اذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجر قال اخرج ياحبيبي قال فخرجت فقال ما عندك فقلت حتى تعلمني كيف علمت اني ههنا قال عرفت عنايتك بما أعنى به وانك لم تكن لتنصرف أو تعلمني مارأيت منه وعلمت انك تكره ان ترى واقفا في مثل هذا الوقت وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم قال فهات ماعندك قلت رأيت الرجل يهزل اذا جددت ويجد اذا هزلت قال كذا هو عندي فانصرف ياحبيبي

من كل هذا يتبين ان النفور والريبة وقعت في قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها الا ماركز في نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة . وكان الرشيد يتحين الفرصة للايقاع بهم ولا سيما جعفرا لما كان منه من تخليص يحيى بن عبدالله وهذا دليل عدم الاخلاص للرشيد وللبيت العباسي . وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب اليه خير قيام وشايعه في ذلك كثيرون . وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه في أمر المأمون فانه هو الذى قام في ولايته العهد وجعلته مناظرا لابنها الامين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سببا في الايقاع بين الأخوين اذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة

فى سنة ١٨٦ حج الرشيد ولما انصرف من حجه وأتى الانبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضى عنه بعد غضبه عليه وفى غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفرا وحبس يحيي وابناه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد فى دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا مايحتاجون اليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهم سهلة الى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتثقيف بسخطه وجدد لهولهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم

حادثة عبدالملك بن صالح

هو عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس وهو فى درجة السفاح والمنصور نسبا رفع الى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وان البرامكة كانوا له عونا والذى سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر الى الرشيد فلما دخل عليه قال « أكفرا بالنعمة وجحودا لجليل المنة والتكرمة » فقال يا أمير المؤمنين « لقد بؤت اذا بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وما ذاك الا بغى حاسد نافسنى فيك مودة القرابة وتقديم الولاية انك يا أمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل فى حكمها والتثبت فى حادثها والغفران لذنوبها » فقال له الرشيد « أتضع لى من لسانك وترفع لى من جنانك هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه » فقال عبد الملك « أعطاك ماليس فى عقده ولعله لا

يقدر ان يعضهني ولا يبهتني بما لم يعرفه مني » واحضر قمامة فقال له الرشيد تقدم غير هائب ولا خائف قال أقول انه عازم على الغدر بك والخلاف عليك — فقال عبد الملك أهو كذلك ياقمامة قال نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين — فقال عبد الملك كيف لا يكذب عليّ من خلفي وهو يبهتني في وجهي — فقال له الرشيد وهذا ابنك عبدالرحمن يخبرني بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن احتج عليك بحجة لم أجد اعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك فقال عبد الملك هو مأمور أوعاق مجبور فان كان مأمورا فمعذور وان كان عاقا ففاجر كفور أخبر الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله « ان من أزواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم » قال فنهض الرشيد وهو يقول اما امرك فقد وضح ولكني لا اعجل حتى اعلم الذي يرضى الله فيك فانه الحكم بيني وبينك — فقال عبد الملك رضيت بالله حكما وبأمير المؤمنين حاكما فاني أعلم انه يؤثر كتاب الله على هواه وامر الله على رضاه

فلما كان بعد ذلك جلس مجلسا آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد فقال عبد الملك ليس هذا يوما احتج فيه ولا أجاذب منازعا فقال الرشيد له — قال لان أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال وما ذاك قال لم ترد على السلام انصف نصفة العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وايثارا للعدل واستعمالا للتحيه ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال

أريد حياته ويريد قتلي — أما والله لكأني أنظر الى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع وكاني بالوعيد قد أورى نارا تستطع فأقلع عن براجم

بلا معاصم ورؤس بلا غلاصم فهلا مهلا بى والله سهل لكم الوعر وصفا لكم القدر وألقت اليكم الامور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل. فقال عبدالملك . اتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيتك التى استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم وتركت عدوك مشتغلا فالله الله فى ذى رحمك ان تقطعه بعد ان بللته بظن أفصح الكتاب لى بعضه أو ببغى باغ ينهس اللحم ويلغ فى الدم فقد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الامور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته ... ببنانى ولسانى وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله ... زل عن مثل مقامى وزحل

فقال له الرشيد أما والله لولا الابقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث الى يحيى بن خالد وهو فى السجن ان عبد الملك بن صالح أراد الخروج على ومنازعتى فى الملك وقد علمت ذلك فاعلمنى ماعندك فيه فانك ان صدقتنى أعدتك الى حالك فقال والله ياأمير المؤمنين مااطلعت من عبد الملك على شئ من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لان ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشر كان فيه على ولى فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع فى ذلك منى وهل كنت اذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ولكن كان رجلا محتملا يسرنى أن

يكون فى أهلك مثله فوليته لما أحدث من مذهبه وملت اليه لادبه واحتماله — فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال ان أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل — فقال له أنت مسلط علينا فافعل ماشئت على انه ان كان من هذا الامر شيء فالذنب فيه لى فبم يدخل الفضل فى ذلك فقال الرسول للفضل قم فانه لا بد لى من انفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك انه قاتله فودع أباه وقال له الست راضيا عنى قال بلى فرضى الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئا جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده

سقنا هذا لندل على ان التهم التى وجهت الى البرامكة كافة ولا سيما جعفر اسياسية محضة وفى القليل منها ما يكفى عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم واذا أضيف الى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه فى سلطانه ويشاركه فى نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتي تخترع له تلك الحكاية التى يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لاخلاق الرشيد والتقاليد التى سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المنصور على أبى مسلم من ذنوبه وهو من هو فى الدولة وتشييد بنيانها انه كتب اليه يخطب أمينة بنت على بن عبدالله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد فى أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سرى كهذا سببه خسيس هذا بعيد جدا

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه الى درجة الوسواس حتى جعله ذلك اذنا يسمع لكل واش

ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء ان كتبوا أجادوا وان قادوا الجيوش سدوا الثغور وان ولوا عملا أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما هى الا وشاية تطرق أذنه حتى تراه قد أخذ بخلاقيمهم فأوردهم شر مورد لا يبالى بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وان لم يكن لهم فى ميدان الصالحين أثر فقد بقى للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الامين والمأمون كما سيجئ لان الرجل مفسد معتاد على اختلاق الاخبار ويرى ذلك يحسن فى آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر عن ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الامة بينها وانا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الامم وسوس عظامها

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسد المكان الذى سدوا

العلاقات الخارجية

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شارلكان الذى كان يميل الى تجديد دولة الرومان الغربية ودوله الامويين بالاندلس وحدثت فى عهده دولة الادارسة بالمغرب الاقصى كما سبق

مع الروم

من أعمال الرشيد انه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم وجعل قاعدتها منبجا وأسكنها عبدالملك بن صالح سنة ١٧٣ وسميت العواصم لان المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وكان من هذه العواصم دُلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت فى زمن الرشيد على يد أبي سليم فرج الخادم التركي ونزلها الناس . وكان يغزو الصائفة عبدالرحمن بن عبد الملك بن صالح ووصل سنة ١٧٥ الى اقريطية . وفى سنة ١٨١ غزا الرشيد الصائفة بنفسه فافتتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ انقرة

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجا فغزا الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل ٣٢٠ رجلا من أسارى المسلمين على ان يرحل عنهم فأجابهم الى ذلك ورحل عن حصني قرة وسنان

كان يملك الروم فى ذلك الوقت ريني وكانت فى أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ سنة ٧٨٠ ثم استبدت بالملك سنة ٧٩٠ فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من الحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها

بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوشها العداوة لان شارلمان كان يريد توسيع سلطانه واعادة دولة الرومان الى بهجتها التي كانت لها في القدم . وفي سنة ٨٠٢ نهضت عليها عصابة رومية خلعتها عن الملك وملكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب الى الرشيد من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب . أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثالها اليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي فاردد ماحصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا وبينك — فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدا أن ينظر اليه دون ان يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأي على الوزير من ان يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ان تسمعه والسلام) ثم شخص من يومه وسار حتى اناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وافاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فاجابه الى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديدا فيئس نقفور من رجعته اليه وجاء الخبر بارتداده عما اخذ عليه فما تهيأ لاحد اخبار الرشيد بذلك اشفاقا عليه وعلى انفسهم من الكرة في مثل تلك الايام فاحتيل بشاعر يكنى ابا محمد عبد الله بن يوسف فقال

نقض الذى اعطيتـه نقفور | وعليه دائرة البوار تدور
ابشر امير المؤمنـين فانه | فتح أتاك به الاله كبـير
فلقد تباشرت الرعية ان أتى | بالنقض عنـه وافد وبشـير
ورجت يمينك ان تعجل غزوة | تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده | حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها | بأكفنا شـعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلا | عنـه وجارك آمن مسرور
نقفور انك حين تغدر ان نأى | عنـك الامام لجاهـل مغرور
أظننت حين غدرت انك مفلت | هبلتك امك ما ظننت غرور
القاك حينك في زواخر بحره | فطمت عليك من الامام بحور
ان الامام على اقتسارك قادر | قربت ديارك ام نأت بك دور
ليس الامام وان غفلنا غافل | عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه | فعـدوه ابدا به مقهور
يا من يريد رضا الاله بسعيه | والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفـع من يغش امامه | والنصح من نصحائه مشكور
نصح الامام على الأنام فريضة | ولاهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من انشاده قال لوقد فعل نقفور ذلك وعلم ان الوزراء قد احتالوا له فى ذلك فكر راجعا فى اشد محنة واغلظ كلفة حتى اناخ بفنائه فلم يبرح حتي رضى وبلغ ما اراد فقال ابو العتاهية

الا نادت هرقلة بالخراب | من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا | ويبرق بالمذكرة القضاب

ورايات يحل النصر فيها   تمر كأنها قطع السحاب
امير المؤمنين ظفرت فاسلم   وابشر بالغنيمة والاياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك . وفي سنة ١٨٩ حصل فداء بين المسلمين والروم فلم يبق بارض الروم مسلم الا فودى به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم فقال مروان بن ابى حفصة يمدح الرشيد

وفكت بك الاسرى التى شيدت لها   محابس ما فيها حميم يزورها
على حين اعيا المسلمين فكاكها   وقالوا سجون المشركين قبورها

وفى سنة ١٩٠ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بارض الروم وكان دخلها فى ١٣٥ ألف مرتزق سوى الاتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له . وكان فتح الرشيد هرقلة فى شوال فأضر بها وسبي أهلها بعد مقام ثلاثين يوما عليها وولى حميد بن معيوف سواحل الشام الى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها

ثم سار الرشيد الى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور الى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق دينارين وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته فى جارية من سبي هرقلة كتابا نسخته — لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليك أما بعد أيها الملك ان لي اليك حاجة لا تضرك فى دينك ولا دنياك هنية يسيرة أن تهب لابنى جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابنى فان رأيت ان تسعفنى بحاجتى فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته — واستهداه

أيضا طيبا وسرادقا من سرادقاته فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير فى مضربه الذى كان نازلا فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع الى رسول نقفور وبعث اليه بما سأل من العطر وبعث اليه التمور والاخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد فأعطاه نقفور وقر دراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين الف درهم ومئة ثوب ديباج ومئتى ثوب بزيون واثنى عشر بازيا وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين — وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذي الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه الا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل ثلاث مئة الف دينار

وفى سنة ١٩١ غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم اليه ثلاثين الفا من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه النفقات وجميع الامور ماخلا الرياسة ومضى الرشيد الى درب الحدث فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها واصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها . وبعث محمد بن يزيد ابن مزيد الى طرسوس — فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف الى الرقة

وعلى الجملة فان قوة المسلمين كانت فى عهد الرشيد ظاهرة ظهورا بينا على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية

العلاقة مع أوربا

كان فى عهد الرشيد شارلمان بن بابن وكان ملكا على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التى كانت فى جرمانيا الى الدين العيسوى بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وايتاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير فى الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حاميا للعيسويين فى البلاد الاسلامية وخصوصا زائرى القدس فارسل الى بغداد سفراء يستجلبون رضا هرون الرشيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ما تقدم وهو اضعاف الدولة الاموية بالاندلس ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك لانه عده فوزا على نقفور ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الاكرام واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الاولى تمكنه من حرب الدولة الاموية بالاندلس وتداخله فى مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد . وقد أراد أيضا أن يغتنم غنيمة علمية فان أوربا فى ذلك الوقت كانت مهد جهالة لانه بانقراض الرومانيين وغلبة الامم المتبربرة على أوربا انطفأ مصباح العلم أما الحال فى البلاد الاسلامية فكانت على العكس من ذلك علما وعملا سواء فى ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان فى اصلاح قوانين دولته مقلدا هارون الرشيد وذهب الى أوربا اطباء تعلموا فى البلاد الاسلامية وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلا يقال له اسحاق وأرسله الى الرشيد مصحوبا ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد اسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهى ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية واوقعتهم

فى حيرة حتى هموا بكسر الساعة فنهم الامبراطور وفى ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة اذ أن الرشيد كان ينظر الى بنى أمية نظر الخارجين على دولته فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شرا

حضارة بغداد فى عهد الرشيد

وصلت بغداد فى عهد الرشيد الى قمة مجدها ومنتهى فخارها

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها بنيت فيها القصور الفخمة التى أنفق على بناء بعضها مئات الالوف من الدنانير وتأنق مهندسوها فى احكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربى كان فى الشرق قصور البرامكة وما أنشؤه هناك من الاسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربى كانت قصور الخلافة التى كانت تبهر الناظرين اتساعا وجمالا وامتدت الابنية امتدادا عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الاربعين على جانبي دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءها من الثناء وصار سكانها نحو الفى الف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها برا وبحرا تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق اذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الاقاليم الاسلامية بعد أن تقضي جميع حاجها وقد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربع مئة ألف الف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه فى مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقى يتصرف فيه حسبما يرى وهو شيء جسيم وكان الرشيد اسمح خلفاء بنى العباس بالمال يعطى منه عطاء من لا يخشى فقرا للقصاد والشعراء والكتاب والمنتجعين وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الاسفار بذكر عطاياهم التى قد يتردد الانسان فى صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الايدى فتروج التجارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حتى يقال ان جعفر بن يحيى بنى قصرا أنفق على بنائه عشرين الف الف درهم وتغالى الناس فى حاجاتهم وتأنقوا فى معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشقة بين ماعندهم وما يرون من روائها وبذخ أهلها وانغماسهم فى الملاذ واعطائهم أنفسهم ماتصبو اليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة

وأما العلم فان بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الامصار الاسلامية يرحلون اليها ليتمموا مابدؤا فيه من العلوم والفنون فهى المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدرس والافادة لتلاميذهم فى المساجد الجامعة التى كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لانسان وصف عالم أو فقيه أو محدث

أو كاتب الا اذا رحل الى بغداد وأخذ عن علمائها

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشا رغدا مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم

ولم تكن بغداد بالمقصرة فى علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد اليها الاطباء والمهندسون وسائر الصناع من الاقاليم المختلفة فاستفادوا من علوم من سبقهم من الامم فى المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجىء الكلام على النهضة العلمية فى بغداد الى زمن المأمون

أخلاق الرشيد

كان الرشيد خليفة دينا محافظا على التكاليف الشرعية أتم محافظة فاما صلاته فكان يصلى فى كل يوم مئة ركعة الى أن فارق الدنيا الا ان تعرض له علة . وكان له سمير فكه هو ابن أبى مريم المدنى كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ فى صلاته (ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون) فقال ابن أبى مريم لا أدرى والله فما تمالك الرشيد أن ضحك فى صلاته ثم التفت اليه وهو كالمغضب فقال يا ابن أبي مريم فى الصلاة أيضاً ثم قال اياك والقرآن والدين ولك ماشئت بعدهما .

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التى كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده

وأما حجه فانه كان لا يتخلف عنه الا اذا كان مشغولا بالغزو فهو فى كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات فى سنى حكمه وهى السنوات ٧٠ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٧ و٨٠ و ٨١ و٨٦ و٨٨ وكان اذا حج حج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم واذا لم يحج أحج عنه ثلاث مئة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة . دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد عظنى فقال ياأمير المؤمنين اتق الله وحده لاشريك له واعلم انك غدا بين يدى الله ربك ثم مصروف الى احدى منزلتين لاثالث لهما جنة أونار فبكى هارون حتي اخضلت لحيته فاقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يتخالج أحدا شك فى أن أمير المؤمنين مصروف الى الجنة ان شاء الله لقيامه بحق الله وعدله فى عباده وفضله — فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت اليه وأقبل على الرشيد فقال ياأمير المؤمنين ان هذا (يعنى الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولا عندك فى ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك — فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف — ودخل عليه مرة أخرى فبينا هو عنده اذاستسقى ماء فاتى بقلة من ماء فلما أهوى بها الى فيه ليشربها قال له ابن السماك على رسلك ياأمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لومنعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها — قال بنصف ملكى — قال اشرب هنأك الله — فلما شربها قال له اسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا

كنت تشتريها قال بجميع ملكي قال ابن السماك ان ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون — ولا يزال الملوك بخير ماسمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الامة بخير ما كان فيهامن يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم

وأما جهاد الرشيد فانه كان لا يترك الخروج مع جنده بل كان غالبا فى مقدمتهم حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره انه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبى حفصة

وسدّت بهارون الثغور وأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصرٍ لواؤه ... له عسكر عنه تَشَظّى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ... على الرغم قسرا عن يدٍ وهو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غاز حاج فكان يلبسها فقال أبو المعالى الكلابى

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففى أرض العدو على طِمِرٍّ ... وفى أرض الترفه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق ... من المتخلفين على الامور

لذلك كانت الخلافة لعهده فى أعلى درجات مهابتها واحترامها فى الداخل والخارج

كان الرشيد يقتفى آثار المنصور ويعمل بها الا فى بذل المال وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخر ذلك فى اول ما يجب ثوابه . وكان يحب الشعر والشعراء ويميل الى أهل الادب والفقه ويكره المراء فى الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له وبالحرى لا يكون فيه ثواب وكان

يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالى . وعطاياه للشعراء والادباء تكاد تخرج عما يعقل

والخلال التى كانت واضحة فى أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولا رحمة فكان يقود الجيوش بنفسه الى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائر وكان اذا بلغه عن أحد من رعيته ما يريبه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه واذا وقع عدوه فى يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له وقلما كان يعفو وبهذا فضله ابنه المأمون كما سيجيء فى تاريخه

واشتهر ان الرشيد كان يشرب النبيذ الذى يرخص أهل العراق فى شربه وكان يسمع الغناء ويثيب عليه أعظم ثواب ولذلك اشتهر فى زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعدهم مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالاغانى لابى الفرج الاصبهانى

ولا مراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له فان ذلك أكثر الجاسوسية فى عهده وصار المتقربون يتقربون اليه بما يتلقفونه من أخبار السوء حتى فقد اعظم وزرائه وأحسنهم أثرا وأعلاهم كعبا واستبقى الفضل بن الربيع لان أخباره ما كانت تنقطع عنه يوما

وفاة الرشيد

خرج الرشيد من بغداد فى خامس شعبان سنة ١٩٢ قاصدا خراسان عند ما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمد

الامين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد فى مسيره حتى وافى مدينة طوس فى صفر سنة ١٩٣ وهنالك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ وصلى عليه ابنه صالح لان المأمون كان قد سبقه الى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة

وكان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكرا وأربع بنات فذكور أولاده محمد الامين من زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر وعلى من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادى — وعبد الله المأمون والقاسم المؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو على ومحمد أبو احمد وهم لامهات أولاد شتى

وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية

الخراج

أثر جليل من عهد الرشيد

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الاسلامية فى النصف الثانى من القرن الثانى وهو كتاب الخراج للفقيه أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى صاحب الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ — ١٨٢)

كان خليفة المسلمين فى هذا التاريخ خامس بنى العباس هارون

الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور وكان قاضى قضاته أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته كما كان أبوه المهدى من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائما بما يجب عليه من مصالح الامة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب الى قاضيه الاكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الاسئلة فى رسالة عظيمة الشان وسمت بكتاب الخراج وهى التى جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة

لم يكن أبو يوسف فى رسالته ذلك الفقيه الجاف الذى هو فى خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتورا منقولا من مسطر سبق به أو ذلك المفتى الضعيف ينظر الى غرض المستفتى فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذى سبر حال الامة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذى أوحى الله به الى رسوله صلى الله عليه وسلم لاصلاح حال الامة فجال فى ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علما بتاريخ المسائل التى يفتى فيها . فبينا تراه واعظا لا يخاف فى الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعا وأقواها تأثيرا يوجهها الى امامه مع رعاية الادب واللياقة اذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الامور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت

تستخرج منه لطائف التاريخ اذا بك تراه يستنبط الاحكام من تلك الوقائع مستنا بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر مايفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التى يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الامام الى مخازيهم ويرفع صوته طالبا اجراء العدالة فيهم ويشير على امامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل فى ذلك ليكون ناجيا بين يدى الله سبحانه وتعالى الذى جعله كفيلا لحقوق الرعية

هذا هو الكتاب الجليل الذى يعطى من قرأه صورة هى غاية الجمال والكمال لذلك الفقية المقدم

وغرضنا التعريف بما انتظمه هذا الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها فى هذا العصر واذا كان عندنا كلمة نقولها لايضاح شئ مما قد يحتاج الى الايضاح نبهنا عليها

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور

الاول بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الاموال

الثانى بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الاموال

الثالث بيان بعض الواجبات التى يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به

ونحن نتكلم فى ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لان القصد تقريبه الى النفوس من أسهل الطرق

موارد بيت المال

يتبين من كتاب الخراج ان موارد بيت المال تنقسم بحسب مايجب أن تصرف فيه الى ثلاثة أقسام

الاول — خمس الغنائم

الثانى — الخراج

الثالث — الصدقات

الغنائم

الغنيمة كل ماأصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وماأجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع . وجعل منها أبو يوسف ماأصيب من المعادن من قليل أو كثير . والركاز وهو الذهب والفضة الذي خلقه الله فى الارض يوم خلقت — والكنوز العادية التى تصاب فى غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو ان الامام خمسه . أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقا للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقا للواجد فيما عداها

ويقسم الامام أربعة الاخماس على القائمين سواء فى ذلك أهل الديوان والمتطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهمان له وسهمان لفرسه وللراجل سهم وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال للفارس سهمان وللراجل سهم وقال للرشيد نخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فان ذلك موسع عليك ان شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين

مصرف الخمس

بين الله فى كتابه مصرف الخمس فى الآية من سورة الانفال حيث يقول « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » قال أبو يوسف فكان ذلك الخمس يقسم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لله وللرسول سهم ولذى القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وروى عن ابن عباس أنه قال عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضى عن غارمنا فابينا الا أن يسلمه لنا وأبى علينا . ومع ان ذلك كان رأي على بن أبي طالب رضى الله عنه فانه قسم الخمس كما قسمه سلفه

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوى القربى فى الكراع والسلاح . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوي القربى الى بنى هاشم . قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ماقسمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وأقول رأى الشافعي محمد بن ادريس المطلبي رحمه الله ان سهم الرسول يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن ينتسب الى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى فى العطاء بين الاغنياء والفقراء لان سبب الاستحقاق القرابة ويشترك فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر

والأنثى كما قال المزنى وأبو ثور من أصحاب الشافعى وللذكر مثل حظ الانثيين كما قال غيرهما — وبقول الشافعى قال احمد الا أنه قال ان ردوه صرف فى السلاح والكراع لفعل أبى بكر وعمر وعثمان

الخراج

المورد الثانى من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء

(١) وظيفة الارض الخراجية

(٢) جزية أهل الذمة

(٣) ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب

وظيفة الارض الخراجية

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب اليه بعض ذوي الرأى من الصحابة أن يقسم الارض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه فى ذلك فابى عليهم مستندا الى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا الفئ حقا للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم ذكر ذلك فى سورة الحشر حيث قال — « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » « والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك

هم المفلحون » « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم »

فجعل هذا الفيء حقا للمهاجرين والانصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الارض بين الغانمين لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتى بعدهم شيء بل ترك الارضين والانهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات الجنود وغير ذلك ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله ان هذه الارضين المفتوحة عنوة يخير فيها الامام فان شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وان لم ير قسمها ورأى الصلاح فى اقرارها فى يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك مالا يطيقون

واذا يكون حد أرض الخراج — كل ارض من ارض الاعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الامام وأبقاها بايدى اهلها او صالحهم عليها وصيرهم ذمة

ويخرج من ذلك انواع من الاراضى لا يوضع عليها الخراج وانما تكون ارضا عشرية وهى

(١) كل ارض للعرب غير بنى تغلب

(٢) كل ارض من ارض الاعاجم أسلم عليها اهلها طوعا

(٣) كل ارض من ارض الاعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الامام بين الغانمين . وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على ارض الخراج

مافعله عمر فى أرض الخراج

لما اتضح لعمر رأيه فى الارض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت ٣٦،٠٠٠،٠٠٠ جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم والاطعمة حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك وهذه الوظيفة تختلف من درهمين الى عشرة دراهم على الجريب فاقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم فى رواية وثمانية فى أخرى وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقفيز وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم وقال ان جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درهم

أقول واذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ماذكرنا يكون متوسط جباية الجريب ٢،٧٥ درهم وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التى كانت تؤخذ على أجربة الحنطة لان هذا المتوسط بدونها لا يصلح الا اذا كان معظم الارض يزرع شعيرا وهو بعيد . وقال ابن خرداذبه ان عمر جبا العراق ١٢٨،٠٠٠،٠٠٠ درهم فيكون متوسط جباية الجريب ٣،٥٥ درهم وهو أقرب الى المفهوم ولا بد أنه لم يعتبر فى ذلك أجربة القمح . والجريب اسم لستين ذراعا فى ستين بذراع الملك وهى ٥٧،٧٧ م وبالتكسير تكون مساحة الجريب ١٢٠٠ م فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصري . ولا بد أن ننبه هنا على مارأيناه فى كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب ارتين باشا الموسوم بالاحكام المرعية فى الاراضى المصرية فانه روى عن قدامة ان الجريب اسم لستين ذراعا فى ستين بذراع الملك وظن ان ذراع

الملك هي الذراع السوداء فوقع فى الخطأ الحسابى الذى أنتج له ان كل أربعة أجربة و٤/٥ جريب تعادل فدانا مصريا مع أن هناك اختلافا بين الذراعين كما ذكره الماوردى فى كتابه الاحكام السلطانية حيث قال ان ذراع الملك تزيد على الذراع السوداء بخمس أصابع وثلثى أصبع فتكون ذراعا وثمنا وعشرا أى ذراعا و ٩/٤٠ وحقق العلامة المرحوم على مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هى ٥/٤ فتكون ذراع الملك ذراعا وربعا بالسوداء وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الاكبر باربعمئة ذراع بذراع التجار و٥٠٠ بالذراع السوداء وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على ٤٠٠، ٥٠٠ يخرج هذان الرقمان ٥٧،٧٧ س وهو طول ذراع الملك و٤٦،٢٢ س وهو طول الذراع السوداء

واذا كان كل ٣،٥ جريب فدانا تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحا ١٤ درهما

هذا هو الخراج الموظف الذى رآه عمر

لم ير أبو يوسف رحمه الله ماقرره عمر رضى الله عنه فى أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمرا لازما لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء اذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين فى المقاسمة أن يعدلوا اليها . وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج فى هذا الأمر فرأى ان تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج . م وظيفة الطعام فان كان رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذى وظف عليهم ولم يطب نفسا بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور . وان كان غلاء فاحشا لايطيب السلطان نفسا بترك مايستفضل أهل الخراج

من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لايقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم . ثم قال . وأما مايدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوي على الضعيف ثم قال ـ ولم أجد شيئا أوفر على بيت المال ولا أعفى لاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولاهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل . وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعا على خمسين للسيح منه وأما الدوالى فعلى خمس ونصف وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص فى شيء من ذلك ولا يحزر عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات فى أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر ثم يؤخذ منهم مايلزمهم من ذلك أى ذلك كان أخف على اهل الخراج فعل ذلك بهم وان كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم . ومن رأى ابي يوسف اعفاء مادون خمسة أوسق من الخراج وهى ٣٠٠ صاع أو ١٦٠٠ رطل وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله

وقد أشار ابو يوسف بان يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد الا بقدر ما يمكن الديس فاذا أمكن الدياس رفع الى البيادر ولا يترك بعد امكانه للدياس يوما واحدا لئلا تذهب به الاكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج واذا رفع الى البيادر وصير اكداسا أخذ فى دياسه ولا يحبس الطعام اذا صار فى البيادر الشهر

والشهرين والثلاثة لا يداس فان فى حبسه فى البيادر ضررا على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ماف البيادر ولا يحزر عليهم حزرا ثم يؤخذون بنقائص الحزر فان هذا هلاك لاهل الخراج وخراب للبلاد واذا ديس الطعام وذرى قاسمهم

ثم قال ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفاز ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا اجور الكيالين ولا مؤنة لاحد عليهم فى شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ولا يؤخذن بثمن الاتبان ويقاسمون الاتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أو تباع فيقسم ثمنها على ماوصفت من القطيعة فى المقاسمة ولا يؤخذ منهم ماقد يسمونه رواجا لدراهم يؤدونها فى الخراج فانه بلغنى ان الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل فى دراهم خراج ولا يقام على رجله فانه بلغنى انهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع فى الاسلام

من أجل ذلك نرى أبا يوسف رحمه الله دقق كثيرا فى أمر من يولى جباية الخراج فاشار على أمامه أن يكون والى ذلك فقيها عالما مشاورا لأهل الرأى عفيفا لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ماحفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته ان شهد ولا يخاف منه جور

في حكم ان حكم . ثم قال: انى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج اذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ولعله لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك . ثم قال : وتقدم الى من وليت أن لا يكون عسوفا لاهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم لكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا او يحملوا مالا يجب عليهم واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وانصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس . ثم قال : وانى لارجو ان أمرت بذلك وعلم الله من قلبك ايثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت ان شاء الله . ولتصير مع الوالى الذى وليته قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك فان من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمر باجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ولا تجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سدا لضرر أهل الخراج ونقص الفئ

ورأى مع هذا كله أن يبعث الامام قوما من اهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى الخراج وكيف جبوه على ما أمروا به وعلى ماوظف على اهل الخراج واستقر فاذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الاخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما

عهد اليهم فيه فان كل ماعمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانما يحمل على انه قد أمر بغيره وان أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وان لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترؤا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم واذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجان شئ من الفئ أو خبث طعمته أو سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وان تقلده شيئا من أمور رعيتك أو تشركه فى شئ من أمرك

تقبيل الارض

كان النظام المتبع في جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الاشخاص قبيلا أى كفيلا بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الارض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين مادفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام فقال للرشيد ورأيت ألا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد فان المتقبل اذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ولعله يستفضل بعد ما يتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد واقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الاعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه انما أمر

الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم ٠
وانما أكره القبالة لأني لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على اهل الخراج
ماليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ماعمروا
ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقل مع الصلاح
شيء ان الله قد نهى عن الفساد في الارض فقال — لا تفسدوا في الارض
بعد إصلاحها — وقال — واذا تولى سعي في الارض ليفسد فيها ويهلك
الحرث والنسل والله لا يحب الفساد — وانما هلك من هلك من الامم
بحبسهم الحق حتى يشترى منهم واظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم والحمل على
أهل الخراج ماليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذي لا يحل ولا
يسع — واختار أبو يوسف التقبل اذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا
هو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت
المال حتى يمنعه من ظلم ان أراده والاعذار الى المتقبل والوالي برفع الظلم
عن الرعية والوعيد له ان حملهم مالا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم
فان فعل فقوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا له وناهيا لغيره ان شاء الله

القطائع

القطائع جمع قطيعة وهي ما يمنحه الامام من الارض لبعض المتازين
لفعالهم من الرعية

قال أبو يوسف رحمه الله ان عمر رضي الله عنه بعد أن فتح العراق
اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في
يد أحد أو لرجل قتل في الحرب أو لحق بارض الحرب وكانت مساحة

مااصطفاه من هذه الارض ٤٠٠٠٠٠٠ جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع قال أبو يوسف وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لاحد ولا فى يد وارث فللامام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الاسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به فكذلك هذه الارض — ثم قال — فاما من أخذ من واحد وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحدا

والامام مخير فى هذه الارض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية ان كانت تسقى من أنهار الخراج — قال أبو يوسف وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضا من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الاصناف التى ذكرنا ان الامام يقطع منها فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدي من هو فى يده وارثا أو مشتريا — فاما ماأخذ الولاة من يد واحد ارضا وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحدا وأعطى آخر فلا يحل للامام ولا يسعه أن يقطع احدا من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئا الا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذى وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والارض عندى بمنزلة المال فللامام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء فى الاسلام ومن يقوى على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى انه خير للمسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الارضون يقطع منها الامام من أحب من الاصناف التى سميت ولا أرى ان يترك ارضا لا ملك لاحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك اعمر للبلاد واكثر للخراج — فهذا حد الاقطاع عندى على ماأخبرتك — ومن رأى ابي يوسف ان أرض

الاقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤنة فى حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الارض

ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتى ذكره

موات الارض

قال ابو يوسف لو ان بلادا فتحت عنوة او صلحا وفى بعض قراها ارض كثيرة لايرى عليها أثر زراعة ولا بناء لاحد وليست مرافق لقرية من القرى فهى موات فمن احياها فهى له وللامام ان يقطع ذلك من أحب وله ان يؤاجره ويعمل بما فيه الصلاح وقد خالف شيخه ابا حنيفة رحمه الله فى احياء الموات فان الامام يقول لايملك المحيي ما أحيا الا باذن الامام قال ابو يوسف وانما قال ذلك ابو حنيفة كيلا يتنازع الناس

واذا كانت الارض الموات فى أرض العشر أدى عنها العشر وان كانت فى أرض الخراج أدى عنها الخراج وان احتفر لها بئراً أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر أما ان ساق اليها ماء الخراج فهى أرض خراج

قال أبو يوسف وايما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لاحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج فهى له وليس للامام أن يخرجها من يده

وجعل من الارض الموات ما ينكشف من الجزر فى دجلة والفرات اذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها نضب عنها الماء وزرع فيها فهى له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ماعوليج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع ما فيها من القصب وكذلك ما عولج من

الأنهام — كل ذلك مشروط بالا يكون للارض مالك أوذو يدأومرتفق فان المحافظة على حقوق ارتفاق الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف حتى منع من انشاء الغروب في دجلة اذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التى تمر فى دجلة ومن فعل من ذلك شيئاً فعطبت به سفينة فهو ضامن قال ابو يوسف ولا يترك الامام شيئا من ذلك الا أمر به فهدم ونحى فان فى هذا ضررا عظيما فالفرات ودجلة انما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئا فمن أحدث فيه شيئا فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلا ثقة أمينا حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئا فى دجلة والفرات فى موضع يضر بالسفن ولا يتخوف عليها منه الانحاه وتوعد أهله على اعادة شيء منه فان فى ذلك أجرا عظيما .

وتكلم طويلا فى المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها

المورد الثانى من موارد الخراج جزية أهل الذمة

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم . وذلك انهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية — روى الطبرى فى حوادث سنة ٢٢ من الهجرة أن عبد الرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهر براز فقال له انى بازاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون الى أحساب وليس ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الاحساب والاصول وذو

الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج فى شىء ولا الارمن وانكم قد غلبتم على بلادي وأمتى فانا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم — فقال عبد الرحمن فوقى رجل فسر اليه فجوّزه فسار الى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزاء تلك السنة . وكتب سراقة الى عمر بن الخطاب بذلك فاجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتابا

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين اذ ذاك فى أمر الجزية قال أبو يوسف ان الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ما خلا نصارى تغلب واهل نجران خاصة والذى يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له — وليس فى مواشى اهل الذمة من الابل والبقر والغنم زكاة

وقد قدر ابو يوسف الجزية ثلاث فئات ٤٨ درهما على الموسرين و٢٤ على المتوسطين و ١٢ على العمال

ثم قال ابو يوسف وينبغى يا أمير المؤمنين ايدك الله أن تتقدم فى الرفق باهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من اموالهم

الا بحق يجب عليهم

اما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة هكذا فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وقد تكلم ابو يوسف على ما منح لاهل الذمة من الامتيازات فى دينهم وكنائسهم وبيعهم فقال انه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة فى اداء الجزية على الا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها وعلى ان يحقنوا لهم دماءهم وعلى ان يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان فى أعيادهم وعلى ان يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والحيرة الا اقلها على هذا فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم . ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لاهل الذمة فى الاقاليم المختلفة من هذه الشروط وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

المورد الثالث من موارد الخراج العشور

لم تكن العشور من الموارد التى ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك ان أبا موسى الاشعرى كتب اليه ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب

فيأخذون منهم العشر فكتب اليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شئ فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه . وروى ان أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب. وبعث زياد بن حدير الاسدى على عشور العراق والشام . فصار ذلك سنة فى المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج . أما مايرد من المسلمين فسبيله سبيل الصدقات ولذلك اذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذى فى يدى صدق فى يمينه

قال أبو يوسف رأيت ان تولى العشور قومامن أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وان يمتثلوا مارسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ماقد أمروا به فان كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أومأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وان كانوا قد انتهوا الى ماأمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت اليهم فانك متى اثبت على حسن السيرة والامانة وعاقبت على الظلم والتعدي بما تأمر به فى الرعية يزيد المحسن فى احسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى

وأمرتهم ان يضيفوا الاموال بعضها الى بعض بالقيمة

مصارف بيت مال الخراج

الخراج الذى يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة لانه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب ما يرى الامام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهى

(أولا) — أرزاق القضاة والولاة والعمال قال ابو يوسف فيجرى على والى كل مدينة وقاضيها بقدر مايحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليهم من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا الا والى الصدقة فانه يجرى عليه منها فاما الزيادة فى ارزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك اليك من رأيت ان تزيده منهم فى رزقه زدت ومن رأيت ان تحط من رزقه حططت ارجو ان يكون ذلك موسعا عليك وكل ما رأيت ان الله تعالى يصلح به امر الرعية فافعله ولا تؤخره فانى ارجو لك بذلك اعظم الاجر وافضل الثواب

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضى اذا صار اليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير اليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم ومالهم فاجاب سلبا وقال انما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع اذا صارت اليه مواريثه رزقا ولم تزل الخلفاء تجرى

للقضاة الارزاق من بيت مال المسلمين فامامن يوكل بالقيام بتلك المواريث في حفظها والقيام بها فيجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ماهم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والامناء ويبقى الوارث هالكا وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ولا يبالى أكثر من معهم ان يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث الا من وفقه الله تعالى منهم

(ثانياً) — اعطيات الجنود وهى مرتبات العسكر

لم يكن فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين وانما كانوا يأخذون مالهم فى أربعة أخماس مايغنمون وفيما يرد من خراج الاراضى التي أبقيت فى أيدى أهلها كارض خيبر ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم في العطاء قائلا هذا معاش فالاسوة فيه خير من الاثرة فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى فى ذلك غير رأى أبى بكر وقسم العطاء مفضلا الاسبق فالاسبق وهذا قوله بنصه : والله الذى لااله الا هو ماأحد الا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك وما أنا فيه الا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عزوجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وتلاده في الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته في الاسلام. بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتى :

١٢٠٠٠ درهم لازواج النبي صلى الله عليه وسلم ولعمه العباس

٥٠٠٠ لمن شهد بدرا من المهاجرين والانصار والحق بهم الحسن والحسين

٤٠٠٠ لمن كان اسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهدها وألحق بهم اسامة بن زيد

٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والانصار كعمر بن أبي سلمة

٢٠٠٠ لأبناء المهاجرين والانصار

٨٠٠ لاهل مكة

٤٠٠ و ٣٠٠ لسائر الناس

٦٠٠ و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠ لنساء المهاجرين والانصار

وكان يفرض لأمراء الجيوش والقرى فى العطاء ما بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٧٠٠٠ على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الامور وكان للمنفوس اذا طرحته أمه ١٠٠ درهم فاذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ فاذا بلغ زاده

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذي أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية الى ان يشتغل كثير من الامة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الامة من الجيش وكان بعض من ليس مرتزقا فى الديوان يدعوه حبه للجهاد ان يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعاً وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش

(ثالثا) — كرى الانهار واصلاح مجاريها

قال أبو يوسف رحمه الله واذا احتاج أهل السواد الى كرى أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج

وأما الانهار التي يجرونها الى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء

فأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون فى دجلة والفرات وغيرها من الانهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء لان مصلحة هذا على الامام خاصة لانه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لان عطب الارضين من هذا وشبهه وانما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك الا رجل يخاف الله يعمل فى ذلك بما يجب عليه لله قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل فى ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم . ثم وجه من يتعرف ما يعمل به واليك في هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها مما قد يحتاج الى العمل وما تفجر وما السبب فى انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لامره أو ذم وانكار وتأديب

(رابعا) — حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة فاذا تبين الامام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت

المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فانهم أن يعمروا خير من أن يخربوا وأن يفرُوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا

(خامسا) — الاجراء على المسجونين

قال جوابا لسؤال الرشيد عنهم لا بد لمن كان فى مثل حالهم اذا لم يكن له شىء يأكل منه لامال ولا وجه شىء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب الى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فانه لا يحل ولا يسع الا ذلك قال والاسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن اليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يترك يموت جوعا وانما حمله على ماصار اليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجرى على أهل السجون مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن ابى طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده

قال أبو يوسف فمر بالتقدير لهم مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك اليهم فانك ان اجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن من تجرى عليهم الصدقة وتكون الاسماء عنده ويدفع ذلك اليهم شهرا بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك اليه فى يده فمن كان منهم أطلق وخلى سبيله رد ما يجرى عليه ويكون للاجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد — وليس كل من فى السجن يحتاج الى ان يجرى عليه وكسوتهم فى الشتاء

قيص وكساء وفى الصيف قيص وازار ويجرى على النساء مثـل ذلك وكسوتهن فى الشـتاء قيص ومقنعة وكسـاء وفى الصيف قميص وازار ومقنعة وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فان هـذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا واخطؤا وقضى الله عليهم ماهم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هـذا باسارى المسلمين الذين فى ايديهم فكيف ينبغى ان يفعل هذا باهل الاسلام وانما صاروا الى الخروج فى السلاسل يتصدقون لماهم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا وان ابن آدم لم يعرَ من الذنوب فتفقد امرهم ومر بالاجراء عليهم مثل مافسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولاقرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فانه بلغنى واخبرنى به الثقات انه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث في السـجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى في دفنه وحتى يجمع اهل السـجن من عندهم مايتصـدقون ويكترون من يحمله الى المقابر فيدفن بلا غسـل ولا كفن ولا صلاة فما أعظم هـذا في الاسلام وأهله

المورد الثالث من موارد بيت المال الصـدقات وهى ما يؤخذ من المسلمين .

(اولا) من انعامهم وهى الابل والبقر والغنم على حساب معين فى الفقه الاسلامى

(ثانيا) من نقودهم التى هى الذهب والفضة باعتبار ٢,٥ بالمئة

(ثالثا) من أموال تجاراتهم ومنها مايمرون به على العاشر يؤخذمنهم

كذلك باعتبار ٢,٥ بالمئة

(رابعا) مايؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهي اعشار الارض يؤخذ مما سقى بدون مؤنة العشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر

قال أبو يوسف رحمه الله ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات في البلدان ومره فليوجه فيها اقواما يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم واماناتهم يجمعون اليه صدقات البلدان فاذا جمعت اليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولا تولها عمال الخراج فان مال الصدقة لا ينبغى أن يدخل في مال الخراج وقد بلغنى ان عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم فى الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون مالا يحل ولا يسع وانما ينبغى أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فاذا وليتها رجلا ووجه من قبله من يوثق بدينه وامانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ماترى ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة

مصارف الزكاة

الزكاة تصرف بالنص الى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله »

قال ابو يوسف فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية فى ذلك أكثر الأئمة) والعاملون عليها يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم فللفقراء والمساكين سهم

والغارمون وهم الذين لايقدرون على قضاء ديونهم سهم وفى ابناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفى الرقاب سهم وسهم فى اصلاح طرق المسلمين ويقسم سـهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة فى أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على اهل مدينة اخرى وأما غيره فيصنع به الامام ما أحب من هذه الوجوه التى سمي الله تعالى فى كتابه وان صيرها فى صنف واحد ممن سمى الله تعالى أجزاه



(٦) الامين

هو محمد الامين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمى أبا وأما ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء الا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولابنه الحسن

ولد سنة ١٧٠ من الهجرة وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ وكان قائما مقام أبيه ببغداد حينما سافر الى خراسان ولما مات الرشيد بطوس بويع له فى عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر الى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر فى الخلافة الى أن قتل فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات الا اربعة أشهر تقريبا

الحال الداخلية لذلك العهد

كانت هذه المدة التى وليها الامين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الاخوين الأمين والمأمون وكادت الامة تذهب بينهما ضياعا وسبب ذلك مافعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها فى الأمة

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس ان جميع من معه من الجند مضمومون الى المأمون وان جميع مامعه من مال وسلاح وآله وغير ذلك للمأمون . ولما علم الامين وهو ببغداد مرض أبيه وانه لما به أرسل من يفيده الاخبار كل يوم وأرسل كتبا تسلم الى من أرسلت اليه بعد وفاة

الرشيد . فلما توفى كان من تلك الكتب كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد وللقاسم المؤتمن بعده . ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذى صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التى اشترطها الرشيد وأمره بالمسير اليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له فى الكتاب واياك أن تنفذ رأيا او تبرم أمرا الا برأى شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع . وفيه . وان أمرت لاهل العسكر بعطاء أو ارزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لاعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين فان الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الامور

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا فى اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك شبة منهم للحوق باهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم [illegible] الامور

[illegible] ومن معه من قواد أبيه [illegible] فاستحل [illegible] بقوله [illegible] الى محمد ولكن [illegible] البيعة وتسألهم

الوفاء وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدين والدنيا ففعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره .

لما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضرا فازال عنه الانزعاج واملة فى الخلافة فجعل أمره اليه وامره ان يقوم به بعد ان رفضه كبار القواد الذين معه . فكان من اول تدبيره ان يبعث الى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم الى الحق والعمل به واحياء السنة وان يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريبا من نفوس الجمهور ففعل

ولم يبدأ المأمون أخاه بشىء يريبه بل تواترت كتبه اليه بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح

اما الامر فى بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فان الفضل بن الربيع بعد مقدمه العراق ناكثا للعهود التى كان الرشيد اخذها عليه للمأمون رأى ان الخلافة ان افضت الى المأمون يوما وهو حى لم يبق عليه فحث محمدا على خلعه وان يولى العهد من بعده ابنه موسي ولم يكن ذلك من رأى محمد ولاعزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به ان كتب الى جميع العمال فى الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم . فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه ان الامين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاه من الاعمال وأقدمه بغداد علم انه يدبر فى خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز

كرر الأمين تجربته فكتب الى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الري وأمره ان يبعث اليه بغرائب غروس الري مريدا بذلك امتحانه فبعث اليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته

ثم بعث الامين الى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد ان يطلبوا من المأمون رضاه بتقديم موسى ابن الامين على نفسه في ولاية العهد فلما اطلع المأمون على مرادهم رد ذلك وأباه وعرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى ان يكون عونا لهم ومنوه الامانى ان هو أجاب الى ذلك فرضي وكان بعد ذلك يكتب اليهم بالاخبار ويشير عليهم بالرأى . عاد الوفد الى الامين وأخبروه بامتناع المأمون

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع بل ما زال يلح بالامين حتى رضي ان يخلع المأمون.ويبايع لابنه موسى بولاية العهد. ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شيء من المنابر ووجه الى مكة كتابا مع رسوله من حجبة البيت فى أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما الى بغداد فمزقا

وكان الامين قبل ان يكاشف أخاه بذات نفسه أرسل اليه يسأله ان يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها وان يوجه العمال اليها من قبل محمد وان يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره فكتب اليه جواب ذلك

بلغنى كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافى عن مواضع سماها مما أثبته

الرشيد فى العقد وجعل أمره الىّ وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره غير ان الذى جعل الى الطرف الذى أنا به لاظنين فى النظر لعامته ولا جاهل بما أسند الى من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التى أنا عليها من أشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها الا بالاموال وطرف من الافضال لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يحب من لم أطرافه مايوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد وانى لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته الى ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان ان شاء الله

وكان المأمون قد وجه حارسة الى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الامناء ولا يدعه يستعلم خبرا ولا يؤثر أثرا ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحدا ولا يبلغ أحدا قولا ولا كتابا — فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة او ان تودع صدورهم رهبة ويحملوا على منول خلاف أو مفارقة — ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لايجوز عليهم الا من لا يستريب [illegible] في أمره ممن اتى بجواز فى مخرجه الى دار مأمنه [illegible] نفسه ودينه ومنع الاشتات من جواز [illegible] بغداد فى ميئة [illegible] [illegible] امر صاحبه فلم يدع [illegible] الا [illegible] ورواده ان يبثوا شيئا فى عامة اهل خراسان . ولما أتت رسل الامين بجواب كتب الامين

وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعا عنهم موصدا بابه دونهم . وكان كتاب الامين للمأمون

اما بعد فان امير المؤمنين الرشيد وان كان افردك بالطرف وضم ماضم اليك من كور الجبل تأييدا لامرك وتحصينا لطرفك فان ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيا لحدثه ثم تتجاوز بعد الكفاية الى ما يفضل من رده وقد ضم لك الى الطرف كورا من امهات كور الاموال لا حاجة لك فيها فالحق فيها ان تكون مردودة فى اهلها ومواضع حقها فكتبت اليك اسألك رد تلك الكور الى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفا الى مواضعها وان تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدى الينا علم ما نعنى به من خبر طرفك فكتبت تلط دون ذلك بما از تم امرك عليه صيرنا الحق الى مطالبتك فاثن من همك أثن عن مطالبتك ان شاء الله . فلما قرأ المأمون كتابه كتب اليه

أما بعد فقد بلغنى كتاب امير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل ما كشف له عن وجهه — ولِمَ يسأل مالا يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك اجابة وانما يتجاوز المناظر ان منزلة النصفة ماضاقت النصفة عن اهلها فمتى تجاوز متجاوز وهو موجودة الوسع ولم يكن تجاوزها الا عن نقضها واحتمال مافي تركها فلا تبعثنى يا ابن ابى على مخالفتك وانا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وانا علي ايثار ماتحب من صلتك وارض بما حكم به الحق فى أمرك اكن بالمكان الذى انزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام

فلما وصل الكتاب الى الامين اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له علي المنابر وكتب اليه

أما بعد فقد بلغني كتابك غامطا لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها متعرضا لحراق نار لاقبل لك بها ولحظك عن الطاعة كان أودع وان كان قد تقدم مني متقدم فليس بخارج من مواضع نفعك اذ كان راجعا على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال المدنة فاعلمن رأيك أعمل عليه ان شاء الله .

لم يكن لهذه المكاتبات بين الاخوين نتيجة لانه كان لكل منهما سائق يسوقه فالأمين الفضل بن الربيع الذي لم يكن يحب المأمون ولا ولايته وللمأمون الفضل بن سهل الذى كان يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمتها

بلغ المأمون ماأقدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهد وترك الدعاء له فكان أول مافعله الفضل بن سهل من التدبير أن جمع الاجناد التي كان أعدها بجنبات الرى مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يدا بسوء فى عامة ولا مجتاز ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن الحسين الخزاعى مولاهم فسار طاهر مغذا لايلوى على شئ حتى ورد الرى فنزلها ووكل بأطرافها ووضع مسالحه وبث عيونه وطلائعه

أما الفضل بن الربيع فانه اختار لجند العراق على بن عيسى بن ماهان وولاه الأمين كور الجبل كلها نهاوند وهمذان وقم واصفهان وأعطى جنده من الارزاق شيئا كثيرا وأمدهم بالسلاح والعدة فشخص من بغداد فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٩٥ وكان معه زهاء أربعين ألفا وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شاعت زبيدة أم الامين وقد خدم

الأمين أخاه بهذا التميين خدمة عظيمة فان أهل خراسان لم ينسوا ماعاملهم به علي بن عيسى من الفظائع مدة ولايته فى عهد الرشيد فكان تعيينه لحربهم مما أثار فى قلوبهم الحمية لرد هذا العدو بعد أن أبدلهم الله خيرا منه عدلا ورفقا وحسن سياسة وهو عبدالله المأمون . ومما كان ينذر بالشر جند الأمين عدم احتفال قائده بلقاء عدوّه فانه لما بلغه ان طاهر بن الحسين مقيم بالرى كان يضحك ثم يقول وماطاهر فوالله ماهوالا شوكة من أغصانى أو شرارة من نارى وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت الى أصحابه فقال والله ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف الا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان فان السخال لاتقوى على النطاح والثعالب لاصبر لها على لقاء الاسد فان يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظبات السيوف وأسنة الرماح . ولما صار فى أول بلاد الرى أتاه صاحب مقدمته وقال لو كنت أبقى الله الامير اذكيت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعا تعسكر فيه وتتخذ خندقا لاصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ فى الرأى وآنس للجند — فقال لا ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ ان حال طاهر تؤول الى أحد أمرين اما أن يتحصن بالرى فيبهته أهلها فيكفونا مؤونته أو يخليها ويدبر راجعا لو قربت خيولنا وعسكرنا منه — وأتاه يحيى بن على فقال اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا تسرح الخيل الا ومعها كنف من القوم فان العساكر لا تساس بالتوانى والحروب لا تدبر بالاغترار والثقة أن تحترز ولا تقل المحارب لى طاهر فالشرارة الخفية ربما صارت ضراما والثلمة من السيل ربما اغتربها وتهون فصارت بحرا عظيما وقد قربت عساكرنا من

طاهر فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر الى يومه هـذا . فقال له اسكت فان طاهرا ليس فى هـذا الموضع الذي ترى وانما يتحفظ الرجال اذا لقيت أقرانها وتستعد اذا كان المناوى لها أكفاءها ونظراءها

وبينما كان هذا القائد يسير مدلا بنفسه وبمن معه مستخفا بعـدوّه كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواقعة عدو أكثر منه عددا وعدة وقد اسـتقر رأيه على ان يجعل مدينـة الرى وراء ظهره ويقاتل بعيدا عنها فعسكر على خمسة فراسخ منها واقبل اليه على بن الحسين وقد عبأ جنده وهم فى اكمل عدة وأحسن زى فـكتب طاهر كتائبـه وكردس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد قائد وجماعة جماعـة يعظهم ويثبتهم ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا فحملت ... على على ميسرة طاهر ففضتها فضا منكرا و ... ميسرته على ... عن ... موضعها فقال طاهر اجعلوا بأسكم وجدكم على الكراديس القائمة فانكم لو قد فضضتم منها راية واحـدة رجعت أوائلها على أواخرها فصبر اصحابه صبرا صادقا ثم حملوا على أولى رايات من راياتهم فهزموهم وأكثروا فيهم القـتل ورجعـت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنـة طاهر وميسرته ما صنـع أصحابه فرجعوا على من كان فى وجوههم فهزموهم وانتهت الهزيمة الى عليّ ورماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السـيوف حتى حال الليل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر فى أصحابه على من وضع سلاحه فهو آمن فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر الى الرى وكتب الى الفضل بن سهل أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشانئك فداءك كتبت اليـك ورأس علىّ بن عيسى فى حجرى

وخاتمه في يدي والحمد لله رب العالمين — فلما وصل الكتاب الى الفضل نهض فسلم على المأمون بامير المؤمنين . — وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب حبل الدين

وصل هذا الخبر بغداد على غير ماينتظر القوم فانتخب الامين جيشا ثانيا جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن جبلة الابناوى وعدة هذا الجيش عشرون ألف رجل من الابناء وحمل معه الاموال وقواه بالسلاح والخيل وأجازه بجوائز وندب معه فرسان الابناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم وأوصى قائده بالتحفظ والاحتراس وترك ما عمل به على بن عيسى من الاغترار والتضجع فسار عبد الرحمن حتى نزل همذان فضبط طرقها وحصن سورها وأبوابها وسد ثلمها وحشر اليها الاسواق والصناع وجمع فيها الآلات والمير واستعد للقاء طاهر ومحاربته . ولما بلغ طاهرا خبره توجه اليه حتى أشرف على همذان فخرج اليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتتل الفريقان قتالا شديدا الى أن انهزم عبد الرحمن ودخل همذان فلبث فيها حتى قوى أصحابه واندملت جراحهم ثم خرج ثانية الى اللقاء فلقيه طاهر وفعل به مافعل فى المرة الاولى فعاد الى همذان فحصره فيها طاهر حتى جهد من قلة المادة فطلب الامان له ولمن معه فأمنه طاهر

ولما تم لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوين

كان ذلك سببا لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعا أسد بن يزيد بن مزيد وهو من قواد الدولة المعدودين وقال له انت فارس العرب وابن فارسها فزع اليك الامين فى لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران — أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك والثانى

يمن نقيبتك وشدة بأسك وقد أمرني بازاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فانجز حوائجك وعجل المبادرة الى عدوك فانى أرجو أن يوليك الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة — فلم يمتنع أسد وانما طلب لجنده مطالب هى أن يؤمر لاصحابه برزق سنة ويخص من لا خاصة له منهم من أهل الغناء والبلاء وأبدل من فيهم من الزمنى والضعفاء وأحمل الف رجل ممن معي على الخيل ولا أسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور — فقال له الفضل قد اشتططت ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين ثم ركبا اليه فدخل عليه الفضل أولا ثم دخل أسد فما كان بينهما الا كلمتان حتى غضب الامين وأمر بحبس أسد — ثم قال هل فى أهل بيت هذا من يقوم مقامه فانى أكره أن استفسدهم مع سابقتهم وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم فقالوا نعم فيهم احمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقة وأصلحهم نية فى الطاعة وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فاستدعاه محمد وقال له انه قد كثر على تخليط ابن أخيك وتنكره وطال خلافه على حتى أوحشني ذلك منه وولد فى قلبي التهمة له وصيرني بسوء المذهب وحنث الطاعة الى أن تناولته من الادب والحبس بما لم أحب أن أكون أتناوله به وقد وصفت لى بخير ونسبت الى جميل فاحببت أن أرفع قدرك وأعلى منزلتك واقدمك على اهل بيتك وان أوليك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة واعرضك للأجر والثواب فى قتالهم ولقائهم فانظر كيف تكون وصحح نيتك وأعن أمير المؤمنين على اصطناعك وسره فى عدوه ينم سرورك وتشريفك . ثم امر الفضل ان يدفع اليه دفاتر اسد

وأن يضم اليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والاعراب — فخرج احمد فانتخب الرجال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين الف رجل — ووجه الامين عبدالله بن حميد بن قحطبة فى عشرين الفاً أخرى وامرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهرا عنها وتقدم اليهما فى اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة — فتوجها حتى نزلا قريبا من حلوان بخانقين

أما طاهر فانه اقام بموقعه وخندق عليه وعلى اصحابه ودس العيون والجواسيس الى عسكرى عدوه فكانوا يأتونهم بالاراجيف ولم يزل يحتال فى وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض امرهم وقاتل بعضهم بعضا فاخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير ان يلقوا طاهرا فتقدم طاهر حتى نزل حلوان — ثم لم يلبث الا قليلا حتى ورد عليه هرثمة بن اعين احد قواد المأمون ومعه كتاب من المأمون والفضل بن سهل يامره فيه بتسليم ما حوى من الكور والمدن اليه ويتوجه الى الاهواز فسلم ذلك اليه واقام هرثمة بحلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده فى طرقها وجبالها وتوجه طاهر الى الاهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين

كان من سوء حظ الامين ان عبد الملك بن صالح بن على الذى كان الرشيد قد حبسه خلصه الامين من سجنه فعد ذلك فضلا منه واراد مساعدته فطلب اليه ان يوليه الشام والجزيرة ليحضر اليه جندا من العرب قد ضرستهم الحروب وادبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل الى الرقة أنفذ كتبه الى رؤساء الاجناد بالشام ووجوه الجزيرة فلم يبق احد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه الا وعده و بسط له فى آماله وامنيته فقدموا عليه

رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة واتاه اهل الشام الزواقيل والاعراب من كل فج واجتمعوا عنده

حصلت مشكلة تافهة بين جندي خراساني وجندي من الزواقيل فتعصب لكل جماعته تعصبا أدى الى التلاحم واستمد الابناء وأتوا الزواقيل وهم غارون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواقيل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك بن صالح اذ ذاك مريضا فوجه اليهم رسولا يأمرهم بترك الحرب فرموا رسوله بالحجارة . ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قال واذلاه تستضام العرب فى دارها ومحلها وبلادها — فكان ذلك بمثابة محضأ حرك الى الشر من لم يركب من الابناء وقام بأمرهم الحسين بن على بن عيسى بن ماهان — فلما رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل الى بلادهم فرحلوا قائلين الموت الفلسطيني خير من العيش الجزرى واقام الحسين بمن معه من الابناء

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فان الحسين بن على نادى فى عسكره بالرحيل قاصدا بغداد فلما وصلها حض الابناء الذين معه على خلع الامين فاجابوه فتوجه بهم حيث يقيم الامين ونادوا بخلعه فى ١١ رجب سنة ١٩٦ وأخذوا البيعة للمأمون فى ثانى عشره وغدا في الثالث عشر الى الامين فى قصره وأخرجه منه محبوسا

خاف كبار الابناء تقدم على بن عيسى فقام محمد بن أبى خالد وقال أيها الناس ما ندرى بأى سبب يتأمر على بن الحسين علينا ما هو باكبرنا سنا ولا أكرمنا حسبا ولا أعظمنا منزلة وانى اولكم نقض عهده فمن كان على رأيي فليعتزل معي وقام أسد الحربي ودعا من معه من الحربية الى القيام

بامر محمد وفكه فتأثر الابناء من هذه الاقوال وثاروا على الحسين بن على فاسروه ودخل اسد الحربى الى الامين ففك قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة وأتى الامين بالحسين بن على فلامه على ما كان منه مع احسانه اليه والى أبيه واخيرا عفا عنه ولكن ذلك لم يفد فانه بعد العفو حاول الهرب من بغداد فادرك وقتل .

هذه حال الاضطراب فى جند الامين أما جند المأمون فكان على العكس من ذلك كان هادئا منتظما لا تزيده الايام الا قوة — انقسم الى قوتين قوة مع هرثمة بن أعين تريد بغداد من جادة المشرق وقوة مع طاهر ابن الحسين تريد بغداد من جادة الاهواز والبصرة

ذهب طاهر الى فارس فاستولى عليها بعد ان أوقع بعاملها محمد بن يزيد المهلبى وقعة شديدة بسوق الاهواز وقتل محمد بن يزيد وكان ترتيب جند طاهر في مسيره وحربه حائزا الغايه من النظام والاحتراس فضلا عما حازه من الاسم الكبير الذى يفت فى الاعضاد

اقام بفارس مدة انفذ فيها العمال الى الكور وولى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلى الاهواز ومما يلى عمل البصرة ثم سار متوجها الى واسط فجعلت المسالح والعمال تتقوض مسلحة مسلحة وعاملا عاملا كلما قرب منهم طاهر تركوا اعمالهم وهربوا عنها حتى قرب من واسط فهرب عنها عاملها قائلا انه طاهر ولا عار فى الهرب منه . دخل طاهر واسطا ومنها وجه قائدا الى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادى فبادر الى خلع الامين ومبايعة المأمون وأرسل بذلك الى طاهر فتم له ما بين واسط الى الكوفة وأنفذ كتب التولية الى العمال وكذلك بايع للمأمون امير البصرة

وهو المنصور بن المهدى وكان ذلك كله فى رجب سنة ١٩٦

ثم سار طاهر الى المدائن فاستولى عليها من غير قتال

فى تلك الاثناء حصل فى الحجاز مازاد المأمون قوة والامين خذلانا ذلك ان داود بن عيسى بن موسى كان عاملا للأمين على مكة والمدينة فلما بلغه مافعل الامين من خلع المأمون وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما جمع حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على مافى الكتابين من الشهود وكان داود احدهم فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من العهود ان يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم وأخبرهم ان محمدا كان الذى قد بدأ بالظلم بخلع أخويه وبايع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وان أبايع للمأمون فأجابه الى ذلك أهل مكة وفى ٢٧ رجب سنة ١٩٦ نادى داود فى البيت الحرام بخلع الامين وبيعة المأمون ثم كتب الى ابنه سليمان وهو خليفة على المدينة يأمره ان يفعل بها فعل أهل مكة ففعل . ولما تم ذلك سار داود بنفسه الى مرو وأعلم المأمون بما تم فى الحجاز فسر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب الى أهل الحجاز كتبا يعدهم فيها الخير ويبسط أملهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذا ليدرك الحج ومر وهو عائد على طاهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسرى واليا على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن الى بيعة المأمون فأجابوه

اجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فنزل هرثمة نهر بين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار ونزل المسيب بن زهير

قصر رقة كلواذي . وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحتفر الخنادق وجعل يخرج فى الايام عند اشتغال الجنــد بحرب طاهر فيرمي بالعرادات من أقبل ومن أدبر ويعشر اموال التجارة ويجبي السـفن وبلغ من الناس كل مبلغ

أحس محمد بالضيق ومنعت عنه الاموال فامر ببيع كل مافى الخزائن من الامتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها لأصحابه فى نفقاته

وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسيةمن هذا الحصار مالم يكن يخطر لاحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوع الشديد حتى درمت محاسنها وكادت تمحي معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ماعليه الناس من الاحزان والمحن التي لاتحتمل وأحسنهم فى ذلك عمرو بن عبد الملك العترى الوراق فما قاله

من ذا أصابك يابغداد بالعين ... ألم تكوني زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زينا من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين
استودع الله قوما ماذكرتهم ... ألا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع مابين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد

بكيت دما على بغـداد لما ... فقدت غضارة العيش الانيق
تبـدلنا هموما من سرور ... ومن سـعة تبدلنا بضـيق
أصابتها من الحساد عـين ... فأفنت أهلها بالمنجنيـق

فقوم أحرقوا بالنار قسرا ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى واصباحا وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى انتهاب ووالدها يفر الى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها مضاحكها كلألأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات عليهن القلائد فى الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق وقدفقد الشفيق من الشقيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه وقدهرب الصديق بلاصديق
ومهما أنس من شيء تولى فانى ذاكر دار الرقيق

وكان الامين قد استعان فى حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر الذى أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم — وللخزيمى قصيدة طويلة تبلغ ١٣٥ بيتا يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التى حلت استوفاها الطبرى فى الجزء العاشر من تاريخه صحيفة ١٧٦ وما بعدها من طبع مصر يقول فيها

يا بؤس بغداد دار مملكة دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالحرب التى أصبحت تساورها
ثم قال: رق بها الدين واستخف بذى الفضل وعز النساك فاجرها

وخطم العبد أنف سيده بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العترى :

الناس فى الهدم وفى الانتقال قد عرض الناس بقيل وقال
ياأيها السائل عن شأنهم عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم فاليوم تكبيرهم للقتال
اطرح بعينيك الى جمعهم وانتظر الروح وعد الليال
لم يبق فى بغداد الا امرؤ حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمى عن حماها ولا خال له يحمى ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد مطرده فى كفه رأس مال
هان على الله فأجرى على كفيه للشقوة قتل الرجال
ان صار ذا الامر الى واحد صار الى القتل على كل حال
ما بالنا نقتل من أجلهم سبحانك اللهم ياذا الجلال

استمرت هذه الشدائد على بغداد وما فيها حتى استنفد الامين كل وسائل الدفاع وأيقن بالعطب ان هو استمر على الممانعة فاستشار من بقى من قواده فاشار عليه بعضهم ان يطلب لنفسه الامان من هرثمة بن أعين ويسلم له فرضى وكتب الى هرثمة بذلك فاجابه اليه ولما علم طاهر بذلك أبى الا ان يكون خروجه اليه اذا شاء ولما لم يكن الامين ميالا الى الخروج الى طاهر اتفق القواد ان يخرج ببدنه الى هرثمة وان يدفع الى طاهر الخاتم والقضيب والبردة ثم علم طاهر انهم يمكرون به فاستعد للامر وكمن حول القصر كمناء بالسلاح فلما خرج الامين كانت حراقة هرثمة

تنتظره فركبها ولم تسر بهم الا قليلا حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقة بالسهام والحجارة فانكفأت الحراقة وغرق هرثمة ومحمد الامين فاما هرثمة فادركه أصحابه واما محمد فسبح فى الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فاسروه فامرهم طاهر بقتله فقتل ليلة الاحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ وفى الصباح كتب طاهر الى المأمون يخبره بما تم وبالاسباب التى جعلته يامر بقتل الامين . ثم دخل طاهر المدينة فأمن أهلها وهدأ الناس وكان دخوله اليها يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة ورغبهم فى التمسك بحبل الطاعة وانصرف الى معسكره

بذلك انتهى الفصل الاول من هذه الحادثة الشنيعة التى فرقت بين الامة وأحدثت هذه الثورة الهائلة

أما سببها وتبعتها فعائدان الى هارون الرشيد أولا ثم الى الفضل بن الربيع ثانيا — أما الرشيد فانه غلط فى فعله غلطات الاولى انه ولى عهده أولا محمد الامين والمأمون أسن منه ولم يكن مايزيد الامين الا أنه ابن زبيدة وليس هذا من الاسباب المرجحة فى نظر العقلاء وانما هو مرجح فى نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى — الثانية انه لما أحس بهذه الغلطة أراد مداواتها ففعل مايزيدها شرا بتولية المأمون العهد بعد الأمين ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلا تمام الاستقلال بأمر خراسان والري عن أخيه الامين ومن المعلوم انه كلما كثرت الامتيازات كثرت المشاكل وأسباب الفساد والامين والمأمون وان كانا أخوين يتنافسان فالاول يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة التام والثانى

يميل أن يتمتع بامتيازاته تماما ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين الاخوين صفاء متى حانت وفاة الرشيد وقد أدرك المنكرون ذلك فى حياته — الثالثة انه لم يقتصر عليهما فى ولاية العهد فأضاف اليهما أخا ثالثا وأعطاه من الامتيازات فى الجزيرة وارمينية ماأعطى المأمون فى خراسان فجرأ ذلك الامين على نقض العهد لانه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين منزوعا منه السلطان فى أعظم بقاع الاسلام وأكثرها أعوانا وجندا — الرابعة انه اغتر بالفضل بن الربيع الذى جرأه على افساد ملكه بقتل البرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين له خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الاولى فى عهد الامين فانه هو الذى اجتهد فى اغرائه بأخيه لانه ظن ان المأمون اذا تولى أخذه بتبعة نكثه لعهده مع الرشيد وسيره بالجنود التى كانت مع الرشيد الى بغداد مع ان الرشيد عهد بها الى المأمون فما زال يحتال فى الافساد حتى أوقع هذه الاضطرابات . ولما اشتد الامر على الامين لم يفده فائدة بل اختفى وكان كالشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين

يضاف الى ذلك كله مافى طباع الخلفاء من ميلهم الى أن يكون بعدهم فى الخلافة أبناؤهم فهم يحتالون بكل مافى وسعهم الى اخراج اخوتهم أوبنى أعمامهم من العهد ان كان ولم نر خليفة له ابن فلم يسع له ذلك السعى ولم نجد عهداً أو عقداً منع من ذلك حتى كان هذا مجرئا للخلفاء على عدم الاعتناء بالعهود المكتوبة وصاروا يفتحون لها من أبواب الحيل مايبيح لهم عدم التمسك بها والرشيد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه الهادى وقد كاد

يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا ان المنية غلبت مع ان الرشيد لم يكن له شيء من الامتياز أعطاه اياه المهدى ابوه نسأل الله السلامة من عدم الاعتبار والاتعاظ فهما المهلكة العامة .

صفات الامين

امتدت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الامين وقتله الى القدح فيه وتعديد مثالبه التي أودت به وهذه سنة قديمة ان الناس مع من يساعده القدر فهم أبداً مع القاهر على المقهور لان للقوة سلطانا على النفوس لا يغالب وهذا نموذج مما قيل فى هجاء الامين

لمْ نبكيك لماذا الطرب	يأبا موسى وترويج اللعب
ولترك الخمس فى أوقاتها	حرصا منك على ماء العنب
وشنيف أنا لا ابكى له	وعلى كوثر لا اخشى العطب
لم تكن تعرف ماحد الرضا	لا ولا تعرف ماحد الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم	تعطك الطاعة بالملك العرب
ايها الباكي عليه لا بكت	عين من ابكاك الا للعجب
لم نبكيك لما عرضتنا	للمجانيق وطورا للسلب
ولقوم صيرونا أعبداً	لهم يبدو على الرأس الذنب
فى عذاب وحصار مجهد	سد الطرق فلا وجه طلب
زعموا انك حى حاشر	كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله فى وحدة	من جميع دا
اوجب الله علينا قتله	فاذا ماأوجب الامر وجب

كان والله علينا فتنة غضب الله عليه وكتب

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسنترك هذا وهذا وتفحص صفاته من أعماله

اول ماعرف من عمل الامين ارادته الغدر باخيه والرمي بعهد الرشيد وراء ظهره فقد اخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقا غير ناظر الي ما وراء ذلك من العواقب الوخيمة فى نظر الجمهور اذ ليس اعظم فى نظر المسلم من انتهاك حرمة البيت المقدس ولا انتهاك أعظم من افساد امر دبر فيه وجعل البيت الحرام حارسا عليه على ان الغدر فى ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قبيح وضار بحياة الامة الادبية فلا غرابة ان رأينا جمهور الامة فى صف اخيه

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسر فيه بشيء من الحزم ولا بعد النظر بل كان اول قائد ولاه حرب أهل خراسان اعدى عدو لهم من جربوه فوجدوه ظالما عاتيا يستحل أموالهم ويضرب ابشارهم وهو على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان فى عهد الرشيد فكان ذلك مما زاد اهل خراسان جدا فى محاربته والضربة الاولى مما يدخل الوهن والخذلان على المضروب ويزيد فى حماسة الغالب وتفاؤله بالمستقبل

ومع هذا الغلط كان الامين مشتغلا عن تدبير أمره بما كان فيه من اللهو والعبث . شتان بين تدبيره وتدبير أخيه فبينما كان هو على هذه الطريق كان أخوه المأمون بمرو يجمع الى مجلسه العلماء والفقهاء ويجلس معهم كما يجلسون ويتكلم معهم فى الفقه والادب والحديث حتى أشربت قلوبهم محبته ولا يخفى مالهذا من التأثير فى قلوب الجمهور.

يقال ان محمدا لما تولى وجه الى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم اليه واجرى لهم الارزاق ونافس فى ابتياع فرّه الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم وقسم ما فى بيوت الاموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل اليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الانبار ونبارى والهوب وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس وانفق فى عملها مالا عظيما فقال أبو نواس يمدحه

سخر الله للأمين مطايا	لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برا	سار فى الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يهوى	أهوب الشدق كالح الانياب
لا يعانيه باللجام ولا السو	ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس اذ رأوك على صو	رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجنا	حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء اذا ما استعجلوها	بجيئة وذهاب
بارك الله للامين وأبقا	ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه	هاشمىّ موفق للصواب

وجميع ما وقفنا عليه من أخبار الامين وسيره انه كان يميل جدا الى

اللهو والغناء والشرب حتى أقعده ذلك عن حسن التدبير لأموره هذا مع أنه ممتاز على بنى العباس قاطبة بانه هاشمى الابوين ولكن ليس بحسن الانساب تعلو الرجال وانما علوها بحسن الفعال

(٧) المامون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى . وأمه أم ولد اسمها مراجل

ولد سنة ١٧٠ في اليوم الذى ولى فيه أبوه الخلافة . وولاه أبوه العهد وسنه ١٣ سنة بعد أخيه الامين وضمه الى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها الى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التى عقدها استقلالا يكاد يكون تاما . ولما توفى أبوه لم يف له اخوه بعهده بل أراد أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المامون وكان من وراء ذلك الحروب الفظيعة التى قصصنا خبرها وهى التى انتهت بقتل الامين فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣)

بويع المامون بالخلافة العامة فى ذلك التاريخ واستمر خليفة الى أن توفى غازيا بطرسوس في ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام . أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته الى منتصف صفر سنة ٢٠٤ وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقى ببغداد حاضرة الخلافة العباسية

وكان يعاصره في بلاد الاندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بنى

أمية (١٨٠ — ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨)

ويعاصره فى بلاد المغرب الاقصى ادريس بن ادريس بن عبد الله (١٨٨ — ٢١٣) ثم ابنه محمد بن ادريس (٢١٣ — ٢٢١)

ويعاصره فى افريقية من بنى الاغلب عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب (١٩٦ — ٢٠١) ثم ابنه زيادة الله بن ابراهيم فاتح صقلية (٢٠١ — ٢٢٣)

ويعاصره فى فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفى سنة ٨١٤ ثم لويز الاول الملقب باللين

ويعاصره فى القسطنطينية ليون الارمنى (٨١٣ — ٨٢٠) ثم ميخائيل الثانى الملقب بالتمتام ثانى مرة (٨٢٠ — ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ — ٨٤٢)

الاحوال فى المدة الاولى

لما تم الامر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين كان الذى يدبر الامر بمرو الفضل بن سهل الذى يرى لنفسه الفضل الاكبر فى تأسيس دولة المأمون فاراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدى طاهر وهرثمة فاصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن . وكتب الى طاهر أن يسلمه جميع ما بيده من الاعمال وأن يشخص الى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام

والمغرب فلم يسع طاهرا الا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله

والامر الثانى الى هرثمة يأمره بالشخوص الى خراسان فشخص — وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولاسيما انهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم ان تظل تلك الايدى المرهوبة حتي يستكين الناس ويخضعوا

ولم بقى المأمون بعد ذلك بخراسان . هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الاسلامية الى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الاسلامية . أو رأى ان نفوذه يضعف اذا حل الخليفة بغداد وبها الالسنة التى لا تمل الوشايات فخشى من ذلك على مركزه . سواء كان السبب فى تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت تزعج ملك المأمون أثرا بعد عين

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل ان الفضل ابن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصرا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده وانه يبرم الامور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بنى هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسن ابن سهل وهاجت الفتن فى الامصار

وأول فتنة كانت خروج محمد بن ابراهيم بن اسمعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن على خرج بالكوفة وقام بأمره رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبى جعفر المنصور فارسل اليه الحسن ابن سهل جيشا يقوده زهير بن المسيب فى عشرة آلاف فهزمه ابو السرايا

واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفي غد ذلك اليوم مات محمد بن ابراهيم بجأة وذلك يوم الخميس أول رجب سنة ١٩٩ فولى أبو السرايا بدله غلاما أمرد حدثا وهو محمد بن محمد بن زيد بن على ابن الحسين بن على وكان أبو السرايا هو الذى ينفذ الامور ويولى من رأى ويعزل من شاء واليه الامور كلها

أرسل الحسن جيشا ثانيا بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروروذى فتوجه اليه ابو السرايا وأوقع به وقعة في ١٧ رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد

انتشر بعد ذلك الطالبيون فى البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئا وكلما وجه أحدهم لحرب ابى السرايا عاد مهزوما فوجه فكرته الى هرثمة ابن أعين مفضلا اياه عن طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه الى خراسان مغاضبا للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث اليه يسأله الانصراف الى بغداد لحرب أبي السرايا فابى فاعاد عليه الرسالة متلطفا فاجاب وانصرف الى بغداد فقدمها فى شعبان سنة ١٩٩ وتهيأ للخروج الى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبي السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب ابي السرايا مقتله عظيمة . ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادرا على

حماية الكوفة التى هى قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار الي القادسية فى محرم سنة ٢٠٠ ودخل هرثمة الكوفة وآمن أهلها ولم يعرض لاحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم

ترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن علي الباذغيسى المعروف بالمأمونى فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحا شديدة فهرب مريدا منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به فى الطريق هو ومن معه وجيء بهم الى الحسن بن سهل وكان مقيما بالنهروان فضرب عنقه وصلب جسده ببغداد . وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لابى السرايا وهو زيد بن موسى ابن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة وكان اذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فاخذ أسيرا وأمن

وكان للطالبيين في تلك الفتن اسوأ أثر بمكة والمدينة فان أبا السرايا كان قد ولى مكة حسين بن حسن بن على بن الحسين بن على وكان بها داود ابن عيسى بن موسى العباسى واليا فلم يرض القتال فى الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام علي نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التي عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئا ثم كساها ثوبين من قز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليها (أمر به الاصفر بن أبي الاصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد

العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التى كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد الى ما في خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبنى العباس وأتباعهم الا هجم عليه فى داره فان وجد من ذلك شيئا أخذه وعاقب الرجل وان لم يجد عنده شيئا حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه بقدر طوله ويقر عند الشهود ان ذلك للمسودة من بنى العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقا كثيرا وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتي هرب منهم خلق كثير من اهل النعم فتتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذى فى رؤس أساطين المسجد فيخرج من الاسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر اساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذى على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل ابى السرايا وان من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا الى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخا ودّاعا محببا فى الناس مفارقا لما عليه أكثر اهل بيته من قبح السيرة وكان يروى العلم عن أبيه وطلبوا اليه ان يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر اليه الناس فبايعوه طوعا وكرها وسموه امير المؤمنين فأقام على ذلك اشهرا وليس له من الامر الا اسمه وابنه على وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلا حتى تعدوا الاموال الى الاعراض

أراد الله ان يفرج عن أهل مكة ما هم فيه فقدم عليهم اسحاق بن موسى ابن عيسي مقبلا من اليمن فقاتل العلويين أياما ثم بارح مكة فلقيه البعث الذى

أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميل فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الامان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤا فأجيبوا وامهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين الى ناحيه

أما فى اليمن فكان قد خرج فيها ابراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها اسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع باقبال ابراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلدا عمه داود بن عيسى فى مكة فاستولى ابراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس . وفي موسم سنة ٢٠٠ وجه بعض ولد عقيل بن أبى طالب من اليمن فى جند كثيف ليحج بالناس وكان الذى ولى أمرة الحج من العباسيين أبا اسحاق بن الرشيد ومعه كثير من القواد فلما وصل العقيلى الى بستان ابن عامر بلغه أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلبين . بلغ أبا اسحاق أمر العقيلى فأرسل اليه أحد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد الى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلا من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس فى الطريق حتى هلك أكثرهم جوعا

انتهت هذه الفتن العلوية التى عدت بالضرر على البلاد والعباد والفضل فى انهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك . ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد ان يتوجه الى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة

الحال وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن ذلك مما يروق فى عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وانه هو الذى دس الى أبى السرايا حتى صنع ماصنع ولو شاء الا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لانه كان من ضمن جنوده . وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتبا من الطريق ليرجع ويلى الشام والحجاز فابى هرثمة ان يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه . ولما بلغ هرثمة مرو خشى ان يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كى يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة ان قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ماأشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجئ عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه وقد تقدم الفضل الى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث فى حبسه أياما ثم دسوا اليه فقتلوه وقالوا انه مات . هكذا ذهب هذا القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة

ولما بلغ أهل بغداد ماصنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون ولم يكن عند الحسن مايقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه . ثم عمد أهل بغداد الى منصور بن المهدى وطلبوا اليه ان يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا اليه ان يكون عليهم أميرا وان يدعو للمأمون وقالوا لا نرضى بالمجوسى ابن المجوسى الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع الى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد الا انها على كل حال كانت خالية من جيش قوى يأخذ على أيدى المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فان

فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديدا وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل ان يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لاسلطان يمنعهم لان السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر ان يمنعهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجبون المارة فى الطرق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم . رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل ربض وكل درب فمشي بعضهم الى بعض وقالوا انما فى الدرب الفاسق والفاسقان الى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفساق . فقام رجل من ناحية طريق الانبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته الى ان يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابوه الى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم الى السلطان وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان . ثم قام من بعده آخر اسمه سهل بن سلامة الانصارى فدعا الناس الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلق مصحفا فى عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعا الى ذلك الشريف منهم والوضيع بنى هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد أسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها

ومنع كل من يخفر ويجبي المـارة وقال لاخفارة في الاسلام — والخفارة ان يأتى الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول بستانك فى خفرى ادفع عنه من أراده بسوء ولى فى عنقك كل شهر كذا وكذا درهما فيعطيه ذلك شاء أم أبى

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لان مقصد الدريوش كان معاونة السلطان فى القبض على أيدى المفسدين ولا يعيب عليه شيئا ولا يقاتله ولا يأمره بشيء ولا ينهاه أما سهل فيظهر انه كان ذا اطماع قال انى أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطانا كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتي خافه الولاة وخافه منصور بن المهدى الذى أقامه العراقيون أميرا

ونحن نرى ان عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية من أحسن مايفكر فيه العقلاء فى مثل ظروفهم لان ذلك منع من وجود الفتنة الاهلية التي تقارن هذه المفاسد عادة

كل ذلك كان والمأمون فى مرو لايصل اليه شيء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصل اليه الا مايشتهى

ومما كان فى تلك الآونة أن المأمون اختار لولاية عهده على الرضا بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعار الدولة الجديدة وكتب بذلك الى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لان الفرس يعجبهم أن يكون امام المسلمين علويا وطالما قاتلوا فى سبيل رجوع السلطان الى بني

على وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل عليّ على غيره من الخلفاء الراشدين وانه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون الا من البيئة التي تربى فيها فانه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكى ثم انتقل الى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم لانبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الامر من ولد العباس وانما هذا دسيس من الفضل بن سهل فكثوا على ذلك أياما وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم الى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولى بعضنا ونخلع المأمون واتفقوا أخيرا على مبايعة ابراهيم بن المهدي عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك فى أول المحرم سنة ٢٠٢ فتغلب ابراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقى من بغداد العباس بن الهادى والجانب الغربى اسحاق بن الهادى . وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه

بلغت هذه الاحوال المأمون ويقال انه الذى أبلغه اياها على الرضا ولى عهده فانه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يسترعنه من الاخبار وان أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لابراهيم بن المهدي بالخلافة — فقال له المأمون انما بايعوه ليكون أميرا لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل — فاعلمه ان الفضل قد كذبه وغشه وان الحرب قائمة بين ابراهيم بن المهدى والحسن بن

سهل وان الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فاخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أمانا من الفضل بن سهل وأخبروه بما موه عليه الفضل فى أمر هرثمة وان هرثمة انما جاء ناصحا ليبين له مايعمل وانه ان لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وان الفضل دس الى هرثمة من قتله وان طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى حتى اذا وطأ الامر أخرج من ذلك كله وصير فى زاوية من الارض بالرقة قد حظرت عليه الاموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وانه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترئ به على الحسن بن سهل وان الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج الى بغداد فان بنى هاشم والموالى والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاؤا بالطاعة لك

لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل الى بغداد . ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرد فراح على الرضا الى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم فاعلمه انه يدارى ماهو فيه

ارتحل المأمون من مرو حتى أتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو فى الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات وذلك فى ٢ شعبان سنة ٢٠٢ فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جئ بهم اليه قالوا أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم . وسوابق الفعلة تؤكد ان صدورها كان بتدبير المأمون لانه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وانه مادام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم

وبعث برؤسهم الى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره انه صيره مكانه

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وقد كان هذا الرحيل سببا لاختلاف القواد ببغداد على ابراهيم بن المهدى لان السبب الذى من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر ابراهيم ببغداد

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهى وفاة على الرضا ويتهمون المأمون بانه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لانه بقدر مايقربها ارادة المأمون التقرب الى اهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروسا فى نفس المأمون من محبة آل أبى طالب وأنه صاهر عليا وأن عليا هو الذى أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندى أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شرا وهو خروج الخلافة من آل العباس . وهناك كتب المأمون الى بنى العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى

رحل المامون من طوس الى الرى وهناك تحبب الى أهلها باسقاط الفى الف درهم من خراجها . وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على ابراهيم بن المهدى وقام القواد فى وجهه حتى كتبوا الى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون اليه الحضور ليسلموا اليه بغداد فلم يلبث ان حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع ابراهيم بن المهدى والدعوة للمأمون فاختفى ابراهيم ليلة الاربعاء ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما

مازال المأمون ينتقل من منزلة الى منزلة حتى وصل النهروان وهناك

خرج اليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لانه أمره بذلك . وفى يوم السبت لاربع عشرة بقيت من صفر سنة ٢٠٤ دخل مدينة بغداد ولباسه ولباس اهله الخضرة أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم اجمعون . ومكثوا على ذلك ثمانية ايام فتكلم فى ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصة وقالوا له ياأمير المؤمنين تركت لباس آبائك واهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب اليه فى ذلك قواد أهل خراسان . وسأله طاهر بن الحسين ان يرجع الى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له فى لبس الخضرة وكراهتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فالبسها طاهرا ثم دعا بعدة من قواده فالبسهم أقبية وقلانس سودا فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد

ابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقى

المأمون ببغداد

آشرقت شمس أبى العباس عبدالله المأمون ببغداد حاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيقى وتجلت مزاياه العالية وأخلاقه التى لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته وساس الامة سياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لا يشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التى كانت لها في عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من ميل المأمون الشديد الى

تقوية تلك الحركة وسنبين ذلك فى فصل خاص ان شاء الله بعد أن ننتهى من بيان الحالة الداخلية

الوزارة فى عهد المأمون

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسى الاصل أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ويقال أن أباه سهلا أسلم على يد المهدى والذى اختار الفضل للمأمون هو الرشيد باشارة جعفر بن يحيي . فكان مدبر أمره وهو ولىّ عهد ولما فعل الامين ما فعل دبر الفضل أمر ارسال الجنود وتدبير ما يلزمهم فارسل طاهر بن الحسين لمحاربة على بن عيسى بن ماهان . ولما انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علما على سنان ذى شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون فى هذه السنة وهى سنة ١٩٦ على المشرق كله وجعل عمالته ثلاثة آلاف الف درهم (نحو ستين الف جنيه)

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان دبر المأمون عليه بسرخس من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة على الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى على الرضا من بعده . وكان الفضل بن سهل مولعا بالنظر فى النجوم ويقال ان له اصابات كثيرة فى أمور أنبا عنها قبل موقعها . وجميع مادبره فى أمر المامون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأى محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخى اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل احمد بن أبى خالد وأصله شامى مولى لبنى عامر بن لؤى وكان أبوه كاتباً لعبيد الله كاتب المهدى . أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له انى كنت عزمت ألا استوزر أحداً بعد ذى الرياستين وقد رأيت أن استوزرك فقال يا أمير المؤمنين — اجعل بينى وبين الغاية منزلة يتأملها صديقى فيرجوها لى ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس الا الانحطاط — فاستحسن المأمون كلامه واستوزره

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعية لامامه فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الاحقاد من صدورهم ومن طريف ماحصل منه مع المأمون ان المأمون ذكر يوما عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال يظن أنى لا أعرف أخباره وما يحبب اليه ومايعامل به الناس وكان احمد حاضرا هذا المجلس فذهب الى عمرو وأخبره الخبر — فراح عمرو الى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال ياأمير المؤمنين أنا عائذ بالله من سخطك ثم عائذ بك من سخطك ياأمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين الى أحد أو يسر لى ضغنا يمنه بعض الكلام على اظهاره مايظهر منه — فقال له وما ذاك فاخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون لم يكن الامر كما بلغك وانما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به وانما أخرج منى هذا الكلام ممنى تجاريناه وليس لك عندى الا ماتحب فليفرخ روعك وليحسن ظنك — وظهر فى وجهه الحياء والخجل . فلما غدا احمد على المأمون قال له أما لمجلسى حرمة — فقال ياأمير المؤمنين وهل الحرمة إلا لما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون

الخبر وأن بعض من حضر من بني هاشم هو الذى أفشى ماقاله المأمون فقال احمد انا ياامير المؤمنين اخبرت عمرا لا احد من بنى هاشم والذى حملنى على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لان تتم نعمتك على اوليائك وخدمك انا اعلم ان امير المؤمنين يحب ان يصلح له الاعداء والبعداء فكيف الاولياء والقرباء لاسيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا نخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى مافرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه وانما كان يكون مافعلت عيبا لو أشعت سرا فيه قدح فى السلطان أو نقض تدبير قد استتب فاما مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنبا على — فنظر اليه المأمون مليا وقال كيف قلت فاعاد ... قال ثم قال أعد فاعاد الثالثة فقال له المأمون أحسنت لما أخبرتنى به أحب الى من الف الف والف الف والف الف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال اما الف الف فلنفيك عنى سوء الظن وأطلق وسطاه واما الف الف فلصدقك اياى عن نفسك وأطلق البنصر واما الف الف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر

ومن عيوب احمد بن أبي خالد انه كان شرها يتقرب اليه الناس بالمآكل لينالوا ماعنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فاجرى عليه كل يوم لمائدته الف درهم لئلا يشره الى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره الى طعام الناس وتمتد عينه الى هدية تأتيه وكان مع هذا أسئ اللقاء عابس الوجه يهر فى وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه.

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراهة الى طعام الناس وكثرة العطايا التي كان يمنحها من خاص ماله وقد روى عنه ابو الفضل احمد بن طاهر ابن طيفور في اخبار بغداد انه كان يقول يهدى الى الطعام فوالله ماأدرى ماأصنع به يهديه الى صديق أستحي من رده عليه

توفى احمد بن أبي خالد في ذى القعدة سنة ٢١١ وصلى عليه المأمون ولما دلى في حفرته ترحم عليه وقال انت والله كما قال القائل

أخو الجد ان جد الرجال وشمروا وذو باطل ان كان في القوم باطل

استوزر المأمون بعده احمد بن يوسف ٠ كان كاتبا من خيرة الكتاب وأجودهم خطا حتى قال له المأمون يوما يااحمد لوددت انى أخط مثل خطك وعلى صدقة الف الف درهم وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون اذ كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف احمد بن يوسف بكتابة الكتب التي يريد ان تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة. ولما مات احمد بن أبي خالد استوزره مكانه وكان من بطانة المأمون من يحسد احمد بن يوسف على الدرجة التي وصل من المأمون فكادوا له المكايد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن آبين لحضراتكم الطريقة الدنيئة التي اتبعوها مع هذا الوزير الذى لم يجدوا فيه عيبا من جهة عمله . كان المأمون يستدعى احمد بن يوسف سحرا لقضاء الأمور معه فقال احد البطانة لخادم ممن يقوم على رأس المأمون اذا خص المامون احمد بن يوسف بكرامة أو لون من الالوان فاعلمنى وضمن له من أجل ذلك مالا . دخل احمد عند المأمون ذات يوم سحرا وليس عنده أحد وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل

احمد ولم تكن النار قدعملت فيها الاقليلا فاراد ان يكرم بها احمد ويؤثره بها فامر بان تنقل تحته . فاخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل ابن هشام فلما دخل على المأمون سأله عما تقوله العامة وما تتحدث به فكان مما أخبره به انقال انصرفت يوما فررت بمشرعة وأنا فى الزلال (قارب) سمعت سقاء يقول لآخر معه مارأيت كما يخبر ندماء هذا الرجل عنه قال ومن تعنى — قال له أمير المؤمنين — قال وما ذاك — قال انصرف من عنده احمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه مارأيت أحداقط أبخل ولا عجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لى بقطعة بخور حتى أخرج النثار الذى كان تحته فبخرنى به — فعرف المأمون الحديث وقال فى نفسه والله ما حضر هذا اليوم أحد فاتوهم فيه ضربا من الضروب — وجفا احمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته .

استوزر المأمون بعده القاضى يحيي بن أكثم التميمى كان من جملة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة فى الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن اشرس العالم المتكلم الذى كان المأمون يثق به كثيرا فلما احتاج المأمون الى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيي فاستوزره وولاه مع ذلك قاضى القضاة فكان اليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا فى شخص . وكان يحيي على مذهب العامة فكان اذا اراد المأمون شيئا يخالف مذهبه احتال فيما يرجعه عنه . اراد المأمون ان ينادى يوما بحل المتعة وهو شئ نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيي وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال غم ياامير المؤمنين لما حدث فى الاسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا — قال

نعم المتعة زنا — قال من اين قال من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم اوما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فاؤلئك هم العادون) ياامير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين قال لا قال فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال لاقال فقد صار من يتجاوز هذين من العادين — وهذا الزهرى ياأمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن ابن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبي طالب قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها — فسأل المأمون عن حديث الزهرى أهو محفوظ فلم انه رواه مالك فقال المأمون أستغفر الله وأمر فنودى بتحريم المتعة . وكان يحيي مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالامور فصيحا جوابه على قدر سؤال سائله . لقيه مرة رجل فقال أصلح الله القاضى كم آكل قال فوق الجوع ودون الشبع — قال فكم أضحك قال حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك — قال فكم أبكى قال لاتمل من البكاء من خشية الله تعالى — قال فكم أخفى عملى قال ما استطعت — قال فكم أظهر منه قال مقدار مايقتدى بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس

وكان يحيي من المحدثين الذين روى عنهم الحديث وقد اتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه يحيي ابن أكثم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لامره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الادب حسن المعارضة

قائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس عنده من الناس جميعا. وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال يحيي بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدبير اهل مملكته فكانت الوزراء لاتعمل فى تدبير الملك شيئا الا بعد مطالعة يحيى بن أكثم.

وذكر الخطيب فى تاريخه انه ذكر لاحمد بن حنبل رضى الله عنه مايرميه الناس به فقال سبحان الله من يقول هذا وأنكر ذلك انكاراً شديداً ذكر ذلك ابن خلكان فى تاريخه وقال الطيفورى فى تاريخ بغداد قال احمد بن ابى طاهر كان المأمون يخص يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول لو أراد يحيى أن يشرب ماتركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون فيها مطبوخ انى لاأترك قاضى يشرب النبيذ

ولم يذكر ابن طباطبا فى كتابه الفخرى يحيى بن أكثم فى عداد وزراء المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التي أوردناها انه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجرى على أيدى الوزراء من الاعمال

ولم يكن ختام أمره مع المأمون خيراً فقد كان من ضمن وصية المأمون لاخيه المعتصم. ولا تتخذن بعدى وزيراً تلقى اليه شيئا فقد علمت مانكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى فصرت الى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته لاجزاه الله عن الاسلام خيراً

ولولا هذه العبارة فى وصية المأمون لم يكن وصل الى علمنا شىء مما

كان بين المأمون ويحيى بن أكثم في خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت في مروج الذهب ان المأمون سخط عليه سنة ٢١٥ وذلك بمصر وبعث به الى العراق مغضوبا عليه

وقد طالت حياة يحيى بن اكثم حتى توفي في عهد جعفر المتوكل

ومن وزراء المأمون ابو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازى وهو الذى يقول فيه دعبل

أولى الامور بضيعة وفساد ۝ أمر يدبره ابو عباد

فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقا . وقد قيل للمأمون ان دعبلا هجاك فقال من اقدم على هجاء ابى عباد كيف لا يهجونى . وكان شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته اوشتمه فأفحش

ومن وزرائه أبو عبدالله محمد بن يزداد بن سويد وهو آخر وزرائه وأصل بيته من خراسان كانوا مجوسا ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد اول من أسلم منهم وخرج بنوه كتابا ولا سيما محمدا فانه تأدب وبرع في كل شيء فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره

ولم يكن للوزراء في عهد المأمون كبير نفوذ بالامور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر ان الحوادث السابقة في عهد الرشيد ومن قبله بل وفي اول عهد المأمون جعلت الخليفة ينظر أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك مايخشاه من مثل ماحصل للفضل بن سهل وجعفر بن يحيى البرمكى واهل بيته ولمن قبلهم من امثالهم

الاحوال الداخليه

العلويون وآثارهم فى الدولة

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده على الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من ائمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية واتخاذه الشعار الاخضر بدل الاسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب فى بغداد وقيام أبى السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه فى الامصار الكبرى ثم ما كان من وفاة على الرضا بطوس وانتهاء فتنة ابى السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا فى ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن — ونزع المأمون للشعار الاخضر بعد حلوله ببغداد وعودته الى شعار أهل بيته وهو السواد . وكان المأمون قد صاهر عليا فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن على المعروف بالجواد وهو الامام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الاخرى ولم يكن من محمد هذا ما يريب المأمون وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده فى فضل أبيهم الى أن خرج فى سنة ٢٠٧ باليمن من آل أبى طالب عبد الرحمن بن احمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب فوجه اليه المأمون دينار بن عبدالله فى جيش كثيف وكتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبدالله الموسم وحج فلما فرغ من حجه سار الى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث اليه بأمانه من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده فى يد دينار فخرج به الى المأمون فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد

ومع ذلك فقد جاء فى وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه فاحسن

صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها فان حقوقهم تجب من وجوه شتى)

وبسبب اختلال الأمن فى البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدى المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبى سفيان وهو محمد بن ابراهيم الزيادى فولاه اياها سنة ٢٠٣ فتوجه فحج ثم ذهب الى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ وهى التى صارت حاضرة تهامة . وقد عظم أمر الزيادى بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل الا أنه كان يخطب لبنى العباس ويحمل اليهم الخراج والهدايا وطال ملكه الى سنة ٢٤٥ ثم صار الملك فى أبنائه ثم فى مواليهم وموالى مواليهم الى سنة ٥٥٣ وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهى أول الدول استقلالا باليمن

وحال هذه الدولة يشبه حال دولة الاغالبة فى افريقية فان الرشيد ولاها ابراهيم بن الاغلب التميمى ليكون حاجزا بين الخلافة العباسية وبين الادارسة الذين بالمغرب الاقصى وكانت توليته اياها سنة ١٨٤ فعظم أمره وصار كملك مستقل الا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك فى أعقابه الى سنة ٢٩٦ وكان الامير فى عهد المأمون عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب (١٩٦ — ٢٠١) ثم زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب الذى استمر ملكه الى سنة ٢٢ وهو الذى فتح جزيرة صقلية من أيدى الروم

فهاتان الدولتان من أول الدول المتغلبة على أطراف بنى العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الاقصى للادارسة والاندلس لبنى أمية

ابراهيم بن المهدى

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لابراهيم بن المهدى اذ كان المأمون بمرو فلما شخص المأمون الى بغداد وعلم بقدومه القواد الذى كانوا مع ابراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفيا ببغداد يتنقل من دار الى دار الى سنة ٢١٠ وفى تلك السنة أخذ أخذه حارس اسود وهو متنقب مع امرأتين في زى امرأة فأعلم المأمون بخبره فأمر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له هيه يا ابراهيم فقال — يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك — قال بل أعفو يا ابراهيم فقال ابراهيم يمدحه

يا خير من ذملت يمانية به	بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبرّ من عبد الاله على التقى	عينا وأقوله بحق صادع
عسل الفوارع ما أطعت فان تُهَج	فالصاب يمزج بالسّمام الناقع
متيقظا حذرا وما يخشى العدا	نبهان من وسنات ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة	وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبى وأمى فدية وبنيهما	من كل معضلة وريب واقع
ما ألين الكنف الذى بوأتنى	وطنا وأمرع رتعه للراتع
للصالحات أخا جعلت وللتقى	وأبا رؤفا للفقير القانع
نفسى فداؤك اذ تضل معاذرى	وألوذ منك بفضل حلم واسع
املا لفضلك والفواضل شيمة	رفعت بناءك بالمحل اليافع

فبذلت افضل ما يضيق ببذله   وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله   عفو ولم يشفع اليك بشافع
الا العلوعن العقوبة بعد ما   ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت اطفالا كأفراخ القطا   وعويل عانسة كقوس النازع
وعطفت آصرة على كما وعى   بعد انهياض الوثى عظم الظالع
الله يعلم ما اقول فأنها   جهد الألية من حنيف راكع
ماان عصيتك والغواة تقودنى   اسبابها الا بنية طائع
حتى اذا علقت حبائل شقوتى   بردي الى حفر المهالك هائع
لم ادر ان لمثل جرمى غافرا   فوقفت انظر أى حتف صارعى
رد الحياة على بعد ذهابها   ورع الامام القادر المتواضع
احياك من ولاك اطول مدة   ورمى عدوك فى الوتين بقاطع
كم من يد لك لم تحدثنى بها   نفسى اذا آلت الى مطامعى
اسديتها عفوا إلى هنيئة   فشكرت مصطنعا لاكرم صانع
الا يسيرا عند ما أوليتنى   وهو الكثير لدى غير الضائع
انأنت جدت بهاعلى تكن لها   أهلا وان تمنع فأعدل مانع
ان الذى قسم الخلافة حازها   فى صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها   وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده ابراهيم هذه القصيدة قال أقول ما قال يوسف لاخوته — لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصدبها

خلع المأمون واعادة ابراهيم بن المهدى للخلافة ورئيس هذا الامر ابراهيم ابن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الامام المعروف بابن عائشة

وكان اطلاع المأمون على ذلك فى يوم السبت ٥ صفر سنة ٢١٠ والظفر بابراهيم بن المهدى ليلة الاحد ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠ — وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاما شديدا فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس على باب دار المأمون ثم ضربه بالسياط ثم أمر بحبسه فى المطبق وفعل قريبا من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمامون اسماء من دخل معهم فى هذا الامر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المامون لاحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواما براء . ثم أمر المامون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب فى الاسلام من بنى العباس وقتل معه ثلاثة من رؤس المتآمرين وكان قتلهم فى ١٤ جمادى الا.حره من تلك السنة

نصر بن شبث

كان نصر بن شبث من بنى عقيل يسكن يكسوم شمالى حلب وكان عربيا شريفا شهما له فى محمد الامين هوي فلما قتل الامين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط شأنه وصار معظم القواد والامراء من غيرهم فاظهر الخروج على السلطان وكان ذلك فى أواخر سنة ١٩٨ وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الاعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات الى الجانب الشرقى وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولى الحسن ابن سهل على كل ماافتتحه وأمر ان يسلم ذلك اليه وان يسير الى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر الى وجهه وأرسل الى نصر يدعوه الى الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم اليه طاهر ولقيه بنواحى يكسوم فاقتتلا هناك قتالا عظيما أبلى فيه نصر بلاء حسنا فكان النصر له وعاد طاهر الى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحى . والظاهر انه لم يكن جادا فى حرب نصر لأنه رأى نفسه قد جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشئ مما جناه

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حرّان بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له قد وترت بنى العباس وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك — فقال من أى الناس — فقالوا نبايع لبعض آل على بن أبى طالب . فقال أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول انه خلقنى ورزقنى . قالوا فنبايع لبعض بنى أمية . قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لايقبل أبدا ولوسلم على رجل مدبر لاعدانى إدباره وانما هواى فى بنى العباس وانما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم . ولما شخص المأمون الى بغداد أمر طاهرا أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد الله وأمره ان يقاتل نصرا فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبد الله من الرقة الى مصر وأمره بالجد في محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر الى ابنه عبد الله ذلك الكتاب المشهور الذى جمع فيه كل مايحتاج اليه الامراء من

الآداب والسياسة والحث على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقرئ عليه فقال ما أبقى ابو الطيب (يعنى طاهرا) شيئا من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به الى جميع العمال والنواحي

ذهب عبد الله الى وجهه فى محاربة نصر فجد فى أمره وحصره وضيق عليه حتى مال الى طلب الامان وفى ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامرى ليؤدى الى نصر رسالة فذهب اليه وهو بكفرعزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التي يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح الى السلم فأذعن وشرط شروطا منها الا يطأ بساطه فأتى المامون وأبلغه مطالب نصر فقال لا أجيبه والله الى هذا أبدا ولو أفضيت الى بيع قيصى حتى يطأ بساطي . فعاد الرسول الى نصر فاخبره فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال ويلى عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعنى الزط) يقوى على حلبة العرب . ولكنه مع جد عبد الله بن طاهر فى حربه أجاب الي التسليم وطلب الامان فكتب له المامون كتاب أمان فخرج الي عبد الله بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر الي المامون فدخل بغداد فى صفر سنة ٢١٠ وأنزل مدينة أبي جعفر ووكل به من يحفظه

وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين

الزط

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد اهـ وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى تجمعوا واستولوا على طريق البصرة ايام الفتنة التى كانت بين الامين والمأمون ولما استقر المامون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودى لحربهم سنة ٢٠٥ ويظهر انهم كانوا اذا أحرجتهم الجنود تفرقوا فى تلك الفيافى فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠٦ أن المأمون ولى داود بن ماسجور محاربة الزط واعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرا أثرا فاصلا بدليل ماورد فى عبارة نصر بن شبث (انه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر امرهم كذلك الى سنة ٢١٩ فى عهد المعتصم حيث وجه اليهم عجيف بن عنبسه احد قواده وكانوا قد عاثوا فى طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الانهار التى كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر منهم ٥٠٠ رجل وقتل منهم فى المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الاسرى وبعث برؤس جميعهم الى المعتصم . ثم أقام بازائهم ١٥ يوما ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلا يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق . ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر

ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الامان فآمنهم فخرجوا اليه فى ذى الحجة سنة ٢١٩ على انهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم فيما ذكر ٢٧ ألفا المقاتلة منهم ١٢ ألفا واحصاهم عجيف ٢٧ ألف انسان بين رجل وامرأة وصبي ثم جعلهم فى السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية واقام بها يوما وعبأهم فى زواريقهم على هيئتهم فى الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ فمروا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم الى الجانب الشرقى فدفعوا الى بشر بن السميدع فذهب بهم الى خانقين ثم نقلوا الي الثغر الي عين زربة ـ وقد ذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٤١ فى عهد المتوكل ان الروم أغارت علي عين زربة فأخذت من كان بها أسيرا من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم

بابك الخرّمى

بين اذربيجان وارّان فى شمال بلاد الفرس كورة تدعى البذ يمر بها نهر الرّس العظيم . بهذه الكورة خرج بابك التى امتدت فتنته زمنا طويلا فى عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه سنة ٢٠١ فى عهد المأمون ومنتهاه سنة ٢٢١ فى عهد المعتصم . ولا بدلنا من شرح أحوال هذا الرجل وفئته وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه فى دولة المأمون والمعتصم

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء فى ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرمية بالحاء والراء المهملتين كما جرى عليه ابن النديم فى فهرسه وهم صنفان الحرمية الاولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم امرهم

بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والاكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة فى الحرم والاهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون افعال الخير وترك القتل وادخال الآلام على النفوس ولهم مذهب فى الضيافات ليس هو لأحد من الامم اذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائنا ما كان وعلى هذا المذهب مزدك الاخير الذي ظهر أيام قباذ بن فيروز وقتله أنو شروان وقتل أصحابه . الصنف الثانى الحرمية البابكية ينسبون الى صاحبهم بابك الحرمى وكان يقول لمن استغواه انه إله وأحدث فى مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك . هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر وجه تسميتهم بالحرمية . أما سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانى المروزى فى كتاب الانساب « الخرمى » نسبة الى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وانما لقبوا بذلك لاباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل ما يتلذذون به فلما شابهوا فى هذه الاباحة المزدكية من المجوس الذين خرجوا فى أيام قباذ وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات الى أن قتلهم أنوشروان بن قباذ قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية . وقال صاحب القاموس خرمة قرية بفارس منها بابك الخُرَّمى — ثم قال وتخرم دان بدين الخرمية لاصحاب التناسخ والاباحة

ومن ذلك يظهر ان ماجاء فى فهرس ابن النديم تحريف

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد من رستاق ميمند ثم اتصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهما وشهامة وخبثا فقربه اليه. ولما ادركته منيته اجتهدت امرأته فى ان يكون بابك مكانه فى الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم ان جاويدان قال لى انى اموت فى ليلتى هذه وان روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى وقد رأيت ان املكه على اصحابى فاذا مت فاعلميهم ذلك وأن لا دين لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك

اخذ بابك ومن معه فى العيث والفساد واخافة السبل واول ماعرف ذلك من امره كان سنة ٢٠١ والمأمون بمرو لم يبرحها الى بغداد فلما شخص المامون الى بغداد عين احد قواده يحيي بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها احدهما من الآخر. فاختار المامون قائدا آخر هو عيسى ابن محمد بن ابى خالد فولاه ارمينية واذربيجان ومحاربة بابك فنكب . ثم وجه اليه صدقة بن على المعروف بزريق وندب للقيام بأمره احمد بن الجنيد الاسكافى فاسره بابك . ثم وجه اليه محمد بن حميد الطوسى فقتله بابك سنة ٢١٤ بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه. هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائد لم يصنع شيئا لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره فى قلوب الجمهور الذين كانوا معه . وقد ذكر فى حوادث سنة ٢١٨ دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق في دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان وذلك أول ولاية المعتصم فوجه اليهم الجنود وكان آخر

عسكر وجه اليهم وجهه المتصم مع اسحاق بن ابراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال فشخص اليهم وفض جموعهم وقتل في عمل همذان ستين الفا منهم وهرب سائرهم الى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أموره

وكان من وصية المأمون لاخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد وأكنفه بالاموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده في كسر شوكة بابك لئلا يمتد شر بدعته فى البلاد الفارسية فاختار لحربه قائدا تركيا من كبار قواده وهو حيدر بن كاوس الأشروسنى المعروف بالأفشين (الافشين لقب لملوك اشروسنة) وذلك سنة ٢٢٠ وقبل أن يخرج لوجهه وجه أبا سعيد محمد بن يوسف الى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التى خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة الى أردبيل ففعل أبو سعيد ما أمر به وأوقع بسرية أرسلها بابك للاغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند . ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا الى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجري مرتب فكان يركض بالخيل ركضا حتي يؤديه من واحد الى واحد يدا بيد ومن حلوان الى أذربيجان رتب فيه دواب المروج فكان يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المروج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديادبة على رؤس الجبال بالليل والنهار

وأمروا أن ينعروا اذا جاءهم الخبر فاذا سمع الذى يليه النعير تهيأ فلا يبلغ اليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الافشين الى سامرا فى أربعة أيام وأقل

توجه الافشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قوادا من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة وأطلق الافشين عيونه وجواسيسه لتعرف الاخبار عن بابك وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بارشق أحد حصون الافشين حيث خرج بابك ليقتنص مالا أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره الافشين فخرج اليه سرا والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الافشين على جميع رجالة بابك وأفلت هو فى نفر يسير ودخل موقان ومنها توجه الى البذ وعاد الافشين الى عسكره ببرزند

استمرت الحروب بين الافشين وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون الا اذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التى كانت تكسو رؤس الجبال وتمنع المشاة من التقدم الى أن كان الربيع سنة ٢٢١ فسار الافشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترسا وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليه . وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فافسد عليه الافشين تدبيره وسد عليه المسالك وأوقف عليها جندا من جيشه وأخيرا قبض عليه وعلى أخيه عبد الله وعاد بهما الافشين الى سامرا كما أمره المعتصم ومعهما ١٧ رجلا من اهل بيته ومن البنات والكنات ٢٣ امرأة وكان يوم دخولهم سامرا يوما مشهودا ثم قتل

بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد .

وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة ٢٥٥٥٠٠ انسان وغلب كثيرا من القواد الذين ذكرناهم وكان عنده من الاسرى الذين استنقذهم الافشين ٧٦٠٠

الخراج فى عهد المأمون

يمتاز عهد المأمون بوجود اثر تاريخى يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الاقاليم التى دخلت تحت حكم الدولة العباسية وهو الثَّبَت الذى نقله العلامة بن خلدون فى مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما في ذلك الثبت من الفائدة احببنا ان ننقله عنه وهاهو ذا

الاقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٢٧,٨٠٠,٠٠٠ درهم	٢٠٠ حلة بخرانية ٢٤٠ رطلا من طين الختم
كسكر	١١,٦٠٠,٠٠٠ «	
كوردجلة	٢٠,٨٠٠٠٠٠	
حلوان	٤,٨٠٠٠٠٠	
الاهواز	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠٠٠ رطل سكر
فارس	٢٧,٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ قارورة ماء ورد ٢٠٠٠٠ رطل زيت اسود
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠	٥٠٠ ثوب متاع يمانى ٢٠٠٠٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠,٠٠٠	
السند وما يليه	١١,٥٠٠,٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندى
	١٣٣,١٠٠,٠٠٠	

ما قبله	١٣٣,١٠٠,٠٠٠	
سجستان	٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠ ثوب معين ٢٠ رطلا من العانيذ
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠ برذون ١٠٠٠ رأس رقيق ٢٠٠٠٠ ثوب متاع ٣٠٠٠٠ رطل اهليلج
جرجان	١٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١,٥٠٠,٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والرويان ودنباوند	٦,٣٠٠,٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى ٢٠٠ كساء ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل ٣٠٠ جام
الرى	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
همذان	١١,٣٠٠,٠٠٠	١٠٠٠ رطل رب الرمانين ١٢٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠,٧٠٠,٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
شهرزور	٦,٧٠٠,٠٠٠	
الموصل وما اليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
الجزيرة وما اليها من عمل الفرات	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ١٢٠٠٠ زق عسل ١٠ بزاة ٢٠ كساء
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٢٠ قسطا محفور ٥٣٠ رطل رقم ١٠٠٠٠ رطل من المسايح السورماهى ١٠٠٠٠ رطل سونج ٢٠٠ بغل ٣٠ مهرا
برقة	١,٠٠٠,٠٠٠	١٢٠ بساط
	١٧٧٢٥٠٠٠٠٠	

ماقبله	٣٠٥,٦٠٠,٠٠٠	
افريقية	١٣,٠٠٠٠٠٠	
	٣١٨,٦٠٠ ٠٠٠ درهم	
قنسرين	٤٠٠,٠٠٠ دينار	
دمشق	٤٢٠,٠٠٠ «	
الاردن	٩٧,٠٠٠ «	
فلسطين	٣١٠,٠٠٠ «	٣٠٠ ٠٠٠ رطل زيت
مصر	١٩٢٠٠٠٠ «	
اليمن	٣٧٠,٠٠٠ «	
الحجاز	٣٠٠,٠٠٠ «	
	٣٨١٧٠٠٠	

فمجموع الخراج من الدراهم ٣١٨٦٠٠٠٠٠ درهم و ٣٨١٧٠٠٠ دينار ومن العروض ما ذكر أمام كل اقليم واذا قوم بلغ شيئا كثيرا كان هذا كله يرد الى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه فى الحوادث التى تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقى بعد ذلك كثير يهب منه ماشاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه فى الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا. ومن نموذج ما كان يصرف على أيدى الخلفاء مارواه الطيفورى فى أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم حمله اليه المعتصم من خراج ما يتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون الى ذلك المال فقال ليحيي

ابن أكثم ياأبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة الى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الاموال قد ملكناها دونهم اما اذا للئام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره) فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها فما زال كذلك حتى فرق ٢٤٠٠٠٠٠٠ ورجله فى الركاب ثم قال ادفع الباقى الى المعلى يعطى جندنا — قال راوى الخبر فجئت حتى قمت نصب عينيه فلم أرد طرفى عنها لا يلحظنى الا يرانى بتلك الحال فقال ياأبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف الالف لايختلس ناظرى قال فلم يأت ليلتان حتى أخذت المال . وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر

الجيش

ظهور الدولة العباسية على أيدى اهل خراسان والموالى جعل لهؤلاء شأنا عظيما فى الدولة ومقاما لاينقص عن مقام العرب فى اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من اهل خراسان ومن العرب . وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم فى تلك الدولة وبقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان فى عهد المنصور والمهدى والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند انما هم من أهل خراسان والابناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ماوراء النهر . روى الطيفورى انه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان قال أكثرت على يا أخا الشام والله ما انزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وأنا أرى انه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد واما اليمن فوالله

ما احبيتهـا ولا احبتني قط واما قضاعـة فسادتها تنتظر السـفياني وخروجه فتكون من أشياعه . واما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عزوجـل نبيه صـلى الله عليه وسـلم من مضر ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهما شاريا أعزب فعل الله بك . وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على ان تلك القوة العربية التي كان العالم الاسـلامي يحس بوجودها وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفـة المسلمين ان يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح ان الدولة ليس لها من العربية الا اللغة أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الامحاء

القواد العظام في عهد المامون

أكبر من اشتهر لعهد المأمون بقيادة الجيوش وعن النقيبة وبعد الصيت طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان . كان جده رزيق مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحـة الطلحات الخزاعي والى سجستان من قبل مسلم بن زياد بن ابيه والى خراسان ولا ندرى أكان مولى اسلام ام مولى عتاقة ويغلب على الظن انه مولى اسلام أسلم على يده فانتسب الى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعي وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرو وبها ولد طاهر بن الحسين سنة ١٥٩ وكان جـده مصعب ابن رزيق واليا عليها وعلى هراة وكان قبـل ذلك كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعي داعية بني العباس

نشأ طاهر ببوشـنج شهما شجاعا أديبا وأول ما أحيا ذكره الخالد

اعماله العظيمة التى قام بها فى قود الكتائب الخراسانيـة لحرب الامـين والجيوش العراقية فظفر ظفرا عظيما كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذللة فاشتهر ذكره وطار صيته الا ان الفضل بن سهل نفس عليـه ان ينفرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تنحيتـه عن العراق وارساله الى الجزيرة لحرب نصر بن شبث . ولما شخص المامون الى بغداد ومات الفضل فى الطريق أمر المامون طاهرا ان يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التى تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد ومعاون السواد

كان الذى يتولى خراسان في ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المامون ان عبد الرحمن المطوّعى جمع جمعا بنيسابور ليقاتل بهـم الحرورية بغير أمر والى خراسان فتخوفوا ان يكون ذلك لاصل عمـل عليه وان يكون بدء نار يستطير شرارها اذا لم تـتـدارك برجـل قوى الشكيمة ناهض العزم يتولى امر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهرا فاختاره المامون لذلك وولاه من حلوان الى أقصى عمل المشرق فتوجـه الى ولايته وساسها أحسن سياسـة وأعظم شهادة له ماذكره الطيفورى عن يحيي بن اكثم عن المامون انه كان يقول ما حابى طاهر فى جميع ما كان فيه احدا ولا مالأ أحدا ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر فى شيء وفعل فى جميع ماركن اليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وانه لا يعرف احدا من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن سلف عصره ومن بقى فى ايام دولته على مثل طريقته ومناصحته وغنائه واجزائه قال ثم كان يحلف على صدق مايقول فى ذلك مجتهدا مؤكدا لليمين على نفسه

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدى الخراج عن عمله وعليه

والى بريد يكتب الى المامون باخباره قالوا كان طاهر يتمنى ان يخطب على منبر مرو فوليها سنة ٢٠٥ وخطب بهم فى سنة سبع لم يصل بهم الا ذلك اليوم فانه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمامون فكتب والى البريد الى المامون بذلك وفى تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتا على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ماظن بطاهر من انه اراد خلع المأمون حقا فانه لم يكن هناك داع الى ذلك مطلقا

وقد استمر ملك البيت الطاهرى بخراسان من سنة ٢٠٥ الى سنة ٢٥٩ حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهى اول الدول استقلالا بالمشرق واحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب فى دوام هذا التحسن ان آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن اجل ذلك كان الاتصال دائما بين مرو وبغداد

عبد الله بن طاهر . ولد عبد الله سنة ١٨٢ فى خلافه الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده فى حوادث المأمون نحو ١٦ سنة فتربى فى كنف المامون فخرج شهما نبيلا اديبا وكان المامون يحبه حبا جما ولاه حرب نصر بن شبث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما امر به خير قيام ورد نصرا الى الطاعة بعد ان حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لابيه طاهر فى الشرط واعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه اسحاق بن ابراهيم بن مصعب

ولما فرغ من أمر نصر أمره المامون ان يسير الى مصر لاضطراب كان فيها من فتنة عبيد الله بن السرى امير مصر وفتنة جالية الاندلسيين بالاسكندرية فذهب اليها واستنزل عبيد الله بن السري من معاقله بعد ان

اذله واجلى الاندلسيين عما غلبوا عليه. قال يونس بن عبد الاعلى أحد علماء الحديث من أهل مصر. قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث — يعني عبد الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم فى بلاء فاصلح الدنيا وأمن البرئ وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة. وكتب اليه احمد بن يوسف وزير المأمون اذ ذاك يهنئه بذلك الفتح — بلغنى أعز الله الامير مافتح الله عليك وخروج ابن السرى اليك فالحمد لله الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل الله أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد لله على ماوليك به مذ ظعنت لوجهه فانا ومن قبلنا نتذا كر سيرتك فى حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة واللبان فى مواضعهما ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك ولقلما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له أبوته ومن أوتى حظا وكفاية وسلطانا وولاية لم يخلد الى ماعفا له حتى يخل بمساماة ماأمامه ثم لانعلم سائسا استحق النجح لحسن السيرة وكف معرة الاتباع استحقاقك وما يستجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحدا بهوى عند الحاقة والنازلة المتصلة فليهنك منة الله ومزيده ويسوغك الله هذه النعمة التى حواها لك بالمحافظة على مابه تمت لك من التمسك بحبل امامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ومولاك واياانا بالعيش ببقائه وأنت تعلم انك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرما مقدما معظما وقد زادك الله فى أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة فاصبحوا يرجونك لا نفسهم ويعدونك لاحداثهم ونوائبهم وأرجو أن يوفقك الله لمحابه كما وفق لك صنعه وتوفيقه

فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدد الا تذللا وتواضعا فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام. وكتب له المأمون كتابا وكتب فى أسفله

أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر فانى الدهر أهواه
وما تكره من شئ فانى لست أرضاه
لك الله على ذاك لك الله لك الله

ولما عاد الى مصر سنة ٢١٢ ولاه المأمون الجبال وارمينية واذربيجان لمحاربة بابك وصادف انه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واستمر واليا بها حتى مات سنة ٢٣٠ فى عهد الواثق

العلم فى عهد المامون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم فى العصر العباسى وذلك لامرين الاول — ان المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس كثيرا من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محبا للعلم ولازدياد نشره — الثانى — ما كان من الامة نفسها اذ ذاك حيث وجد فيها شوق الى العلم والبحث وكثر العلماء فى كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فوافق رأى الامام واستعداد الامة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد

العلوم التى نريد بيان حالها نوعان علوم دينية وعلوم عقلية

أما العلوم الدينية فمنها مايرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أوالتوحيد ومنها مايرجع الى أحكام الاعمال وهى الفقه وأصوله وأدلة تلك الاحكام من القرآن والحديث

ظهر فى ذلك الوقت جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا فى البحث فى أصول الدين والعقائد وحكموا فى البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ماعليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف وكان أول مانشأ ذلك الخلاف فى مدينة البصرة وامتد منها الى بغداد. وجد بالبصرة واصل بن عطاء الغزال ثم عمرو ابن عبيد الذى كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار النظام وبشر ابن غياث المريسي وعمرو بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤس الاعتزال وأصحاب الآراء والاقوال وكانوا يتكلمون فى كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التى خالفوا فيها جمهور أهل الحديث (١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون ان أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وان المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة أن أفعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها الا جريانها على

أيديهم وهذا ماأطلقوا عليه اكتساب العباد (٢) صفات الله تعالى فقد نزه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والارادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا ان الله قادر بذاته والذى أداهم الى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة ان الله قدير بقدرة وهى صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها . وتفرع عن ذلك قولهم فى القرآن أهو قديم لانه صفة لله جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لانه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والاصوات فى جسم محدث يسمعه النبى منه وهذا عندهم هو الوحى .

وهاتان المسئلتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة

وكما كان الاختلاف قد ظهر فى أصول الدين التى تشابه ماذكرنا كان قد ظهر فى الفقه الذي هو أحكام افعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث واهل رأى كما بيناه فى تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحوا نحوهم فى التشريع واقتدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كابى حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان فى اول عصره كالشافعى محمد بن ادريس الذى توفى في السنة التى دخل فيها المأمون بغداد . والفرق بين هؤلاء في اختلافهم وبين أولئك ان المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم بل كانوا يرون ان كل مجتهد مكلف ان يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له ان يقلد غيره فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد أما المختلفون فى أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص فى الأخرى وربما تلعنها فاهل الحديث يقولون عن المعتزلة انهم مبتدعة

فارقوا ماعليه سلف الامة ومادل عليه الاخبار والآثار وأولئك يقولون عن اهل الحديث انهم عامة يتخذون مايظهرون به حلية لينفقوا امام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهى مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الجمهور يرى ان الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق ترتيبهم فى تولى الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون ان عليا هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يستحقها من بعده اولاده وهم مختلفون فى الحكم على من سبق عليامن الخلفاء فنهم الغالى ومنهم الهين القول يرى انهم أخذوا ماليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الامامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجدمن كل منهما مذاهب وآراء

ولم يكن قبل المأمون لاصحاب المذاهب المخالفة لماعليه العامة حرية البحث واظهار الآراء بل كانوا يخشون بأس العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لان الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لان القوة فيها فلما جاء المأمون رأى ان يجمع اليه العلماء من المتكلمين والفقهاء واهل الحديث ويجعل لهم مجالس للمناظرة ويظهر انه كان يرمي الى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى وتتفق كلمة الامة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الامامة

قال الطيفوري فى تاريخ بغداد قال التغلبي سمعت يحيى بن اكثم

يقول أمرنى المأمون عند دخوله بغداد ان أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من اهل بغداد فاخترت له من أعلامهم اربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وافاض فى فنون الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون ياأبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم فطائفة عابوا علينا مانقول فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه وظنوا انه لايجوز تفضيل على الا بانتقاص غيره من السلف والله مااستحل أو قال مااستجيز ان انتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وان الرجل ليأتينى بالقطعة من العود أو بالخشبة او بالشيء الذى لعل قيمته لاتكون الا درهما أو نحوه فيقول ان هذا كان للنبى صلى الله عليه وسلم أو قد وضع يده عليه أوشرب فيه أومسه وماهو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل الا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فاشتريه بالف دينار واقل وأكثر ثم أضعه على وجهى وعيني وأتبرك بالنظر اليه وبمسه فاستشفى به عند المرض يصيبنى أويصيب من أهتم به كصيانتى نفسى وانما هو عود لم يفعل هو شيئا ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة الا ماذكر من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له فكيف لاأرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة واوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والاقارب وفارق الاهل والاولاد واغترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته ياسبحان الله والله لو لم يكن هذا فى الدين معروفا لكان فى الاخلاق جميلا وان من المشركين لمن يرعى فى دينه من الحرمة ماهو آقل من هذا معاذ الله مما فطن به الجاهلون . ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها

حتى نسبته الى البدعة في تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه فى الفضل وقد قال الله جل من قائل — ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض — ثم وسع لنا فى جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا اليه اذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد اذ شهدلهم بالعدالة والتفضل أمر لوجهله جاهل رجونا أن لا يكون اجترح اثما — وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشك الآخر واحتج فى كسره وابطاله فى الاحكام في الفروج والدماء والاموال التى النظر فيها أوجب من النظر فى التفضيل فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئا اوله روية أوحسن نظر او يدفعه من له عقل أو معاند يريد الالطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسا اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة لضرب من البدعة ثم امل كل رجل منهم يعادى من خالفه فى الامر الذي قدعقد به رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك الا ان ذلك امر لا رياسة له فساله عليه وأمسك عنه عند ذكر مخالفته اياه فيه فاذا خولف فى نحلته ولعلها مما وسع الله فى جهله او قد اختلف السلف فى مثله فلم يعاد بعضهم بعضاً ولم يروا فى ذلك اثما فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه او يرميه بالامور التى حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغيا عليهم وهم المترقبون الفتن والراسخون فيها لينتهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة وقد حال العدل بينهم وبين مايريدون يزأرون على الفتنة زئير الاسد على فرائسها — وانى لارجو ان يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على اتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ماهو أرضى واصلح للدين

اما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا واما معاند فيرد بالعدل كرها.

وروى أيضا عن بشر المريسى قال حضرت عبدالله المأمون انا وثمامة ومحمد بن ابي العباس وعلى بن الهيثم فتناظروا فى التشيع فنصر محمد بن ابى العباس الامامة ونصر على ابن الميثم الزيدية وجرى الكلام بينهما الى ان قال محمد لعلي يا نبطى ما انت والكلام . فقال المأمون وكان متكئا فجلس الشتم عيّ والبذاءة لؤم انا قد أبحنا الكلام واظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الامرين حكمنا فيه بما يجب فاجعلا بينكما أصلا فان الكلام فروع فاذا افترعتم شيئا رجعتم الى الاصول

فيستفاد من هذين الخبرين امور جديرة بامعان النظر.

(١) ان المأمون اباح الكلام وأظهر المقالات لدرجة قلما تجدها أمة وما ظنك بخليفة عباسى تناظر فى مجلسه اثنان في الامامة فينصر احدهما الامامية والثاني الزيديه وهذان المذهبان كلاهما ان صحا يذهبان بما فى ايدى آل العباس من الامامة ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم

(٢) ان طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لانه علم عنه الموافقة على بعض آراء تخالف رأي العامة كما كان مذهبه فى تفضيل على بن ابى طالب رضى الله عنه على سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه برئ وهو انتقاص غيره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه فى ذلك بما يغلب على الظن انه صادق فيه

(٣) ان المأمون كان يرى في علماء وقته انهم انما كانوا ينكرون ماينكرون فى الآراء التى كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لايترتب عليها فى الدين أثر وينفرون لمن خالفهم في الامور الجسيمة التى تترتب

عليها الآثار العظيمة مادامت لاترتبط بشيء مما يعتقدون به رياسة عند العامة

(٤) ان المأمون كان يظن انه بمجلس المناظرة هذا يتوصل الى ازالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فان الشاك يتبين اويتثبت والمعاند يكره

وهذا الذى فعله المأمون أول تجربة وآخرها لانه لم يفكر أحد ممن قبله فى مثل هذا ولما انتهت تجربته بالفشل لم يمد أحد من الخلفاء الى مثله

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى لان العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم كما ان الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يجهر بمخالفتها . أدت المناقشات الكثيرة التي كانت بين يدى المأمون الى انه كان يرى بعض آراء المعتزلة لا كلها فانه لم يكن قدريا روى الطيفورى عن محمد بن اسحاق بن ابراهيم اليزيدى انه سمع ثمامة يقول ان المأمون عامى لتركه القول بالقدر وانما الذى صار اليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك سنة ٢١٢ وكان يظن كما قدمنا انه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الامة يجيبوه الى اعلان رضاهم به فكانت النتيجة عكس ماظن فانهم تكلموا فيه وقالوا انه مبتدع وغلا بعضهم فى ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التى لم تكن تستحق تجسيما اذا نظر اليها بشيء من التدقيق ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلف بين المامون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور

مرت سنوات أربع والخلف يتسع والكلام من الفريقين فى الآخر يزيد حتي كانت سنة ٢١٨ فرأى المأمون ان يستعين بسلطانه فى رد الفقهاء

الى رأيه حتى لا يكون معترفا بفشله فيما شرع فيه فكتب كتابا وهو غاز الى اسحاق بن ابراهيم عامله على بغداد (محافظها) يبين فيه ان واجبه بصفته اماما للمسلمين أن يجتهد فى اقامة الدين ثم ذكر ماعليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فاطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال - ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا أنفسهم الى السنة وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ثم اظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق و الدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين الى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم فتركوا الحق الى باطلهم واتخذوا دون الله وليجة الى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم و نفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التى اليها أجروا وإياها طلبوا فى متابعتهم والكذب على مولاهم - وبعد ان أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع قال لاسحاق — فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون بتكشيفهم عما يعقدون فى خلق الله القرآن واحداثه واعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فاذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا

على سبيل الهدى والنجاة فرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله الا بشهادة أهل البصائر فى الدين والاخلاص للتوحيد واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك ان شاء الله وكتب فى شهر ربيع الاول سنة ٢١٨

وكتب الى اسحاق أن يشخص اليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير ابن حرب واحمد بن ابراهيم الدورقى فاشخصوا اليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم الى مدينة السلام وأحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم.

وكتب المأمون الى اسحاق كتابا ثانيا زاد فيه على الكتاب الاول قال فيه فى صفة من خالفوه — وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ولا نصيبا من الايمان واليقين ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قول ولا حكاية ولا تولية شىء من أمر الرعية

فجمع اسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لاسحاق

قال لبشر بن الوليد ما تقول فى القرآن — فقال قد عرفت مقالتى

لامير المؤمنين غير مرة — قال فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنبن ماقد ترى — قال — أقول القرآن كلام الله — قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال الله خالق كل شيء — قال أما القرآن شيء — قال هو شيء — قال فمخلوق هو — قال ليس بخالق — قال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال ما أحسن غير ماقلت لك وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندى غير ماقلت لك .

وقال لعلى بن أبى مقاتل ماتقول ياعلى — قال قد سمعت كلامى لامير المؤمنين فى هذا غير مرة وماعندى غير ماسمع — فقال له القرآن مخلوق — قال القرآن كلام الله — قال لم أسألك عن هذا — قال هو كلام الله وان أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .

وقال لابى حسان الزيادى القرآن مخلوق هو — قال القرآن كلام الله — والله خالق كل شيء وما دون الله مخلوق وأمير المؤمنين أمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع مالم نسمع وعلم مالم نعلم وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدى اليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى امامته امامة وان أمرنا ائتمرنا وان نهانا انتهينا وان دعانا أجبنا — قال القرآن مخلوق هو — فاعاد اليه حسان مقالته — قال ان هذه مقالة أمير المؤمنين — قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم اليها وان أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتنى به فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شيء فان أبلغتنى عنه بشيء صرت اليه — قال ما أمرنى أن أبلغك شيئا — قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث

ولم يحملوا الناس عليها .

وكان اسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعا أرسل الى المأمون نتيجة الامتحان . ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب فى شأنهم كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة فى عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الانبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين ابى العباس ما يشغله وانه لو كان مقتفيا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبيلهم لما خرج الى الشرك بعد ايمانه .

وأما الفضل بن غانم فاعلمه انه لم يخفَ على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر وما أكتسب من الاموال فى أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب ابن عبدالله فى ذلك فانه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع ايمانه طمعا فيهما وايثارا لعاجل نفعهما وانه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ماقال والمخالف له فيما خالفه فيه فما الذى حال به عن ذلك ونقله الى غيره

وأما الفضل بن الفرخان فاعلمه انه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها اياه عبد الرحمن بن اسحاق وغيره تربصا بمن استودعه وطمعا فى الاستكثار لما صار فى يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الايام به فقل لعبد الرحمن بن اسحاق لاجزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا وايمانك اياه وهو معتقد للشرك منسلخ

عن التوحيد

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بابى معمر فأعلمهم انهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد وان أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم الا لاربائهم وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركا وصاروا للنصاوى مثلا

وأما سمدويه الواسطى فقل له قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن فيجلس للحديث

وأما المعروف بسجادة وانكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بان القرآن مخلوق فاعلمه انه فى شغله باعداد النوى وحكه لاصلاح سجادته وبالودائع التى دفعها اليه على بن يحيى وغيره ماأذهله عن التوحيد والهاه ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه ان كان شاهدهما وجالسهما .

وقد ذكر مثل ذلك فى غير هؤلاء وخلاصة ما يطاب فى هذا الكتاب انه ذكر له رجلين هما بشر بن الولد وابراهيم بن المهدى أمره أن يستتيبهما فان تابا أشهر أمرهما والا ضرب أعناقهما أماه عداهما فان لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعا موثقين الى عسكر أمير المؤمنين . وقال فى ختام هذا الكتاب — وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطيه معجلا به تقربا الى الله عزوجل بما أصدر من الحكم ورجا ماعتمد وادراك ماأمل من جزيل ثواب الله

عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل اجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط اتعرف أمير المؤمنين مايعملونه ان شاءالله وكتب سنة ٢١٨

فاحضرهم اسحاق مرة ثانية وسألهم فاجابوا جميعا ان القرآن مخلوق ماعدا أربعة منهم فامر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليوم الثانى أعاد عليهم المحنة فاجابه واحد من الاربعة فاطلقه وفى اليوم الثالث فعل كذلك فاجابه ثان وبقى اثنان صمما على عدم الاجابة وهما احمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما اسحاق الى طرسوس . وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على اسحاق يقول له فيه ان سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب اليه ان بشر بن الوليد تأول الآية التى أنزلها الله تعالى فى عمار بن ياسر — الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان — وقد أخطأ التأويل انما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقد الايمان مظهر الشرك فاما من كان يعتقد الشرك مظهر الايمان فليست هذه له فاشخصهم جميعا الى طرسوس ليقيموا بها الى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعا ولما وافوا الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدوا الى مدينة السلام

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهى نتيجة تضاد ماقصده من تأليف القوم وجمعهم على رأى واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف فى مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلا ولكن المأمون قال ان أصغر المسائل متى كان أساسا لنحلة اوسببا لرياسة فان الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الامور فان الخلاف الشديد لايجد اليه سبيلا اذا لم يكن أساسا لنحلة او سببا لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحا ومع اعترافنا بان

الخلاف لا محل له في هذه المسألة لا نرى للمأمون حقا وهو سلطان الامة ان يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذى سنه مما بيناه

وليعلم ان جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسئلة القرآن أهمل المحدثون أمرهم وانزلوا رتبتهم وعدوا ذلك عيبا من عيوبهم وقد كاد امام المحدثين البخارى يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فان فريقا من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظى بالقرآن مخلوق وكان البخارى ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى امام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفا من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فانه لما سمع محمدا يقول من قال لفظي بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا أخذ كساءه وخرج . أما الذين وقفوا فى المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فانهم استحقوا من العناية والتكريم مالا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الامام احمد بن حنبل فان هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفا عظيما

ولم يكتف المأمون بما كان منه فى حياته بل أوصى الى أخيه المعتصم الذى استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته فى القرآن فلم يجد المعتصم بدا من أن يتبع هذه الوصية مع انه لم يكن له فى ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية اخيه وبقاء رؤس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد فى الامر فأحضر احمد بن حنبل وعرض عليه ان يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على انكار ان يكون القرآن مخلوقا ولم يثنه عن ذلك مالقيه من الضرب والتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه وكان احمد يتردد بين ذلك وبين ضيق المحبوس وهو صابر محتسب.

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه فى هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة احمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان احمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه كانت من السلطان فى دولة بنى العباس ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق كانت على من يقول ذلك وكان احمد اذا تكلم عن الواثق يقول الافعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لانكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لابيه وجده فى دولة بنى العباس من الاثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال انه أجاب الى ذلك وسعى له فى دعاء الناس رجلان ممن كان يغشاه فنجحا والفا فرقتين احدهما بالجانب الشرقى والاخرى بالجانب الغربى من بغداد واتّعدوا ليلة يضربون فيها طبولهم للاجتماع صبيحتها للوثوب بالسلطان فاتفق ان بعض المحافظين على الطبل انتبذ نبيذا فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن ابراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعد التدقيق عرف سر المؤامرة فتتبع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا الى الحبس وقبض احمد بن نصر أيضاً وحمل رؤس القوم الى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلساً عاماً لامتحانهم ولما حضروا اليه لم يناظر الواثق احمد بن نصر فى الشغب ولا فيما رفع اليه من ارادة الخروج عليه لكنه سأله ماتقول فى القرآن قال هو كلام الله ولم يزد على ذلك وبعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله فقام الواثق اليه بنفسه وقتله وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه الى بغداد فنصب بها فى الجانب الشرقى

وجعل فى أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو احمد بن نصر ابن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه عليه التوبة ومكنه من الرجوع الى الحق فأبى الا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجل به الى ناره وأليم عقابه وان أمير المؤمنبن سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير المؤمنبن دمه ولعنه

وممن حمل الى الواثق فى هذه المحنة من علماء مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى أكبر أصحاب الشافعي الامام رضى الله عنه نمى الى الواثق أنه لا يقول بخلق القرآن فارسل الى والى مصر فى امتحانه فامتحنه فلم يجب وكان الوالى حسن الرأى فيه فقال له قل فيما بينى وبينك قال انه يقتدى بى مائة الف ولا يدرون المعنى . فلما امتنع أمر الواثق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات في سجنه سنة ٢٣١

واستمرت هذه المشكلة حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لو يجد مخرجا وانتقلت المسألة من الجد الى الهزل . دخل عبادة المضحك على الواثق فقال ياأمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن قال ويلك القرآن يموت قال ياأمير المؤمنين كل مخلوق يموت بالله ياأمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح اذا مات القرآن . فضحك الواثق وقال قاتلك الله — امسك.

وجىء الواثق بشيخ مقيد فسأله ابن أبى دؤاد عن قوله فى القرآن فقال له الشيخ لم تنصفنى المسألة أنا أسألك قبل الجواب . هذا الذى تقوله يا ابن أبى دؤاد من خلق القرآن شىء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أو جهلوه — فقال بل علموه

قال فهل دعوا اليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا — قال بل سكتوا — قال فهلا وسعك ماوسعهم من السكوت — فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر باطلاقه وقام وهو يقول — هلا وسعك ما وسعهم — يكرر هذه الكلمة

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسنا فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور المظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته

ويمكن القول بان هذه المجالس التي تعقد للمناظرة رجاء الوصول الى الوفاق انما تقرر الخلاف وتؤكده لا تزيله متى اتصل بهذا الخلاف شيء من الرياسة فى الدنيا وتاريخ المجامع والمجالس التى كان من شأنها البحث فى الامور الدينية شاهد بذلك

علوم الصناعات

كما كانت للمأمون جولة فى العلوم الدينيـة كانت له جولة فى العلوم الصناعية وقد كان أثره فى هذه أظهر من أثره فى تلك كما يتبين مما يأتى

كانت الامة العربيه أمة أمية لا تتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم الا قليلا كما بيناه فى خلاصة تاريخها فى الجزء الاول فلما جاءها الاسلام لم يكن لها مجال في العلوم لانها كانت فى دور التكوين وذلك محتاج الى استعمال ما عندها من القوة والفكر فى سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم فى الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة

الى الدين وكانت الحال على ذلك فى صدر الدولة الاموية الا أنه وجد من رجالهم فى أوسط أدوارها من عنوا ببعض الصناعات التى كانت فيمن سبقهم من الامم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه فى ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان يسمي حكيم آل مروان وكان فاضلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم خطر بباله الصنعة « الكيميا » فامر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى وهذا أول نقل كان فى الاسلام من لغة الى لغة . ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام الحجاج نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم كما قدمنا ذلك فى تاريخ بنى أمية . ثم نقل ديوان الشام الى العربية فى زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان سعد مولى حسين .

وكانت الدولة الاموية أقرب الى من قبلها فى السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة الكتب فيها كبير حظ ولا عظيم أثر . فلما جاءت الدولة العباسية كان اختلاطها بالفرس أكثر لان دولتهم بالخراسانيين والموالى قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو الى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وكان أول من عنى بترجمة شيء من هذه الكتب أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين وكان الذى قام بترجمة الكتب له طبيبه جورجس بن جبرائيل الذى كان طبيبا لبيمارستان جنديسابور ثم طلبه المنصور اليه سنة ١٤٨ ليعالجه فحظى عنده حظوة عظيمة وترجم له كتبا كثيرة من اليونانى

الى العربى والبطريق قال فى طبقات الاطباء ان المنصور أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد الا أنه دون نقل حنين بن اسحاق وقد وجدت بنقله كتبا كثيرة فى الطب من كتب أبقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وتُرجم كتاب السند هند وكتاب المجسطى لبطلميوس وكتاب اقليدس فى الهندسة وغير ذلك الا ان العناية لم تبذل كثيرا فى الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشتغل بها الامة ·

فلما كان فى زمن هرون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كانقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها فى عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الارزاق

لما ولى المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوى حركة الترجمة ونشطها تنشيطا أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل فى هذا السبيل · حكى ابن النديم فى الفهرس أن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره قال المأمون وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا ارسطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قلت ما الحسن قال ماحسن فى العقل قلت ثم ماذا قال ماحسن فى الشرع قلت ثم ماذا قال ماحسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال ثم لا ثم — وفى رواية أخرى قلت

زدني قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد — قالوا فكان هذا المنام من أوكد الاسباب فى اخراج الكتب — واذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بارسطاليس وتماليمه .

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ مامن مختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب الى ذلك بعد امتناع فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج[1] بن مطر وابن[2] البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل وقيل أن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلاد الروم .

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لعهده جماعة ذو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب الى اللسان العربى ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن اسحاق وغيره الى بلد الروم فجاؤهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقى والطب . قال أبو سليمان المنطقى السجستانى أن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين

(١) قال فى طبقات الاطباء الحجاج بن مطر نقل للمأمون ومن نقله كتاب اقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى

(٢) قال فى الطبقات يحيى بن البطريق كان فى جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وانما كان لطينيا يعرف لغة الروم اليوم وكتابتها وهى الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة

ابن اسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم فى الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة. وقال ابن النديم فى موضع آخر هؤلاء القوم ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا الى بلد الروم من أخرجها اليهم فاحضروا النقلة من الاصقاع والاماكن بالبذل السنى فاظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل وتوفى محمد بن موسى سنة ٢٥٩ في شهر ربيع الاول. ثم ذكر الكتب التى ألفوها. وقال ابن خلكان ومما اختصوا به فى ملة الاسلام وأخرجوه من القوة الى الفعل وان كان أرباب الارصاد المتقدمون على الاسلام قد فعلوه لكنه لم ينتقل أن أحدا من أهل هذه الملة تصدى له وفعله الا هم وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الاوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الارض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على أى نقطة كانت من الارض وأدرنا الحبل على كرة الارض حتى انتهينا بالطرف الآخر الى ذلك الموضع من الارض والتقى طرفا الحبل فاذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله ٢٤٠٠٠ ميل فاراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى فقال أريد أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا — فسألوا عن الاراضى المتساوية فى أى البلاد هى فقيل لهم صحراء سنجار فى غاية الاستواء وكذلك وطآت الكوفة فاخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الى أقوالهم ويركن الى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا الى سنجار وجاؤا الى الصحراء المذكورة فوقفوا

فى موضع منها فاخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا فى ذلك الموضع وتداور بطوافيه حبلا طويلا ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض من غير انحراف الى اليمين واليسار حسب الامكان فلما فرغ الحبل نصبوا فى الارض وتدا آخر وربطوا فيه حبلا طويلا ومشوا الى جهة الشمال أيضا كفعلهم الاول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الارض بالحبال فبلغ ٦٦⅔ ميلا فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الارض ٦٦⅔ ميلا ثم عادوا الى الموضع الذى ضربوا فيه الوتد الاول وشدوا فيه حبلا وتوجهوا الى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا فى جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التى استعملوها فى جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة فصح حسابهم وحققوا ماقصدوا من ذلك — وهذا اذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم ان عدد درج الفلك ٣٦٠° لان الفلك مقسوم باثنى عشر برجا كل برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عدد درج الفلك فى ٦٦⅔ ميلا التى هى حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ ميل وهى ٨٠٠٠ فرسخ (الميل ١٦٦٦⅔ م والفرسخ ٥٠٠٠ م) وهذا محقق لاشك فيه فلما عاد بنو موسى الى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقا لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الاوائل طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر فسيرهم الى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا فى سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون

صحة ماحرره القدماء فى ذلك . وممن كان ينقل لهم حنين بن اسحاق العبادى وكان فاضلا فى صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد فى جمع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبنى موسى ونقله فى غاية الجودة وكانت وفاته سنة ٢٦٠

وكان هناك كثير غير بنى شاكر يحذون حذوهم فى ذلك فكثرت الكتب المترجمة فى جميع العلوم الصناعية ولما نقلت الى العربية اشتغل بها الناس كثيرا علماوعملا ففسروا مغلقهاوأصلحوا خللها ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتبا عظيمة فى هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن اسحاق الكندى ينتهى نسبه الى الاشعث بن قيس بن معديكرب ثم الى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جداً فى جميع العلوم ونقل فى طبقات الاطباء عن سليمان ابن حسان أنه كان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الاعداد وعلم النجوم ولم يكن فى الاسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو ارسطوطاليس وله تواليف كثيرة فى فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالادب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص . وقال أبو معشر فى كتاب المذكرات لشاذان: حذاق التراجمة فى الاسلام أربعة حنين بن اسحاق ويعقوب بن اسحاق الكندي وثابت بن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى وقد ذكر فهرس كتبه فى نحو خمس صفحات فى علوم شتى

وانما ذكرنا هذا لندل على ان الامة كانت فى استعداد تام لتلقى

هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها المتعلمون فى بغداد حاضرة الخلافة وفى غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التى كانت توجه اليهم أحيانا خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الاكبر فى نفاق هذه العلوم

فالمأمون يعد فى الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التى وجدت فى الامة الاسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه فى ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور فانهما وضعا الاساس وهو حذا حذوهم الا أنه فاقهم فى الاهتمام والعزم

الاحوال الخارجية

لم يكن بين المسلمين والروم حروب فى أول عهد المأمون الى سنة ٢١٥ وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم فى المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة اسحاق بن ابراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار الى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج الى طرسوس وهى الثغر الاسلامى ومن طرسوس دخل الى بلاد الروم فى منتصف جمادى الأولى (يوليه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه . ولما تم فتحه اشترى السبي بستة وخمسين الف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا — وكان قبل ذلك افتتح حصنا اسمه ماجدة فمن على أهله — ثم أرسل أشناس الى حصن سندس فاتاه برأسه — ووجه عجيفا وجعفرا الخياط الى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع

وبعد ذلك شخص الى الشام وهناك ورد الخبر عليه بان ملك الروم قتل قوما من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ٦٦٠٠ فاعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على انطيفو فخرج أهلها على صلح وصار الى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه اسحاق فافتتح ثلاثين حصنا ووجه يحيي ابن أكثم من طوانة فاغار وغنم ورجع الى العسكر — ثم خرج المأمون الى كيسوم ثم الى دمشق ومنها خرج الى مصر فى ١٦ الحجة سنة ٢١٦ ثم عاد منها الى دمشق سنة ٢١٧ فدخل أرض الروم ثالث مرة فاناخ على لؤلؤة مئة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفا فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيرا فى أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وصار توفيل الي لؤلؤة فاحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود اليه فارتحل توفيل قبل موافاتهم وخرج أهل لؤلؤة الي عجيف بالأمان

وكاتب ملك الروم المأمون فى سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما

كتب ملك الروم الي المأمون: أما بعد فان اجتماع المختلفين على حظهما أولي بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ولست حريا أن تدع لحظ يصل إلي غيرك حظا تحوزه الي نفسك وفى علمك كاف عن أخبارك وقد كنت كتبت اليك داعياً الى المسالمة راغبا فى فضيلة المهادنة لنضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزبا مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فان أبيت فلا أدبّ لك فى الخمر ولا أزخرف لك فى القول فانى لخائض اليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وان أفعل فبعد ان قدمت اليك المعذرة

وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام

رد المأمون — أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت اليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال فلولا مارجعت اليه من أعمال التؤدة والاخذ بالحظ فى تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأى فى مستقبله الا فى اصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون الى الله بدمائكم ويستقلون فى ذات الله مانالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الامداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم أظمأ الى موارد المنايا منكم الى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم احدى الحسنين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفية فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وان تركت ذلك ففي يقين المعاينة لقوتنا مايغنى عن الابلاغ فى القول والاغراق فى الصفة والسلام على من اتبع الهدى

شخص المأمون الى الرقة سنة ٢١٨ وفي هذه السنة فى جمادى (يونيه سنة ٨٣٣) سير ابنه العباس الى أرض الروم وأمره بنزول الطوانة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلا فى ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا . ثم سار المأمون بعده الى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتي .

اخلاق المأمون

أول ماظهر من حُلى المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فانه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجهم بشئ حتى الفضل بن الربيع الذى أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ماأوصى به أبوه له فذهب به الى الأمين وتركه بمرو مجردا عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شئ ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون أجل العفو لا يكون الا عن رضا وسجد المأمون شكرا لله على أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال الحمد لله قديما ما كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذى الهمنى الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين فعجبت لسعة حلمه .

وقال زيد بن على بن الحسين جلس المأمون يوما للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه اذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ماذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لاحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التى أتمها علىّ كما أتمها على أبوى من قبلى أما ترون ذاك الذى فى صحن الدار (يعنى الفضل بن الربيع) كان فى أيام الرشيد وحاله حاله يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندى كالذى لى عنده ولكنى كنت أداريه خوفا من سعايته وحذرا من أكاذيبه فكنت اذا سلمت عليه فرد علىّ أظل لذلك فرحا وبه مبتهجا وكان صغوه الى المخلوع فحمله على أن أغراه بى ودعاه الى قتلى وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن اجعله بحيث اذا قال لم يطع واذا دعا لم يجب فكان

أحسن حالا فى عنده أن وجه مع على بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا فى الفضة والحديد ليقيدنى به وذهب عنه قول الله تعالى « ومن بغى عليه لينصرنه الله » فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسى وكان بالامس يقف على هذا المنبر الذي بازائى مرة وعلى المنبر الغربى مرة فيزعم انى المأفون واست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظني تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام .

وكان له فى العفو لذة لا يعاد لها لذة حتى أنه لما ظفر بعمه ابراهيم عفا عنه مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذى أحس من نفسه بقدرة السلطان فاذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه مايعيبه الا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاربين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرود باسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فارسل اليهم الافشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب اليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك فى صفر سنة ٢١٧ وهى حادثة فى غاية الغرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذى اشترى سبي الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد ديناراً ومن على غيرهم من السبي

ومن مزايا المأمون أنه كان فى جدله ميالا الى الاقناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله فى ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله في الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره فى المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل أراد مرة أن ينتقص معاوية بن أبى سفيان ويلعنه فقال له يحيي بن

أكثم ان العامة لاتحتمل مثل هذا سيما أهل خراسان ولا تأمن ان يكون لهم نفرة وان كانت لم تدر ماعاقبتها والرأى ان تدع الناس على ماهم عليه ولا تظهر لهم انك تميل الى فرقة من الفرق فان ذلك أصلح فى السياسة وأحرى فى التدبير . فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذى كان قد أنشئ فى هذا المعنى فلم يقرأ على العامة ولكنه بقى فى دفاترهم مسجلا

كان المأمون مع حلمه يعلم ماعليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذى ينخدع برياء الناس وتقاتهم وظهورهم بمـا ليس من خيمهم قال يوما وفى مجلسه جماعة هاتوا فى عسكرنا من يطلب ماعندنا بالرياء فقال كل واحد بمـا عنده اما أن يقول فى عدو يقدح فيه أو يقول بمـا يعلم انه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ماأرى عند احد منكم مابلغ ارادتى ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره اهل الرياء حتى لوكان قد أقام فى رحل كل واحد منهم حولا مازاد على معرفته فكان مما حفظ عنه اذ قال حين ذكر اهل الرياء وما يعاملون به الناس — تسبيح حُميد الطوسى وصلاة قحطبة . وصوم النوشجانى . ووضوء بشر المريسى . وبناء مالك بن شاهى المساجد . وبكاء ابراهيم بن بريهة على المنبر . وجمع الحسن بن قريش اليتامى . وقصص منجا وصدقة على بن الجنيد . وحملان اسحاق بن ابراهيم فى السبيل . وصلاة ابن رجاء فى الضحى . وجمع على بن هشام القصاص — حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت او سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيرا من هذا — فحدث ابراهيم ابن المهدى بهذا الحديث رجلا من أصحاب الاخبار والعلم فقال له وماتصنع بهذا قد شهدت رسالته الى اسحاق ابن ابراهيم فى الفقها مخبر بمعايبهم رجلا

وجلا حتى لمو بها اعلم منهم بما فى منازلهم

قعد مرة للمظالم فقدم اليه أصحاب الحاجات فقضى ماشاء من حاجاتهم وكان فيهم نصرانى من اهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فأمر سلما صاحب الحوائج أن يبطحه ويضرب به عشرين درة وقال لسلم قل له تعود تصيح بى فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود واعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نفسه على القتل او قضاء حاجته ثم قال لابى عباد اقض حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة . فلا أدرى مم يعجب الانسان أمن ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لانه هو الذى صاح به مرة أومرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه ام من رجوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنة ما كانت

وكان مع هذه الاخلاق أديبا يعرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على ماأعجبه منه ثوابا فوق كل أمل . حدث عمارة بن عقيل قال انشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مئة بيت اوأكثر فما ابتدأت بصدر بيت الا بادرنى الى قافيته فقال عمارة والله ياأمير المؤمنين ماسمعها منى احد قط فقال المأمون هكذا ينبغى ان يكون . وقال عمارة قال لى عبدالله بن السمط علمت ان المأمون لايبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله انك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى اخره . قال انى أنشدته بيتا أجدت فيه فلم اره تحرك له — قلت وماالذى أنشدته فقال

أضحى امام الهدى المأمون مشتغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقلت ماصنعت شيئا وهل زدت على أن جعلته عجوزا فى محرابها فى

يدها سبحتها فمن القائم بامر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير فى عبد العزيز بن الوليد

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولعلمه بالشعر ومحبته له راجت فى زمنه سوقه وكثر الشعراء والادباء كما كثر المغنون ونبغوا . وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على رأي اهل العراق

أما كرمه فما سارت به الامثال فقد أربي على جميع خلفاء بنى العباس حتى على ابيه الذى كان يعطى عطاء من لايخاف فقرا ولا يخشى اقلالا وحكايات المأمون فى العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها الا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف فى القوم وسعة اليد وكثرة البذل

بنى المأمون سنة ٢١٠ ببوران بنت الحسن بن سهل في فم الصلح واحتفل ابوها بأمرها وعمل من الولائم والافراح مالم يعهد مثله في مصر من الامصار وانتهى أمره الى ان نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة اذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ مافيها ثم يمضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم مافيها ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وانفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من اجناده واتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن فى العسكر من يشترى شيئا لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوما وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم (نحو مليون جنيه) وأمر المأمون له عند انصرافه

بعشرة آلاف الف درهم واقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة . وهذا سرف عظيم سهل أمره الوارد الكثير

وفاة المأمون

بينما كان المأمون ببلاد الروم فى آخر غزواته اصابتـه حمى وهو بالبُذَنْدُون شمالى طرَسوس اصابته حمى لم تمهله كثيرا وفى ١٨ رجب سنة ٢١٨ ادركته منيته فحمل الى طرسوس ودفن بها وكانت سنه اذ توفى ٤٨ سنة

ولاية العهد

عهد المأمون وهو مريض الى أخيه ابى اسحاق بن الرشيد ولم يخطئ خطأ من قبله بالعهد الى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقـدم منها اشياء ومما جاء فيها (واعمل فى الخلافة اذا طوقـكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوامّ العوام فان الملك بهم وبتعهدك المسلمـين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ولا ينهين اليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم الا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شئ وانصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم الى دار ملكك بالعراق . وانظر هؤلاء القوم الذين انت بساحتهم فلا تغـفل عنهـم فى كل وقت)

(٨) المعتصم

هو ابو اسحاق محمد بن الرشيد بن المهدى بن المنصور وأمه ام ولد اسمها ماردة ولد سنة ١٧٩ فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان فى عهد أخيه المأمون واليا على الشام ومصر وكان المأمون يميل اليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه . وفى اليوم الذي توفى فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ اغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة الى أن توفى بمدينة سامرا فى ١٨ ربيع الاول سنة ٢٢٧ (٤ فبراير سنة ٨٤٢) فكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام)

وكان يعاصره فى الاندلس عبد الرحمن الثانى ابن الحكم بن هشام رابع أمراء بنى أمية بالاندلس (٢٠٦ — ٢٣٨)

ويعاصره فى المغرب الاقصى من الادارسة محمد بن ادريس بن ادريس (٢١٣ — ٢٢١) ثم على بن محمد (٢٢١ — ٢٣٤)

ويعاصره فى افريقية من الاغالبة زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب (٢٠١ — ٢٢٣) ثم الاغلب بن زيادة الله (٢٢٣ — ٢٢٦) ثم محمد بن الاغلب بن زيادة الله (٢٢٦ — ٢٤٢)

ويعاصره فى اليمن محمد بن ابراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون (٢٠٣ — ٢٤٥)

ويعاصره فى خراسان الامير عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون (٢١٣ — ٢٣٠)

ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية توفيل بن ميخائيل (٨٢٩ — ٨٤٢)

ويعاصره فى فرنسا لويز الاول الملقب باللين (٨١٤ — ٨٤٠) ثم شارل الملقب بالاصلع (٨٤٠ — ٨٧٧)

الاحوال فى عهد المعتصم

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصدا بغداد بعد ان أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق مالم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس الى بلادهم . وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان سنة ٢١٨

وزراء المعتصم

الفضل بن مروان بن ماسرخس . كان رجلا نصرانيا من أهل البردان وكان متصلا برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل ان يستخلف وهذا الكاتب هو يحيي الجرمقانى فلما مات يحيي صير الفضل فى موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التى بلغها والفضل كاتبه . لما خرج المعتصم مع المأمون فى غزوته الاخيرة كان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على اسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الامور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم اليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها اليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل

بالامور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالامور ثقل عليه . كان يدخل على المعتصم فيقول له احمل الىّ كذا وكذا من المال فيقول ماعندى فيقول فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول ومن أين أحتالها ومن يعطيني هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف فى وجهه . وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه ابراهيم المفتي كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله لا أفلحت أبداً فلما ولى المعتصم أمر للهفتي بمال وأمر الفضل أن يعطيه اياه فلم يفعل — فبينا المفتي يوما عند المعتصم بعد مابنيت له داره التي ببغداد واتخذ له فيها بستان قام المعتصم يمشى فى البستان ينظر اليه والى مافيه من انواع الرياحين والغروس ومعه المفتي وكان رجلا مربوعا ذا كدنة والمعتصم رجلا معرقا خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق المفتى فى المشى فاذا تقدم ولم يره التفت اليه فقال مالك لاتمشى يستعجله فى المشى فلما كثر ذلك من أمر المعتصم قال له المفتى مداعبا كنت أرانى أماشى خليفة ولم أكن ارانى أماشى فيجا والله لاأفلحت — فضحك المعتصم وقال ويلك وهل بقى من الفلاح شئ لم أدركه بعد الخلافة فقال المفتي أتحسب انك أفلحت الآن انما لك من الخلافة الاسم والله مايجاوز أمرك أذنك وانما الخليفة الفضل بن مروان الذى ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أي امر لى لا ينفذ فقال المفتى أمرت لى بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما امرت به منذ ذاك حبة فاحتجنها المعتصم على الفضل مع ماسبق له معه فاول مافعله ان جعل عليه زماما فى نفقات الخاصة وهو احمد بن عمار الخراسانى وزماما فى الخراج وجميع الاعمال وهو نصر بن منصور . ثم زادالأمر واستفحل فاشتد

غضب المعتصم عليه وعلى اهل بيتـه وأمرهم برفع ماجرى على ايديهم أى تقديم الحساب عما وصل اليهم من المـال وعمـا صرفوه ولمـا فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وان يحمل الى منزله ببغداد ثم نفى الى قرية فى طريق الموصل يقال لها السن وبقى كذلك حياة المعتصم قال الصولى فى اخبار الوزراء ان المعتصم أخذ من بيته لما نكبه الف الف دينار وأخذ اثاثا وآنية بالف الف دينار

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فان اقباله يعينه عليك ولا تتعرض له وهو مـدبر فان ادباره يكفيك أمره . واستمرت حياة الفضل بن مروان الى سنة ٢٥٠

استوزر المعتصم بعد الفضـل احمد بن عمار الخراسانى الذى تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية . ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان فى الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم ما الكلأ فقال لا أدرى . فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال ابصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فادخلوه اليه فقال ما الكلأ — فقال الكلأ العُشب على الاطلاق فان كان رطبا فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش وشرع فى تقسيم انواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره

محمد بن عبدالملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات . كان جده ابان رجلا قرويا من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه الى بغداد فعرف محمد به . نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظا وافرا حتى قيل ان ابا عثمان المـازنى لما قدم بغداد فى ايام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه

يخوضون بين يديه فى علم النحو فاذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم ابو عثمان ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب (يعنى ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذى يرتضيه ابو عثمان ويوقفهم عليه . وكان محمد فى اول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التى شرحناها فى تاريخ احمد بن عمار فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيرا الى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتى

وكان محمد بن عبدالملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعرا ظريفا عده دعبل بن على فى طبقات الشعراء وذكره ابو عبد الله هارون ابن المنجم فى كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله فى موت أم ابنه ولابنه ثمانى سنوات

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً فى الفراش تجيبه ... بلابل قلب دائم الخفقان
فهبني أطقت الصبر عنها لاننى ... جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسمه ... ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة الشاعر المعروف بالبحترى بقصيدة مطلعها

بعض هذا العتاب والتفنيد ... ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفا مامنحه من البلاغة

لتفننت فى الكتابة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يُخلِقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنّى عن اغاني مخارق وعقيد
حجج تُخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعقود
ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزْنَ مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادركـ ـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيـ ـض اذا رحن في الخطوط السود
قد تلقيت كل يوم جديد يا أبا جعفر بمجد جديد
يئس الحاسدون منك وما مجـ ـدك مما يرجوه ظن الحسود
واذا استطرفت سيادة قوم بنت بالسودد الطريف التليد
وذوو الفضل مجمعون على فضـ ـلك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعلـ ـم وقال الجهال بالتقليد

والذى كان يعاب عليه شدته في معاملة العمال الذين يصادرهم لخيانتهم في الاعمال وكان اذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني قال الرحمة خور في الطبيعة

أحمد بن أبي دؤاد الايادى — كان من المعتصم كيحيي بن أكثم من المأمون ولذلك سقنا خبره في عداد الوزراء

أصل بيته فيما يقال من احدى قرى قنسرين وكان أبوه يتجر الى

الشام أما هو فولد بالبصرة سنة ١٦٠ ونشأ بها فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب هياج بن العلاء السلمى وكان من أصحاب واصل بن عطاء الغزال كبير المعتزلة ومقدمهم فمال احمد من أجل ذلك الى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضى يحيى بن أكثم فلما امره المأمون ان يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان احمد فى هؤلاء المختارين فكان المأمون إذا شرع احمد فى الكلام ينظر اليه ويتفهم ما يقول ويستحسنه فامره ان يحضر مجلسه دائما ولا يتأخر عنه واحبه المأمون جدا وخف على قلبه حتى قال لاخيه المعتصم فى وصيته (وابو عبد الله احمد بن ابى دؤاد لا يفارقك واشركه فى المشورة فى كل امرك فانه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا الا برأيه فكان له فى حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه احد حتى قال ازون بن اسمعيل مارأيت احدا قط اطوع لاحد من المعتصم لابن أبي دؤاد وكان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهله وفى الثغور وفى الحرمين وفى أقاصى أهل المشرق والمغرب فيجيبه الى كل ماريد واقد كلمه يوما فى مقدار ألف الف لاحفر بها نهرا فى أقاصى خراسان فقال المعتصم وما علىّ من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يسألك عن النظر فى أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر فى أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين ابن أبى دؤاد عندنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله

كان ابن أبي دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربي حتى عرف بالمروءة وكان يحمل في سبيلها مالا يحمله أحد قال أحمد بن عبد الرحمن الكلبي ابن أبي دؤاد روح كله من قرنه الى قدمه . ومن طريف نوادره في المروءة أن الافشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية وقتل فاخذه وأحضر السياف لقتله وبلغ الخبر ابن أبي دؤاد فخاف اذا هو ذهب الى المعتصم وكلمه في شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فورا مع من حضره من العدول ودخل على الافشين وقد جيء بابي دلف ليقتل فوقف وقال انى رسول أمير المؤمنين اليك وقد امرك الا تحدث فى القاسم بن عيسى حدثا حتى تسلمه الى ثم التفت الى العدول وقال اشهدوا انى اديت اليه الرسالة عن امير المؤمنين والقاسم حى معافى فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الافشين على تنفيد مراده وذهب ابن ابى دؤاد الى المعتصم من وقته فقال له ياامير المؤمنين قد اديت عنك رسالة لم تقلها ما اعتد بعمل خير خيرا منها وانى لأرجو لك الجنة بها ثم اخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من احضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الافشين على ما كان عزم عليه .

وكان وجودا بن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لانه شجاع شديد عجول فكان اذا أسرع اليه الغضب هدأ ابن أبى دؤاد من حدته وأراه وجه الاناة والعفو فلا يسعه الا أن يسير فى سبيلها وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه — غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال

طاب منه بجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قدطرح نفسه على ابن أبى دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضى القضاة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا أبا عبد الله جلست فى غير مجلسك فقال ما ينبغي لى أن أجلس الا دون مجلسى هذا فقال له وكيف قال لان الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع فى رجل فيشفع — فقال المعتصم ارجع الى مجلسك قال مشفعا أو غير مشفع قال بل مشفعا فارتفع الى مجلسه ثم قال إن الناس لا يعلمون رضاء أمير المؤمنين ان لم يخلع عليه فامر بالخلع عليه فقال يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد ان يقبضوها وان أمرت لهم بها فى هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وأن الناس ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب فقال له اسكت سيدالعرب والله احمد بن أبى دؤاد . وكان فى ابن أبى دؤاد عصبية عربية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم فى عهدالمعتصم الذى جعل القوة كلها لغلمان الاتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم .

وكان ابن أبى دؤاد مع ذلك شاعرا أديبا مجيدا فصيحا بليغاً ذكره دعبل فى طبقات الشعراء ومن مأثور قوله ثلاثة ينبغى ان يبجلوا وتعرف اقدارهم العلماء وولاة العدل والاخوان فمن استخف بالعلماء اهلك دينه ومن استخف بالولاة اهلك دنياه ومن استخف بالاخوان اهلك مروءته ولابى تمام فيه مدائح جليلة منها قصيدته التى مطلعها

سقى عهد الحمى سيل العهاد ‏ ‏ ‏ وروض حاضر منه وباد

يقول فيها :

لقد أفنت مساوى كل دهر	محاسن احمد بن ابى دؤاد
متى تحلل به تحلل جنابا	رضيعا للسوارى والغوادى
ترشح نعمة الأيام فيـه	وتقسم منه ارزاق العباد
وما اشتبهت طريق المجد الا	هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت فى الآفاق الا	ومن جدواك راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والامانى	وان قلقت ركابى فى البلاد
معاد البعث معروف ولكن	ندى كفيك فى الدنيا معادى

العلويون فى عهد المعتصم

لأول عهده توفى محمد الجواد بن على الرضا تاسع أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية وكانت وفاته سنة ٢٢٠ وسنه ٢٥ سنة وكانت تحته ام الفضل بنت المأمون فحملت الى قصر عمها المعتصم فتولى الامامية بعـده ابنه ابا الحسن عليا الهادى وكانت سنه حين مات ابوه سبع سنين

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على ابن الحسـين بن على . كان مقيما بالكوفة ثم خرج منها الى الطالقان من خراسان يدعو الى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمع اليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر امير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحيـة الطالقان وجبالها فهزم هو واصحابه فخرج هاربا يريد بعض كور خراسـان كان اهله كاتبوه فلما وصـل الى نسا دل عليه فأخـذه عاملها واستوثق منه وبعث به الى عبـد الله بن طاهر

فأرسل به الى المعتصم فحبس بسامرا سنة ٢١٩ فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد الى امامته كثيرون من الزيدية ومنهم خلق كثير يزعمون انه لم يمت وانه حي يرزق وانه يخرج فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وانه مهدى هذه الأمة واكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقى ذلك الاعتقاد حتى سنة ٣٣٢ كما قال المسعودى فى مروج الذهب

الجيش

قدمنا ما كان فى عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الامة العربية في جيش الدولة العباسية وذلك امر قضت به الاحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم اربى على اسلافه في ذلك فقد كان يغلب عليه من اخلاق الرجال الشجاعة والميل الى الشجعان . رأى ان من ببغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى ما للاتراك من شدة البأس والنجدة فأراد ان يكون منهم جيشا يستعز به على هؤلاء الابناء ويرغم انوفهم فاستكثر من غلمان الاتراك واحضر منهم عددا عظيما فوق ما كان منهم فى عهد اخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بمرة واسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده الا من كان من الاتراك أو الابناء الا أنه اصطنع قوما من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والاشروسنية أهل أشروسنة فكثر

جيشه وكان هؤلاء القوم عجما جفاة يركبون الدواب فيتراكضون فى طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الابناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الاتراك ذلك الى المعتصم وتأذت بهم العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الاتراك فى وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء خطر عليهم فكان ذلك سببا لتفكيره فى اختطاط حاضرة جديدة له ولهذا الجيش الجديد الذى أعجب به فاختطت سامرا .

وكان المعتصم يلبس هذه الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل بيدهم مستقبل الخلافة الاسلامية وسنذكر بعضهم .

(١) الافشين حيدر بن كاوس وهو تركي من أشروسنة « كورة من بلاد ما وراء النهر شرقيها فرغانة وغربيها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والصغانيان وغيرهما ومدينتها التى يسكنها الولاة بنجكث »

كان حيدر فى حاشية المعتصم في حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالأفشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولى من الاعمال وكان المعتصم واليا على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لازالة الاضطراب فى برقة ومصر فنجح فيهما . ولما استخلف المعتصم كان الافشين فى مقدمة قواده فعين سنة ٢٢٠ لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظائم الاعمال وأحكام سير

الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه . ولما أسره المتصم بالعودالى سامرا كان يوجه اليـه كل يوم من حين فصل من برزند الى أن وافى سامرا فرسا وخلعة . ولما حضر توّجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين الف الف درهم منها عشرة آلاف الف صلة وعشرة آلاف الف يفرقها فى أهل عسكره وعقد له على السند . ولما غزا المتصم عمورية كان قائدا لاحدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم وهو الذى تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده . كل ذلك الاعظام والاجلال جعل الافشين يمنى نفسه بالملك والاستقلال فى بلاده أشروسنة يوما ما وأول ماعرف ذلك منه أنه كان وهو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مال الا وجه به الى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر أمير خراسان فيكتب الى المعتصم بخبره فيكتب المعتصم الى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع مايوجه الافشين من الهدايا الى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله . كان الافشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الالف فما فوقه من الدنانير في وسطه فاخبر عبد الله بذلك . فبينا هو فى يوم من الايام وقد نزلت رسل الافشين نيسابور معهم الهدايا وجه اليهم ابن طاهر واخذهم ففتشهم فوجد فى اوساطهم هماين فاخذها منهم وقال لهم من اين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الافشين وامواله فقال كذبتم لو اراد الافشين اخى ان يرسل بهذه الاموال لكتب الىّ يعلمنى به لأبذرقه « احرسه » لان هـذا مال عظيم وانتم لصوص فاخذ عبد الله المال واعطاه جنده وكتب الى الافشين يذكر له ما قال القوم وقال انا انكر ان تكون وجهت بهذا المال الى اشروسنة ولم تكتب الى تعلمنى

لأ بذرته فان كان هذا المال ليس لك فقد اعطيته الجند مكان المال الذى يوجهه الى امير المؤمنين في كل سنة وان كان المال لك كما زعم القوم فاذا جاء المال من قبل امير المؤمنين رددته اليك وان يكن غير ذلك فامير المؤمنين احق بهذا المال وانما دفعته الى الجند لانى اريد ان أوجههم الي بلاد الترك . فكتب اليه يعلمه أن ماله ومال امير المؤمنين واحد ويسأله اطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر

رأى الافشين أنه لا يتم له أمر مادام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذ يتسع له المجال . كان ببلاد طبرستان دهقان من ابناء ملوكها اسمه مازيار بن قارن بن وندا هرمز وكان منافرا لآل طاهر لايحمل اليهم الخراج ويحمله إلى المعتصم فكان إذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلا من قبله فيستوفيه ثم يسلمه إلي صاحب عبد الله بن طاهر ليرده إلي خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدها الاقصى فاراد الافشين انتهاز هذه الفرصة فكتب الي مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن المعتصم وعده أمارة خراسان وأراد الافشين بذلك أن يخالف مازيار فيولى المعتصم الافشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان . دعا ذلك مازيار الى اظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان. بلغ ذلك عبد الله بن طاهر فوجه اليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم اليه جيشا كثيفا يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن ابراهيم ابن مصعب فى جمع كثيف وضم اليه الحسن بن قارن الطبرى القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند الى مدينة الرى

ليدخل طبرستان من ناحية الرى — ولم ينتدب الافشين لشىء مما كان ظن
وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار —
فرأى ان يستأمن الى الحسن بن الحسين فاستأمن اليه هو وأخوه قوهيار
فامر عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته الى محمد بن ابراهيم فحملهم
الى المعتصم بسامرا

تحقق المعتصم من كل مابلغه عن الافشين واطلع على الكتب التى كان
أرسلها أخو الافشين الى مازيار وعلم الافشين ذلك فعزم على الهرب وصار
يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شىء من علم ذلك الى قائد
من القواد الاشروسنية فاخبر به المعتصم فامر بحضور الافشين ولما حضر
أخذ سواره وحبسه ثم أحضره فى مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان
الذى تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من التحقيق ان
الرجل لايزال على كفره وانه كان يكيد المكايد للوصول الى ملك بلاده
وان أهل اشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة ثم ثبت انه كان يكاتب
المازيار وشهد المازيار ان أخاه خاش كتب الى قوهيار أخى مازيار (انه
لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيرى وغيرك وغير بابك فاما بابك فانه
بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فابي حمقه الا ان دلاه
فيما وقع فيه فان خالفت لم يكن للقوم مايرمونك به غيرى ومعى الفرسان
واهل النجدة والبأس فان وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا الا ثلاثة المغاربة
والعرب والاتراك والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه
بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) انماهم أكلة رأس وأولاد الشياطين
(يعنى الاتراك) فانما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم

جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين الى مالم يزل عليه (أيام العجم) — ولما تبين أمره قال القاضى احمد بن أبي دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يابغا فأعيد الى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته

(٢) ايتاخ كان غلاما خزريا لسلام الابرش طباخا فاشتراه منه المعتصم سنة ١٩٩ وكان لايتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع اسحاق بن ابراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل اسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند ايتاخ يقتل وبيده يحبس وولاه المعتصم قيادة احدى الفرق الثلاث التى دخلت بلاد الروم الى عمورية وقد استمر ايتاخ على منصبه وزعامته مدة الواثق وقتل لاول عهد المتوكل سنة ٢٣٥ . فقى سنة ١٩٩ اشترى بالمال وفى عهد الواثق كانت المملكة فى يده فكان اليه الجيش والمغاربة والاتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة — وما الذى بقى بعد هذا

(٣) أشناس غلام تركى اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان فى غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة سنة ٢٢٥ بأن أجلسه على كرسي وتوجه ووشحه كما فعل بالافشين وزوج ابنته أترنجة للحسن بن الافشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر . وكانت تلك منزلته عند الواثق حتى انه فى سنة ٢٢٨ توجه والبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل فى عظمته حتى توفى سنة ٢٣٠

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسه ووصيف وبغا الكبير

أبو موسى وغيرهم .

كل هؤلاء قواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون . ومع اغترار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما انه ليس لأكثرهم نسب معروف فقد حدث اسحاق بن ابراهيم ان المعتصم قال له يا اسحاق فى قلبى أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وانما بسطتك فى هذا الوقت لأفشيه لك — نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذى لم ير مثله وأنت فانت والله الذى لا يعتاض منك السلطان أبداً وأخوك محمد بن ابراهيم وأين مثل محمد وأما أنا فاصطنعت الافشين فقد رأيت الى ماصار اليه أمره وأشناس ففشل أيه وايتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغنى فيه — فقال اسحاق جعلنى الله فداك أجيب على أمان من غضبك قال قل — قلت ياأمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لا أصول لها — قال يا اسحاق لمقاساة مامر بى فى طول هذه المدة أسهل علىّ من هذا الجواب

المعتصم وحده يتحمل أكثر تبعة ماحل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالامة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها . لم يكن الرجل بعيد النظر فى العواقب وانما

كان شجاعا جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحترمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقائها أم لا وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها

ومن النتائج التي سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الامة ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين . وذلك ان بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفا في الدولة العربية قبل ذلك وكان في الدار اما زوجة أبي حرب واما اخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب الى منزله شكت اليه مافعل بها وأرته الاثر فاشتمل سيفه ومشى الى الجندي وهو غار فقتله ثم هرب والبس وجهه برقعا كيلا يعرف فصار الى جبل من جبال الاردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى اليه متبرقعا فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي الى الناس ويعيبه فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له بن بيهس كان مطاعا في أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث اليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء الف رجل من الجند فلما صار اليه وجده في عالم من الناس زهاء مئة الف فتريث رجاء حتي كان أول عمارة الناس الارضين وحراثهم

وانصرف من كان معه من الحراثين الى الحراثة وأرباب الارضين الى أرضيهم وبقى أبو حرب فى زهاء الف أوالفين فناجزه رجاء الحرب فظفر به رجاء وأسره وجل من معه ثم سار به الى المعتصم أسيراً

الخراج

كما يمتاز عصر المأمون بالثَّبَت الذى نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذى أورده قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج له عن مقدار الجباية فى عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته

الجهة	مقدار الجباية بالدراهم أو الدنانير
سواد العراق	١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهم
الاهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠
حلوان	٩٠٠,٠٠٠
الماهين	٩,٨٠٠,٠٠٠
	٢٢٧,٦٥٧,٦٥٠

ماقبله	٢٢٧,٦٥٧,٦٥٠
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠
ماسبذان	١,٢٠٠,٠٠٠
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠
الايغارين	٣,١٠٠,٠٠٠
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠
أذربيجان	٤,٥٠٠,٠٠٠
الري ودنباوند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠
قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠
قومس	١,١٥٠,٠٠٠
جرجان	٤,٠٠٠,٠٠٠
طبرستان	٤,٢٨٠,٧٠٠
تكريت والطيرهان	٩٠٠,٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠
الموصل ومااليها	٦,٣٠٠,٠٠٠
قردى وبازبدى	٣,٢٠٠,٠٠٠
ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠
أرزن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠
طرون	١٠٠,٠٠٠
	٣٠٠,٦٨١,٣٥٠

أبقيت جد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب
أمّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدوداعن أبي كرب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصي الليالى وهى لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة ولا ترقت اليها همة النوب
حتى اذا مخض الله السنين لها مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة منها وكان اسمها فراجة الكرب
جري لها الفال نحسا يوم أنقرة
اذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالامس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل قانى الذوائب من آنى دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه لا سنة الدين والاسلام مختضب
لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الضحى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة فى ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها عن يوم هيجاء منها طاهر جنب
ويقول في ختامها
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب
ان كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين ايامك اللاتى نصرت بها وبين ايام بدر اقرب النسب
ابقت بنى الاصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلت اوجه العرب

صفات المعتصم

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والاقدام وشدة البأس و كان يحب العمارة ويقول أن فيها أمورا محمودة فأولها عمران الارض التي يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الاموال وتعيش البهائم وترخص الاسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك اذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه . ولم يكن للمعتصم نفوذ فى العلم كاخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وانما كان همه الجيش وتحسينه

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وها نحن أولا نقص شيئا من أمرها .

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الاتراك قال لاحد كتابه أنى أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلمانى فاذا ابتعت لى موضع سامرا كنت دونهم فان رابنى رائب أتيتهم فى البر والبحر حتى آتى عليهم فقصد كاتبه . . سنع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا (١٥٠ كيلو مترا) فابتاع ديرا كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستانا كان فى جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم فى آخر سنة ٢٢٠

حتى نزل القاطول وهو نهر عند سامرا كان احتفره الرشيد وبنى عليه قصرا فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء سنة ٢٢١ فبنى دارا له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى بها مسجدا جامعا فى طرف الاسواق وأنزل أشناس بمن ضم اليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز . وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الاسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لما كانا فى عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك بعد

وفاة المعتصم

احتجم المعتصم فى أول يوم من المحرم سنة ٢٢٧ فأصيب بعقب ذلك بعلته التى قضت عليه يوم الخميس لثمانى ليال مضت من شهر ربيع الاول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال

قد قلت اذ غيبوك واصطفقت   عليك أيد بالتراب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على الد   نيا ونعم الظهير للدين
لاجبر الله أمة فقدت   مثلك الا بمثل هارون

ولاية العهد

ولى المعتصم عهده ابنه هرون ولم يجعل معه فى الولاية غيره

(٩) الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة ١٨٦ بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده فى يوم الخميس ٨ ربيع الاول سنة ٢٢٧ (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة الى أن توفى لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧ فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و ١٥ يوما وسنه ٣٦ سنة

ويعاصره من الملوك والامراء المستقلين من كان يعاصر أباه الا فى مملكة الروم بالقسطنطينية فان توفيل مات فى السنة التى توفى فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان اذ ذاك صبيا فكانت أمه تدورة تقوم مقامه وفى خراسان حيث توفى عبد الله بن طاهر سنة ٢٣٠ وولى بعده ابنه طاهر بن عبد الله

وزراء الواثق

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيرا عليه فى حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبنه اذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لانه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير فى عهده صاحب الامر والنهى أكثر مما كان فى عهد أبيه

الجيش

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت فى حياة أبيـه الا أن قدم المماليك التى اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذى توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر فى شهر رمضان سنة ٢٢٨ . وقد قام قواد الأتراك بأعظم الاعمال الحربية حتى فى جزيرة العرب نفسها التى كانت حمى لا يستطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب التى كان هناك وكيف أزيل

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأ كثرها عدا وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة بهم وهى حرة بنى سليم فاجـترؤا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا اذا وردوا سوقا من اسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤا ثم ترقى بهم الامر الى أن أوقعوا بالجار بناس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم فى جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمى فوجه اليهم امير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبرى وكان الواثق أرسله مسلحة للمدينة في ٢٠٠ من الشاكرية لئلا يتطرقها الاعراب فتوجه اليهم حماد وقاتلهم بالرويشـة على ثلاث مراحـل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد بعد أن قتل وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحـدا ان يسلك تلك الطريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه اليهم الواثق بغا الكبـير فى الشاكرية والأتراك والمغاربة فشخص الى حرة بنى سـليم وعلى مقدمته طردوش التركي فلقى بنى سليم بقراهم وقتل

منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم بغا الى الامان على حكم الواثق فأتوه واجتمعوا اليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء الف رجل وخلى سبيل سائرهم ثم رحل بالاسرى الى المدينة في ذى القعدة سنة ٢٣٠ فحبسهم بها وشخص إلى مكة حاجا . ولما انقضى الموسم انصرف الى ذات عرق ووجه الى بنى هلال من عرض عليهم مثل الذى عرض على بنى سليم فاقبلوا فاخذ من مردتهم وعتاتهم نحوا من ٣٠٠ رجل وخلى سائرهم ثم انصرف الى المدينة وجعل المحبوسين من بنى هلال مع اخوانهم من سليم وجمعهم جميعا فى دار يزيد بن معاوية في الاغلال والاقياد وعدتهم نحو ١٣٠٠ رجل وسار هو الى بنى مرة . أما المحبوسون فنقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاؤهم واجتمعوا بهم ومنعوهم الخروج فباتوا محصورين وفى الغد حاربهم أهل المدينة وكاثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الاعراب فى أزقة المدينة ممن دخل ... ار أو يزور . كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجدا شديدا

أما مافعله ببنى مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك فانه لما قاربهم أرسل اليهم رجلا فزاريا يعرض عليهم الامان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزارى حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكا ولم يستأمن اليه الا القليل وهرب الباقون الى موضع من البلقاء من عمل دمشق . ثم صار اليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا اليه استحلفهم الايمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص الى ضرية لطلب بنى كلاب ووجه اليهم رسله فاجتمع اليه منهم

نحو ٣٠٠٠ رجل فاحتبس من أهل الفساد نحوا من ١٣٠٠ رجل ثم قدم بهم المدينة فى رمضان سنة ٢٣١ فحبسهم بها ثم شخص الى مكة حاجا ورجع الى المدينة بعد حجه فارسل الى من كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا فى البلاد فوجه فى طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد .

وفى سنة ٢٣٢ أمره الواثق أن يذهب الى غزوة بنى نمير لما كان من عيثهم وفسادهم فى الارض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشُّرَيف فحاربوه فقتل منهم نيفا وخمسين رجلا وأسر نحوا من ٤٠ ثم سار الى قرية لبنى تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة فتابع الى سكانها رسله يعرض عليهم الامان ودعاهم الى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون الى حربه فسار بغا اليهم من مرأة فى اول صفر سنة ٢٣٢ حتي دخل نخيله وأرسل اليهم أن ائتوني فاحتملت بنوضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهو جبل خلف اليمامه اكثر أهله باهلة فارسل اليهم سرية لم تدركهم ثم انه سار اليهم حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الابان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم الى الرجوع والى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفرى فجعلوا يقولون له يامحمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينك العُبر . ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصوداً وذلك انه كان قد وجه من أصحابه نحو ٢٠٠ نفس لتغير على خيل لهم علم وجودها بمكان من بلادهم فبينا جيش بغا على

شرف الانكسار اذ خرجت هـذه الجماعـة منصرفة من الموضع الذى وجهت اليه في ظهور بني نمير فنفخوا فى صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم رجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هرابا على ظهور الخيـل . وأقام بغا بموضع الوقعة حتى جمعت له الرؤس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم اياه فصاروا اليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة فى ذى القعدة سنة ٢٣٢ وأرسل الى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله بالمدينـة من بنى كلاب وفزارة ومرة وثعلبـة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعا الى سامرا وكانت عدة الاسرى جميعا نحو ٢٢٠٠ رجل

نكبة الكتاب فى عهد الواثق

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذى من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال لهم أحدهم ان سبب ذلك ماعلمـه بعد التفتيش من ان البرامكة استهلـكوا الاموال وتعللوا فى انفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها ومنهم رجـل يقال له أبو العود أمر له الرشـيد بثلاثين الف درهم فمطلوه بها فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبى ربيعة

وعدت هند وما كانت تعد   ليت هندا أنجزتنا ماتعـد

واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لايستبد

فقال الرشيد أجل والله انما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق صدق والله جدى انما العاجز من لا يستبد وأخذ فى ذكر الخيانة ومايستحق أهلها ولم يمض على ذلك اسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذى ظن أنهم اختانوه مما عهد اليه حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ماأخذ من كل منهم

احمد بن اسرائيل	٨٠٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب ايتاخ	٤٠٠,٠٠٠	«
الحسن بن وهب	١٤,٠٠٠	«
احمد بن الخصيب وكتابه	١٠٠٠,٠٠٠	«
ابراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠,٠٠٠	«
نجاح	٦٠,٠٠٠	«
أبو الوزير	١٤٠,٠٠٠	«
	١,٧٩٤,٠٠٠	

وذلك سوي ماأخذ من العمال بسبب عمالاتهم

وكانت العمال تسرع اليهم الثرة لاتساع مجال الخيانة اذ لم يكن هناك دقة في المحاسبات فاذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة فى وقت قريب وتلك الثروة لاتقوم بها أرزاقه التي يتقاضاها حكم الخليفة قطعا انه خائن ولا يجد أمامه الا تلك المصادرة التى لانظام لها

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر احدى الدولتين أن تتغلب على الاخرى وكثيرا مايكون في يد احدى الدولتين أسرى من الاخرى ولما كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذرا من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان في عهد الرشيد على نهر اللامس قريبا من طرسوس فودي فيه بثلاثه آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله فى عهده أيضا فودى فيه بألفين وخمسين

وقد كان الفداء الثالث فى عهد الواثق سنة ٢٣١ أرسل ملك الروم الى الواثق رسلا يسألونه أن يفادي بمن فى يده من أسارى المسلمين فاجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عددا كبيرا وقد تقابل الفريقان فى يوم عاشوراء سنة ٢٣١ على نهر اللامس وكان عدد من فودي به من المسلمين ٤٦٠٠ منهم ٦٠٠ نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة نحو ٥٠٠ فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيرا أو كبيرا وقد عقد المسلمون جسرا على النهر وعقد الروم جسرا فكان المسلمون يرسلون الرومى على جسرهم ويرسل الروم المسلم على جسرهم وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل فى يده ١٠٠ نفس ليكون له عليهم الفضل استظهارا

ومن غريب ماحصل فى هذا الفداء ان احمد بن أبى دؤاد القاضى أرسل مندوبا من قبله يمتحن الاسرى حتى لايفدى منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قدوصل الى نهايته

صفات الواثق

كان الواثق كثير الاكل والشرب واسع المعروف متعطفا على أهل بيته متفقدا لرعيته وكان محبا للنظر مكرما لاهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطبين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع فكانت سيرته فى ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن فى عهده شكلا حادا أكثر مما كانت فى عهد أبيه المعتصم لان المعتصم كان يتكلف ذلك لمكان وصية أخيه

وفاة الواثق

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته فى ٦ ذى الحجة سنة ٢٣٢ وسنه ٣٦ سنة وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل . ولم يعهد الواثق لاحد من بعده بالخلافة فخلافة من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة فى الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بانفسهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعى الترف المضنى

(١٠) المتوكل

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولد فى شوال سنة ٢٠٦ بفم الصِّلح ولم يكن بالمرضي عنه فى حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجلين هما عمر بن فرج الرُّخَّجي ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان باخباره فى كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسنا وكانت صكاك رزقه لا تختم له الا بعناء حتى ان عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به فى صحن المسجد الذى كان عمر يجلس فيه وكان الذى يصلح من شأنه عند الواثق احمد بن أبى دؤاد

ولما توفى الواثق ولم يكن عهد الى أحد اجتمع كبراء الدولة احمد بن أبى دؤاد القاضى ومحمد بن عبد الملك الوزير وعمر بن فرج واحمد بن خالد الكاتبان وايتاخ ووصيف من قواد الاتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فاشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم له الا انهم لما جاؤا به والبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة ثم أشار ابن أبى دؤاد بجعفر بن المعتصم فاتفق رأيهم عليه وأحضروه فالبسه احمد بن أبى دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على الله ثم بايعته العامة وتم ذلك كله فى اليوم الذى توفى فيه الواثق وهو ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) واستمر خليفة الى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ (١١ دسمبر

سنة ٨٦١) فكانت مدته ١٤ سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام وكانت سنه اذ قتل ٤١ سنة

وكان يعاصره فى بلاد الاندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨ — ٢٧٣)

ويعاصره فى بلاد المغرب من الادارسة على بن محمد بن ادريس الثانى (٢٢١ — ٢٣٤) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤ —)

ويعاصره فى أفريقية من الاغالبة محمد بن الاغلب بن ابراهيم (٢٢٦ — ٢٤٢) ثم احمد بن محمد بن الاغلب (٢٤٢ — ٢٤٩)

ويعاصره فى بلاد اليمن من الدولة الزيادية محمد بن عبد الله بن زياد (٢٠٤ — ٢٤٥) ثم ابراهيم بن محمد (٢٤٥ — ٢٨٩)

ويعاصره فى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٣٠ — ٢٤٨)

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكير

ويعاصره في فرنسا شارل الاصلع (٨٤٠ — ٨٧٧)

وزراء الدولة

كان الوزير الاول لأول عهد المتوكل هو محمد بن عبد الملك الزيات الذى كان وزيرا لاخيه ولابيه الا أن المتوكل كان منحرفا عنه لما كان يفعله معه فى حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك انه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمكنة منه ففى سابع صفر

سنة ٢٣٣ أمر فقبض عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت أما مانا له من المكروه فى نفسه فهو أعظم من أن يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب . الى هذا الحد وصل ضعف الوازع الدينى عند هؤلاء القوم — الرجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل أن يتولى فاشد ما يكون من عقوبته ألا يستعان به فى عمل — الرجل خان فيما عهد اليه من الامانات فاقصى عقوبته أن يصادر فى أمواله — الرجل قتل نفسا بدون حق فاقصى عقوبته أن يقتل فلم هذا التعذيب الذى سطره المؤرخون أليس ذلك دليلا على ان شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذى نهى أشد النهى عن التعذيب والمثلة أليس ذلك دليلا على أن صوت العلماء لا يظهر الا فى الامور النظرية المحضة التى لا يترتب عليها عمل ولا أثر فى الحياة أما ماتكون آثاره ظلم الناس بأخذ أموالهم وازهاق نفوسهم فلا تكاد تسمع لهم ركزا أين هذا مما كان فى عهد عمر بن الخطاب الذى كانت أمته تحاسبه على كل مايصدر منه من جليل وحقير

وكان مبلغ ماقبض له مع قيمة موجوداته ٩٠٠٠٠ دينار وبين القبض عليها ووفاته احد وأربعون يوما

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجى وهو الكاتب الذى رمى بصك المتوكل فى صحن المسجد أيام خلافة الواثق فقبض عليه وصودرت أملاكه وكان مقدار ماأخذ منه ومن أخيه محمد بن فرج ٢٧٤٠٠٠ دينار و ١٥٠٠٠٠ درهم سوى القصر والامتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملا كرّت مرارا ثم صالحوه بعد ذلك على أن يدفع ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم على أن ترد عليه ضياعه

بالاهواز فقط فردت عليه وأطلق من عقاله

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير احمد بن خالد الذى كان فى حياة الواثق زماما على عمر بن فرج الرخجى فى ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير واستمر كاتبا له زمنا قليلا فانه فى ذى الحجة من سنة ٢٣٣ غضب عليه وأمر بمحاسبته فحمل نحوا من ٦٠,٠٠٠ دينار وحمل بدور دراهم وحليا وأخذ له من متاع مصر ٦٢ سفطا و ٣٢ غلاما وفرشا كثيرا وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرموا من المال قدرا كثيرا .

وبعد أبى الوزير استوزر محمد بن الفضل الجرجرائى منسوب الى جرجرايا (وهى بلد من أعمال النهروان الاسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى) وكان الجرجرائى من أهل الفضل والادب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية انه كان عالما بالغناء مشتهرا به واستمر على وزارته الى سنة ٢٣٦ وفيها صرفه عن العمل لانه قال قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثا استوزره فمن أجل ذلك صرفه

اختار بعده لوزارته عبيد الله بن يحيى بن خاقان وبقى وزيرا للمتوكل الى أن مات وكان حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه وحسن خلقه وعفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه وقد حصل فى وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجانهم الاموال لانفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط فى الادارة المالية . كان نجاح بن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فكان لذلك مخشى الجانب نافذ الكلمة وكان الحسن بن

مخلد على ديوان الضياع وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى الى الوزير . احتاج المتوكل فى سنة ٢٤٥ الى المال لبناء القصور التى أراد تأسيسها بسامرا ، فقال له نجاح أسمى لك قوما تدفعهم الى حتى أستخرج لك منهم من الاموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحوا من عشرين رجلا موسى بن عبد الملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد الله ابن يحيي الوزير وأخواه وغيرهم من العمال فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر الى غدا — وناظر الوزير المتوكل فى ذلك فقال له يا أمير المؤمنين أراد ألا يدع كاتبا ولا قائدا ولا عاملا الا أوقع بهم فمن يقوم بالاعمال ياأمير المؤمنين وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد فقال لهما ان دخل نجاح الى أمير المؤمنين دفعكما اليه فقتلكما وأخذ ما تملكان من المال ولكن اكتبا الى أمير المؤمنين تتقبلان به فيها بألفى الف دينار فضلا وأوصل الوزير رقعتهما الى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحا فضمنا ذلك ودفع اليهما نجاحا فأخذاه وانتقما منه شر انتقام أما فى المال فأخذا من نجاح وابنه نحو ١٤٠,٠٠٠ دينار سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به أما كاتبه اسحاق بن سعد الذى كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم ٥١٠٠٠ دينار ولم ذلك قال المتوكل إنه أخذ منه أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين دينارا حتى اطلق أرزاق نحو ذوا لكل دينار ألفا وزيادة الف فضلا كما أخذ فضلا فحبس ونجم عليه ثلاثة

أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل ١٧٠٠٠ دينار وأخذ منه كفلاء بالباقى ، وأما نفس نجاح فقد فاتت تحت الضرب والتعذيب

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع الى عبيد الله بن يحيي الوزير ثم توفى موسى بن عبد الملك فضم ديوان الخراج الى الوزير أيضا

من أغرب مافى هذا التاريخ أن يرتشي العامل من أخى الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما الظن بغيره من أصحاب الارزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك الارزاق ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع الى هؤلاء الكتاب من الاموال الوفيرة في الزمن القليل والعمال يعرف بعضهم بعضا فيعلم الواحدمنهم ما اقتنى الآخر من الاملاك والضياع وما احتجن من المال فاذا بلغ خليفته شيئا من ذلك هاج اطماعه فيعمد الى ما يماثل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله (وما ظالم الا سيبلى بظالم) وتلك أمور تم الفساد فى جسم الدولة

أحمد بن أبى دؤاد — هو الرجل الموثوق به فى عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والواثق وقاضي القضاة فى زمنهما والذى كان يعطف على المتوكل فى عهد أخيه الواثق حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلما ولى المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قاضي القضاة وعظيم الدولة . وفى سنة ٢٣٣ فلج فعجز عن العمل فكان ابنه أبو الوليد يقوم مقامه فى القضاء وولاية المظالم الا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة أبيه فكانت النتيجة ان غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضى عن يحي بن أكثم فأشخصه من بغداد الى سامرا وولاه قضاء القضاة والمظالم . وأمر بالتوكيل على ضياع احمد بن

أبي دؤاد لخمس بقين من صفر سنة ٢٣٧ وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الاول ابنه محمد فى ديوان الخراج وحبس اخوته عند عبيدالله ابن السرى خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك بيومين حمل أبو الوليد ١٢٠,٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠,٠٠٠ دينار ثم صولح بعد ذلك على ١٦٠,٠٠٠٠٠ درهم وأشهد عليهم جميعا ببيع كل ضيعة لهم وفى أواخر سنة ٢٣٩ مات محمد بن احمد بن أبي دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوما توفى أبوه أحمد وهو على تلك الحال

العلويون

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة على بن أبي طالب رضى الله عنه وأهل بيته وهذا ما يعرف فى العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق لمحبة على وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض على فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والاعراض عنهم والاساءة اليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين

ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر فى سنة ٢٣٧ بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من اتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى فى الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به الى المطبق فهرب

الناس وامتنعوا من المصير اليه وحرث ذلك الموضع وزرع ماحواليه

وكان امام الامامية فى عهده أبو الحسن على الهادى بن محمد الجواد ابن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب سعى به الى المتوكل فاقدمه من المدينة الى سامرا التى كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكرى وقد ظل مقيما بها نحو عشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تنقطع السعايات عنه فقيل له أن فى منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته فوجه اليه ليلا من هجم عليه منزله وهو غافل فوجد فى بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط فى البيت الا الرمل والحصا وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو يقرأ ويدعو فحمل الى المتوكل فى جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه الى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه ثم قال له أنشدنى شعرا فأنشده

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم	غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم	فأودعوا حفرا يابئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ماقبروا	أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة	من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ماأكلوا دهرا وماشربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دورا لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الاموال وادخروا	فخلفوها على الاعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرا معطلة	وساكنوها الى الاجداث قد رحلوا

فبكي المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضي بها دينه ورده الى منزله مكرما

وفى عهد المتوكل أتى بيحيي بن عمر بن يحيي بن زيد بن على بن الحسين من بعض النواحى وكان قد جمع جمعا فضربه عمر بن فرج ثمانى عشرة مقرعة وحبس ببغداد فى المطبق

الجيش

كان الجيش على العهد الذى كان عليه فى مدة الواثق والمعتصم وكلما قدم العهد زاد الاتراك نفوذا وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الاتراك في الدولة واستبدادهم باموال الخلافة وادارتها وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بايتاخ الذى كان له الجيش والمغاربة والاتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة . أراد المتوكل الايقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو في سامرا بين قومه وجنده فدس اليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ففعل فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير فلما حج وانصرف الى العراق وجه اليه المتوكل بكسوة والطاف وأمر الرسول أن يلقاه بالكوفة أو ببعض الطريق وتقدم الى عامله على شرطة بغداد وهو اسحاق بن ابراهيم المصعبي بأمره فيه . فلما وصل بغداد قال له اسحاق بن ابراهيم إن أمير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس وأن تقعد لهم فى

دار خزيمة بن خازم فتأمر لهم بجوائز . فلما صار ايتاخ بالقرب من دار خزيمة حجز عنه غلمانه ودخل الدار وحده فكان فيها سجنه ثم نقل الى منزل اسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد فى عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا وكانت الشدة التى عومل بها ايتاخ سببا لوفاته فمات سنة ٢٣٥ وأما ابناه فبقيا فى الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده

ولكراهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التى أنشئت لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختار سنة ٢٤٣ أن يجعل دمشق حاضرته فشخص اليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الاتراك فى أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغيب عليه لانهم ظنوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد أن قام بدمشق أياما أظهر أنه استوبأ البلد لان الهواء بارد ندى والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل وغلت فيها الاسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائداً الى سامرا ويظهر أن الاتراك هم الذين حملوه على العودة . وفى سنة ٢٤٥ أمر ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى وأقطع القواد وأصحابه وجد فى بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل ساجهما الى الجعفرى وأنفق عليها فيما قيل أكثر من الفى الف دينار وكان يسميها هو وأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصراً سماه لؤلؤة لم ير مثله فى علوه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرمى على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة جعله شربا

لما حوله من فوه النهر اليها وقدر للنهر من النفقة ٢٠٠,٠٠٠ دينار لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل ، لما انتقل الى مدينته الجديدة شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم كما نبينه فى خبر مقتله

وقد حصلت حوادث في أطراف الدولة فى عهد المتوكل فاطفئت منها

(أولا) حادثة محمد بن البعيث بن حلبس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب بن أفصي بن دعمى بن جديلة فى مدينة مرند وهى من مشاهير مدن أذربيجان استدارتها فرسخان وبينها وبين تبريز يومان وكانت فى الاصل قرية صغيرة فنزلها حلبس أبو البعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه وبنى بها محمد قصرا ، وكان محمد بن البعيث محبوسا فى حبس اسحاق بن ابراهيم فتكلم فيه بغا الشرابى واخذ منه الكفلاء واطلق فهرب الى مرند وهى موضعه من اذربيجان فرم ما كان وهى من سورها واتاه من اراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار فى نحو من ٢٢٠٠ رجل وكان الوالى باذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر فى طلبه فولى المتوكل حمدويه بن على بن الفضل السعدى اذربيجان ووجهه من سامرا على البريد فلما صار اليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار فى عشرة آلاف فزحف الى ابن البعيث فألجأه الى مدينة مرند ولما طالت مدته وجه اليه المتوكل زيرك التركى فى عدد كبير من الاتراك فلم يغن شيئا فوجه اليه عمرو بن سيسل بن كال فكذلك فاختار له بغا الشرابى فى ٤٠٠٠ رجل ما بين تركى وشاكرى ومغربى وكان القواد الذين سبقوه قد زحفوا

الى مدينة مرند وقطعوا ما حولها من الشجر شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقا وبنوا بحذاء المدينة مايستكنون ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابى ومعه أمانات لوجوه اصحاب ابن البعيث ولابن البعيث ان ينزلوا وينزل على حكم امير المؤمنين والا قاتلهم فان ظفر بهم لم يستبق منهم احداً ومن نزل فله الامان وارسلت لهم هذه الامانات مع عيسى بن الشيخ الشيبانى وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة فنزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البعيث فدخلت جنود المتوكل المدينة وقد اراد ابن البعيث ان يهرب فأدرك واخذت حرمه واخذ نحو ٢٠٠ من رجاله فوافاهم بغا الشرابى وقد تم الأمر فكتب الى المتوكل بالفتح ، ثم عاد الى سامرا ومعه اسراه فأمر المتوكل بحبسهم جميعا ثم اتى بابن البعيث فأمر بضرب عنقه فطرح على نطع وجاء السيافون فلوحوا له فقال المتوكل وغلظ عليه مادعاك يا محمد الى ماصنعت قال — الشقوة وانت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه وان لى فيك لظنين اسبقهما الى قلبي اولاهما بك وهو العفو — ثم اندفع بلا فصل فقال

ابى الناس الا انك اليوم قاتلى	امام الهدى والصفح بالناس اجمل
وهل انا الا جبلة من خطية	وعفوك من نور النبوة يجبل
فانك خير السابقين الى العلا	ولا شك ان خير الفعالين تفعل

فالتفت المتوكل الى على بن الجهم وقال ان معه لأدبا وعفا عنه وكان ابن البعيث اديبا شجاعا يقال ان له اشعارا نظمها بالفارسية ، وكان ابن البعيث لما هرب قال

كم قد قضيت امورا كان اهملها غيري وقد اخذ الافلاس بالكظم
لا تعذليني فيما ليس ينفعني اليك عني جرى المقدار بالقلم
سأتلف المال في عسر وفي يسر ان الجواد الذي يعطي على العدم

ولم يمكث ابن البعيث بعد ذلك كثيرا فانه توفي بعد شهر ثم أطلق بنوه الثلاثة وهم حلبس والبعيث وجعفر وصاروا في عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيي بن خاقان واجريت عليهم الانزال

(٢) اضطراب ارمينية . كان لبغا الشرابي ولاية ارمينية واذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أبا سعيد محمد بن يوسف المروزى وفي شوال سنة ٢٣٦ مات فجأة فولى بعده ابنه يوسف بن محمد ولي حربها وخراجها فشخص اليها فضبطها ووجه عماله في كل ناحية وبينا هو في عمله خرج عليه رجل من بطارقة ارمينية وهو كبير البطارقة واسمه بقراط بن أشوط خرج يطلب الامارة لنفسه فاخذه يوسف بن محمد فقيده وبعث به الى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة ارمينية فاجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحصروه بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث بغا الشرابي الى ارمينية مطالبا بدمه فشخص اليها من ناحية الجزيرة فبدأ بارزن وكان بها موسى بن زرارة الذى وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا الى باب الخليفة ثم سار حتى أناخ بجبل الخُويثيه وهم جمة أهل ارمينية وقتلة يوسف ابن محمد فحاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثلاثين الفا وسبى منهم خلقا كثيرا ثم سار مخترقا بلاد ارمينية لارهاب عصاتها حتى بلغ ديبل فاقام بها شهرا ومنها سار الى تفليس

ففي يوم السبت ١٠ ربيع اول سنة ٢٣٨ وجه زيرك التركي فجاوز الكر وعليه تفليس في الجانب الغربي وصُغْديل في الجانب الشرقي وكان معسكر بغا في الشرق وكان غرضهم من ذلك اخضاع اسحاق بن اسماعيل مولى بني أمية الثائر بها فناوشوه القتال فخرج لقتالهم فبعث بغا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار فاقبل اسماعيل الى المدينة لينظر فاذا النار قد أخذت في قصره ثم أتاه الاتراك والمغاربة فاخذوه أسيرا وأخذوا ابنه عمرا فاتوا بهما بغا فامر بضرب عنقه ويقال انه أحترق في المدينة ٥٠٠٠٠ انسان وأسر من بقي حيا فيها وكان اسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم وأعطاهم بغا الامان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاؤا وكان اسحاق مصاهرا لملك السرير تزوج بنته . ولم يزل بغا يجوس خلال هذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم وأخذ معه كثيرا من بطارقة اذربيجان واران

الدولة اليعفريه

في آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم بن ابراهيم الحوّالي نائبا عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي كان واليا للمعتصم على نجد اليمن صنعاء وما اليها ولما توفي عبد الرحيم قام في الولاية مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالها الا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجا يحمل الى زبيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استقلال يعفر بن عبد الرحيم سنة ٢٤٧ واستمر ملك صنعاء في أعقابه الي سنة ٣٨٧ وهذه أسماء ملوكهم

(١)	يعفر بن عبد الرحيم	٢٤٧ — ٢٥٩
(٢)	محمد بن يعفر	٢٥٩ — ٢٧٩
(٣)	عبد القادر بن احمدبن يعفر	٢٧٩ — ٢٧٩
(٤)	ابراهيم بن محمد	٢٧٩ — ٢٨٥
(٤)	اسعد بن ابراهيم	٢٨٥ — ٢٨٨
	فترة لائمة صنعاء والقرامطة	٢٨٨ — ٣٠٣
(٥)	اسعد بن ابراهيم مرة ثانية	٣٠٣ — ٣٣٢
(٦)	محمد بن ابراهيم	٣٣٢ — ٣٥٢
(٧)	عبد الله بن قحطان	٣٥٢ — ٣٨٧

وقد اتبعنا فى ثبت هذه الدولة ماجاء فى تاريخ الدول الاسلامية لمؤلفه لين بول وفيه بعض مخالفة لما في تاريخ الدول الاسلامية للشيخ دحلان اه والحوالي نسبة الى عبد الله بن حوالة الازدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

العلاقات الخارجية . كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لا تزال دائمة الاتصال براً وبحرا لاتنقطع الا لهدنة وقتية

ففى سنة ٢٣٨ أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا اليه بالفسطاط ليتجمل بهم فلما جاءها الروم بمراكبهم لم يجدوا بها حامية وكانوا فى نحو ٣٠٠ مركب فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيرا من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخذوا ماوصلت اليه أيديهم من المغانم ثم عادوا إلى بلادهم لم يكلم أحدمنهم كلما . وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك فى صوائفهم من جهة

الدروب التي تلاصق المملكة الاسلامية من الجهة الشمالية وفى بحر الروم

وفى سنة ٢٤١ كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس فى ١٢ شوال وكان القائم به شنيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضى وعلى بن يحيي الارمني أمير الثغور الشامية وكانت عدة من نودى به من المسلمين فى سبعة أيام ٢١٠٠ رجل وامرأة على رواية المقريزى فى الخطط وروى الطبرى ان عدة أسرى المسلمين كانت ٧٨٥ انسان ومن النساء ١٢٥ امرأة قال المقريزى وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الاسلام مئة رجل ونيف فعرضوا مكانهم عدة اعلاج

وفى سنة ٢٤٢ خرجت الروم من ناحية شميشاط بعد خروج على بن يحيي الارمني من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا عددا عظيما من الاهلين ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم فخرج فى إثرهم قربياس وعمر بن عبدالله الاقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحدا فكتب الى على بن يحيي أن يسير الى بلادهم شاتيا

وفى سنة ٢٤٤ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم فى شهر ربيع الآخر فغزا الصائفة فافتتح صملة

وفي سنة ٢٤٥ أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحوا من ٥٠٠ وغزا على بن يحيي الارمنى الصائفة

وفى سنة ٢٤٦ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم فى صفر على يد على بن يحيي الارمنى ففودى بالفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا

صفات المتوكل وأخلاقه

لم يكن المتوكل كمن قبله فى حب النظر والجدل بل كان ميالا الى التقليد فامر لاول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث واظهار السنة

لم يكن المتوكل ممن يوصف فى عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وامساكه بخلا . ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا افضال ولا يتعالى عن مجون أو طرب . دخل عليه ابو عبادة البحترى الشاعر المشهور فانشده قصيدة يمدحه بها قال فيها

عن أى ثغر تبتسم　　وبأى طرف تحتكم

حسن يضيء بحسنه　　والحسن أشبه بالكرم

قل للخليفة جعفر الـ　　ـمتوكل بن المعتصم

المرتضى ابن المجتبى　　والمنعم ابن المنتقم

أما الرعية فهى من　　أمان عدلك فى حرم

ياباني المجد الذى　　قد كان قوّض فانهدم

اسلم لدين محمد　　فاذا سلمت فقد سلم

نلنا الهدى بعد العمى　　بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبس فقال ياأمير المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته فى قصيدته هذه فامر برده فاخذ

ينشد أبيات هزلية غثة لم نستحسن ايرادها فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وخص برجله اليسرى وقال يدفع الى أبى العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خاقان ياسيدى البحترى الذى هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا فقال ويدفع الى البحترى عشرة آلاف درهم فوصل الجاد فى كرامة الهازل

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة فى الدواوين ويكره أن يظهروا فى الطرق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره فى سنة ٢٣٥ أن يلبسوا زيا خاصا بهم وهو الطيالسة العسلية والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى يجرى فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشورا الى عماله فى الآفاق بذلك كتبه ابراهيم بن العباس الصولى فى شوال سنة ٢٣٥

قال المسعودى وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لاضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأمانى الحب وايام الشباب

وتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته فابطاله المناقشة فى القرآن وحدوثه ترفعه الى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه الى أسفل الدركات فكأنه عندهم لاعليه ولاله . أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكتاب وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد

ولاية العهد

تشبه المتوكل فى كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد فقد عقد الولاية لاولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وابراهيم المؤيد وذلك فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣٥ وقسم البلاد بينهم

فجعل لأكبرهم المنتصر افريقية والمغرب كله من عريش مصر الى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكورباجرمى وتكريت وطساسيج السواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الاهواز والمستغلات بسامرا ومياه الكوفة ومياه البصرة وماسبذان ومهرجان قذق وشهرزور ودراباذ والصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة الى الجبال وصدقات العرب بالبصرة .

وجعل لأبنه المعتز كور خراسان وما يضاف اليها وطبرستان والرى وأرمينية واذربيجان وكور فارس وضم اليه فى سنة ٢٤٠ خزن بيوت الاموال فى جميع الآفاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الاردن وجند فلسطين

وكتب بينهم كتابا يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الامين والمأمون والقاسم . وقد جعل المتوكل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالهما اذا آلت الخلافة للمنتصر بحيث لايجوز أن يشرك فى شىء من

أعمال أحدهما أحدا ولا يوجه عليه أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ولا يضرب على يده فى قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد اذا آلت الخلافة للمعتز وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ نسخة بخزانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج مما قيل من الشعر فى هذه البيعة وهو ينم على تفاق قائله لان القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد . قال ابراهيم بن العباس الصولى

أضحت عرى الاسلام وهى منوطة بالنصر والاعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم فسموا باكرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل

لم تكن قلوب كبار الاتراك مطمئنة الى المتوكل فقدوقع فى أنفسهم أنه يريد تدبير المكايد لهم حتى يتخلص منهم واحدا بعدواحدفاخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيدالله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولى العهد مائلين الى المعتز فاوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الاتراك وولى العهد. مال الاتراك الى المنتصر ليستعينوا به فى تنفيذ غرضهم ومال اليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلا أو آجلا . ومما زاد فى اغراء المنتصر أن المتوكل اشتكى فامره أن يصلى بالناس يوم الجمعة فقال عبيد الله والفتح للمتوكل مر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك فى هذا اليوم

الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعا فقد بلغ الله به فامره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر فى منزله وفى الجمعة التالية أراد المتوكل أن يصلى المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو لئلا يرجف الناس بعلته فقعل . كل ذلك زاد المنتصر حقدا وخوفا على الخلافة أن تفوته .

ويقال ان المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ولم يكن هذا السر ليستتر مع النبيذ والاستهتار بشربه فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل

وقد تولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابى فانه أعد لذلك قوما فى مقدمتهم باغر التركى الذى كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الاجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه وكان معه الفتح ابن خاقان فقتل معه وكان قتله ليلة الاربعاء لاربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ ويعجبنى ماقاله بعض شعراء الوقت فى تلك الحادثة

لاحزن الا أراه دون ماأجد … وهل كمن فقدت عيناى مفتقد

لايبعدن هالك كانت منيته … كماهوى عن غطاء الزبية الاسد

لايدفع الناس ضيما بعد ليلتهم … اذلاتمد الى الجانى عليك يد

لوان سيفى وعقلى حاضر ان له … أبلينه الجهد اذلم يبله أحد

هلا أتاه أعاديه مجاهرة

والحرب تسعر والابطال تطرد

نخر فوق سرير الملك منجدلا … لم يحمه ملكه لما انقضى الامد

وأصبح الناس فوضى يعجبون له … ليثا صريعا تنزى حوله النقد

علتك أسـياف من لادونه أحـد

وليس فوقك الا الواحد الصمد

أضحى شهيد بنى العباس موعظة ... لـكل ذى عزة فى رأسه صيَدُ

خليفة لم ينـل ماناله أحـد ... ولم يضع مثله روح ولا جسد

كم فى أديمك من فوهاء هادرة ... من الجوائف يغلى فوقها الزبد

اذا بكيت فان الدمع منهمل ... وان رثيت فان القول مطرد

قد كنت أسرف فى مالى وتخلف لى

فعلمتنى الليالى كيف أقتصد

لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم ... ضعتم وضيعتم من كان يعتقد

فلو جعلتم على الاحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد

قوم هم الجذم والانساب تجمعهم ... والمجد والدين والارحام والبلد

وقال على بن الجهم من قصيدة له

عبيد أمير المؤمنين قتلنه ... وأعظم آفات الملوك عبيدها

بنى هاشم صبرا فكل مصيبة

سيبلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فانه ملك الخلافة قوما لا حلوم لهم وليس لهم من الاخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأمونا وأجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكا فى دم أبيه وهذا أيضا اول حادث من نوعه ويعجبنى ماقاله البحترى

أكان ولى العهد أضمر غدره ... فمن عجب أن ولى العهد غادره

فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

(١١) المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية ولد سنة ٢٢٢ وعقد له أبوه ولاية العهد سنة ٢٣٥ وسنه ثلاث عشرة سنة . ولما قتل أبوه بايعه قواد الاتراك عقيب مقتله في ٤ شوال سنة ٢٤٧ (١١ دسمبر سنة ٨٦١) واستمر خليفة الى أن توفى يوم الاحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونيه سنة ٨٦٢) فكانت مدته التى تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصرا فى صناعته مطعونا عليه في عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما أراد وقد وصفه المسعودى بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على ما فعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد الله بن خاقان وزير أبيه بسبب ماشاع من حدة ابن الخصيب وطيشه وذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك فقال بعض شعراء ذلك الزمان

قل للخليفة يا ابن عم محمد ... أشكل وزيرك أنه شكال
أشكله عن ركل الرجال وان ترد ... مالا فعند وزيرك الاموال

الجيش

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الاتراك قوة فى الدولة

على قوتهم لان أيديهم امتدت الى حياة الخلفاء فقتلوا خليفة وساقوا الخلافة الى خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك في جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب الى قلوب الخلفاء من الهيبة لهم ورعاية جانبهم ومما يدل على ذلك أن الاتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابنى المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضى المؤيد وأبى المعتز فقال له المؤيد ياجاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم إخلع ويلك ولا تراجعهم — وما زال به حتى أجاب وكتبا ما أملى عليهما فى ذلك وهذا ما كتباه — بسم الله الرحمن الرحيم أن أمير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدنى هذا الأمر وبايع لى وأنا صغير من غير إرادتى ومحبتى فلما فهمت أمرى علمت أنى لا أقوم بما قلدنى ولا أصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتى فى عنقه فهو من نقضها فى حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهد لى فى رقابكم ولا عقد وأنتم براء من ذلك — ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما فى الكتاب ثم أقبل عليهما والاتراك وقوف وقال لهما أترياني خلعتكما طمعاً فى أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ماطمعت فى ذلك ساعة قط واذا لم يكن فى ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبى أحب الىّ من أن يليها بنو عمى ولكن هؤلاء (وأومأ الى سائر الموالى ممن هو قائم وقاعد) ألحوا علىّ فى خلعكما فخفت ان لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما ترياني صانعا أقتله فوالله ماتفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت اجابتهم الى ماسألوا أسهل على

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ماعقده المتوكل واكده بالأيمان والمواثيق والعهود . وقدكتب المنتصر بذلك الى الآفاق وظهر فى كتابه براعة المنشئين فى ذلك الوقت وان لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له هو احمد بن الخصيب

صفات المنتصر

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لاهراق دم ابيه فانه كان لايزال ذا نفس تحس فتتأثر فلم يزل يلاقى اهوال التوبيخ فى يقظته ومنامه حتى اسقم ذلك بدنه واذل نفسه . دخل عليه عبد الله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكى وينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائما فرأيت كأن المتوكل قد جاءنى فقال له ويلك يا محمد قتلتنى وظلمتنى وغبنتنى خلافتى والله لاتمتعت بعدى الا اياما يسيرة ثم مصيرك الى النار فانتبهت وما املك عينى ولا جزعى . فهون عبد الله عليه الأمر . وكان كثيراً مايقول اذا سئل عن حاله ذهبت والله منى الدنيا والآخرة — فكان الرجل يكابد نيرانا تضطرم بين جنبيه جزاء فعلته وكان يهم ان يكفر سيئته فينتقم من قتلة ابيه او انه احس بأن الذين تمكنوا من قتل ابيه لايبعد عليهم ان يكرروا التجربة فيه فكان يفكر فى تفريق جمعهم واثرت عنه كلمات فى ذلك ولكن قوتهم كانت اكبر من ان تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة فى

الخير والسخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الاخلاق وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة الي مثله . ومما حببه الى الناس ازالته عن آل ابى طالب ما كان قد اوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن اخبارهم والا يمنع احد زيارة قبر الحسين رضى الله عنه ولا قبر غيره من آل ابى طالب واطلق اوقاف الطالبيين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ومما يؤثر من قوله (ان لذة العفو اعذب من لذة التشفى واقبح افعال المقتدر الانتقام) وقد اظهر الانصاف في الرعية فمالت اليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له

وفاة المنتصر

قال الطبرى لم ازل اسمع الناس حين افضت اليه الخلافة من لدن ولي الى ان مات يقولون انما مدة حياته ستة اشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل ابيه مستفيضاً ذلك على السن العامة والخاصة وكذلك كان فقد اصابته العلة التى قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الاول سنة ٢٤٨ ومات مع العصر من يوم الاحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال ان تلك العلة كانت الذبحة فى حلقه وبعضهم يقول كانت ورما خبيثاً فى معدته ويقال ايضا انه سم سمه الطيب فى مبضع والله اعلم أى ذلك كان .

(١٢) المستعين

هو احمد بن محمد بن المعتصم بن الرشـيد وامه ام ولد صقلبيه اسمها مخارق ولد سنة ٢٢٠ وبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المنتصر وهو خامس ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونيه سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة الى ان خلع يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢ (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية اشهر و ٢٨ يوما

كيف انتخب

اجتمع الموالى وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الاتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بما رضى به من سمينا فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحدا من أولاد المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه كما أنهم لم يريدوا اخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلا عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وانكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمنتصر فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ولكن أطيعوا انسانا يعرف لكم ذلك . فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعا الا بغا الكبير فانه قال لهم نجىء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا . ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هو من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغا الكبير

حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعا . وهو أول خليفة من بنى العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسى الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه

وفى عهده توفى من الاغالبة بأفريقية أحمد بن محمد بن الاغلب سنة ٢٤٩ وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد الى سنة ٢٥٠ وخلفه ابن أخيه محمد بن احمد بن محمد بن الاغلب الى سنة ٢٦١

وفى عهده توفي من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر ابن الحسين فولى مكانه محمد بن طاهر الى سنة ٢٥٩

الوزارة فى عهد المستعين

لم يكن للخليفة شيء من النفوذ فان الموالي هم الذين حولوا الخلافة عن المعتز بخلعهم اياه من ولاية العهد وهم الذين ساقوها الى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاؤا حتى مثله بعض الشعراء بقوله

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى فان وافق هواهم رضوا عنه وان خالفهم فى شيء أزالوه عن رتبته وأقاموا غيره

تركوا الوزارة فى يد أحمد بن الخصيب الذى كان وزيرا للمنتصر ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه فى جمادى الاولى من سنة ٢٤٨ فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه الى جزيرة اقريطش

واختير لوزارة المستعين أتامش أحدقواد الاتراك وكان الذى يقوم بأمر الكتابة كاتبه شجاع فكان أتامش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده فى الاموال ومعه شاهك الخادم الذى جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم اليهما فى النفوذ والتصرف أم المستعين فانه لم يمنعها من شيء تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصرانى فكانت الاموال التى ترد على السلطان من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة فعمد أتامش الى ما فى بيوت الاموال من الاموال فاكتسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس فى حجر أتامش فكان مافضل من الاموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف فى نفقاته وأسبابه وصاحب ديوان ضياعه يومئذ كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصرانى فاقتطع من ذلك أموالا جليلة لنفسه . نظرت الموالى الى هذه الحال الاموال تستهلك وهم في ضيقة وأتامش هو صاحب المستعين وصاحب أمره والمستولى عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغا من ذلك كله بمعزل فأغريا الموالى به ولم يزالا يدبران الامر عليه حتى أحكما التدبير فتذمرت الاتراك والفراغنة على أتامش وخرج اليه منهم يوم الخميس ١٢ ربيع الآخر سنة ٢٤٩ أهل الدور والكرخ فعسكروا وزحفوا اليه وهو فى الجوسق مع المستعين وبلغه الخبر فأراد الهرب فلم يمكنه واستجار بالمستعين فلم يجره وفى يوم السبت دخلوا الجوسق فاستخرجوا أتامش من موضعه الذي توارى فيه فقتل وقتل كاتبه شجاع وانتهبت دار أتامش فأخذوا منها أموالا جليلة ومتاع وفرش وآلة

استوزر المستعين بعده ابا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وابوه

كان قبل ذلك وزيرا للمأمون فمكث فى الوزارة نحو ثلاثة اشهر لم يرض فيها احزاب الموالى لأنه اراد ان يضبط حساب المملكة فلم يعجب ذلك بغا الصغير وحزبه فأظهروا له الغضب فهرب منهم الى بغداد فى شعبان من سنة ٢٤٩

استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائى وهو الذى كان وزيرا للمتوكل قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير

العلويون فى عهد المستعين

كان الذى فى عهد المستعين من أئمة لامامية الاثنى عشرة على الهادى وهو العاشر من أئمتهم وكان مقيما بسامرا

أما الزيدية فقد خرج منهم

(أولا) يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين خرج بالكوفة وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه فكان يرجع دائما بالفشل فاستثار جمعا كثيرا من الاعراب وانضم اليهم جمع من الكوفة فعسكر بهم بضواحى الكوفة ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر وجه الجنود اليه فبادر يحيى الى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم خرج منها وصار يتردد فى السواد ثم عاد الى الكوفة ودعا الى الرضا من آل محمد وكثف أمره وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره . أقام بالكوفة يمد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح . كان الذى توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو الحسين بن ابراهيم بن

مصعب فلما وصل بجنده الى ظاهر الكوفة أشار على يحيي جماعة من الزيدية لاعلم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الاثنين ١٣ رجب سنة ٢٥٠ فى جمع ليسوا بذي علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليلتهم حتى صبحوا الحسين وهو وأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع ان انهزم جنـد يحيي ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجالة الكوفة عزلا فداستهم الخيل ولما انـكشف العسكر عن يحيي تقطر به برذونه فقتل وأخذت رأسه الى محمد بن عبدالله ابن طاهر فحمله الى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع الناس لذلك وكثروا وتذمروا فرد الى بغـداد لينصب بها فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك وقال أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفرى فى ذلك

يا بنى طاهر كلوه وبيا ان لحم النبي غير مرى
ان وترا يكون طالبه الله لوتر نجاحه بالحرى

ومع هذا الميل من الناس الى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لانهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذوى التدبير والحيل من رجال الحرب

(ثانيا) خرج الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن الحسن بن زيد ابن الحسن بن على . خرج بنواحى طبرستان وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان وذلك بعد أن انتصر على يحيي بن عمر وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغرى طبرستان من نواحى الديلم وهما كلار وسالوس وبحذاء تلك القطيعة أرض

لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محطبهم ومراعى مواشيهم ومسرح سارحتهم وليس لاحد عليها ملك . وجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه النصرانى لحيازة ما أقطع من تلك الاراضى وكان عامل طبرستان إذ ذاك سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخى ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذى بهم وبسفههم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفههم وسيرهم فيهم وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله الى ماقرب من بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لاهل طبرستان فسبى منهم ورجع

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يحوز معها تلك الارض التى تتصل بها من الموات الذى يرتفق به أهل تلك الناحية .

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديما بضبط تلك الناحية ممن رامها من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فانكرا مافعله جابر ومنعاه وكانا مطاعين فاستنهضا من أطاعهما فنهضوا معهم وهرب جابر خوفا على نفسه ولحق بسليمان بن عبد الله فأيقن الرجلان حينئذ بالشر وأرسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبد الله فأجابهم الديلم الى ذلك وتعاقدوا هم وأهل كلاروسالوس أن يعين بعضهم بعضا على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد بن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيما بالرى فوجه اليه القوم من

دعاه الى أمرهم فأجاب وتوجـه اليهم فبايعوه وبايعه رؤساء الديلم ثم ناهضوا من فى تلك النواحى من عمال ابن أوس فطردوهم عنها فلحقوا بمدينة سارية

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهى حاضرة طبرستان وجاء محمـد بن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هاربا — دخل الحسن مدينة آمل فكثف جيشه وغلظ أمره ومال اليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والخوزية وغيرهم

ثم سار من امل الى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هو ومحمـد بن أوس الا النجاء منها بأنفسهما فهربا الى جرجان وبذلك تم للحسن بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلا الى الرى فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر

ورد الخـبر بذلك الى المستعين ومدبر امره وصيف التركى فوجه الى همذان قائدا فى جمع من الجنود ليقيم بها ويمنع خيل الحسن ان تتجاوزها الا ان ماوراء همذان كان لمحمد بن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه

هكذا نجح الحسن بن زيد فى تكوين هذه الدولة التى تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقتطع من ملك بنى العباس أو آل طاهر طرفا عظيما تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠ — ٣٥٥) تولى فيها

(١)	الحسن بن زيد الداعى	٢٥٠ — ٢٧٠
(٢)	محمد بن زيد القائم بالحق	٢٧٠ — ٢٧٩
	الدولة السامانية	٢٧٩ — ٣٠١

(٣) الحسن الاطروش بن علي بن الحسين بن علي بن عمر بن زين العابدين ٣٠١ — ٣٠٤

(٤) الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن ٣٠٤ — ٣٥٥ ومعه اولاد الاطروش

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكى ولا مرتاحة من الاعداء فان بنى سامان الآتى ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان الى سنة ٣٠١ ثم ظهر الحسن الاطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الاطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائما بينهم حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ وانقضى الملك الزيدى من تلك الجبال

الجيش

كان ماظنه بغا الكبير فى محله فانه قال للقوم (نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا) وجد التحاسد بين هؤلاء القوم وليس للخليفة سلطان يقمع به من بغى منهم فكانت أولى جناياتهم قتل أوتامش لما رأوه قد استبد بأموال الدولة وعصالحها . ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركي الذى تولى قتل المتوكل لانهما خافاه على أنفسهما وكان باغر قد جمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل فجدد عليهم البيعة التى كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكانا يسميان بالاميرين) ونجيء بعلى بن المعتصم أو بابن الواثق فنقعده خليفة حتى يكون الامر لنا

كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شيء فأجابوه
الى ذلك وانتهى الامر الى المستعين فبعث الى وصيف وبغا فقال لهما
ما طلبت اليكما أن تجعلانى خليفة وانما جعلتماني وأصحابكما ثم تريدان
ان تقتلانى فحلفا له أنهما ما علما بذلك فاعلمهما الخبر فاتفق الرأى على التدبير على
باغر فقعلا وقتلاه فهاج اصحابه هيجانا شديدا ولم يكن من الاميرين الا حمل
المستعين معهما والانحدار به الى بغداد يوم الاربعاء ٤ محرم سنة ٢٥١
ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد
الاتراك فدخلوا الي المستعين فرموا بانفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم
فى اعناقهم تذللا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فقال لهم انتم اهل بغى
وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا الى فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من
ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات وهن نحو
من أربعة آلاف امرأة وفى المدركين والمولودين وكل هذا قد أجبتكم
اليه وأدررت لكم الارزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة وحرمت
نفسى لذتها وشهوتها كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون
بغيا وفسادا وتهددا وابعادا . فتضرعوا اليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال
له أحدكم بايكباك ان كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا الى
سامرا فان الاتراك ينتظرونك . فأومأ محمد بن عبد الله بن طاهر الي محمد
ابن أبى عون فلكز فى حلق بايكباك وقال له هكذا يقال لامير المؤمنين
قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم
معرفة بحدود الكلام

وقال لهم المستعين تصيرون الى سامرا فان أرزاقكم دارة عليكم وأنظر

أنا فى أمري ههنا ومقامى . فانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم فأجمعوا أمرهم على إخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد فى حبس الجوسق فى حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز وبايعوه الخلافة ولاخيه المؤيد بولاية العهد

وبذلك صارت بغداد فى جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد الله ابن طاهر ومن لف لفه وسامرا فى جانب المعتز . كان من أول ما فعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحصين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين الى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم ما يحملون من الاموال الى بغداد ولا يحملون الى سامرا شيئا

دارت المكاتبات فكتب المستعين الى أتراك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم اياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته وكان كتابه بذلك الى سيما الشرابى . وكتب المعتز الى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه الى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة . فلم تفد هذه المكاتبات شيئا وهيأ المعتز جيشا لحرب المستعين جعل قيادته لاخيه أبي أحمد بن المتوكل وتدبيره الى كلباتكين التركى . خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا فى غاية المحرم من سنة ٢٥١ ووصل باب الشماسية ببغداد لسبع خلون من صفر . وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيدا عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الارزاق وكانت الحرب

بين الفريقين فى البر وفى النهر . وقد ظلت بغداد مرسحا للفتن والحروب سنة ٢٥١ كلها وفى آخرها كاتب ابن طاهر المعتز فى الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال الى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك هاجوا وأظهروا الوقيعة في ابن طاهر وشتموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الايقاع به فكلم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع اليهم ويسكنهم ويعلمهم ماعليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه يحلف لهم بالله ما اتهمه وأنه لفى عافية ما عليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج في غد يوم الجمعة ويصلى بهم فانصرفوا وجاؤا فى الغد يطلبون خروج المستعين اليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدًا وانتقل فى أوائل ذى الحجة الى دار رزق الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسير بها والقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير إرادة المستعين

ويقال أن السبب فى عدول ابن طاهر عن الاخلاص للمستعين ان عبيد الله بن يحيي بن خاقان الذى كان وزيرا للمتوكل قال له أطال الله بقاءك إن هذا الذى تنصره وتجد فى أمره من أشد الناس نفاقا وأخبثهم دينا والله لقد أمر وصيفا وبغا بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلاه وان كنت شاكا فيما وصفت من أمره فسل تخبره. وأن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر فى صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم فلما صار الى ماقبلك جهر بها مراعاة لك وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك — ونحو ذلك من كلام كلمه به فقال محمد بن عبد الله أخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا لدنيا

كان من وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلى أن تضعضع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأي من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطاً تضمن حياته وراحته

وفي يوم السبت ١٠ ذي الحجة سنة ٢٥١ ركب محمدبن عبد الله الي الرصافة وجمع القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجا فوجا وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره الي محمدبن عبدالله فأرسل حينئذ محمد الى المعتز من جاء بخطه بقبول الشروط التى طلبها المستعين وعادت الرسل فى ثالث المحرم سنة ٢٥٢ وفى رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد بن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكدغاية التأكيدفنقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لاعليك لاعليك فما القوم بأعلم بالله منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ماقد علمت — فما رد عليه محمد شيئا

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك الى المعتز وأشخص المستعين الى واسط . ويعجبنى هنا ماقاله أحد شعراء العصر

خلع الخليفة احمد بن محمد　　وسيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى أبيه فلا يرى　　أحد بملك منهم يستمتع
إيها بنى العباس ان سبيلكم　　فى قتل أعبدكم طريق مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت　　بكم الحياة تمزقا لا يرقع

الاحوال الخارجيه

كان الحال فى الخارج أشد من ذلك وانكى فان الاضطراب الحادث فى داخلية الدولة كان سببا فى تقاعد أولى الامر عن حماية الثغور والوقوف فى وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف ان قائدين عظيمين من قواد الثغور قتلا فى حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبيد الله الاقطع وعلى بن يحيى الارمنى وكانا نابين من أنياب المسلمين شديداً بأسهما عظيما غناؤهما فى الروم فاما أولهما فقد غزا ملطية فقابله ملك الروم فى جمع عظيم فاحاطوا به فقتل وقتل معه الفا رجل وجرأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك على بن يحيى وهو قافل من ارمينية الى ميافارقين فنفر اليهم فى جماعة قليلة فقتل مع نحو ٤٠٠ رجل

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين فى صدورهم مع مالحقهم من استفظاعهم من الاتراك قتل المتوكل واستيلاءهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم الى ديانة ولا نظر لامور المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما اليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائداً يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت اليهم الابناء الشاكريه وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من اهل بغداد وسامرا أموالا كثيرة من أموالهم فقووا من خف للنهوض الى الثغور لحرب الروم وأقبلت اليهم العامة من نواحي الجبل

وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكرا ولم تجد حركة العامة شيئا

(١٣) المعتز

هو أبو عبدالله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه ام ولد اسمها قبيحة ولد سنة ٢٣١ وكان أبوه المتوكل جعله ولى عهده بعد المنتصر فلم تتم له الولاية لان المنتصر أرغمه على ان خلع نفسه ولما ولى المستعين بعد المنتصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فاخرج المعتز وبويع وتم له الامر بعد خلع المستعين فى رابع محرم سنة ٢٥٢ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل واليا الى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوما

وزراء المعتز

لم يكن للوزارة فى هذا العهد كبير شأن لانحطاط أمر الخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه ان يقوم بحاج كبار الاتراك ومقدميهم بقى فى منصبه والا عزل وفعلت به الافاعيل

أول وزراء المعتز ابو الفضل جعفر بن محمود الاسكافى . لم يكن له علم ولا ادب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز لانه كان يكرهه وكان الاتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك

وتولى الوزارة بعده عيسى بن فرخانشاه ولم يمكث الا قليلا حتى عزل بسبب فتنة كالاولى فولى بعده احمد بن اسرائيل الانبارى وهو كاتب حاذق ذكي وكان المعتز يميل اليه لانه كان يتولى له أموره قبل ان يلى الخلافة فمكث وزيراً الى سنة ٢٥٥ . ومما يدل على قدر ماصار اليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد فى احوال الدولة الكيفية التي عزل بها احمد ابن اسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه

دخل صالح بن وصيف مقدم الاتراك على المعتز وقال له ياأمير المؤمنين ليس للاتراك عطاء ولا فى بيت المال مال وقد ذهب ابن اسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له احمد بن اسرائيل ياعاصي ياابن العاصى ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشيا عليه من شدة الغيظ والحرد فرش على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز مصلتين فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف احمد ابن اسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة ام المعتز وابا نوح عيسى ابن ابراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل ان يحملهم هب لى احمد فانه كاتبي وقد ربانى فلم يفعل ذلك صالح وبعثت اليه أم المعتز فى ابن اسرائيل تقول له أماحملته الى المعتز واما ركبت اليك فيه. فلم يفد هذا ولا ذاك شيئا . وهذا دليل على انحطاط عظيم فى أمر الخلافة وزاد صالح الامر شنعة فبعث الى جعفر بن محمود الاسكافى الذى كره المعتز ان يعمل له وولاه الوزارة رغم أنفه

واسكاف الذى ينتمي اليها جعفر بن محمود قرية من نواحي النهروان

بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى وهى اسكاف العليا وهناك اسكاف السفلى بالنهروان أيضاً

العلويون فى عهد المعتز

فى عهد المعتز مات على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا وهو الامام العاشر من أئمة الشيعة الامامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكرى وهو الحادى عشر من أئمتهم وانما لقب بالعسكرى لاقامته بسامرا التى كانت تدعى اذذاك بالعسكر

اما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقدأتهم جماعة من الطالبيين فى بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم اليه بسامرا فحملوا اليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وانما توثق منهم

حال الجيش والاتراك

استخلف المعتز واحوال الجند والاتراك على شر ما يكون فهم اصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لانه لا يد فوق ايديهم تقف كلا منهم عند حده ولا حيلة للخليفة الا مراعاة جانبهم حينا واعمال الحيلة والدسائس حينا وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة له على استرداده

فى أول خلافة المعتز كتب باسقاط اسم وصيف وبغا وهما اكبر قواد الاتراك لما كان من مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلا الى محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفا وبغا فجاءا الى محمد

وقالا بلغنا ايها الامير ما عزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا مافارقونا عليه والله لوأرادوا أن يقتلونا ماقدروا لخلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشيء من ذلك فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الاتراك عند المعتز وسألوه الامر باحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب اليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد الى سامرا فذهب لزيارتهما فى منزلهما وزير المعتز احمد بن اسرائيل وردهما المعتز الى مراتبهما رغم أنفه بناء على الحاح الاتراك وردت اليهما ضياعهما

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الاتراك رأى المغاربة ماعليه الاتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم الى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد منهم وجاءوا الى الاتراك وهم بالجوسق من سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم فى كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيرا وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذى كان وزير المعتز قبل احمد بن اسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه

ولما أخرجت المغاربة الاتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الاتراك يركبونها فاجتمع الاتراك ولموا شعثهم فتلاقوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الاتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين على الا يحدثوا شيئا ويكون فى كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الاتراك

على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذى تولى ذلك بايكباك أحد كبار قواد الاتراك ولم يفعل المعتز فى ذلك شيئاً وعاد النفوذ الى الاتراك

وفي سنة ٢٥٣ شغب الاتراك والفراغنة والاشروسنية وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما الشرابى فكلمهم وصيف وقال لهم ماتريدون قالوا أرزاقنا فقال خذوا ترابا وهل عندنا مال وقال لهم بغا نذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيما وبقي وصيف فى أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم اجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محراك تنور

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل الا أن جعل ما كان الى وصيف من الامور الى بغا الشرابى . خاف بغا من ان يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير الى بغداد والمعتز يأبي عليه ذلك لخوفه ان يجري عليه ماجرى على سلفه . وكان بايكباك كبير الاتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفا عن بغا وكانا متهاجرين وكان المعتز مع بايكباك يريد التخلص من بغا فجمع بايكباك جموعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد ووثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتتبع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا اليها هرابا فحبس من ولده وأصحابه نحو ٢٥ شخصا وصارت الكلمة العليا فى الأتراك وفى الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين الاول بعد هؤلاء

التلف القلوب عنها والثانى وجود محمد بن عبد الله بن طاهر بها وهو رجل ذو عزم وأيد زيادة على ماله فى نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب فى سنة ٢٥٢ وذلك أن المعتز كتب الى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التى منها أرزاق جند بغداد وكتب الى والى البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بهامن القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الامير ابن طاهر فلما قرئ الكتاب على القواد جاؤا الى ابن طاهر نخبروه الخبر فأحضر والى البريد وقال له ماحملك على هذا بغير علمي وتهدده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية الى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق جند بغداد — ان كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وان كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم — اعطاهم ابن طاهر ماسكنهم به وقتا ثم اجتمعوا فى ١١ رمضان سنة ٢٥٢ ومعهم الاعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتا من بواري القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان واعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل دينارا وشحن داره بالرجال

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذي كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفائتهم وضمن لهم أن يكون رأسا يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون . عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا الى الجامع فيمنعوا

الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا الى الامام وحظروا عليه ذلك فعلل بالمرض ولم يذهب الى الجامع

وجه اليهم ابن طاهر قواده فى جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رؤسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد الى ما كانت من الأمن

وفى ١٤ ذى القعدة سنة ٢٥٣ توفى الامير محمد بن عبد الله طاهر أمير بغداد واستخلف على امارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهذه نسخة وصيته — : أما بعد فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخى الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ماأنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين الى أن يأتيه من أمره مايعمل بحسبه فاعلم ذلك وأتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره ان شاء الله وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ٢٥٣ وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبد الله الى سنة ٣٠٠ وهي سنة وفاته

خاتمة المستعين سلف المعتز

قدمنا ان المعتز كتب للمستعين شروطا عند خلعه منها تأمينه على حياته وقد أكدوا فى هذا الكتاب تأكيدا شديدا وارتضى ان يقيم بالبصرة فقيل له ان البصرة وبية فكيف اخترت ان تنزلها فقال المستعين هى أوبأ أو ترك الخلافة . فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل

وابن أبي حفصة الى واسط لا الى البصرة فى نحو ٤٠٠ من الفرسان وقبل ان تنتهي السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الامان فأرسل الى ابن طاهر يأمره ان يكتب الى عامل البصرة ان يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهو احمد بن طولون التركي فأخرج المستعين من واسط لست بقين من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاث خلون من شوال فتسلمه منه سعيد بن صالح وكان فى ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيرا وأتى المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل هذا رأس المخلوع فقال ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر اليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولي معونة البصرة

وكما لم يأبه المعتز بكتابه أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهد أخيه ابراهيم المؤيد ولا لسابقة أخيه أبي احمد بن المتوكل وهو الذى قاد الجيش الى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فانه خلع الاول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثانى وضيق عليه وسبب ذلك ان عامل ارمينية العلاء بن احمد بعث الى ابراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخانشاه الوزير اليها فاخذها فاغرى المؤيد الاتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغاربة وكانت فتنة فبعث المعتز الى أخويه المؤيد وأبي احمد فحبسهما فى الجوسق وقيد المؤيد وصيره فى حجرة ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة ٧ رجب سنة ٢٥٢

وبعد هذا الحبس والتضيق والخلع بلغ المعتز ان الاتراك يريدون

اخراجه من سجنه فارسل الى موسى بن بغا فسأله فانكر وقال انما أرادوا أن يخرجوا أبا احمد بن المتوكل لانسهم به كان فى الحرب التى كانت وأما المؤيد فلا . فاغرى ذلك المعتز باخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول ابو احمد الى الحجرة التى كان فيها المؤيد ثم نفاه سنة ٢٥٤ الى واسط ثم الى البصرة ثم رد الى بغداد وانزل الى الجانب الشرقى فى قصر دينار بن عبد الله

خلع المعتز

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذي أوضحناه قبل فى تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال مايسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهبت الجنود الى المعتز وقالوا له اعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف فارسل المعتز الى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها ان تعطيه مالا ليعطيهم فابت ان تعطيه شيئا وأنكرت ان يكون عندها شيء ولما وجد الاتراك ان المعتز وأمه قد امتنعا ان يسمحا لهم بشيء وبيت المال خال اتحدت كلمة الاتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فصاروا اليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه الا صياح القوم واذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه فى السلاح فجلسوا على باب المنزل الذى ينزله المعتز ثم بعثوا اليه أخرج الينا فبعث اليهم انى أخذت الدواء أمس وقد أجفلنى اثنتى عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فان كان أمرا لابد منه فليدخل الى بعضكم فليعلمنى فدخل اليه القوم فجروا برجله الى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضربا بالدبابيس فخرج وقميصه

مخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم فيه ثم بعثوا الى قاضى القضاة لحضر وأمر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له فامضى وشهد عليه الحاضرون . ويقال انه بعد الخلع دفع الى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فنعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الذي سعى كثيراً للحصول على هذه الخلافة وركب فى سبيل الخلاص ممن توهمهم مزاحمين له مالا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين وخلع أخاه ثم قتله ونفى أخاه الثانى كل ذلك لتهنأ له الخلافة فلم ينل ماأراد بسبب الفساد المستحكم فى الدولة وقال بعض شعراء العصر فى ذلك

عين لا تبخلي بسفح الدموع واندبي خير فاجع مفجوع
خانه الناصح الشفيق ونالتـــه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه خلعته أفديه من مخلوع
قتلوه ظلما وجورا فألفو ه كريم الاخلاق غير جزوع
كان يغشي بحسنه بهجة البد ر فتلقاه مظهرا للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشر ق أما رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا السيف فلهفى على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكي الامر والعا لم مابين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الامـــر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال آخر من قصيدة

أصبحت مقلتى تسح الدموعا اذ رأت سيد الانام خليعا

لهف نفسى عليه ما كان أملا ٭ واسراه تابعا متبوعا
الزموه ذنبا على غير جرم فثوى فيهم قتيلا صريعا
وبنو عمه وعم أبيه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
مابهذا يصح ملك ولا يخزى عدو ولا يكون جميعا

وكان المعتز اول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى فعل ذلك

(١٤) المهتدى

هو محمد المهتدي بالله بن هرون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ولد سنة ٢١٨ وبويع له بالخلافة بعد ان خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة الى أن خلع فى ١٤ رجب سنة ٢٥٦ (١٧ يونيه سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهرا وأياما

كيف انتخب

لما عزم الاتراك على خلع المعتز أرسلوا الى بغداد فاحضروا محمداً هذا وقد كان المعتز نفاه اليها واعتقله فيها فاتى به فى يوم وليلة الي سامرا فتلقاه الموالى فى الطريق ودخل الى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى ان يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى

رأسه منديل فلما رآه محمد وثب اليه فعانقه وجلسا جميعا على السرير فقال له محمد ياأخي ماهذا الامر قال المعتز امر لاأطيقه ولا أقوم به ولا اصلح له فأراد محمد ان يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الاتراك فقال المعتز لاحاجة لى فيها ولا يرضونى لها فقال محمد فانا فى حل من بيعتك قال أنت فى حل فلما جعله فى حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورد الى محبسه وكان من أمره ماقدمنا

وزراء المهتدى

أبقى المهتدى محمود بن جعفر الاسكافى على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد . وهو من بيت قديم فى الكتابة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك وكان ابوه وهب فى خدمة جعفر بن يحيى البرمكى ثم تحول الى ذى الرياستين الفضل بن سهل وهو القائل فيه عجبت لمن معه وهب كيف تهمه نفسه ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده . اماسليمان فكتب للمأمون وعمره ١٤ سنة ثم لايتاخ ثم لاشناس وولى الوزارة للمهتدى وللمعتمد وكان اخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ومن طريف المدح ماقاله ابو تمام فى سليمان بن وهب

كل شعب كنتم به آل وهب　　فهو شعبي وشعب كل أديب
ان قلبى لكم لكالكبد الحرّى　　وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحترى

كأن آراءه والحزم يتبعها　　تريه كل خفى وهو اعلان

ماغاب عن عينه فالقلب يكلؤه ... وان تنم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبا وكتابة في الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم واستمر وزيراً للمهتدي الى أن خلع

حدث عبد الله الباقطاني وكان يتقلد ديوان المشرق قال دخلت مع أبي العباس بن ثوابة الى المهتدي وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل اليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضرته فيوقع اليهم في الاعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة الى جماعة من العمال فأخذ سليمان بيد أبي العباس بن ثوابة ثم قال له أنت اليوم أحد ذهنا مني فهلم نتعاون فدخلا بيتا ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف أخر فكتبا الكتب التي أمر بها سليمان ما احتاج أحدهما الى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدي المهتدي فقال له وقد قرأها أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان اذا ولى عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا إلى أن يتسلم عمله فقال له يا أمير المؤمنين هذا قول لايخلو من أن يكون حقا أو باطلا فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله وان كان حقا وقد علمت أن الاصول محفوظة فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض مايصل اليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للاموال . فقال اذا كان هكذا فلا بأس . ثم قال له اكتب الى فلان العامل بقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل في يده بباقي ماعليه من المصادرة فقال له أبو العباس بن ثوابة كلنا يا أمير المؤمنين خدمك

وأولياؤك وكلنا حاطب فى حبلك ... أرضاك وأيد ملكك أفنمضى ما تأمر به على ما خيلت أم نقول بالحق قال بل قل بالحق يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين الملك يقين والمصادرة شك أفتري أن أزيل اليقين بالشك قال لا قال فقد شهدت للرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا فتجعل المصادرة صلحا فاذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له صدقت ولكن كيف الوصول الى المال فقال له أنت لا بد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق ويرتفق فيحوز رفقه ورزقه الى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين الى ماعليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود اليك مالك فأمر سليمان بن وهب أن يفعل ذلك

وقد سقنا هذه الحكاية لنبين ما كان عليه العمال إذ ذاك من تحليل الارتفاق وإقامة البرهان بين يدي الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل إلا رشوة وما هذا المعجل والمؤجل الذي لاحظ المهتدي على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه احتج له وأقنع خليفته بانه لاضرر فيه وكذلك قول ابن ثوابة فهو حق شيب بباطل وباطل أشبه الحق

صفات المهتدى

كان المهتدي من صالح بنى العباس يكره الظلم ويحب رفعه وبنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف

حتى أن الجند تأسوا به إلا أن الدولة كانت وصلت الي الدرجة التى لا يصلحها فيها مثل المهتدي فى صلاحه وكثرة عبادته

فى بدء خلافته كان موسى بن بغا أميراً على الري وقائدا للجنود التى تتولى حرب الحسن بن زيد الطالبي فلما بلغه مافعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتدي ترك ذلك الثغر وأقبل مريدا سامرا فكتب الخليفة اليه كتباً كثيرة يطلب اليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل اليه فى ذلك رسلا من بنى هاشم فلم يطع وكان صالح بن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه الى المعصية والخلاف . قدم موسى سامرا حنقا على صالح فاختفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدي وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه الى معسكرهم فقال لموسى ما تريد ويحك اتق الله وخفه فانك تركب أمرا عظيماً فرد عليه موسى خيرا ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق الا يمالئ صالحا عليهم ففعل فجددوا له البيعة فى ١٢ محرم سنة ٢٥٦ ولثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدي باخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر فى العامة فكتبوا رقاعا ألقوها فى المسجد الجامع وفى الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الامة ببقائه فان الموالى قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم) فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا الى المهتدي يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا

مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الاقطاعات الي قوادهم التي قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا كثيرا من أموال الخراج . وهذه الشكوى كانت في الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها لانها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعا كثيرة لم يلتفتوا الي إصلاحها فخربت وأدى ذلك الى نقصان الخراج حتي لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند

كتب اليهم المهتدي يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليهم ماذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه مايرفع عنهم هذه الخلة وأنه سينظر فى أمر الاقطاعات ويسير فيها على مايحبون . فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون وهو

(١) أن ترد الأمور الى أمير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض

(٢) أن ترد رسومهم الى ما كانت عليه أيام المستعين وهو أن يكون على كل تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد

(٣) ألا يدخل مولى فى قبالة ولا غيرها

(٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على مالم يزل

(٥) أن تبطل الاقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء

وذكروا انهم سيصيرون الى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم وانه ان بلغهم أن أحدا اعترض على أمير المؤمنين فى شئ من الامور

أخذوا رأسه وان سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور وبكالبا وغيرهم

وهذه المطالب كلها فى مصلحة الخلافة لذلك أجابهم اليها المهتدي موقعا بخطه إجابة الى كل ما سألوا — فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه رسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون اليهم

فأعادوا الكتاب يقولون لا نرضى حتى يخرج الخليفة خمس توقيعات بطلباتهم ثم يصيّر أمير المؤمنين الجيش الى أحد اخوته أو غيرهم ليسفر بينهم وبينه بأمورهم ولا يكون رجلا من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ماعندهم من الاموال . وكتبوا الى القواد بمثل ما كتبوا به الى المهتدي وأخبروهم أنه ان شاكته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رؤسهم جميعا

فلما جاء كتابهم المهتدي كتب لهم بكل مايريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمس التى طلبوها وكذلك كتب لهم موسى بن بغا . فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعز الله أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فانا قد هلكنا بتأخيرها عنا — وطائفة يقولون لا نرضى حتى يولي علينا أمير المؤمنين أحد اخوته فيكون واحد بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحدا منا يكون علينا رأسا ولم يكتبوا للمهتدي جوابا شافيا — فأرسل اليهم المهتدي يسألهم عن سبب اجتماعهم بعد ان أجيبت طلباتهم فتفرقوا ثم عادوا الى الاجتماع

كانت كل هذه الاحوال فرصا لخلاص المهتدي من سيادة القواد الاتراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر انه أراد استعمال الحيلة فى الخلاص منهم فأنفذ جندا لمحاربة خارجي وفيه

موسى بن بغا وبايكباك ومفلح فكتب المهتدي الى بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذي مع موسى الى نفسه وان يكون هو امير الجيش وان يقتل موسى ومفلحا — فلما وصل الكتاب الى بايكباك ذهب الى موسى وأراه إياه وقال له انى لست افرح بهذا وانما هو تدبير علينا جميعا واذا فعل بك اليوم شيء فعل بى غدا مثله فما ترى قال ارى ان تصير الى سامرا ونظهر له انك فى طاعته فانه يطمئن اليك ثم تدبر فى قتله فقدم بايكباك فدخل على المهتدي فأظهر المهتدي الغضب من مخالفته حيث لم يقتل موسى ومفلحا فاعتذر اليه بايكباك فاحتبسه المهتدى عنده وأخذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبته عنهم جاشوا وأحاطوا بالجوسق فلما رأى المهتدى ذلك استشار صالح بن على بن يعقوب بن المنصور فأشار عليه أن يفعل مافعله المنصور بأبى مسلم فأمر المهتدى بضرب عنق بايكباك فضرب عنقه والاتراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم إلا رأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدى برميها اليهم فلما رأوها اضطربوا واستعدوا للقتال فخار بهم الفراغنة والمغاربة والاشروسنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفريقان وذهب الاتراك فقووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدى وفى عنقه مصحف يدعو الناس الى نصرته فلما التحم القوم مال الاتراك الذين مع المهتدى الى اخوانهم وبقى فى المغاربة والفراغنة ومن خف من العامة فحملت عليهم الاتراك حملة شديدة ففروا منهزمين معهم المهتدى والسيف فى يده مشهور وهو يقول يامعشر الناس انصروا خليفتكم — حتى صار الى دار محمد بن يزداد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الاتراك خبره فجاؤا اليه وقبضوا عليه وحملوه الى داره مهانا وذلك فى ١٤

رجب سنة ٢٥٦ ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦

(١٥) المعتمد

هو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان ولد سنة ٢٣١ وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ (١٩ يونيه سنة ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفى ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليله بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ اكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت مدته ٢٣ سنة وثلاثة أيام وكان يعاصره فى الاندلس محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٧٣ ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ — ٢٥٧) ثم عبد الله بن محمد (٢٧٥ — ٣٠٠)

وفى افريقية وصقلية من الاغالبة محمد بن أحمد بن الاغلب المتوفى سنة ٢٦١ ثم أخوه ابراهيم المتوفى سنة ٢٨٩

وفى اليمن من آل زياد زبيد ابراهيم بن محمد بن ابراهيم (٢٤٥ — ٢٨٩)

وفى اليمن من آل الحوالى بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ — ٢٧٩)

وفى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨ — ٢٥٩) وهو آخر الامراء الطاهرية بخراسان

ويعاصره فى طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠ — ٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠ — ٢٧٩)

ويعاصره فى بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلبى (٨٦٧ — ٨٨٦) ثم لاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦ — ٩١١)

ويعاصره فى فرنسا شارل الملقب بالاصلع (٨٤٠ — ٨٧٧) ثم لويز الثانى الملقب بالتمتام الى سنة ٨٧٩ ثم لويز الثالث الى سنة ٨٨٢ ثم كارلومان الى سنة ٨٨٤ ثم شارل الملقب بالغليظ الى سنة ٨٨٧ وكان أمبراطور المانيا أيضا ثم اودون الذى توفى سنة ٨٩٨

الاحوال الداخلية

كانت نتيجة طلبات الاتراك أن يتولى أمر الجيش أحد اخوة أمير المؤمنين والا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة ان ولى المعتمد أخاه ابا احمد طلحة بن المتوكل امر الجيش والولايات فولاه فى صفر سنة ٢٥٧ الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه فى رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والاهواز وفارس . وفى ربيع الاول سنة ٢٥٨ عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلى لابى احمد لا للخليفة وصارت كلمة ابى احمد هى العليا على الاتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الأحوال العامة بعض التحسين وان كانت ساءت احوال المعتمد نفسه لانه لم يترك له شئ من التصرف حتى انه احتاج فى بعض الأحيان الى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال

أليس من العجائب ان مثلي يرى ما قل ممتنعا عليه
ونؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شئ فى يديه
اليه تحمل الاموال طرا ويمنع بعض ما يجبى اليه

كان ابو احمد الموفق بن المتوكل رجلا صاحب عزيمة ثابتة ومحبة

للتغلب والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام فى عهد المعتمد وسنقتصها بعد ان نذكر اجمال الوزارة لعهده

كان الذى يولى الوزراء هو ابو احمد الموفق لان المعتمد لم يكن له الا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لأخيه

كان اول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقد قدمنا ذكره إذ كان وزيرا للمتوكل ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم ابوا إلا إياه فرضي بعد ذلك الاباء وكان عبيد الله خبيرا بأحوال الرعايا والاعمال ضابطا للاموال ولم يزل وزيرا الى سنة ٢٦٣ حيث مات بسقوطه عن دابته فى الميدان وصلى عليه ابو احمد بن المتوكل ومشى فى جنازته

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتبا لابى احمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق . وأصله من ديرقنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل فى الغد عن أى شيء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور . ولم يمكث فى وزارة المعتمد كثيرا فان مدته لا تزيد على ١٦ يوما من ١١ ذى القعدة سنة ٢٦٣ الى ٢٧ منه وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك فانه لم يكن على وفاق معه فهرب الى بغداد عقب حضوره

ولى الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذى كان وزيرا للمهتدى وقد قدمنا صفته وبيته وولى عبد الله بن سليمان كتابة أبى احمد الموفق الى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا

وفي سنه ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد الي سامرا حيث يقيم الخليفة فلما صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وابراهيم وأعاد الى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذى القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد الى الجانب الغربى فعسكر به ونزل ابو احمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلفت الرسل بينهما . ولما كان بعد أيام خلون من ذى الحجة صار المعتمد الى حراقة فى دجلة وصار اليه أخوه أبو احمد فى زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد وفى ثامن ذى الحجة عبر جند أبى احمد الى جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان ابن وهب ورجع المعتمد الى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد ابن صالح بن شيرزاد وكتب فى قبض أموالهما وأموال أسبابهما

ولم يدم رضا أبى احمد طويلا عن سليمان بن وهب فانه غضب عليه سنة ٢٦٥ وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله فحبسا وعدة من أسبابهم فى دار أبى احمد وانتهبت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ دارى سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما واموالهما واموال اسبابهما وضياعهما خلا احمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على ٩٠٠,٠٠٠ دينار وصيرا في موضع يصل اليهما من احبا

وقد مات سليمان بن وهب فى حبس ابى احمد سنة ٢٧٢

ولى الوزارة بعده للمعتمد ابو الصقر اسماعيل بن بلبل وهو عربى ينتسب الى شيبان ولكن نسبه كان مغموزا ومن مساورة الظنون للمتهم ان ابن الرومى الشاعر مدح ابا الصقر بقصيدة نونية مطلعها

اجنت لك الوصل أغصان وكثبان   فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها :

قالوا ابو الصقر من شيبان قلت لهم   كلا لعمرى ولكن منه شيبان

كم من اب قد علا بابن له شرفا   كما علا برسول الله عدنان

فلما سمع ابو الصقر قوله قلت لهم كلا ظن ان ابن الرومي قد هجاه بذلك باطنا وانه عرض بانه دعى واشتبه على أبي الصقر الامر فاستحكم ظنه فاعرض عنه وتوصل ابن الرومى الى افهامه معنى الشعر فلم يقبل فى ذلك قول قائل وقيل له يا سبحان الله فانظر الى البيت الثانى وحسن معناه فانه معنى مخترع ماامدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ وجزم بان ابن الرومى هجاه فكان ذلك داعيا الي أن سل ابن الرومى عليه لسانه وهجاه فافحش فى هجائه ومما هجاه به قوله

مهلا أبا الصقر فكم طائر   خر صريعا بعد تحليق

زوجت نعمى لم تكن كفؤها   فصانها الله بتطليق

لاقدست نعمى تسربلتها   كم حجة فيها لزنديق

وكان أبو الصقر كريما مطعاما متجملا وبلغ في الوزارة مبلغا عظيما وجمع له السيف والقلم فنظر فى أمر العساكر أيضا وسمي الوزير الشكور

وفى سنة ٢٧٨ قبض على أبى الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم وخلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب وولى الوزارة وكان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب

وممن خدموا فى كتابة الموفق أبو احمد صاعد بن مخلد خلع عليه سنة ٢٦٥ واستعمله الموفق فى قود الجيوش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمى ذا

الوزارتين سنة ٢٧٠ وقبض عليه الموفق سنة ٢٧٢ وعلى ابنيه أبي عيسى وأبي صالح وعلى أخيه عبدون

وعلى الجملة فان أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جدا وقد استوزر بعض من سمينا من الوزراء أكثر من مرة

العلويون

في عهد المعتمد على الله توفي أبو محمد الحسن العسكري بن علي الهادي ابن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الامامية الاثني عشرية والذين في عمود نسبه إلى علي بن أبي طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن علي وكانت وفاة الحسن العسكري سنة ٢٦٠ بسامرا ودفن بها بجانب أبيه علي الهادي . ولما توفي اختلفت الشيعة بعده اختلافا كثيراً وجمهورهم على ان الامام بعده ابنه محمد العسكري وهو الثاني عشر من أئمتهم قالوا انه دخل سردابا في دار أبيه بسامرا وأمه تنظر اليه فلم يخرج اليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ويسمونه المنتظر والقائم والمهدي والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب .

ويقول غيرهم ان الحسن العسكري لم يعقب وان سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علي

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الاولاد منهم عبدالله الافطح ومحمد وموسى واسماعيل

فقال قوم إن الامامة بعد جعفر لابنه عبد الله الافطح لانه أسن أولاد الصادق وزعم بعضهم إن جعفرا نص على إمامته بعده ومع ذلك فانه لم يعش بعد أبيه الا سبعين يوما ولم يعقب ولدا ذكرا

وقال قوم ان الامامة من بعده لابنه محمد ورووا عنه انه قال ان صاحبكم اسمه اسم نبيكم .

وقال قوم منهم الاثنا عشرية الذين ذكرناهم ان الامامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه انه قال سابعكم قائمكم واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الامامة فى أولاده كما بينا

ومنهم من قال ان الامام بعد جعفر ابنه اسماعيل نصا عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل انه عاش بعد أبيه ومن قائل انه مات فى حياة أبيه وفائدة النص بقاء الامامة فى أولاده دون غيره وساقوا الامامة من بعده الى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق وهم أمامية يتفقون مع الامامية الاثنى عشرية فى المبدأ العام للتشيع الامامى وهو أنه لا بد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الشريعة لا تؤخذ بالرأى ويتفقون معهم على امامة الستة من على بن أبى طالب الى جعفر الصادق ومنه يبتدىء الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا الى فرع موسى الكاظم والاسماعيلية ذهبوا الى فرع اسماعيل

ولما كان الامام هو حجة الله على خلقه وانه لا بد من وجوده ليؤدى ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد اسماعيل بالظهور للناس قالوا ان الامام قد يكون مستورا مكتوما عن الناس خبره

وحنئذ لا بد له من نائب يكون هو الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه وساقوا الامامة الى محمد بن اسماعيل ثم الى أولاده من بعده وظهرت الدعوة الى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكرى خاتمة أئمة الشيعة الاثنى عشرية وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيرا منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم الى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصانية وهى نحلة تنسب الى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الاسلامى بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون فى السنة الاوله من ملك ططوس بن انطونيانوس الرومى وجاء بعد ابن ديصان مانى وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة فى أصولها فالمرقيونية يقولون بوجود أصلين قديمين هما النور والظلمة وقالوا ان ههنا كونا ثالثا هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة ان عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهو الصانع للاشياء بأمره وقدرته الا أنهم أجمعوا على ان العالم محدث وان الصنعة بينة فيه لا يشكون فى ذلك وزعموا ان من جانب الزهومات والمسكر وصلى لله دهره وصام أبدا أفلت من حبائل الشيطان وقالوا بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وان خلق جميع الاشياء كلها لا يخلو من ضرر والله متنزه عنه

أما الديصانية الذين جاؤا على اثرهم فتقول أيضا بالاصلين النور والظلمة وتقول طائفة منهم ان النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة ان النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها وتنهافشا بكها بغير اختياره وزعم ابن ديصان

ان النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الديصانية إن الظلمة أصل النور وذكر أن النور حي حساس عالم وان الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة فى مذهبهم

والمانية يقولون أيضاً بالاصلين النور والظلمة وهما مبدأ العالم فالنور هو العظيم الاول ليس بالعدد وهو الاله وزعم انه أزلى بصفاته ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الارض — والاصل الثانى الظلمة وله كلام طويل فى بدء كون الانسان واشتباكه مع ابليس وغلبة الثانى الاول ثم خلاص الثاني من هذه الشباك وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها وسن لهم عبادات من الصلاة والصوم . وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد مانى أئمة يدينون بطاعتهم قبل الاسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم مانى ومن بعده من الائمة . وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين الى اعتقاد مذهب مانى وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدى وابنه الهادى فقتل منهم عدداً كبيرا قال ابن النديم فى الفهرس قيل ان البرامكة بأسرها الا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل فى الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد ابن عبيدالله كاتب المهدى زنديقا واعترف بذلك فقتله المهدى قرأت بخط بعض أهل المذهب ان المأمون كان منهم وكذب فى ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك الزيات زنديقا . ومن رؤسائهم يزدان بخت وهو الذى أحضره المأمون من الرى بعد أن أمنه فقطعه المتكلمون فقال له المأمون أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك اياه من الامان لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر

الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون أجل

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية ان عبدالله ابن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبدالله انه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعابيذ ويذكر ان الارض تطوى له فيمضى الى أين أحب فى أقرب مدة وكان يخبر بالاحداث والكائنات فى البلدان الشاسعة وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن اليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذى فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه دلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران فى موضع يعرف بساباط أبى نوح فبنيت احداهما مسجدا والاخرى تمت على خرابها وصار الى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبى طالب فكبس هناك فهرب الى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول ان عبيد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية العبيدية من نسل هذا الرجل وان عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وانه تسمى بعبيد الله لما ورد مصر

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب ارضاء لبنى العباس الذى غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم مايحاربونهم به الامثل هذه الاقاويل والحق ان النحلة سياسية يقصد منها الوصول الى هدم دولة بنى العباس الا أنها شيبت بشىء من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساسا لها حتى لايفجأ المدعو بالغرض السياسى لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك فى ظلمات حتى لاتتميز حقيقتها

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبريان كلتاهما ضد الدولة العباسية احداهما منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص وهى موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ ١٦٠ سنة موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها — الثانيـة قوة ذات فوضى وجور ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لاول ظهورها بالعراق وهى القرامطة وهذه أولاهما فى الظهور فانها ظهرت بوادر شرها فى عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها وسنتكلم الآن عن القرامطة .

ظهر فى أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم اليها من نواحى خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فاقام على ذلك مدة واعلم الناس انه يدعو الى امام من اهل البيت وكان يزداد فى أعين الناس نبلا بما يظهره من الزهد ثم مرض وكان فى القرية رجل يلقبه أهلها بكرميتة لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل الى منزله ووصى أهله بالاشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيما عنده حتى برأ فكان كرميته يدعو الناس الى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الاكرة وكان يأخذ من كل من دخل فى مذهبه دينارا يزعم أنه للامام واتخذ من أهل القرية نقباء اثنى عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التى أخبرهم انها مفروضة عليهم .

كان للهيصم فى تلك النواحى ضياع فوقف على تقصير أكرته فى العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه فى طلبه فأخذ وجىء به اليه فحبسه واشتغل بشربه : رقت احدى جوارى الهيصم للرجل فأخذت

مفتاح الحجرة التى حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة فى الناس فافتتنوا به وقالوا رفع ثم ظهر فى ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لايمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم فى أعينهم . ومع ذلك فانه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه إسم الرجل الذى آواه وهو كرميته ثم خفف فقيل قرمط

ثم فشا مذهب القرامطة فى سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التى حلت بالأمة الاسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره فى مواضعه إن شاء الله .

دعى آل على

لم يكف بني العباس ما أصاب دولتهم من آل على بن أبى طالب الذين نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعضعوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعى فى آل على لا يعرف له الطالبون نسبا ولا رحما يدلى بدلوه فى الدولة لينال منها حظا لنفسه ذلك هو علوى البصرة أو الخبيث صاحب الزنج الذى زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورد البحرين سنة ٢٤٩ فادعى انه عباسي ودعا الناس بهجر الى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم الى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبى

وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له فتحول عنهم الى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهو قائد جيشه . نبت به البادية لسوء طاعة أهلها فشخص الى البصرة فنزل بها في بني ضُبَيعة فاتبعه بها جماعة منهم علي بن أبان المعروف بالمهلبي وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ وعاملها محمد بن رجاء الحضاري فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل اليه منهم ابن الدعي

مضى الدعي مع من اتبعه حتى صار الى مدينة السلام فأقام بها حولا يستميل اليه الناس سراً حتى اذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص اليها في رمضان سنة ٢٥٥ ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشي وهناك خطرت له فكرة غريبة وهي الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي في حمل السباخ وغيره لاهل البصرة وهم كثيرو العدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكي رقابهم فأخذ منهم غلاما اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائداً وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه الى نحلته ويتركون ساداتهم وأعمالهم فاجتمع اليه كثير منهم فخطب فيهم فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرئسهم ويملكهم الاموال وحلف لهم الايمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان إلا أتى به اليهم . حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو ١٥٠٠٠ غلام

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من

سنة ٢٥٥ وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وان الله قد استنقذهم به من ذلك وانه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الامور ثم حلف لهم على ذلك . وشرع فقود قواده وقال لهم كل من أتى برجل فهو مضموم اليه . استمر يعيث فى تلك الجهات وينهب الاموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت اليه جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان فانتصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوي أمره جدا بتلك الواقعة وحل الرعب فى قلوب أهل البصرة وكتبوا الى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدى بالله . أقام الدعى بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبى قرة ثم تحول منها الى الجانب الغربى من نهر أبى الخصيب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة فى دجلة وكانت شيئا كثيرا

وفى رجب سنة ٢٥٦ أحرق مدينة الابلة واستسلم له أهل عبادان خوفا أن يصيبهم ما أصاب أهل الابلة فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم الى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكرا الى الاهواز فاستولى عليها وأسر ابراهيم بن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعبا . أرسل السلطان الى الدعى جنودا فكان نصيبها أبدا الفشل

وفى شوال سنة ٢٥٧ أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف اليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة

منه فلم يرِ مدبر الدولة وقائد جيشها أبو أحمد الموفق الا أن يحشد اليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسي من ذلك قوة روح . فعبأ جندا كثير العدد تام العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعي وقد كانت لابي أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواما وفي آخر الأمر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعي وكان ذلك في أواخر سنة ٢٧٠ وأمر الموفق كاتبه أن يكتب الى أمصار الاسلام بالنداء في أهل البصرة والابلة وكور دجلة وأهل الاهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعي وأن يؤمروا بالرجوع الى أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس الي ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التي اختطها الموفق هناك من جميع النواحي وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمنا وايناسا

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الاربعاء لأربع بقين من رمضان سنة ٢٥٥ وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠ فكانت ايامه من لدن أن خرج الى اليوم الذي قتل فيه ١٤ سنة واربعة اشهر وستة ايام . وكان دخوله الاهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٥٦ وكان دخوله البصرة وقتله اهلها واحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ٢٥٧

ولم يكن يدرى الا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم كان الامر ينتقل من ايدى الاتراك الى ايدى الزنوج فتقع الامة في الشر العظيم والوباء الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم ادب معروف بل لا يكادون يفقهون قولا فانتصار العباسيين عليه خلاص للامة من شر مستطير

الاضطراب في المشرق

كان آل طاهر امراء المشرق منـذ عهد المأمون اليهـم خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر وما اليها من بلاد الرى وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا كفاة لمـا عهد به اليهم موثوقا بهم فى ارتباطهم بحبل الخلافة العباسـية الا ان حال بغـداد وسامرا ونزوع الأتراك الى الاستيلاء على امور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشره الي الاستبداد بمـا يمكن ان يحووزه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام مما كسبها الا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التي يحسب حسابها كل عاص وكل طامع

وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها مابيدها من هذا الملك الطويل العريض

الاولى القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل

الثانية القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . كان هذان الرجلان يشتغلان فى حداثتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهـد فصحبا رجـلا من أهالى سجستان وكان مشهورا بالتطوع فى قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكناني فأحبهما وحظي بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه . ولمـا توفى صالح ولى مكانه فى رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائدا لعسكره . كان درهم غـير ضابط لاموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعـزلوا درهما وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفرا عظيما وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة

لم يطيعوها أحـدا قبـله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما اليها . ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرُّخّج وملك الطبسين وملك زابلستان وملك السند ومكران وغـيرهم وأذعنوا له . وكان ملكه هراة وبوشنج سنة ٢٥٣ وأمير خراسان محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميرا بعهد من خليفة بغـداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث اليه بهدية سنية منها مسجد فضة مخلع يصلي فيه خمسة عشر انسانا وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى اخراج على بن الحسين المتغلب على بلاد فارس . ثم شخص على أثر كتابه للمعتز الى كرمان فنزل يم وهي الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل الى عمـل فارس فخندق على بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك في ١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥ وأرسل الى يعقوب يعلمه انه ان كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرني بتسليم العمل لانصرف فلم يلتفت يعقوب الى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فحصلت بينهما موقعـة في جمادى الاولى سـنة ٢٥٥ انهزم فيها جند شيراز وأسر على بن الحسين ودخـل يعقوب شيراز ظافرا وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز بالله . ثم عاد بعد ذلك الى كرمان ثم الى سجستان

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فان كورا عظيما أذعنت لسلطانه وفي سنة ٢٥٩ في عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألقى بنو طاهر

بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا انه لا قبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن اعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وفض اللواء الذى كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين اذ ولاه خراسان وبلاد المشرق

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب الى سامرا وفدا معهم كتاب يذكر فيها ماتناهي اليه من حال أهل خراسان وان الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وان أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وانه بسبب ذلك صار اليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار اليه أهلها فدفعوها اليه فدخلها

كان المدبر للدولة فى ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بان أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على مافعل وانه يأمره بالانصراف الى العمل الذى ولاه إياه وانه لم يكن له أن يفعل مافعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع الى عمله فانه ان فعل ذلك كان من الاولياء والا لم يكن له الا ما للمخالفين . فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير فى نفس يعقوب ولا فى مركزه القوى. لان المسألة مسألة تنازع فى الحياة ولا بقاء للحياة الا بالقوة

فى سنة ٢٦٠ كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافرا وصار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار الى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الامطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هو فيه الا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير الى الامام انصرف بجنده وقد فقد منه فى هذه الواقعة نحو أربعين ألفا وتقرب بما فعل الى سامرا فبعث

يخبر به وذكر انه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لان رجال الدولة خافوا ماوراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابا يعلمهم فيه ان السلطان لم يول يعقوب ابن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لانكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر . وهذا رجوع منهم الى القوة الروحية التى لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيرا بازاء القوة فعادوا الى الحيلة خوفا من ان ذلك يحرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك اقامة له مقام آل طاهر

لما نال يعقوب ماطلب ازداد طمعا وجرأة فأرسل يقول انه لا يرضيه ما كتب به اليه دون أن يصير الى باب السلطان ويظهر انه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلى على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبرو أمره انه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه الى حربه ولا سيما بعد ان علم أن يعقوب قادم بجيوشه الى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا الى بغداد ومنها اتجه نحو عسكر يعقوب الذى وصل الى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بنى كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولا لجند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فان كثيرا من الجند اليعقوبى كرهوا القتال اذ رأوا أنفسهم

يحاربون الخليفة وجها لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده اما يعقوب فانه فارق موضعه على تعبئة ومضى . تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من اسره فأحضره الخليفة وخلع عليه على مرتبته وقرئ على الناس كتاب يذكر فيه مثالب يعقوب وانه لم يرضه ماتفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقا محاربا وكان هذا الكتاب مؤرخا بيوم ١١ رجب سنة ٢٦٢

رجع المعتمد الى سامرا وقدم محمد بن طاهر بغداد وقد رد اليه عمله فخلع عليه فى الرصافة. أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالا من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعى صاحب الزنج الذي لم يكن انتهى أمره بعد

وفى سنة ٢٥٦ توفي يعقوب بن الليث بالاهواز

كان هذا الرجل عصاميا نشأ فى صناعة الصفر ثم ما زال يهم بالمعالى فتنقاد له . قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما فعل ولم يؤخذ عليه فى تدبيره إلا هذه الفعلة الاخيرة وهى قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا وبغداد وهو فى جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل ما كان يظن انه يلقى حربا وكان يرى أن كتبه التى يظهر فيها الخضوع وانه لم يجئ الا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة . وكانت مدته ١٨ سنة

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيرا من أخيه فى التدبير وأحكام السياسة حتى كان يقال ماأدرك فى حسن السياسة للجنود والهداية الى قوانين المملكة منذ زمان طويل مثل عمرو

ابن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الاعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان العارض يقعد والاموال بين يديه والجند باسرهم حاضرون وينادى المنادي اولا باسم عمرو بن الليث فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس فيتفقدها ويأمر بوزن ٣٠٠ درهم باسم عمرو ابن الليث فتحمل اليه فى صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها في خفه تكون لمن يخلع خفه . ويدعى بعد ذلك باصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم القرّة ويطالبون بجميع مايحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن أخل باحضار شيء حرموه رزقه .وفوق ذلك كان يرضى الخليفة وبطانته بما كان يرسله من الاموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة واليا على ما كان يلى أخوه ووجهت اليه بذلك الخلع مع العهد والعقد

لم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليفة سنة ٢٧٢ لما كان يبدو له من طموحه الى ماطمح اليه أخوه فادخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم انه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر ثم رضى عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمال ولم يزل عمرو فى حروب ووقائع لاقيمة لها حتى تعرض أخيرا لما كان بيد السامانيين من بلاد ماوراء النهر فولاه الخليفة اياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجيء

السامانيون

تنسب الاسرة السامانية الى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهى أسرة عريقة المجد فى الامة الفارسية . كان فى عهد المأمون من تلك الاسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعي حقوق الحرمة لذوى البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم وكانت بلاد ماوراء النهر مقسمة بينهم يلونهامن جهة أمير خراسان فكان نوح بن أسد فى سمرقند واحمد بن اسد فى فرغانة ويحي بن أسدفى الشاس وأشروسنة والياس بن أسد فى هراة — وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مرضى السيرة لا يأخذ رشوة ولا أحد من أصحابه . ولما توفى استخلف ابنه نصرا على أعماله بسمرقند وما وراءها فبقى عاملا بها الى آخر أيام الطاهرية . وكان اسماعيل بن احمد يخدم أخاه نصرا فولاه بخارى سنة ٢٦١ وكان بين هذين الاخوين خطوب طويلة بسبب سعاة السوء حتى انه فى سنة ٢٧٥ تحارب نصر واسماعيل فقهر نصر وحمل الى أخيه اسماعيل فلما رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه الى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى

واسماعيل هذا هو الذى على يده انتهى عز عمرو بن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم ١٧٠ سنة وستة أشهر ثم انتهت على أيدي آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم

(١) نصر بن احمد بن سامان ٢٦١ — ٢٧٩

(٢) اسمعيل بن احمد ٢٧٩ — ٢٩٥

(٣) احمد بن اسمعيل ٢٩٥ — ٣٠١

(٤)	نصر بن احمد	٣٠١ — ٣٣١
(٥)	نوح بن نصر	٣٣١ — ٣٤٣
(٦)	عبدالملك بن نوح	٣٤٣ — ٣٥٠
(٧)	منصور بن نوح	٣٥٠ — ٣٦٦
(٨)	نوح بن منصور	٣٦٦ — ٣٨٧
(٩)	منصور بن نوح	٣٨٧ — ٣٨٩
(١٠)	عبد الملك بن نوح	٣٨٩ — ٣٨٩

مما تقدم يفهم ان البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلا وان كان يدعى لهم ببعضها اسما

فكانت الدوله الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ماوراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية العلوية وهؤلاء يدعون لانفسهم بالخلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر وسوريا وهى دولة احمد بن طولون

احمدبن طولون

كان طولون مملوكا تركيا أهداه نوح بن أسد السامانى الى المأمون وهو بمرو سنة ٢٠٠ فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له احمد ابنه بسامرا سنة ٢٢٠ فربى في حلبة أولئك الجنود وتفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفى ابوه

طولون فكان بعده فى ضمن جنود بايكباك الذى تقدم ذكره

كانت ولاية مصر مضافة الى بايكباك وهو الذي يختار أميرها فنى سنة ٢٥٤ اختار لها احمد بن طولون لما رأي من كفايته وشجاعته فعقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبة وحدها وكان معه احمد بن محمد الواسطى كاتب بايكباك

لما توفى المعتز سنة ٢٥٥ وتولى المهتدى وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهرا لاحمد بن طولون فان احمد كان زوج ابنته فكتب اليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الاعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لاحمدبن طولون حتى مات أماجور سنة ٢٥٨ فاستقل احمد بمصر ودعى له بها وحده بعدالدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثورون بها من وقت لآخر

وفى سنة ٢٦٢ حصلت بينه وبين ابى احمد الموفق تنافر أدى الى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو احمد الى ابن طولون يهدده بالعزل فاجابه جوابا فيه بعض الغلظة فسير اليه الموفق جيشا يقوده موسي بن بغا فلما بلغ الرقة أقام بها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الاموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه مايعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا ان يعود الى العراق وكفى ابن طولون شره

وفى سنة ٢٦٣ ولى المعتمد احمد بن طولون طرسوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة

وفى سنة ٢٦٤ دخل فى حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذى كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعا عظيما حتى كانت حدود مملكته تنتهى الى نهر الفرات

وبذلك تم التغلب والانفراد عن بنى العباس من أقاصى الغرب الى نهر الفرات فضاقت مملكة بنى العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الرى والاهواز

وكان الموفق فى ذلك الوقت مشغولا بحرب الدعى صاحب الزنج فكان فى ذلك فرصة عظيمة لاحمد بن طولون أن يقوى أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من الفتور فاراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد الى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وانه ليس له من الخلافة الا الاسم فاشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية الى القطائع مدينة احمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذي أرسل اليه الموفق أن يبذل جهده في منع المعتمد من المسير الى مصر فلما بارح المعتمد سامرا ووصل الى س الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية الى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلف بين الموفق وابن طولون حتى ان ابن طولون قطع خطبة الموفق واسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق الى المعتمد بلعنه ففعل مكرها لان هواه كان مع ابن طولون

وفى سنة ٢٧٠ توفى احمد بن طولون فخلفه فى مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه وقد استمر ملك مصر والشام فى أعقاب ابن طولون الى سنة ٢٩٢ وقد ولى من هذا البيت خمسة أمراء وهم

(١)	احمد بن طولون	٢٥٤ — ٢٧٠
(٢)	خمارويه بن احمد	٢٧٠ — ٢٨٢
(٣)	ابو العسا كر جيش بن خمارويه	٢٨٢ — ٢٨٣
(٤)	هارون بن خمارويه	٢٨٣ — ٢٩٢
(٥)	شيبان بن احمد بن طولون	٢٩٢ — ٢٩٢

الحوادث الخارجيه

ترتب على الاضطراب الذى قصصنا حديثه فى عهد المعتمد ان الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنها ضعيفا حتى انهم أخذوا سنة ٢٦٣ حصن لؤلؤة الذى كان شجى فى حلوقهم وغلبوا كثيرا من الجيوش ولم تتحسن الاحوال قليلا لا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرسوس وعهد اليه حماية الثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة سنة ٢٧٠

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد السرايا من تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم 'رون فيأخذون منهم كثيرا من الاسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل

ولاية العهد

كان ابو احمد الموفق ولى العهد بعد المعتمد وكانت اليه أمور الخلافه فعلا فلما توفى سنة ٢٧٨ جعل ولى العهد المفوض بن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن ابى احمد الموفق وكان ابو العباس صاحب الكلمة فى الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدما

صفات المعتمد

لم يكن للمعتمد نفوذ فى ادارة البلاد ، لا فى شىء من سياسة المملكة لان الامر كله كان منوطا باخيه ابى أحمد وكان المعتمد مشغوفا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى لاهم له الا ذلك وله أحاديث في الغناء والرقص والندامى وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدل هـذا بتعبية الجيوش وسوقها الى خوض الغمرات

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فاكثر منه ثم اتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩

(١٦) المعتضد

هو أبو العباس احمد بن أبي احمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار ولد سنة وكان عضد الابيه الموفق فى حروبه وأعماله وولى العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة ٢٧٩ وبويع له بالخلافة فى اليوم الذي توفى فيه المعتمد على الله لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ اكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ ابريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام

وكان يعاصره فى الاندلس عبدالله بن محمد الذى توفى سنة ٣٠٠

وكانت دوله الادارسة على غاية من الاضطراب يؤذن بقرب الانتهاء

ويعاصره فى افريقية وصقلية من الاغالبة ابراهيم بن أحمد بن الاغلب الذي توفى سنة ٢٨٩

وفى مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى سنة ٢٨٢ ثم جيش ابن خمارويه المتوفى سنة ٢٨٣ ثم هارون بن خمارويه المتوفى سنة ٢٩٢

وفى زبيد من آل زياد ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد المتوفى سنة ٢٨٩

وفى صنعاء من آل يعفر عبد القادر بن أحمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٧٩ ثم ابراهيم بن محمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٨٥ ثم أسعد بن ابراهيم المخلوع سنة ٢٨٨ ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة

وفى طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوي المقتول سنة ٢٨٧

وفى خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذى أسر سنة ٢٨٧

وفى بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى سنة ٩١١ م

وفى فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفى سنة ٨٩٨ ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى سنة ٩٢٣

وزراء الدولة

أول وزراء المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب واستمر فى وزارته حتى مات سنة ٢٨٨ فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد الله ومات وهو وزيره

من المهم أن نذكر هنا ملخصا لما أورده الكاتب هلال بن المحسن الصابئ فى كتابه الموسوم بتحفة الامراء فى أخبار الوزراء لندل بذلك على

مقدار مصروف الخليفة المعتضد

قال عن عبد الحميد الكاتب لما تولى أبو القاسم عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد بالله رحمة الله عليه والدنيا منغلقة بالخوارج والاطماع مستحكمة من جميع الجوانب والمواد قاصرة والاموال معدومة وقد استخرج اسمعيل بن بلبل خراج السواد لسنتين في سنة وليس في الخزائن موجود من مال ولا صياغة احتاج في كل يوم الى مالا بد منه من النفقات الى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوما وهو في مجلسه من دار المعتضد بالله . يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الامر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لى في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فان كنت تعرف وجها تعينني به فأحب أن ترشدنى اليه فحسن له اطلاق ابنى الفرات (أبو الحسن على وأبو العباس أحمد ابنا محمد بن موسى بن الفرات) وكانا محبوسين بعد أن صودرا فحسن الوزير للمعتضد اطلاقهما والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا أحمد بن محمد الطائى وضمناه أعمال سقى الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار وفى كل شهر ستة آلاف دينار وأخذا خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ماتقرر من أوقاته واستقبلا به فى المياومة يومهما وفى المشاهرة غدهما

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ماقرره المعتضد بالله

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم

١٠٠٠	دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب
١٥٠٠	دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية
٦٠٠	أرزاق المماليك المختارين
٥٠٠	أرزاق الفرسان المميزين
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفا من المرسومين بخدمة الدار
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجرى مجراهم
٣٠٠	أثمان أنزال الغلمان المماليك
½ ٢٥٣	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز وانزال الحرم ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك
٤	أرزاق السقائين بالقرب
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك
١٠٠	أرزاق الحرم من المستخدمين فى شراب العامة وخزائن الكسوة الخ
١٠٠	أرزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة
¾ ٦٦	ما يصرف فى ثمن الكراع والابل وما يبتاع من الخيل
٣٠	أرزاق المطبخين
٣٠	أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم
٣٦١١	

١١٣٦	ماقبله
٦ ٢/٣	ثمن الشمع والزيت
٥	أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج
٤٤ ١/٣	أرزاق الجلساء وأكابر الملهين
٢٣ ١/٣	أرزاق المتطببين وتلامذتهم مع أثمان الادوية
٧٠	أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح
٦١ ٢/٣	أرزاق الملاحين
٤	ثمن نفط ومشاقة
١٥	صدقة يومية
٣٣ ١/٣	جارى أولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	جاري ولد الواثق والمهتدى والمستعين وسائر أولاد الخلفاء
١٦ ٢/٣	جارى ولد الناصر
٢٠	أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام
٣٣ ١/٣	جارى جمهور بنى هاشم
٣٣ ١/٣	رزق الوزير وابنه
١٥٦ ٢/٣	أرزاق أكابر الكتاب وسائر من فى الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد
١٦ ٢/٣	رزق القاضى وخليفته وعشرة فقهاء
٣ ١/٣	خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام
٥٠	نفقات السجون
١٠	نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية
٦٩٤٦ ٢/٣	

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التي كانت تصرف فى الحضرة كل يوم حوالى سبعة آلاف دينار وفى الشهر ٢١٠,٠٠٠ وفى السنة ٢,٥٢٠,٠٠٠ دينار وهو مقدار قليل اذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة فى عهد المأمون والمعتصم ولا غرابة فى ذلك فان كثيراً من الاقاليم استقل بادارته وأمواله المتغلبون وما بقى لبنى العباس لم يعمره العدل والأمن لكثرة الاضطرابات فى الجزيرة وبلاد العراق وفارس

اضطرابات الجزيرة

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بنى العباس لا يقرون بالخضوع لهم بل كانوا على مالم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم فى ديار ربيعة وفى ديار مضر ولا سيما بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس الى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعا وخروجا بنو شيبان من ربيعة

ففى أول خلافة المعتضد سار الى بنى شيبان بالموضع الذى يجتمعون فيه من أرض الجزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا اليهم أموالهم وأغار المعتضد على الأعراب عند السن فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغرق منهم فى نهر الزاب مثل من قتل ثم سار الى الموصل فلقيته بنو شيبان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم الى ماطلبوا وعاد الى بغداد

وفى سنة ٢٨١ سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدى حمدان ابن حمدون الذى تغلب عليها وهو جد الأسرة الحمدانية فلما بلغه مسير

المعتضد اليه ترك فى القلعة ابنه وسار عنها فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفى الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه فقعد المعتضد فى الباب وأمر بنقل مافى القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته الى بغداد

وكان مما يهم المعتضد خارجى ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان إلا هزمه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين ان أنا جئت به فلى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداها إطلاق أبى وحاجتان أذكرهما بعد مجيئى فأجابه المعتضد الى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم مازال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيرا وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على اخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والاحسان اليه فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية

القرامطة

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع فى سواد الكوفة ويدخل الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة

فى قريب من الوقت الذى انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له أبو سعيد الحسن الجنابى وجنابة من سواحل فارس يدخل اليها فى المراكب فى خليج من البحر الفارسى وبين المدينة

والبحر ثلاثة أميال وقبالتها فى وسط البحر جزيرة خارك نشأ بها أبو سعيد هذا وكان دقاقا فنفى عن جنابة فخرج الى البحرين فأقام بها تاجرا وجعل يستميل العرب الى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوى أمره فقتل ماحوله من أهل القرى وفعل كذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التى كتب عليها الشقاء فانه لم يمض على مالاقته من السوء على يد دعى العلويين أكثر من ١٥ سنة فكتب واليها الى المعتضد يخبره بالامر فأمره المعتضد أن يبنى على البصرة سورا ففعل وفى سنة ٢٨٧ أقبل الجنابى بجموعه يريد البصرة فأرسل اليه المعتضد جيشا قائده العباس ابن عمرو الغنوى فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما فى العسكر وقتل الأسرى ثم سار الجنابى بعد الواقعة الى هجر وانصرف المنهزمون الى البصرة فلقيهم الاعراب فأفنوهم . أحدث ذلك بالبصرة قلقا واضطرابا حتى هم أهلها بالجلاء عنها ولكن واليها هدأ بالهم

أما أمرهم بسواد الكوفة فانه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه أرسل اليهم جيشا يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائى فظفر بهم وأخذ رئيسا لهم يعرف بأبى الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل فى أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل فقال ياهذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك وان حلت روح ابليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك . فقال ما تقول فيما يخصنى قال أقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حى فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر

وهو يرى موضع العباس ولم يوص اليه ثم مات عمر وجعلها شورى فى ستة أنفس ولم يوص اليه ولا أدخله فيهم فبما ذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنهم — فأمر به المعتضد فقتل

كان تتابع الجيوش من المعتضد الى من بسواد الكوفة سببا لان داعية قرمط زكروية بن مهرويه سعى فى استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فاجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة ٢٩١ ابن زكرويه المسمى يحي المكنى بابى القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسمعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم ان له بالبلاد مئة الف تابع وسمي اتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا به حتى بلغوا بلاد الشام وكانت اذ ذاك فى حوزة خمارويه بن احمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مراراً فهزموه

هذا ما كان منهم فى حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدؤا بخروجهم شعلة النار المحرقة التى آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق الى بيت الله المقدس كما يأتى بيانه

وفي تلك الازمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وافريقية فكان الدعوة الاسماعيلية رتبت أن تكون فى آن واحد بجميع الجهات الاسلامية حتي لا يكون لبنى العباس قبل بملافاة شرها وكذلك كان

امر المشرق

اتسع سلطان عمرو بن الليث فى أول عهد المعتضد ودخل نيسابور

سنة ٢٨١ ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى ودعاله على منبر نيسابور فعادعمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانيا وكان رافع قد هرب الى طوس فارسل اليه عمرو جندا فلحقوه هناك وقاتلوه فانهزم الى خوارزم فتبعوه اليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو الى المعتضد كتابا بذلك مع رأس رافع فأرسلت الى عمرو الخلع ولواء الولاية على الرى وهدايا من قبل المعتضد

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل الى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ماوراء النهر وعزل اسماعيل بن احمد السامانى أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل اليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بارسال هدية فكان مبلغ المال الذى وجهه أربعة آلاف الف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و١٥٠ دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة

كانت هذه الولاية سببا لمصيبة عمرو بن الليث فانه خرج ليحوزها ولم يكن اسمعيل بالذى يسلمها اليه فكتب اليه انك قد وليت دنيا عريضة وانما فى يدى ماوراء النهر وانا فى ثغر فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر فابى اجابته الى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة فى عبوره فقال لوأشاء لسكرته يبدر الاموال وعبرته . ولما أيس اسمعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر الى الجانب الغربى وجاء عمرو فنزل بلخا وأخذ اسمعيل عليه النواحى فصار كالمحاصر وندم على مافعل وطلب المحاجزة فأبى اسمعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولي هاربا ومر بأجمة فى طريقه قيل له انها أقرب فقال لعامة من معه امضوا فى الطريق الواضح ومضى فى نفر يسير فدخل الاجمة فوحلت

دابته فوقعت ولم يكن له فى نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلووا عليه وجاء أصحاب اسمعيل فأخذوه أسيرا وخيره اسمعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل الى المعتضد فاختار أن يوجه الى المعتضد فحبس وبذلك انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالامر بقتل عمرو فقتل فى أول خلافة المكتفي

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لاخذ خراسان لانه فهم ان اسمعيل بن احمد لا يبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريدا الاستيلاء على خراسان فلما صار الى جرجان كتب اليه اسمعيل يسأله الرجوع الى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب اسمعيل لحربه قائدا فى جند فلقيه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيد الى اسمعيل بن احمد . بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لاولادهما بعدهما كبير ذكر في التاريخ

ولما تم ذلك كله على يد اسمعيل أرسل اليه المعتضد الخلع وبدنة وتاجا وسيفا من ذهب مركبا على جميع ذلك الجوهر وهدايا وثلاثة آلاف الف دينار يفرقها فى جيش من جيوش خراسان يوجهه الى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبذلك صارت القوة فى المشرق للاسرة السامانية فبيدهم بلاد ماوراء النهر وخراسان الى الرى وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام

امر المغرب

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن احمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب اليه كثيرا فأهدى اليه لأول خلافته من العين عشرين حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة ومعهم حراب فضة وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة و٣٧ دابة بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة . ثم أراد أن يتقرب الى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قطر الندى من على بن المعتضد فقال المعتضد أنا أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لايعرف لها قيمة ومئة هون من ذهب ومنها الف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعد هذا . ولما تم الجهاز أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد[1] وأخرج معها أخاه شيبان بن احمد بن طولون فى جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد فاذا وافت المنزل وجدت قصرا قد فرش فيه جميع مايحتاج اليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل مايصلح لمثلها فى حال الاقامة فكانت فى سيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كانها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس الي مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢ وكان المعتضد اذذاك غائبا بالموصل فادخلت للحرم حتي قدم فنقلت اليه فى رابع ربيع الثانى ونودي فى جانبى بغداد ألا يعبر أحد في دجلة يوم الاحدوهو

يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التى تلى الشط ومد على الشوارع النافذة الى دجلة شراع ووكل بحافتى دجلة من يمنع الناس أن يظهروا فى دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتمد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بازاء دار صاعد التى كانت فيها قطر الندي وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت اليها حتى وصلت الى دار المعتضد

كان خمارويه يلى مصر واليه طرسوس والشام فكانت اليه المحافظة على ثغر طرسوس وجنوده تقوم بذلك خير قيام . لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه سنة ٢٨٣ ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة ما يسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا بغداد فاكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيش فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سببا لخروج طرسوس من أيدي بنى طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون ان يولى عليهم واليا من قبله ففعل

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل الى بيت المال ببغداد كل سنة ٤٥٠,٠٠٠ دينار ووجهت الخلع والعقد الى هارون . ومن هذا يتبين ان نفوذ المعتضد فى مصر والشام صار أقوي مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذى وقع بينهم

صفات المعتضد

كان المعتضد قوي القلب جريئا ولذلك كان للخلافة فى عهده أكثر مما كان فى عهد ابيه من الهيبة وان كان الامر فى الحقيقة جل أن يصلح لان وراءهم عدوا لاينام يريد افساد ملكهم بما أمكنه ولو أدى ذلك الى افساد البلاد كلها . وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفا كا للدماء شديد الرغبة فى التمثيل بمن يقتله

وله اصلاحات داخلية جليلة منها انه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الارحام وأمر بابطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء . ومنها اهتمامه بكري دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخرا كان يمنع الماء

ومن أهم اصلاحه مايعرف بالتقويم المعتضدي وانا قائلون كلمة فى شرحه

معلوم ان دين الاسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها صوم رمضان وحج البيت فى ذي الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التى تزيد على السنة الهلالية احدعشر يوما وربما الا قليلا . ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلاليه ولكن حصل ان المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لان جباية الخراج انما تكون عند ادراك الثمار والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج فى يوم النيروز

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية ٣٦٠ يوما كل شهر ثلاثون يوما كاملة وكانوا يضيفون اليها خمسة أيام بين آبان ماه وآذر ماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم في كل ١٢٠ سنة من ربع

اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذى يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فالحقوا الشهر التام بها فى كل ١١٦ سنة وبناء على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهرا كاملا كلما مضت هذه المدة . فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز ففى عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلى بن يحيي المنجم ان الزرع اخضر بعد ما أدرك وقد استأمرنى عبيد الله بن يحيى فى استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج فى النيروز والزرع لم يدرك بعد فقال له على ليس يجرى الامر اليوم على ما كان يجرى عليه أيام الفرس ولا النيروز فى هذه الايام فى وقته الذى كان فى أيامها لانها كانت تكبس فى كل ١٢٠ سنة شهرا وكان النيروز اذا تقدم شهرا وصار فى خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار فى خمس من ايار وأسقطت شهرا وردته الى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا فلما تقلد خالد القسرى العراق وحضر الوقت الذى تكبس فيه الفرس منعها من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النيروز تقدما شديداً حتى صار يقع فى نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل فاعمل لهذا عملا ترد النيروز فيه الى وقته الذى كان يقع فيه أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب سنة ٢٤٣ ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل . فلما ولى المعتضد وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالامر وحسب المدة التى تقدمها تاريخ النيروز بسبب اهمال الكبس فوجد انه تأخر ستين يوما فاخر النيروز بقدره فكان في ١١ حزيران فجعله كذلك دائما لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار

لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر . قال البيرونى فى كتابه الآثار الباقية وهذا وان دقق فى تحصيله فلم يعد به النيروز الى ما كان عليه عند الكبس فى دولة الفرس وذلك ان اهمال الفرس كبيسهم كان قبل هلاك يزدجرد بقريب من سبعين سنة لانهم كانوا كبسوا السنة فى زمان يزدجرد بن سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة له وكانت النوبة لأبان ماه كما سنذكر والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفروغا منه الى مدة طويلة فاذا أسقط من السنين التى بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهريار ١٢٠ سنة بقى بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فان تواريخ الفرس مضطربة جدا ويكون حصة هذه السبعين سنة من الارباع قريبا من ١٧ يوما فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر ٧٧ يوما لا ٦٠ حتى يكون النوروز فى ٢٨ حزيران ولكن المتولى لذلك ظن أن طريقة الفرس فى الكبس كانت شبيهة بالتى يسلكها الروم فيه لحسب الايام من لدن زوال ملكهم والأمر فيه على خلاف ذلك اه

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فانهم لما رأوا بالحساب أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوى بالتقريب ٣٣ سنة هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت ٣٢ سنة ففى سنة ٢٤١ الخراجية نسب الخراج الى سنة ٢٤٢ الهلالية وأسقطت سنة ٢٤١ لان الغلة انما أدركت سنة ٢٤٩ ولنضرب لذلك مثلا يفهم به ما كانوا يعملونه . كان أول المحرم سنة ٢٠٤ هو ٤ مايو سنة ٨٢٤ وأول المحرم سنة ٢٤٢ هو ١٠ مايو سنة ٨٥٦ ومن بين هذين ٣٣ سنة قمرية و٣٢ سنة شمسية فتكون

السنة بالحساب الخراجي سنة ٢٤١ فلكي تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحدا حتى تكون سنة ٢٤٢ ويسقطون من الخراج سنة ٢٤١

وقد كتب المعتضد بذلك كتابا أمر فيه أن تكون جباية الخراج في العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما على الطريق التى رسمها وانما قيد بالعراق والمشرق لان الحال في مصر كانت على الكبس القبطى وفي الشام على الكبس الرومى وكلاهما لا يتغير به الزمان

والمعتضد هو الذى ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد ان كانت تضارع بغداد بل لم يكن في الارض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها الى بغداد يعمر بها فقال ابن المعتز

قد أقفرت سر من را   وما لشىء دوام
فالنقض يحمل منها   كأنها آجام
ماتت كما مات فيل   تسل منه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدى والمعتمد وبها قبرا إمامين من أئمة الشيعة وهما علي بن محمد والحسن ابن علي العسكريان وبها السرداب التى تزعم الشيعة انه يخرج منه المهدى المنتظر

وفاة المعتضد

توفى المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ وكان ولى عهده ابنه المكتفي

(١٧) المكتفى

هو على المكتفى بن المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ولد سنة ٢٣٦ وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك فى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ ابريل سنة ٩٢٠) ولم يزل خليفة الي أن توفى فى ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥ (١٣ اغسطس سنة ٨٠٩) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و١٩ يوما

وتولى فى عهده على بلاد المغرب الاقصى من الادارسة يحيي بن ادريس بن عمر بن ادريس بن ادريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٢

وفى عهده تولى افريقية من الاغالبة زيادة الله بن عبدالله بن ابراهيم ابن أحمد بن محمد بن الاغلب وهو آخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٠

وكان أمير مصر على عهده شيبان بن أحمد بن طولون وهو آخر الامراء من هذا البيت

وكان الأمير على زبيد من آل زياد زياد بن ابراهيم بن محمد (٢٨٩ — ٢٩١) ثم أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم

وكان الامير من آل ساسان بالمشرق اسمعيل بن أحمد (٢٧٩ — ٢٩٥) ثم أحمد بن اسميل (٢٩٥ — ٣٠١)

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف وفى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج

وزراء المكتفى

لما استخلف المتوكل أبقى فى الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد الله ابن سليمان بن وهب فدبر الامور على ما كانت فى زمن المعتضد واستمر فى الوزارة عظيما مهيبا الى أن توفى سنة ٢٩١

فاستوزر المكتفى بعده العباس بن الحسن

الاحوال فى عهده

انتكست البلاد فى عهد المكتفى بعد ان كانت ابتدأت تنتعش فى عهد أبى أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوى النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيد للآخر شر كيد حتى يورده المهالك من غير نظر فى ذلك الى ماتقتضيه مصلحة الامة

ومما حصل مما يدل على ذلك أن بدرا غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ فى اقليم فارس وكان بينه وبين وزير المكتفى القاسم بن عبيد الله مباعدة فلم يكن من الوزير إلا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير اليه ومفارقة بدر ففعلوا ولما رأى ذلك بدر انصرف الى واسط فلما بلغ الخليفة انصرافه وكل بداره وقبض على جماعة من غلمانه وقواده فحبسوا وأمر بمحو اسمه من التراس والاعلام كلها وكان عليها (أبو النجم مولى المعتضد بالله) وذلك كله حصل باغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة فى القبض على بدر فدعا بأبى عمر محمد بن يوسف القاضى وأمره بالمضي الى بدر ورفقائه وتطييب نفسه

وإعطائه الأمان من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده فذهب اليه القاضى ودفع اليه الأمان فاستقر الأمر بينهما على أن بدرا يدخل بغداد سامعا مطيعا وأمر غلمانه أن ينزعوا سلاحهم وأن لايحاربوا أحدا وبينما هو يسير فى الحراقة إذ وافاه محمد بن اسحاق بن كنداج فى شذا فلما قاربه تحول الى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه فى ذلك الحين أحد غلمان السلطان فى طيار فأخذه من الحراقة حتى صار به الى جزيرة فى الصافية فأخرجه اليها وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله

وكان بهذا العمل الخزى للقاضى الذى توسط فى أمر لم يكن قادرا على تنفيذه وقد كانت العامة تدرك ما فى الاخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحد الشعراء يذم القاضى على فعلته

قل لقاضى مدينة المنصور ... بم أحللت أخذ رأس الامير
بعد اعطائه المواثيق والعهـ ... ـد وعقد الأيمان فى منشور
اين أيمانك التى شهد اللـ ... ـه على أنها يمين فجور
أن كفيك لا تفارق كفيـ ... ـه الى أن ترى مليك السرير
ياقليل الحياء ياأكذب الأمـ ... ـة ياشاهدا شهادة زور
ليس هذا فعل القضاة ولايحسـ ... ـن أمثاله ولاة الجسور
أى أمر ركبت فى الجمعة الزهـ ... ـراء من شهر خير الشهور
قد مضى من قتلت فى رمضان ... صائما بعد سجدة التعفير
يابنى يوسف بن يعقوب أضحى ... أهل بغداد منكم فى غرور
بدد الله شملكم وأرانى ... ذلكم فى حياة هذا الوزير
فأعد الجواب للحكم العا ... دل من بعد منكر ونكير

أنتم كلكم فداء لابى حا زم المستقيم كل الامور

والذى هاج الناس من هذا الامر أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الاسلام أن يكونوا عونا على الغدر وعدم احترام الايمان .

كانت تلك الحال سببا لازدياد أمر القرامطة واضطرام نيرانهم فى الشام والعراق والبحرين وطريق مكة

لما رأى داعيتهم زكرويه ان أهل السواد لايغنون عن أنفسهم سعي لاستغواء اعراب الكوفة من أسد وطيئ وتميم وغيرهم الى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على ابلها فارسل زكرويه أولاده اليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا الى على بن أبي طالب فقبلوهم على ذلك ثم دعوهم الى رأى القرامطة فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ وزعم لهم ان بالسواد والمشرق مئة الف تابع ومخرق لهم حتي اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمى مولى المعتضد بناحية الرصافة غربى ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتي أصعدوا الى أعمال الشام التى كانت فى حوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله طغج بن جف فهزم القرمطى كل جيش وجهه اليه طغج حتى حصره فى مدينة دمشق فانفذ اليه المصريون بدرا الكبير غلام احمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريبا من دمشق وقتل فى الواقعة يحيى القرمطى ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولى القرامطة عليهم الحسين بن

زكرويه أخا يحيى فاظهر شامة فى وجهه وزعم انها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بامرة المؤمنين على منابرها ـ كان ذلك كله فى سنتى ٢٨٩ و ٢٩٠

وكان يكثر القتل فى كل بلد دخلها الا من اتقت شره بصلحه والدخول فى أمره وكان لا يترك أحدا حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التى لم يبق بها أحد اسلمية

توالت كتب أهل الشام الى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذي الشامة من القتل والسبي وتخريب البلاد فلم ير بدا من الخروج بنفسه الى الشام فتأهب وسار الى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الاغر في عشرة آلاف فارس فنزل أبو الاغر قريبا من حلب فكبسهم القرمطى فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الاغر فدخل حلب فى ألف رجل فتبعه القرمطى الى حلب فحاربه أبو الاغر بمن بقى معه من أهل البلد فرجع عنهم

سار المكتفى حتى نزل الرقة وسير الجيوش اليه وجعل أمرها الى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماة ١٢ ميلا فالتقوا بأصحاب القرمطى فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطى وقتلوا وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقون فى البوادي وتبعهم أصحاب السلطان . ولما رأى القرمطى ما نزل بجنده حمل أخاله مالا وتقدم اليه أن يلحق بالبوادى الى أن يظهر فى موضع فيسير اليه وركب هو فى ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضا فى البرية حتى انتهى الى موضع نفد معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه الى موضع يعرف بالدالية

من أعمال طريق الفرات فلما دخلها انكر زيه وسئل عن أمره فجمجم ثم أقر أن ذا الشامة معه فخرج متولى المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فصاروا به الى المكتفي وفى ٢٦ محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهرا ثم حمل الى بغداد وعقب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالاسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيرا فاعدموا كلهم ونظفت النواحى الشامية من هذه الفرقة المنكرة الا أن ذلك لم يكن مبيدا للمذهب القرمطى فان والد يحيى ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهو زكرويه رأس الفتنة

لما بلغه مقتل ذى الشامة أنفذ رجلا كان معلما للقرآن باحدي القرى اسمه عبدالله بن سعيد فتسمى نصرا ليعمى أمره فدار على احياء كلب يدعوهم الى رأيه فساعده رجل اسمه مقدام واستغوى له طوائف من اعراب البادية فذهب بهم الى جهات الشام فاغار على مدينتى بصرى وأذرعات فحارب أهلها ثم آمنهم فلما استسلموا اقتلهم وسبي ذراريهم واستصفى أموالهم ثم سار يؤم دمشق فغلب مقاتلتها ولكنه لم يطمع فى دمشق لدفاع أهلها عنها ثم سار الى الاردن فقهر أهلها . ولما علم الخليفة بفعله أنفذ اليه الحسين بن حمدان فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية فلما اتصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين فى بريه السماوة وهم ينتقلون من ماء الى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم . أمام فأسروا الى هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها الى البرية فأرسل اليهم الخليفة محمد بن اسحاق فى جيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم . ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش اليهم عمدوا

الى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه الى السلطان وأظهروا الخضوع فعفا عنهم أما بقية القرامطة فانحازوا الى البادية .

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل اليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم ابن احمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغيروا عليها يوم النحر من سنة ٢٩٣ فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد وعددهم نحو ٨٠٠ رجل فاوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس الى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العامل بمن عنده من الجند وصاف القرامطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند لمحاربة القرامطه بجهة القادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ على خط رجعته فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقبح هزيمة واحتوى القرامطة على ما فى معسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا الى زكرويه فاستخرجوه من مخباه فسار معهم وهو محتجب يدعونه السيد ولا يبرزونه والقاسم يتولى الامور دونه ويمضيها وجعلوا مقر أعمالهم الصحراء

ومن أخبث ما فعلوه فى سنة ٢٩٤ أنهم أغاروا على قوافل الحج الآتية من مكة الى المشرق خراسان والعراق فلم يتركوا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الاموال شيئا عظيما وورد خبر ذلك الى بغداد فعظم الامر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالامر وندب اليهم جيشا عظيما ذهب اليهم فى جادة مكة وقاتلهم فقتل منهم كثيرا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على ما فى معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام ثم مات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين ابن حمدان فأوقع بهم

ولنذكر هنا نص كتابين أحدهما من ذى الشامة الى عامل من عماله والثانى من عامل الى ذى الشامة ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم فى دعاويهم التى بها يستحلون سفك دماء الناس والسعى فى الارض بالفساد

الكتاب الاول — من عبدالله أحمد بن عبدالله المهدى المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بامر الله الحاكم بحكم الله الداعى الى كتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وامام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحدين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيين صلى الله عليه وسلم وعلى أهل بيته الطيبين وسلم كثيرا الى جعفر بن حميد الكردي سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو وأسأله أن يصلى على جدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد فقد انتهى الينا ماحدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحيتك وأظهروه من الظلم والعيث والفساد فى الارض فأعظمنا ذلك ورأينا أن ننفذ الى ماهناك من جيوشنا من ينتقم الله به من أعدائه الظالمين الذين يسعون فى الارض فسادا وأنفذنا عطيرا داعيتنا وجماعة من المؤمنين الى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن فى أثرهم وقد أوعزنا اليهم فى المصير الى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجرينا الله فيهم على أحسن عوائده عندنا فى أمثالهم فينبغى أن تشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا وتثق بالله وبنصره الذى لم يزل يعودناه فى كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الايمان وتبادر الينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئا من

أمرها ان شاء الله سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على جدى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيرا

الكتاب الثانى — بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أحمد الامام المهدى المنصور بالله — ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه الى عامله — ثم بعد ذلك من عامر بن عيسى العنقانى سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمه عليه وزاد فى احسانه اليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدى أمير المؤمنين اطال الله بقاءه يعلمنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده الى ناحيتنا لمجاهدة أعداء الله بنى الفصيص والخائن ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والايقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرنى أدام الله عزه عند نظرى فى كتابه بالنهوض فى كل من قدرت عليه من أصحابى وعشائرى للقائهم ومكانفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم والعمد كل مايومون اليه ويأمرون به وفهمته ولم يصل الى هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفا من ناحية بن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن احمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية ثم ورد على كتاب مسرور بن احمد فى درجة الكتاب الذى اقتصصت مافيه فى صدر كتابى هذا يأمرنى فيه بجمع من تهيأ من أصحابى وعشيرتى والنهوض الى ماقبله ويحذرنى التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مُفلح مدينة عرقة فى زهاء الف

رجل مابين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقد وجه احمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه الى جميع أصحابه ووجهت الى جميع أصحابى فجمعناهم الينا ووجهنا العيون الى ناحية عرقة لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجو أن يظفر الله به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هذا الحادث ونزول هذا المارق فى هذه الناحية واشرافه على بلدنا لما تأخرت فى جماعة أصحابى عن النهوض الى مدينة أفامية لتكون يدى مع أيدى القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وأعلمت سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه السبب فى تخلفى عن مسرور بن احمد ليكون على علم منه ثم ان أمرنى أدام الله عزه بالنفوذ الى أفامية كان نفوذى برأيه و متثلت مايأمرنى به ان شاء الله أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنأه كرامته والبسه عفوه وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين الاخيار

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكرويه وأولاده وقتل أكثر دعاتهم ولكن قد بقى ذنب الافعى وهو الجنابى بالبحرين ولم يكن له فى عهد المكتفى كبير عمله وانما كانت مصائبه ورزاياه فى عهد المقتدر وسنبين ذلك فى حينه

خبر المشرق

انتظمت بلاد خراسان وما وراء النهر لاسماعيل بن احمد السامانى

وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ماهو عليه والمكتفى راض عنه حتى توفى سنة ٢٩٥ فولى بعده ابنه احمد بن اسمعيل وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله اليه

خبر المغرب

وفى عهد المكتفي انقرضت دولتان احداهما دولة بنى طولون بمصر على يدى العباسيين وآخر أمرائها شيبان بن احمد بن طولون سنة ٢٩٢ والثانية دولة الاغالبة بافريقية انتهت على أيدى ابى عبد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب

العلاقات مع الروم

كانت العلاقات فى أول الامر حسنة مع ملك الروم حتى أنه تبودلت الهدايا بين الملكين

وفى سنة ٢٩٠ وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفى المفاداة بمن فى أيدي المسلمين من الاسرى ومعهم هدايا فأجيبوا الى طلبهم ولم يتم هذا الفداء الا سنة ٢٩٣ فكان جملة من فودى به من المسلمين نحو ١٢٠٠ وكان المتولى للفداء أمير الثغور رستم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة

ففى سنة ٢٩١ سار جيش اسلامى من طرسوس وصمد نحو انطاكية ففتحها بالسيف عنوة وهى من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل فى فتحها نحو ٥٠٠٠ من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم ستين مركبا فحملت فيها الغنائم من الاموال والمتاع والرقيق وقدر نصيب كل رجل ألف دينار .

وغزا من المسلمين أمير الثغور رستم مرتين وبلغ فى غزاته الثانية سلندوا فقتحها وصار الى آلس فأسر من الروم عددا كبيرا وغزا ابن كيغلغ من طرسوس

وفى سنة ٢٩٤ استأمن الى السلطان بطريق اسمه اندرونقس وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحواً من مئتى نفس من المسلمين كانوا أسرى فى حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليه فأعطى المسلمين الذين كانوا أسرى فى حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنيه فكبسوا البطريق الموجه اليه للقبض عليه ليلا وقتلوا ممن معه خلقاً كثيراً وغنموا مافى معسكرهم . وكان رستم قد خرج فى أهل الثغور فى جمادى الاولى قاصدا أندرونقس ليتخلصه فوافى رستم قونية بعقب الوقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين اليهم فانصرفوا ووجه اندرونقس ابنه الى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا فى الحصن فلما أصبحوا خرج اندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار اليهم منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه الى معسكر المسلمين وضرب المسلمون قونيـة ثم قفلوا الى طرسوس هم واندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع اندرونقس من النصارى وقد وصل هذا البطريق الى بغداد فأكرم

وحصل فى آخر عهد المكتفى مفاداة ثانية تمت سنة ٢٩٥ وكان عدة من فودى به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس

وفاة المكتفى

توفى المكتفى فى ١٢ ذي القعدة سنة ٢٩٥

المقتدر

هو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل وهو أخو المكتفى وأمه أم ولد اسمها شغب ولد سنة ٢٨٢ وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة الى أن قتل فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته ٢٤ سنة و١١ شهرا و١٦ يوما

وكان يعاصره فى الاندلس عبد الله بن محمد الى سنة ٣٠٠ ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ وهو أول من تسمي بأمير المؤمنين من بنى أمية بالاندلس

ويعاصره بأفريقية عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ – ٣٢٢)

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الاسكندر بن بسيل (٩١١ – ٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الاول الارمنى الذي اغتصب الملك سنة ٩١٩ ولم يبق لقسطنطين الا الاسم وشارك رومانس فى الملك أبناؤه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك ٢٥ سنة الى سنة ٩٤٤ فأغرى قسطنطين السابع ابنى رومانس وهما اسطفانس وقسطنطين الثامن بالمناصبة لابيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه فى دير حيث مات سنة ٩٤٨ وعاد قسطنطين السابع الى ملكه سنة ٩٤٥ مستبدا

به الى سنة ٩٥٩ حيث مات مسموما على مايقال

ويعاصره فى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم روبرت الاول (٩٢٢ — ٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ — ٩٦٢)

ويعاصره فى خراسان وماوراء النهر أحمد بن اسماعيل بن أحمد السامانى

كيف انتخب

لما ثقل المكتفى كان فى منصب الوزارة العباس بن الحسن ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لانه لم يكن ولى أحدا العهد فى صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره اذا ركب واحد من هؤلاء الاربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد الله وأبو الحسن على بن محمد بن الفرات وأبو الحسن على بن عيسى فاستشار الوزير يوما محمد بن داود بن الجراح فى ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والادب والرأى واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال هذا شئ ماجرت به عادتى أن أشير فيه وانما أشاور فى العمال لا في الخلفاء فغضب الوزير وقال هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال ان كان رأى الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير انه يعنى ابن المعتز لاشتهار خبره فقال لا أقنع الا أن تمحضنى النصحية فقال ابن الفرات فليتق الله الوزير ولا ينصب الا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولي من عرف نعمة

هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فبمن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال ويحك هو صبي قال ابن الفرات الا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الامور بنفسه غير محتاج الينا . فمالت نفس الوزير الى مشورة ابن الفرات وانضاف الى ذلك وصية المكتفي فانه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتفي اختار الوزير جعفرا للخلافة بالاتفاق مع صافي الحرمى ولقب المقتدر بالله وسنه اذ ذاك ثلاث عشرة سنة

وكأن ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم في ذلك فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وانه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود بن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضي ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الاعجمى ووصيف بن صوارتكين ثم أن الوزير أراد الانفصال عنهم لانه رأى حاله صالحا مع المقتدر وانه على ما يحب فقام عليه الآخرون فقتلوه قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف فى ٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦ وفى غده خلعوا المقتدر وبايعوا الابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبى الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك الى العمال ووجه الى المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الامهال الى

الليـل . ولم يكن بقى مع المقتدر من القواد الا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار . فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض لانسلم الخلافة من غير أن نبلى عذرا ونجتهد فى دفع ماأصابنا فأجمع رأيهم على أن يصعدوا فى المساء الى الدار التى فيها ابن المعتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزورديات وغير ذلك فركبوا فى السميريات وأصعدوا فى المساء فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا اليهم . وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم فى هذا المأزق ولا يدرى لم فعل ذلك

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذى اختاره أو اختير له وهو محمد بن داود وهربا وغلام له ينادى يامعشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى (ينسبونه الى الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهارى مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظنا منهم ان من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونهم فلم يلحقه منهم أحد ولما رأوا ذلك اختفى محمد بن داود فى بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر الى دار أبى عبد الله بن الجصاص فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدور لان صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضا

فى ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من كان لهم

يد فى بيعة ابن المعتز فقتلهم وأرسل الى ابن الفرات فاستوزره . ثم عثر على ابن المعتز فأخذ وحبس الى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد ابن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين بن حمدان فلم يدرك وأخيرا رضى عنه المعتز فحضر الى بغداد مرضيا عنه

وانتهت بذلك هـذه الفتنة التى بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها على أشتد الانكسار فى عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فان المقتدر حين ولى كان شابا غرا لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئا وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم فى كل ما يجرى من الشؤون واليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أو وزارة والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف لا يفكر فى صلاح ولم يعد بيده شئ . ولنصور لكم الحال تماما نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم اذا قدمت رشوة ممن يريد أن يحل محلهم

كان أول وزرائه أبو الحسن على بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره يوم الاحد لعشر بقين من شهر ربيع الاول سنة ٢٩٦ فنظر فى الامور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلا والايقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضا لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل فى هذه الفتنة أبو عمر محمد بن يوسف القاضى فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديدا رق له منه وسأله حراسة نفس ولده أبى عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته الا بمال جليل

يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلبا لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبي عمر على مئة ألف دينار فأدى منها تسعين ألفا من جملتها ٤٥ ألفا كانت عنده وديعة للعباس بن الحسن وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره والا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد

مضى ابن الفرات فى وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما اختلفت عليه الامور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من سنة ٢٩٨ فاحتيج فيه من النفقات الى ماجرت العادة به وكانت المواد قد قصرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة مايصرفه فى نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهه فوجد بذلك أعداؤه الطريق الى الوقيعة فيه

فركب فى يوم الاربعاء لاربع خلون من ذى الحجة الى دار الخلافة وهو على غاية السكون والطمأنينة وجلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه قبل الوصول الى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم الى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق الى دار ابن الفرات فأحاط عليها وتسرع الجند والعوام الى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الامر فى النهب حتى ركب أبو القاسم فى الحال بعد العصر فى القواد والغلمان وطلب النهابة وعاقب قوما منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثانى

فقلد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والاقطاع والاملاك والعقار والاموال والغلات وصح له ما مقداره ألف ألف دينار عينا وست مئة ألف دينار سوى الاثاث والرحل والكراع والجمال

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لا يقع فيما وقع فيه سلفه وحوّل من بيت مال الخاصة الى بيت مال العامة ألف ألف دينار وست مئة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان فى ابن خاقان اهمال للامور واطراح للاعمال وتلون فى الافعال فكانت الكتب ترد عليه وتصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشىء فيها واذا أخرجت اليه جوامعها تركها أياما فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياما لا تفض واذا قلد عامل أتبع بمن يعزله قبل وصوله الى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه فقيل انه اجتمع فى خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماه الكوفة فى عشرين يوما وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازبدى وانهم اجتمعوا وتشاكوا ما دفعوا اليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن تقليدهم على أن يناولوا من مال العمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية

وكان اذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال نعم وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والاطلاقات والاقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ

المرافق على اضاعة الحقوق واسقاط الرسوم فسخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال في اخلال الاعمال ووقوف الاحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغبا بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحبا بعد تسحب وأخرج اليهم من بيت مال الخاصة شيئا بعد شئ . حتى اذا نحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنسا الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الامر على وزارة

على بن عيسى

وكان بمكة بعيداً عما يجرى ببغداد خوفا على نفسه فأنفذ اليه فلما حضر قلد الوزارة فى عاشر محرم سنة ٣٠١ فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهراً وخمسة أيام فسلم الى الوزير الجديد هو وولداه وأبو الهيثم بن ثوابة ولما نظر على فى الامور وجد فى أيدى القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط على بن عيسى وخط ابنيه وكتابه فى فك واثبات وتقرير وايجاب ومظالم وتسويغات واقطاعات ومقاطعات ممامثله يأتى على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقانى أذن لهذه الجماعة فى التوقيع عنه بكل مارأوه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وغرضهم الارتفاق وأخذ مالاح تأمل على بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ما ثبت فى الدواوين وما لم يثبت وعمل على اعلام المقتدر ماعلى الملك وبيت المال من الوهن والنقص بامضائها فقال له أحد خلصائه لا تفعل فان الخليفة على ماتعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية

وأكثر هذه التوقيعات لهم وللتمعلقين عليهم والملتجئين اليهم فاعدل الى أن تنظر ما قد أنشئ الكتاب به من ديوان الدار الى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فانك تمضى القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم نأمن أن يأمرك بامضائها كلها فتقع فى الطويل العريض — فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره فى اسقاط التوقيعات وقد كان الحواشى سبقوا اليه بالشكوى فقال له ارجع الى الخاقاني وابنه فما عرفاك انه بتوقيعهما أمضيته وما كان بتوقيع أصحابهما رددته — فأمر بجمع الرقاع وأنفذت الى الخاقانى وابنه فى السجن فأقر الخاقانى بصدور كلها عن اذنه فقامت قيامة على بن عيسى من ذلك الجواب واضطر الى امضاء الاكثر واسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة تشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقانى وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجئ

كان على بن عيسى رجلا عاقلا متدينا متصونا متعففا عارفا بالأعمال حافظا للاموال كثير الوقار والجد بعيداً من التبذل والهزل على شح غالب فى طباعه وتجهم ظاهر فى أخلاقه وعمد فى نظره الى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج والمضايقة فى الجارى والرزق ورد كثيرا مما وقع به الخاقانى من الاثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعادام فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه واستثقل أكثر الناس موضعه وضاقت صدورهم بنظره ووقع الشروع فى افساد أمره ورد ابن الفرات .

عرف الوزير مايجري من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعه بذلك الى السيدة أم المقتدر

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها وحراستها وأسبغ نعمه عليها وزاد فى احسانه اليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئة وفوائده السنية عندها وبلغها فى سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفى نفسها وفى الامراء استودعهم الله واستوهبه أيامهم كل سوء محذور ومخوف بمنه ورأفته . وصلت الرقعة أعز الله السيدة وعرفت ماتضمنت فأما الفتنة التى كانت ملتحمة مع أعظم الاعداء مضرة وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكلفت الاتفاق عليها وقت بتدبيرها حتى بلغ الله أمير المؤمنين والسيدة في جميعها المحبة وانتظمت فى صدور الاعداء شرقا وغربا الهيبة وما أنفقت مع ذلك من بيت مال الخاصة بعد الذى رددته اليه نصف عشر ما أنفقه محمد بن عبيد الله الخاقانى وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله فى أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفى بالله وكان من النظر فى القليل اليسير على ماعرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات فى أيام المعتضد بالله وما أقول قولا يدفع لان الدواوين تشهد به وحسبانات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد بالله والى هذه الغاية يعلمه وان سئل عنه صدق . هذا مع رفقى بالرعية وعمارتى النواحى المختلة وإزالتى عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت قلوب الرعية هيبة بعد ان كانت تثب على

الرؤساء وترمي بالحجارة على ما قيل لى عند اجتيازهم فى دجلة . وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها وبباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفا من هذه الاصناف يقدر أن يقول أنه قبض فى وقت من الاوقات قبضا متصلا وليس يقول أحد منهم انه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شئ من رزقه ونزله وكذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم . وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة فى الاستحقاقات وانما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئا لكان ذلك واجبا صالحا ومتى كان الجند يوفون حتى لايكون لهم شئ متأخر ما كان هذا فى زمن من الازمان وما تركت ان قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه الله في ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم موسى مرة بعد مرة فيه وأما ماقيل للسيدة أعزها الله فى استعفائى فلم أستعف نصا ولو حملت الرماد على رأسي لما تكرهت ذلك ولا تأبيته وانى لألزم نفسي الصبر على كل نائبة في خدمة سيدنا أمير المؤمنين أيده الله وأرى ذلك ديانه ولكنى أعز الله السيدة أضجر كما يضجر الناس اذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدي فى النصيحة وتأدية الأمانة فان كان ذلك واقعا موقعه فهو الذى أقصد وان كان يظن بى غير ما أنا عليه فهى المصيبة وقد يحرم الانسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعنى وما يحل لى أن أؤخر الصدق فى جميع الاحوال قاضيا بذلك حق الله عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحق السيدة أعزها الله وأسأل الله أولا وآخرا أن يصلح لهما أمورهما

ظاهرا وباطنا صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه

وانما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء فى سياسة المملكة. ان على بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله فى وزارته هذه ان أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الاهواز وحصن مهدى ونهر السدرة وكان يعترض فى هذه المواضع على ما يجهز الى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية فى ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديوانا سماه ديوان البر . ولما كان بمكة وجد الماء ضيقا على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة اليها فابتاع عددا كثيرا من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئرا عظيمة فخرجت عذبة شروبا وسماها الجراحية . وابتاع عينا غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به الى أهل الضعف والمسكنة

ومع كل ما أجراه من الاصلاح فان حكومة النساء لم تتركه هادئ البال . قرب عيد الأضحى واحتيج الى ماجرت العادة باطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة فى آخر ذى القعدة مخاطبة فى ذلك ومقررة للامر فيه وكان محتجبا فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذرا لطيفا وصرفها

صرفا جميلا فغضبت وانصرفت وأعلم على بن عيسى خبرها فى حضورها وانصرافها فأنفذ اليها واستعذرها فلم تعذر وصارت الى المقتدر بالله والى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك الى القبض عليه فى يوم الاثنين ثامن ذى الحجة سنة ٣٠٤ فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و٢٨ يوما

وفى يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه الى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من الضياع والاموال فارتجع ما كان حصل فى أيدى الناس القواد وخواص الدولة من ذلك

وكان قد تعهد وهو فى السجن انه متى رد للوزارة أطلق للولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التفاريق مثل ما كان يطلقه فى وزارته الاولى تماما وادرارا وأن يحمل الى المقتدر كل يوم ألف دينار والى السيدة والامراء ٥٠٠ دينار فوفى بما تعهد به

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطا وضياعها بمال يخرجه ضمنه اياها على بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم ان حامد بن العباس يربح منها ربحا كثيرا فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه الى غيره وكان بواسط قسيم الجوهرى يشرف للسيده أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيبسطه فاتفقا على أن قسيما يسفر له فى نيل الوزارة فذهب قسيم الى بغداد وخاطب نصرا الحاجب فى ذلك وأطمعه فى حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضا

ووافق هذا القول والسعي سوء رأى نصرا الحاجب فى ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقيعة فيه وقول الناس انه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الاعمال الى غير ذلك من الوشايات التى تروج فى حكومة النساء فاتفق الامر على اصعاد حامد وتوليته الوزارة فأرسل اليه فحضر وفى يوم حضوره قبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الاولى سنة ٣٠٦ وكانت مدة وزارته هذه الدفعة سنة وخمسة أشهر و١٩ يوما

حامد بن العباس

لم يكن لحامد من الخصال مايؤهله للوزارة فظهر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه الى الجهل بأمور الوزارة فأمر باطلاق على بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه فى الامور ويصدر عن رأيه ثم انه استبد بالامر دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما

هذا وزير بلا سواد   وذا سواد بلا وزير

ثم ان حامدا أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته على بن أحمد المادرئى ليصحح عليه الاحوال فلم يقدر على اثبات الحجة عليه فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام اليه فلكمه وكان حامد سفيها فقال له ابن الفرات أنت على بساط السلطان وفى دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أو غلة تستفضل فى كيلها ولا هو مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيع اللؤلؤى قل لأمير المؤمنين عنى ان حامدا انما حمله على الدخول فى الوزارة وليس من أهلها انى أوجبت عليه أكثر من ألفى ألف

دينار من فضل ضمانه وألحت عليه فى مطالبته بها فظن انها تندفع عنه بدخوله فى الوزارة وانه يضيف اليها غيرها فاستشاط حامد وبالغ في شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده الى محبسه وقال على بن عيسى ونصر الحاجب لحامد قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطانا لا ينام

ولما رأى حامد انه لا عمل لهمع على بن عيسى شرع فى عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستحدثة والقراتية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والاهواز وأصبهان واستأذن فى الانحدار الى واسط ليدبر أمر ضمانه الاول فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلى بن عيسى يدبر الامور وأظهر حامد زيادة ظاهرة فى الاموال فسر المقتدر وبسط يد حامد فى الاعمال حتى خافه علي بن عيسي ثم ان السعر غلا ببغداد فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر باحضار حامد ابن العباس فحضر فعاد الناس الى شغبهم فأنفذ حامد جندا لمنعهم فقاتلتهم العامه وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئا فانفذ المقتدر جيشا قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بابواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدى من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التى لحامد ولأم المقتدر وغيرهما وبيع ما فيهما فرخصت الاسعار وسكن الناس وأفهم علي بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الاسعار انما هو ضمان حامد لانه منع من بيع الغلال فى

البيادر وخزنها فامر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر على بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس

ضج الاولاد والحرم والخدم والحشم الى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فان على بن عيسى كان يؤخرها فاذا اجتمع عدة شهور اعطاهم بعضا وأسقط بعضا وحط من أرزاق العمال فى كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الامر شيء غير لبس السواد وأنف من اطراح على بن عيسى لجانبه فاستاذن حامد وسار الى واسط . وجرى بين حامد وبين مفلح الاسود كلام فقال حامد لقد هممت أن أشترى مئة خادم أسود وأسميهم مفلحا فحقدها عليه مفلح وكان خصيصا بالمقتدر فسعي ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن اموالا جليلة وكتب على يده رقعة يقول ان تسلم الوزير وعلى بن عيسى وابن الحوارى وشفيعا اللؤلؤي ونصرا الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يستخرج منهم سبعة آلاف الف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فاصاب ذلك السعي وقبض على على بن عيسى فى ربيع الآخر سنة ٣١١ واطلق ابن الفرات وعهدت اليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زى راهب وخرج من مكانه الذى اختفى فيه ومشي الي نصر الحاجب وساله ان يوصل حاله الى الخليفة فدعا نصر مفلحا فلما حضر ورأى حامدا قال أهلا بمولانا الوزير أين مماليكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحا ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سلم الى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحسن ابنه وكان وقحا سيئ الادب

ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعذب حامدا بانواع العذاب واخيرا انفذه الى واسط ليبيع املاكه بها ثم دس من سمه فى الطريق فمات وظهر فى هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة مانكب الناس وصادرهم وعذبهم بانواع العذاب لاستخراج اموالهم حتى مات اكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها وصادف ذلك ان وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج وضاعفت المصائب على اهل بغداد رؤساؤهم تقتل وحجاجهم تنهب وتموت عطشا ولا مدافع ولا محام فكثر الارجاف على ابن الفرات واخيراً صدر الامر بالقبض عليه فى ثامن ربيع الاول سنة ٣١٢ بعد ان استقر فى هذه الوزارة الاخيرة عشرة اشهر وثمانية عشر يوما فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن . وتولى الوزارة

عبدالله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان

بعد ان تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفى الف دينار فكان ذلك سببا لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن با واع العذاب ليجيب الى مصادرة يبذلها فلم يجبهم الي دينار واحد وقال لا اجمع لكم بين نفسى ومالى واشتد عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر امر بحمله مع ابيه الي دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل ٧١ سنة وعمر ولده المحسن ٣٣ سنة وكان ابن الفرات يقول ان المقتدر يقتلنى . عاد يوما وهو مفكر كثير الهم فقيل له في ذلك فقال كنت عند امير المؤمنين فما

خاطبته فى شئ من الاشياء إلا قال لى نعم فقلت له الشئ وضده ففى كل ذلك يقول نعم فقيل له هذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول فقال لا والله ولكنه أذن لكل قائل وما يؤمننى أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم والله انه قاتلى . وكان ابن الفرات كريما ذا رياسة وكفاية فى عمله حسن السؤال والجواب ولم يكن له سيئة إلا ولده المحسن

لم يكن الوزير الخاقانى بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع الى المقتدر رقعة من أبى العباس الخصيبى يذكر معايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الاموال وطمع العمال ثم ان الوزير مرض فوقفت الاحوال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل اليه المقتدر فى ذلك فلم يقدر على شئ فعزل فى رمضان سنة ٣١٣ وولى الوزارة

أبوالعباس الخصيبى

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فانه كان شروبا فكان يصبح سكران لا قصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها فضاعت الاموال وماتت المصالح ثم انه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من الاشغال وكل الامور لنوابه وأهمل الاطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية على بن عيسى فقبض عليه فى ذى القعدة سنة ٣١٤ بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا واستدعى على بن عيسى من مكة وكان بها مقيما ليدبر أمر الوزارة وأمر عبيد الله بن محمد الكلوذانى بالنيابة عن على بن عيسى الى أن يحضر فسار على بن عيسى فحضر بغداد فى أول سنة ٣١٥ وبه صلحت الاحوال

نوعا وكان من أقوم الاسباب فى ذلك أن الخصيبي كان قد اجتمع عنده رقاع المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والاهواز وفارس والمغرب فنظر فيها على وأرسل فى طلب تلك الاموال فأقبلت اليه شيئا بعد شئ فأدى الارزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لايحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو فى المهد فان آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الاعمال بنفسه ليلا ونهارا واستعمل العمال فى الولايات واختار الكفاة ومع ما أظهره من الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لانه كان يرى ان الاصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد فى النفقة ونفقة الخدم والحرم ولاسيما أم المقتدر كانت هائلة فلا بد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس على بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصبر وقال أنت عندى بمنزلة والدى المعتضد فألح فى ذلك ومع ان الرجل كان يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبى سوء الحال فى تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية ان ينيله هذه الراحة فى خروجه فأمر المقتدر فى منتصف ربيع الاول سنة ٣١٦ بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولى الوزارة

أبو على بن مقلة

وكما كانت لابى على يد ماهرة فى الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة فى أخذ الرشا على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد

مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك الى عزل ابن مقلة فى آخر جمادي الاولى سنة ٣١٨ وقبض عليه بعد سنتين واربعة اشهر وثلاثة ايام واستوزر

سليمان بن الحسن

ولما لم يكن المقتدر ميالا لسليمان وانما رضيه تبعا لرأى مؤنس امر على بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وان لا ينفرد عنه سليمان بشئ وصودر ابن مقلة بمئتى الف دينار

لم تطل هذه الوزارة كثيرا لان الاحوال ضاقت على سليمان وكثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية به والضمان بالقيام بالوظائف وارزاق الجند وغير ذلك وكانت وزارته غير متمكنة لان علي بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الامور وافرد على بن عيسى بالنظر فى المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فانه كان يقيم من قبله من يشترى توقيعات ارزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ماهم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك ادرارات الفقهاء وارباب البيوت فكانت احواله رديئة وادى ذلك الى القبض عليه لثلاث بقين من رجب سنة ٣١٩ بعد سنة وشهرين واستوزر

أبو القاسم الكلوذانى

ولم تكن وزارته أيضاً عن رغبة المقتدر بل عن رأى مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل

والغباوة وذلك انه كان ببغداد انسان يعرف بالدانيالى وكان زراقا ذكيا محتالا وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه مايشبه الخط العتيق ويذكر فيه اشارات ورموزا يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير . توصل الى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه فى كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول انه يوزر للخليفة الثامن عشر من بنى العباس وتستقيم الامور على يديه ويقهر الأعادى وتتعمر الدنيا فى أيامه وجعل هذا كله فى جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك الى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الاسود فاخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له أتعرف فى الكتاب من هو على هذه الصفة فقال ماأعرفه الا الحسين بن القاسم فقال المقتدر صدقت وان قلبى لىميل اليه فان جاءك رسول برقعة منه فاعرضها علىّ واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً وذهب الدانيالى الى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة الي مفلح فاوصلها الى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن انه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئا من بيت المال الخاص فعزل الكلوذانى في رمضان سنة ٣١٩ بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها

الحسين بن القاسم

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوى التدبير فضاقت عليه الاحوال وكثرت الاخراجات فاستسلف جملة وافرة وأطلع المقتدر على اضطرابه فعزله فى ربيع الآخر سنة ٣٢٠ بعد سبعة أشهر واستوزر

أبا الفتح الفضل بن جعفر وهو آخر وزرائه

تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثا وكانت تنال بالرشوة ودخل فى أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى فى العمل كثيرا لان مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون الا اذا حوبوا بالاموال الكثيرة التى بها تفسد المالية وتختل موازنتها فتى حصل التقصير فى ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان مايقبض على الاول ويصادر ويعين الثانى وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها فى نظر العامة ولا فى نظر متغلبى الاطراف حرمة

وليس ذلك كل ماأسقط أمر الدولة فى عهد المقتدر بل أضيف الى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الاخلال بالامن فى العراق والحجاز

أمر القرامطة

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى فقتل سنة ٣٠١ بعد أن استولى على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابى وكانت له غزوات متتابعة الى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته لها سنة ٣١١ فانه سار اليها فى الف وسبع مئة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها وأقام بها سبعة عشر يوما يحمل منها مايقدر عليه من المال والامتعة والنساء والصبيان ثم عاد الي بلده ومنها توجه الى طريق الحاج ليلقاهم عند

رجوعهم الى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقى الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فني زادهم فارتحلوا مسرعين الى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الامتعة والاموال والنساء والصبيان ثم عاد الجنابي الى هجر وترك الحاج في مواضعهم فمات اكثرهم جوعاً وعطشا من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله فى الوقت الذى قتل فيه المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على السنتهم

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فاطلقهم وطلب ولاية البصرة والاهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيبانى متقلدا أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفاً من أبي طاهر ومعه الف رجل من بنى شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلطان ومعهم ستة آلاف رجل فلقى أبو طاهر القرمطي جعفر الشيبانى فقاتله جعفر فبينما هو يقاتله اذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهزم من بين أيديهم فلقى القافلة الاولى فردها الى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر الى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفه وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهارا فيقيم فى الجامع الى الليل ثم يخرج فيبيت فى عسكره وحمل منها ماقدر على حمله من الاموال والثياب وغير ذلك ثم عاد الى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا

ان يهجم القرامطة عليهم

وفى سنة ٣١٥ سار أبو طاهر نحو الكوفة فامر المقتدر يوسف بن أبي الساج أن يسير اليها لحمايتها من القرامطة وقد أعد له بالكوفة الانزال له ولعسكره فسبقه اليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن وكانت شيئا كثيرا ووصل يوسف بعد ابى طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل الى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم الى طاعة المقتدر فان أبوا فموعدهم الحرب يوم الاحد فقالوا لاطاعة علينا الا لله والموعد بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال ان هؤلاء الكلاب بعد ساعة فى يدى وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاونا بهم ثم زحف الناس بعضهم الى بعض واستمر القتال الى غروب الشمس فلما رأى ابو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك الي بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفا شديدا وعزموا على الهرب الى حلوان وهمذان وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة الي بغداد ووصل الخبر بان القرامطة قد ساروا الى عين التمر فأنفذ من بغداد خمس مئة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش الى الانبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك . ثم ان القرامطة قصدوا الانبار ولما وصلوها نزلوا غربى الفرات لان أهل الانبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ ابو طاهر أصحابه الى الحديثة فجاؤه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلاث مئة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة

الانبار وعقدوا الجسر وعبر عليه ابو طاهر ولكنه خلف عظم جيشه فى البر الغربى ولما ورد الخبر بعبور ابى طاهر الى الانبار خرج نصر الحاجب بجيش جرار فلحق بمؤنس المظفر فاجتمعا فى نيف وأربعين الف مقاتل وكان هذا الجيش مضطربا فى مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لو دبروا جيشهم تدبيرا حسنا أن يأخذوا أباطاهر الذى كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد الى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغنموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف بن أبى الساج ففشلوا وانهزموا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك أن أمر ابو طاهر بقتل يوسف وجميع الاسرى وكانت عدة القرامطة فى هذه الخرجة ٢٧٠٠ ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن الله نيفا وثمانين الفا يعجزون عن ٢٧٠٠ . وجاء انسان الى على بن عيسى الوزير وأخبره ان فى جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالاخبار فاحضره وسأله فاعترف وقال ماصحبت أبا طاهر الالما صح عندى انه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ماليس لكم ولا بد لله من حجة فى أرضه وإمامنا المهدي محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد الغرب ولسنا كالرافضة والاثنى عشرية الذين يقولون بجهلهم إن لهم إماما ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم انه لايجوز أن يعطى من العمر مايظنونه . فقال له الوزير قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك فقال وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أن أسلم قوما مؤمنين الى قوم كافرين

يقتلونهم لاأفعل ذلك فامر به فضرب ضرباً شديداومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام

أما أبو طاهر فانه سار من الانبار وعثى فى أرض الجزيرة نهبا وقتلا الا من اعتصم منه بالامان والفدية وجيوش السلطان لاتؤثر فيها أثراً وتخاف ان تقدم عليه فلما تم له ماأراد من الجزيرة عاد الى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد ان أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم

وكانت هذه الانتصارات سببا فى ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفا فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة اكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلا يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها فى جمع كثير وولوا أمرهم رجلا يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون الى المهدى وسار عيسى الى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث الى أعمال الموفقى وبنى بها دارا سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينهبون ويقتلون ويسبون . فارسل المقتدر الي حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب والى عيسي بن موسى ومن معه بالكوفة صافيا البصرى فأوقع كل منهما بمن أرسل اليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى الله الناس شرهم وان كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى واتلاف المزارع

وفى سـنة ٣١٧ فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك انه سار بجنده الى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتـلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه وقلع الحجر الاسود وأنفذه الى هجر فخرج اليه أمير مكة فى جماعة من الاشراف فسألوه فى أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتـلى فى بئر زمزم ودفن الباقين فى المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخـذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة . ولم يحصل فى التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت الى هذا الحد حتى ان المهدى عبيد الله العلوي لما علم ذلك كتب الى ابن طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول قـد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا إسم الكفر والالحاد بما فعلت وان لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الاسـود الى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة فلما وصله هـذا الكتاب أعاد الحجر الاسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال ان الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم

المتغلبون وما كان منهم

فى عهد المقتدر اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة وهذا نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل

ففى الاندلس قام رجل الدولة الاموية عبد الرحمن الناصر وتسمى

باسم أمير المؤمنين لانه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الاموية من أمر الخلافة الاسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبعد الصيت حتى رهبته ملوك الافرنجة والروم وهادوه وأرسلوا اليه السفراء وكذلك فعل هو معهم

وفى افريقيـة قامت الدولة العـلوية ومحت فى طريق غلبتها دولة الادارسة من المغرب الاقصى والاغالبة من افريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التى أسسها عبيد الله المهدى بالقـرب من القيروان وكانت همتـه بعد ذلك موجهة الى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولـكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها

وفى البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت العراق دائما على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقا آخر الى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة

وفى خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتى فى تاريخهم

وفى الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولـكن لم يتمكن سلطانهم فى عهد المقتدر

أما ما فعله الروم بثغور المسلمين فى هـذا العهد فهو فى غاية الشنعة ففى سنة ٣٠٣ أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن امام الروم من الجيوش من

يصدهم لانهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التي كانت متوالية

وفي سنة ٣٠٥ وصل رسولان من ملك الروم الى المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأكرما إكراما كثيراً وأدخلا على الوزير وهو في أكمل أبهة وقد صف الاجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم انهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الاجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر الى ما طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنسا الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على مايريد الى أن يخرج منه وسير معه جمعا من الجنود وأطلق لهم أرزاقا واسعة وأنفذ معه مئة وعشرين الف دينار لفداء أساري المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه

ولم يدم هذا الصفاء طويلا بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالا وكلما كان يجتمع عند الطرفين اسرى يحصل الفداء كالعادة

وفي سنة ٣١٣ كتب ملك الروم الى اهل الثغور الاسلامية يأمرهم بحمل الخراج اليه فان فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال انني صح عندي ضعف ولاتكم فلم يفعلوا فسار اليهم واخرب البلاد ودخل ملطية سنة ٣١٤ فاخربها وسبى منها ونهب واقام فيها ستة عشر يوما ولما راى اهل ملطية ماحل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة

وفي سنة ٣١٥ خرجت سرية من طرسوس الى بلاد الروم فوقع عليها العدو واسروا من المسلمين اربعمئة رجل فقتلوا صبراً . وفيها سار الدمستق في جيش عظيم من الروم الى مدينة دبيل وهي قاعدة ارمينية

وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها احد من شدة النار فكان ذلك أشد شئ على المسلمين حتى أصيب الرامى بسهم من سهام المسلمين نخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسى عال يشرف على البلد وعلى عسكره فامرهم بالقتال على مايراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا الى سور المدينة فنقبوا فيها نقوبا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالا شديداً حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل . وكانت هذه السنة سنة نجاح للمسلمين على الروم

وفى سنة ٣١٩ اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وأنقره والفضل فى ذلك كله يرجع الى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه نمل وكان والى الثغور فامكنه بما أوقعه من الرعب فى قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد ان كادت تذهب من صدور الروم بمرة

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر في جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لانه حكم فيها النساء والخدم وبذر فى الاموال تبذيرا مفظعا وكان يعزل الوزراء ويولى غيرهم بما يقدم من الرشا له ولأمه ولقهرمانته ولخدمه ولا ياخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولا ثم حاجة من ولاه لا يسألون أجاءت تلك الاموال من ظلم أو عدل وهذا نهاية الفساد فى الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها

قتل المقتدر

كان فى دولة المقتــدر قائدان هما فى أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيوش وعليه المعول فى تسييرها ويليه فى المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما شيء من المنافسة

ففى سنة ٣١٩ قوي أمر محمــد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم اليه رجال فقوى بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فاجابه المقتدر وصرف محمدا عن الحجبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدهما عن الحضرة فأخرجا الى المدائن حسبما طلبه مؤنس وولى بدلهما ابراهيم ابن رائق وأخاه محمــدا الحجبة والشرطة وهــذا كان بدء الوحشــة بين المقتــدر ومؤنس ومتي وجــدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم فى النفوس أكبر الآثار

بلغ مؤنسا أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد فى التدبير عليه فتنكر له مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب الى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فبقى الحسين فى الوزارة وكتب الى هرون بن غريب أحد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر الى بغداد وكذلك كتب الى محمد بن ياقوت يستقدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنــده أن الحسين يسعى فى التدبير عليه ثم صح عنــده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية فى دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاما له الى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها اليه فأبى فسبه الوزير وشتم صاحبــه وأمر بضربه وصادره بثلاثة مئة ألف دينار

وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلما بلغ مؤنسا الخبر سار نحو الموصل في أصحابه ومماليكه وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد في محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم وتمكن من الوزارة وولى وعزل

أما مؤنس فانه استولى على الموصل من يد بني حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج اليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لاحسانه كان اليهم وعاد اليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه . فلما اجتمعت اليه العساكر انحدر الى بغداد في شوال سنة ٣٢٠ فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالا عظيما الا أنه لم يشبعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس في طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف في قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل الى واسط فرده ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم اليه فرجع الى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه اليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريم مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله اليهم فلقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الارض وقال له أين تمضي ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط الى الارض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على

خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا جميع ماعليه حتى سراويله وتركوه مكشوفا الي أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٣٨ سنة ثم تقدم مؤنس وأنفذ الى دار الخليفة من يمنعها من النهب

(١٩) القاهر

هو أبو منصور محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية اسمها قتول بويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع فى ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ (٢٣ ابريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ماعدا أحمد ابن اسماعيل الساماني

كيف انتخب

لما قتل المقتدر كان من رأى مؤنس اقامة ولده أبي العباس أحمد وقال انه تربيتي وهو صبي عاقل وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول فاذاجلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر واخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح فى قتل المقتدر عنزان فاعترض عليه أبو يعقوب اسحاق ابن اسمعيل النوبختي وقال بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود الى تلك الحال والله لا نرضى الا برجل كامل

يدبر نفسه ويدبرنا وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له محمد بن المعتضد وهو أخو المكتفي فأجابه اليه على كره منه فانه كان يقول انى عارف بشره وسوء نيته ولكن لاحيلة . فبايعوه واستحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلي بن بليق وأخذوا خطه بذلك واستقرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أبا على بن مقلة واستحجب علي بن بليق

الحال فى عهد القاهر

كان القاهر كما قال مؤنس شريرا خبيث النية فانه فى أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت انه بقى مكشوفا جزعت جزعا شديدا وامتنعت من الاكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها النساء حتى أكلت شيئا يسيرا من الخبز والملح . أحضرها القاهر عنده وهى على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشئ من المال والجوهر فضربها أشد مايكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت انها لاتملك غير ما أطلعته عليه وقالت لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ولم تعترف بشئ ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول انها قد حلت أوقافها ووكلت فى بيعها فامتنعت من ذلك وقالت قد وقفتها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفى والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها وانما أوكل فى بيع أملاكى فلما علم القاهر بذلك أحضر

القاضي والعدول وأشهدهم على نفســه أنه قد حل وقوفها جميعها ووكل فى بيعها فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم . ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع فى التاريخ مايقارب فعل القاهر نذالة وجبنا وخسة وشراهة نفس

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمـد بن ياقوت وابنا رائق وهارون بن غريب ومفلح وعبدالواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الامان لنفسه ويبذل مصادرة ثلاث مئة الف دينار على أن تطلق له املاكه فاجيب الى طلبـه وتم رفقاؤه سائرين الى السوس وسوق الاهواز فاقاموا بالاهواز وطردوا عمـاله فجهز اليهم مؤنس جيشا أخرجهم منها ثم طلبوا اليه الأمان فأمنهم وتوجهوا معه الى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فعلظ ذلك على الوزير ومؤنس المظفر وبليق الحاجب وابنه لانهم ماحاربوا المقتدر الا من أجله وثبت عندهم ان محمد بن ياقوت يدبر عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوسا بدار الخلافة كوالدة المقتدر التي اشـتد عليها المرض مما نالها من الضرب وعـلم القاهر ان العتاب لا يفيـد فاخذ فى التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية فافسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقلة به ووعده الوزارة محله فـكان يكاتب القاهر بجميع الاخبار .

أما هؤلاء الخصوم فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولـكنهم لم يبدوا شيئا من الحـكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأي الوزير ان يظهروا

ان أبا طاهر القرمطى ورد الكوفة وان على بن بليق صائر اليه ليمنعهامنه فاذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه فكتب ابن مقلة الى الخليفة بما اتفقوا على اخباره به ولكن لم يتم ذلك لان الخبر جاء القاهر سرا بما دبر عليه فاحتاط لنفسه وأنفذ الي الساجية فأحضرهم وفرقهم فى دهاليز الدار مستخفين فلما جاء ابن بليق وطلب الاذن لم يؤذن له ورد ردا قبيحا من الساجية فخرج هاربا من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال لابد من المضى الى دار الخليفة حتى أعلم سبب مافعل بابنى فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس فلما حضر أمر القاهر فقبض عليه وقبض كذلك على احمد بن زيرك صاحب الشرطة ثم أرسل الى مؤنس فى داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفي الوزير ابن مقلة وأمر القاهر بالختم على دور مؤنس وبليق وابنه على وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون ونقل دوابهم ووكل بحرمهم وأمر باحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجبة

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الاعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعا فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ماعلموا معه أنهم لا يسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم

ومن الغريب ان القاهر بعد أن تم له ماأراد أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبكرى الذى كان من قواد مؤنس فخانه

بقى من أعداء المقتدر الوزير ابن مقلة فانه كان مستترا لم يظهر عليه وكذلك الحسن بن هرون فكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويخوفانهم

من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مرة وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلا تارة فى زى اعمى وتارة فى زى مكد وتارة فى زي امرأة ويغريهم به حتى ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحفوا الى الدار وهجموا عليها من سائر الابواب فلما سمع القاهر الاصوات والجلبة استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فلم يجده فقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للمعايب والقبائح ومن ذلك عدا ماتقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الانبذة وأما الجوارى والمغنيات فامر ببيعهن على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم وضع له كل من يشترى كل حاذقة فى صنعة الغناء فاشترى منهن ماأراد بأرخص الاثمان وكان القاهر مشتهرا بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقا الى تحصيل غرضه رخيصا نعوذ بالله من هذه الاخلاق التى لا يرضاها العامة من الناس

(٢٠) الراضي

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن أبى احمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها ظلوم ولد سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى ٥ جمادى الاولى سنة ٣٢٢ (٢٣ ابريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليفة الى أن توفى فى منتصف ربيع الاول سنه ٣٢٩ (٨ دسمبر سنة ٩٤٠) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام

كيف انتخب

لما قبض القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذى فيه أبو العباس

ابن المقتدر فدلوهم عليه وكان هو ووالدته محبوسين فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلموا عليه بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الاربعاء لست خلون من جمادى الاولى ولقبوه الراضى وبايعه القواد

الحال فى عهده

كانت الحال تزيد ادبارا وانتكاسا واضطرابا فى عهده فأصحاب السلطان فى العراق يتنافسون ويقتتلون والدين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون . فدولة الاندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى أعلن فى بلاده أنه أمير المؤمنين بعد ان لم يكن سلفه يتسمون بذلك وانما كانوا يسمون بالائمة . والدولة العبيدية فى المغرب والمهدية قد اشتدت وطأتها وهى آخذة فى العلو وتحاول الاستيلاء على مصر . وبنو بويه ظهروا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والاهواز . والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الاسلامية وغزو الثغور وأهل بغداد مع هذا كله مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما فى أيديهم من البلاد العراقية كما ترى

كانت الكلمة العليا فى اول عهد الراضى لوزيره ابن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان كان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد . فى سنة ٣٢٣ نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم فى البلاد بأسرها وانه هو لم يعد بيده شئ فسعى به الى الراضى وأدام السعاية فبلغ ماأراده ففى خامس جمادى الاولى ركب جميع القواد الى دار الخليفة حسب عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه

المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد فى الحبس ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد انه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه . ظن ابن مقلة ان الوقت قد صفا له بحبس ابنى ياقوت وانه لم يعد له منافس فى سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذي أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فان المظفر كان يظن ان ابن مقلة سم أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقلة فقبضوا عليه وأرسلوا الى الراضي يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيراً فرد الاختيار اليهم فاختاروا للوزارة على بن عيسى وعرضوها عليه فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضي وسلم اليه ابن مقلة فصادره

رأي عبد الرحمن أنه لا يمكنه ادارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفي فلم يقبل الراضي منه وقبض عليه وصادره على سبعين الف دينار وصادر أخاه عليا على مئة الف

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخي فرأى قلة الاموال وانقطاع المواد فازداد عجزا الى عجزه وضاق عليه الامر وما زالت الاضاقة تزيد وطمع من بين يديه من العاملين فيما عنده من الاموال وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط الى بغداد وقطع البريدى والى الاهواز ما كان يحمل من الاهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيبته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما استتر استوزر الراضي أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان فى الوزارة كابى جعفر فى وقوف الحال وقلة المال

ولما رأى الراضي ذلك أضطرته الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعا فقلده الراضي لقب أمير الامراء وولاه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين وأمر بان يخطب له على جميع المنابر وأنفذ اليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد اليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الامور وانما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الامور جميعها وكذلك كل من تولى أمرة الامراء بعده وصارت الاموال تحمل الى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة مايريدون وبطلت بيوت الاموال وتغلب أصحاب الاطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم

كتب ابن رائق كتابا عن الراضي الى أبي الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيرا وكان يتولى الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه اذا استوزره جبي له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعا

فكر ابن رائق فيما بيد ابي عبدالله البريدى من بلاد الاهواز وأشار على الراضي بالانحدار معه الى واسط ليقرب من الاهواز ويراسل البريدى فان أجاب الى مايطلب منه والاقرب قصده عليه فأجاب الراضي وانحدر معه الى واسط ثم تهيأ للمسير الى الاهواز ولما علم بذلك البريدى جدد ضمان الاهواز كل سنة بثلاث مئة وستين الف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضي الى ذلك وعاد الى بغداد ولكن البريدى لم يحمل مما

ضمن ولا ديناراً واحداً

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدي وعدم التمكن من قهره ففكر في أنه يستوزره فكتب اليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائبا عنه في الوزارة فأجاب وأرسل أحمد بن على الكوفى نائبا عنه فسارت أمور البريدى ببغداد على ما يروق وضمت البصرة التى كانت في يد ابن رائق الى أبي يوسف بن البريدى أخي أبي عبدالله فصار بيد البريديين الاهواز والبصرة وأرسل الى البصرة جندا للاستيلاء عليها وكان ذلك سببا لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدى حيث رأى الاول أنه زاد البريدى سلطانا على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئا ما ففكر في ارسال جند الى الاهواز لقتال البريدى فاختار رجلين لقيادة الجند أحدهما بدر الخرشنى والثاني بجكم الديلمى فسار بجكم بالجند الى السوس واستولى عليه بمن معه من الاتراك والديالمة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبدالله البريدى ركب هو واخوته ومن يلزمه السفن وأخذ معه ما بقى من الاموال و ٣٠٠ ألف درهم فغرقت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا الى الابلة فأقام بها وكتب الى رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جدا في مقاومته فصاروا كلما جهز اليهم جندا هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه الى واسط وكتب الى بجكم وهو في الاهواز مستول عليها يأمره باللحاق به فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاوموهم مقاومة عنيفة حتى ردوهم منهزمين . ورأى البريدى انه لا بد له من معين على ابن رائق وبجكم فسار الى عماد الدولة ابن بويه

وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه فسير معـه أخاه معز الدولة فاستولى على الاهواز بعد ان حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم الي واسط . لم يستمر الصفاء بين البريدى ومعز الدولة لان كلا طامع يريد أن يمكر بالثاني وكانت نتيجة المنافسة بينهما ان أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجنـد يسابور وبقيت الاهواز بيـد البريدى ولم يبق بيد معز الدولة الا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الاهواز وأجلى عنها البريدي الى البصرة

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال ادبار لان بجكم منع عنه مال واسط ولم يرسل اليه شيئا وكان يميل الى أن يحل محل ابن رائق فى امارة الامراء ببغداد وكان يسعى له فيها ابن مقلة وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقله ما استقر عليه الامر لبجكم فسار من واسط نحو بغداد فى غرة ذى القعدة سنة ٣٢٦ ولم يزل حتى ورد بغداد فقاتلته الجنود الرائقية ولكنهم انهزموا عنه فدخل بجكم بغداد فى ١٣ ذى القعدة ولقى الراضى من الغد وخلع عليـه وجعله أمير الامراء فكتب الى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب اليهم العودة اليه ومناهم فجاءه أكثرهم وسقط ابن رائق بعد اماره استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و١٦ يوما واستتر عن العيون

فى أول سنة ٣٢٧ منع ناصر الدولة بن حمدان ما ضمنه من مال الموصل فسار اليـه الراضى هو وبجكم فأقام الراضي بتكريت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره . انتهز ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضى وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك الى

الاسراع بمصالحة ناصر الدولة بن حمدان على أن يعجل ٥٠٠ ألف درهم وعادا يريدان بغداد فراسلهما ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والاهواز من يد ابن بويه فاتفق مع البريدى أن يسير الى الاهواز وأمده برجال وأن يسير بجكم الى بلاد الجبل ولكن علم بجكم ان البريدى يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه فى المهالك وبعود هو الى بغداد ليكون أمير الامراء فبدلا من أن يسير الى بلاد الجبل سار الى واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدي

هكذا كانت مدة الراضى منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن تكون له امارة الامراء ببغداد والاعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يبق لها شئ من الهيبة ولا نفوذ الكلمة

ومما زاد الامر ادبارا ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وان وجدوا نبيذا أراقوه وان وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا من يمشى مع امرأة أو صبي سألوه عن الذى معه من هو فان أخبرهم والا ضربوه وحملوه الى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأرهجوا بغداد فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة ونادى فى جانبي بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم امام الا اذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين

فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون الى المساجد وكانوا اذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضى بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره فنه تارة انكم تزعمون ان صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والاصابع والرجلين والنعلين والشعر القطط والصعود الى السماء والنزول الى الدنيا تعالى الله عما يقولوا الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم الى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين الى الدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وانكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الانبياء وكرامات الاولياء فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهدا يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضربا وتشريدا وقتلا وتبديدا وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوز الامراء الى عامة الناس وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم إلا ذلوا وفشلوا

أمر القرامطة

لم تزل القرامطة على حالهم فى الافساد والعيث واعتراض الحجاج وفى سنة ٣٢٢ أرسل محمد بن ياقوت رسولا الى أبى طاهر يدعوه الى طاعة الخليفة ليقره على مابيده من البلاد ويقلده بعد ذلك ماشاء من البلدان ويحسن اليه ويلتمس منه أن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الاسود الى موضعه بمكة فاجاب أبو طاهر الى أنه لايعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب الى رد الحجر الاسود الى مكة وسأل أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر . فسار الحاج الى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطي . ولكنه في سنة ٢٢٣ اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة الى أبى طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا الى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسار أبو طاهر الى الكوفة فاقام بها عدة أيام ورحل عنها

وفي سنة ٣٢٦ أصابهم خلل وفساد فى سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبر وهو رجل كان من خواص أبى سعيد القرمطى والمطلعين على سره وكان له عدو من القرامطة يدعى أبا حفص فعمد ابن سنبر الى رجل من أصبهان وقال له اذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوى أبا حفص فاجابه الى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبى سعيد وعلامات كان يذكر انها فى صاحبهم الذى يدعون اليه فحضر عند أولاد أبى سعيد وذكرلهم ذلك فقال أبو طاهر هذا هو الذى ندعواليه فاطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان اذا كره رجلا يقول انه مريض يعنى انه قدشك فى دينه ويأمر بقتله وبلغ أبا طاهر ان الاصبهانى

يريد قتله لينفرد بالملك فقال لاخوته لقد أخطأنا فى هذا الرجل وسأ كشف حاله فقال له ان لنا مريضاً فانظر اليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بازار فلما رآها قال ان هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والافساد فيها

وفى عهد الراضى ظهرت الدولة الاخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الاخشيد بن طغج وهو من موالى آل طولون وكان ملكه مصر سنة ٣٢٣ واستمر الملك فى عقبه الى سنة ٣٥٨ وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم

(١)	محمد الاخشيد بن طغج	٣٢٣ — ٣٣٤
(٢)	أبو القاسم أنوجور بن الاخشيد	٣٣٤ — ٣٤٦
(٣)	أبو الحسن على بن الاخشيد	٣٤٩ — ٣٥٥
(٥)	أبو المسك كافور مولى الاخشيد	٣٥٥ — ٣٥٧
(٥)	أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد	٣٥٧ — ٣٥٧

وفى عهد الراضى مات عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمهديه وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان يحاول ملك مصر فلم يتمكن

ختم الراضى الخلفاء فى أشياء منها انه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل اليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين .

وفى أيامه حدث اسم أمير الامراء فى بغداد وصار الى أمير الامراء

الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء

وكان الراضي أديبا له شعر مدون يحب محادثة الادباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحا سخيا

توفى الراضى فى منتصف ربيع الاول سنة ٣٢٩ (١٨ دسمبر سنة ٩٤٠)

ابن الاثير

(٢١) المتقى

هو ابراهيم المتقى لله بن المعتضد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها خلوب بويع بالخلافة فى ٢٠ ربيع الاول سنة ٣٢٩ (٢٤ دسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفة حتى خلع فى ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ (١٢ اكتوبر سنة ٩٤٤) فكانت مدته ٤ سنوات و ١١ شهرا

كيف انتخب

لما مات الراضى كان بجكم بواسط فورد كتابه مع وزيره أبي عبدالله الكوفى يأمر فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفى فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته فجمعهم الكوفى واستشارهم فاتفقوا على ابراهيم بن المقتدر فبايعوه فى التاريخ السابق ولقب نفسه المتقى لله وسير الخلع واللواء الى بجكم بواسط

الحال فى عهده

كان بجكم أمير الامراء والتدبير كله الى وزيره أبى عبدالله الـكوفى وليس للخليفة ولا لوزيره سليمان بن الحسن شيء . لم يطل زمن بجكم فى الامارة فان البريدى كان لا يزال يمنى نفسه بالاستيلاء على بغداد فانفذ من البصرة جيشا الى المذار فانفـذ اليه بجكم جيشا يقوده قائد من كبار قواده اسمه توزون فالتقى الجيشان واقتتلا وكان النصر أولا لجيش البريدي فارسل توزون الى بجكم يطلب اليه أن يلحق به فسار اليه وصادف ان عادت الـكرة لتوزون فأرسل الى بجكم يخبره بالظفر فأراد الرجوع الى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد فسار حتى بلغ نهر جور وحينذاك اغتاله رجل من الاكراد الذين يسكنون هناك وكان قتـله مفرجا عن البريدي ومفيدا للمتقى لانه استولى على داره ومافيها من الاموال فبلغ ما ناله ألف ألف ومئتى دينار . وكانت مدة امارة بجكم سنتين وثمـانية أشهر

لمـا قتل بجكم انحدر الديلم الى البريدى فقوي بهم وعظمت شوكته فسار مريدا الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها فى ١٢ رمضان سنة ٣٢٩ ولقيه الوزير والقضاة والـكتاب وأعيان الناس فأنفذ اليه المتقى يهنئه بسلامته . ولم يتم له ما أراده من التأمير لان الاتراك والديالمة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد ان أقام بها ٢٤ يوما وحينئذ تقدم على الجند كورتكين الديلمى فسماه المتقى أمير الامراء وخلع عليه وكانت مدته مضطربة لان عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينكر كورتكين على جنده ما فعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولمـا رأى المتقى أن كورتكين ليس عنده من المنعة مايزيل به الاضطراب أرسل الى ابن

رائق وهو بالشام يطلب اليه الرجوع الى بغداد ليكون أمير الامراء فعاد . أما كورتكين فانه خرج اليه وقابله بعكبرا فوقعت الحرب بينهما عدة أيام وفى ٢١ ذى الحجة سار ابن رائق بجيشه ليلا فأصبح ببغداد وقابل المتقى . أما كورتكين فانه لما أحس فى الصباح بمسير ابن رائق تبعه الى بغداد وكانت عليه الهزيمة حين لاقته جنود ابن رائق فاختفى وأخذ ابن رائق من استأمن اليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو ٤٠٠ وحينئذ خلع المتقى على ابن رائق وسماه أمير الامراء

تجددت اطماع البريدى لما علم بضعف الديلم والاتراك بسبب ماقتل منهم ابن رائق فأرسل جنداً فى الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها وهرب المتقي وابنه وابن رائق الى الموصل أما أصحاب البريدي فانهم فعلوا ببغداد فعالا قبيحة قتلوا من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب فى بغداد ليلا ونهاراً وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الامر وغلت أسعار الحنطه والشعير وأصناف الحبوب وكان ذلك كله سببا لوقوع الفتن والاضطراب وفى آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلا ونهاراً واستتر أكثر العمال لعظيم ما طالبوا به مما ليس فى السواد وعلى الجملة فان هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدة

طلب المتقى من ناصر الدولة بن حمدان أن يعينه على البريديين فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته فلقيه هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما الى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق لانه يريد أن يحل محله فى امرة الامراء وقدكان ذلك فان المتقى خلع عليه وسماه

أمير الامراء فى أول شعبان سنة ٣٣٠ وخلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة

بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار الى بغداد معه المتقى ولما قاربها هرب عنها أبو الحسين بن البريدي وسار الى واسط بعد ان أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوما ودخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش كثيرة

ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لاخذها من البريدى فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى فالتقي به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدى شديدة حتى انه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد الى المدائن فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه الى واسط لما فى أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقووا سار سيف الدولة الى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين الى البصرة وأقام سيف الدولة بواسط وكان يريد المسير الى البصرة فلم يمكنه لقلة المال عنده فكتب الى أخيه فلم يسعفه فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة فى أخيه ناصر الدولة وكان القواد الذين معه من الاتراك قد قلت عندهم هيبته لقلة المال فثاروا به وكبسوه ليلا فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة بالخبر سار عن بغداد الى الموصل وترك امارة الامراء بعد ان أقام فيها ثلاثة عشر شهراً وخمسة أيام

اختار المتقى بعد رحيل ناصر الدولة لامارة الأمراء أكبر قواد الديلم واسمه توزون ولم يكن عنده شئ من حسن السياسة فاستوحش

منه المتقي وخافه على نفسه فرأى أن يسير الى الموصل مستعينا بالحمدانيين فبارح بغداد اليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقاتله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنها بنو حمدان والمتقي معهم الى نصيبين . ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة وبين الحمدانيين والمتقي من جهة على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة مابيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمئة ألف درهم وعاد توزون الي بغداد ولم يعد معه المتقي بل استمر في الموصل . ثم أرسل الى توزون يطلب منه أن يعود الى بغداد فأظهر توزون الرغبة في ذلك وحلف للمتقي أنه لا يغدر به فاغتر المتقي بتلك اليمين وسار الى بغداد فلقيه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له الارض وقال ها أنا ذا قد وفيت بيميني والطاعة لك ثم وكل به وبعد ذلك سمله وخلعه وبذلك انتهت خلافة المتقي

(٢٢) المستكفي

هو أبو القاسم عبدالله المستكفي بالله ابن المكتفي ابن المعتضد

لما قبض توزون على المتقي أحضر المستكفي اليه الى السندية وبايعه هو وعامة الناس

الدور الثاني

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه

يبتدئ هذا الدور من سنة ٣٣٤ الي سنة ٤٤٧ تولى الخلافة فيه خمسة

خلفاء وهم المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم

تاريخ هـذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقى والسلطان الفعلى فى العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلا نبين فيه أحوال الديلم وكيف تصرفت بهم الاحوال الى أن وصلوا الى ذروة العظمة باستيلائهم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة فى الجنوب الغربى من شاطئ بحر الخزر سهلها للجيل وجبالها للديلم وقصبتها روزبار

كانت فى القديم احدى الايالات الفارسيه الا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسى بل عنصر ممتاز يطلق عليـه اسم الديالمة أو الجيل . ولما أذن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه بالانسياح في بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين للحكم الاسلامي مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم . وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالاسلام وكان بين الديالمة والطبريين سلم وموادعة

على هذا كان الحال فى صـدر الدولة العباسـية فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج الى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل فى بلادهم حتى كانت حادثة اقطاع المستعين محمـد بن طاهر تلك القطائع التى يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الارض التى كانت مرافق لاهـل تلك النواحى فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لايتم الا أن يكون على رأسهم رجـل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد

الذى قدمنا حديثه فى خلافة المستعين وكان مقيما بالرى فراسلوه فأقبل اليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ماطلبوا من المساعدة لاساءة كانت من عمال ابن طاهر اليهم. استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الرى وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات سنة ٢٧١ ثم ولى أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه فى تلك البلاد سببا لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الاسلامية بينهم

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن على الملقب بالاطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم الى الاسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى فى بلادهم المساجد . وكان لآل سامان بازائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجيل — ثم انه جعل يدعوهم الى الخروج معه الى طبرستان فلا يجيبونه لاحسان عبد الله بن محمد بن نوح الذى كان أميراً على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق ان أحمد السامانى عزل عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم فهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد السامانى عبد الله بن محمد بن نوح فصلحت البلاد - ولما مات جاءها وال غيّر رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه اليهم ابن نوح فانتهز الحسن بن على الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم الى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان أكبر معينيه ليلى بن النعمان وما كان بن

كالى الديلميان وكانا من عظماء الديلم وقوادهم استولبا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن على الاطروش. وممن عرف اسمه فى تلك الوقائع الحسن بن القاسم الداعى العلوي وكان ختن الاطروش

توفى الاطروش سنة ٣٠٤ وكان يلقب بالناصر لله وكان له من الاولاد الحسن وأبو القاسم والحسين وكان الحسن مغاضبا له فلم يوله شيئا وولى ابنيه الآخرين فكانت طبرستان فى أيديهما بمعونة الحسن بن القاسم الداعى

وفى سنة ٣٠٩ قتل ليلى بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلى بلاد جرجان وكان أولاد الاطروش يكاتبونه المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلى بن النعمان وكان سبب قتله انه سار الى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان فى هذه الاغارة حتفه وانهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية الى جرجان وبها أبو الحسن بن الناصر فانهزم عنها الى استراباذ ثم فارقها وقصد مدينة سارية وجعل باستراباذ ما كان بن كالى وهو ثاني القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع اليه الديلم وقدموه وأمروه عليهم وكان على يديه اعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها

كان من أصحاب ما كان قائد ديلمى اسمه اسفار بن شيرويه وكان سيئ الخلق والعشرة فأخرجه ما كان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهو بكر بن محمد بن اليسع فأكرمه بكر وسيره الى جرجان ليأخذها من يد أبى الحسن بن كالى أخى ما كان وكان أخوه قد ولاه عليها وذهب الى طبرستان . وكان أبو الحسن قد اعتقل أبا على بن

الاطروش عنده فتمكن أبو على من الخلاص من هذا الاعتقال واغتال أبا الحسن بن ما كان وأرسل الى جماعة القواد يخبرهم بمقتله ففرحوا وبايعوا العلوي وألبسوه القلنسوة وكاتبوا اسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه اليهم فسار الى جرجان وضبطها وجاءه ما كان يحاربه فهزمه اسفار وصادف أن مات أبو على بن الاطروش وصفت جرجان لاسفار وأسفار هذا هو ثالث قواد الديلم . ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمرداويج بن زيار الجيلى يستدعيه لحضر عنده وجعله أمير الجيش وأحسن اليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعى وهو بالرى ومعه ما كان بن كالى فسار نحو طبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وما كان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لأسفار طبرستان والرى وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعا لصاحب خراسان وهو السعيد بن نصر السامانى وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهى قائمة على جبل شاهق فى حدود الديلم

عظمت جيوش [illegible] فتجبر وعصى على الامير السعيد صاحب خراسان وأراد [illegible] رأسه تاجا وينصب بالرى سرير ذهب للسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسير اليه المقتدر جيشا فحاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد الى نيسابور أدرك انه لا يمكنه أن يقاومه فراسله فى الصلح واتفقا على شروط منها حمل الاموال والخطبة باسمه في بلاده

وبينما هو فى ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار

وشق عصا طاعته واتحد مع سلار صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب أسفار . ومن حسن حظ مرداويج ان أكثر قواد أسفار كانوا ملوا تجبره وظلمه فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار سنة ٣١٦

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده واذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفا بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد الا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفا شديدا ودخلت في حوزته طبرستان وجرجان واجتهد ماكان بن كالي أن يدافعه عنهما واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم الى مرداويج من كل ناحية لبذله واحسانه الى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثر الخرج عليه فلم يكفه ما فى يده فذهب الى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره الى نواحي حلوان وهى أول حدود العراق

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والاهواز وأرسل الى المقتدر رسولا يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر الي ذلك وقوطع على مئتى ألف درهم كل سنة

فى سنة ٣٢٠ أرسل مرداويج الى أخيه وشمكير وهو ببلاد جيلان يستدعيه اليه فجاءه واعتز به . والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى يؤكد فى كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذى ألفه باسم شمس المعالي قابوس بن وشكمير ان هذه الأسرة من

أصل شريف الطرفين فأما أحد الاصلين فوردانشاه الذى لاتجهل سيادته فى الجيل وأما الاصل الآخر فلوك الجبال الملقبون بأصفهبذية طبرستان والفرجوارجرشاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل بيت الملك الى ما يجمعهم والا كاسرة فى شعب واحد فان خاله هو الاصفهبذ رستم بن شرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور بن كياس بن قباذ والد أنوشروان

ولما استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ماكان بن كالى وفارقوه لما ضاقت بهم الحال وهم على والحسن وأحمد أولاد بويه ساروا الى مرداويج ومعهم جماعة من قواد ماكان .

وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الاسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الاسلامية وهى التى تكون الدور الثانى من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالي فقد ذكر أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابى فى كتابه الذى سماه بالتاج ان بويه ينتهي نسبه الى بهرام جور الملك والبيرونى السابق ذكره يرجح ان هذا النسب انما ظهر لهم بعد ثبوت ملكهم والا فتلك الامم ليست معروفة بحفظ الانساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا إنما كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة اليهم مع انه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقا حتى يصل بها الى قباذ ملك الفرس

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على على والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحى وولى على بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساروا الى الرى وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير

مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد . صادف أن كان مع على بن بويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار فعرضت على العميد فاخذها ونقد ثمنها فلما حمل الى على أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقى ومعه هدية جميلة ف كان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه

ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب الى أخيه وشمكير والى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير الى أعمالهم وان كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تصل الى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ الى على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته الى عمله ويطوى المنازل فسار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الرى واستعاد التوقيعات التى كانت معهم وأراد أن ينفذ خلف على بن بويه من يرده فقال العميد انه لا يرجع طوعا وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه . وصل على الى الكرج وأحسن الى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا الى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلد وحسن سياسته . وافتتح قلاعا كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعها الى استمالة الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه . ولما كان مرداويج بالرى أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم على بن بويه ووصلهم وأحسن اليهم حتى مالوا اليه وأحبوا طاعته وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على انفاذ اؤلئك القواد فكتب اليهم والى على يستدعيهم اليه وتلطف بهم ودافعه على واشتغل باخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج

فاجابوه جميعاً فجبي على مال الكرج واستأمن اليه شيرزاد وهو من
أعيان قواد الديلم فقويت نفسه وسار بمن معه الى أصبهان فاستولى عليها
من يد المظفر بن ياقوت . بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه و لمغ مرداويج فاقلقه
وخاف على مابيده من البلاد واغتم لذلك غما شديداً ولكن رأى أن يحتال
فراسل عليا يعاتبه ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر
الكثيرة ليفتح بها البلاد ولا يكلفه سوى الخطبة له فى البلاد التي يستولى
عليها وجهز بعقب تلك الرسالة أخاه وشمكير فى جيش كثيف ليكبس عليا
وهو مطمئن الى الرسالة المتقدمة فعلم علي بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن
جباها شهرين وتوجه الى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فانهزم عنها أبو
بكر من غير قتال وقصد رامهرمز فاستولي علي على ارجان فى ذي الحجة
سنة ٣٢٠ فاستخرج منها أموالا قوى بها . جاءته وهو بها كتب من أبي
طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير عليه بالمسير الى شيراز
ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الاموال
وكثره مؤنته ومؤنة أصحابه وثقل [illegible] فشلهم وجبنهم
فتردد على أولا ثم عزم على المسير فسار الى النوبندجان فى ربيع الآخر
سنة ٣٢١ فلقى بها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها الى اصطخر خوفاأن
تقع بين ياقوت ومرداويج لانه بلغه انهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله فى
الطريق ياقوت بجيوشه فكان النصر لعلي وانهزم ياقوت هو ومن معه
وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره فى ذلك اليوم وهو صبي لم تنبت لحيته
وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل علي الاسرى أحسن
معاملة وخيرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده فخلع

عليهم وأحسن اليهم ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ونادى في الناس بالامان وبث العدل وأقام لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه أمر استرضاء الجنود والتودد اليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل الى خليفة بغداد الراضي بالله والى وزيره ابن مقلة يعرفهما انه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وبذل الف الف درهم فأجيب الى ذلك وأنفذت اليه الخلع واللواء

لما بلغ مرداويج ماناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار الى أصبهان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكرا الى الاهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه اذا قصده فلا يبقى له طريق الى الخليفة ويقصده هو من ناحية أصبهان ويقصده عسكره من ناحية الاهواز فلا يثبت لهم . فسارت عساكر مرداويج حتى بلغت ايذج في رمضان ثم استولت على رامهرمز في شوال سنة ٣٢٢ ثم استولت على الاهواز وأجلت عنها ياقوتا . بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الاهواز فكاتب نائبه يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الامر بينهما على ان ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة .

من حسن حظ ابن بويه ان مرداويج قتل بعد ذلك سنة ٣٢٣ تمردت عليه جنوده الاتراك لانه كان كثير الاساءة اليهم ويفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره فاتفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألبين عليه من الاتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكرنا انهما توليا أمرة الامراء بالعراق وياروق وابن بغرا ومحمد بن ينال الترجمان . ولما تم لهم ما أرادوا

تفرق الجيش فاما الاتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم . وأما الديلم فذهبوا الى وشمكير وهو بالرى وأطاعوه . وكان من نتيجه قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده وسار الى أخيه بفارس

صارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثا قوة على بن بويه بفارس وقوة وشمكير بن شيرويه بالرى وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر . أما ياقوت الذي كان بالاهواز فضعفت قوته جداً حتى لم تعد قادرة على حفظ ما معها فضلا عن مصادمة غيرها أما القوة الحبة النامية فهى قوة ابن بويه . سير أخاه الحسن الى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقى هو ووشمكير يتنازعان هذه البلاد وهى أصبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والرى وكنكور وقزوين وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة وانجلى عنها نواب وشمكير

خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه الى الاهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولا بادارة اقليم فارس وأخوه الحسن مشغول ببلاد الجبل وأخوهما الاصغر احمد لاشغل له فسيره على الى الاهواز فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقى وانهزم بجكم الى واسط

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير الى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد بن بويه يسير الى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها فى ١١ جمادى

الاولى سنة ٣٣٤ والخليفة بها هو المستكفى بالله فقابله واحتفى به وبايعه احمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة وفي هذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالالقاب فلقب عليا صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الري والجبل ركن الدولة ولقب احمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب القابهم وكناهم على النقود

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيسا دينيا لا أمر له ولا نهى ولا وزير وانما له كاتب يدبر اقطاعاته واخراجاته لاغير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضا عن بنى العباس ويوليها علويا لان القوم كانوا شيعة زيدية لان التعاليم الاسلامية وصلت اليهم على يد الحسن بن زيد ثم على يد الحسن الاطروش وكلاهما زيدى فكانوا يعتقدون ان بنى العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له انك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من اهل الخلافه ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ولو أمرهم بقتلك لفعلوا فاعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة شيء البتة الا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته

كان السلطان فى ذلك الوقت ببلاد الاندلس لبنى أمية والقائم بالامر منهم عبد الرحمن الناصر وقد تلقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة

بغـداد الى ماصلت اليه من الضعف امام الاتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد

وبلاد افريقية للعبيديين الذي تأسست دولتهم على انقاض الاغالبة والادارسة والقائم بالامر منهم اسمعيل المنصور وهو ثانى خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين

وبمصر والشام للاخشيديين والامير منهم انوجور بن محمد الاخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى

وبحلب والثغور لسيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسي

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ثم باسم معز الدولة من بعده

وبعمان والبحرين واليمامـة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدى

وبفارس والاهواز لعـلى بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى وكان يلقب بأمير الامراء لانه أكبر بني بويه

وبالجبل والرى لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة باسم الخليفة العباسى

وجرجان وطبرستان يتنازعها وشمكير بن شـيرويه وركن الدولة وآل سامان

وبخراسان وما وراء النهر لآل ساماں ومقر ملكهم مدينة بخاري

ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسى

هـذه هى القوى الكبرى التى كانت لأسر ملوكية فى الرقعة الاسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقا غريبا بعد ان كان متماسك الاعضاء يرجع كله الى حاضرة كبرى تجمع شتاته . ومما يستحق النظر أن العنصر العربى لم يبق له شئ من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فانهما من عنصر عربى ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسى بل كان أمر بنى بويه فوقهما وكانا يذكران إسم معز الدولة فى الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسى

لم يمكث المستكفى فى الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يوما وخلع لان معز الدولة اتهمه بالتدبير عليه فصمم على خلعه ففى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر عند الخليفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفى فظن انهما يريدان تقبيلها فمدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته فى حلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الاموال وساق الديلميان المستكفى ماشياً الى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شئ وقبض على أبى أحمد الشيرازى كاتب المستكفى . وكانت مدة المستكفى سنة واحدة وأربعة أشهر

(٢٣) المطيع

هو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المتضد فهو ابن عم المستكفي بويع بالخلافة ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ (٢٩ يناير سنة ٩٤٦) ولم يزل خليفة الى أن خلع فى منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ (٧ أغسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته ٢٩ سنة وخمسة أشهر نحو أيام ولم يكن له من الامر شيء والنفوذ فى حياته للملوك من آل بويه وهم

(أولا) معز الدولة

وهو أحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر اخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد ان كان جنة الدنيا فانه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم فى مدة ذكرها لهم فاصطر الى ضبط الناس وأخذ الاموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها التى للسلطان وأصحاب الاملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدى العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الاتباع فان الذى أخذوه زاد خرابا فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الاجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين فى الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم اذا عجز الحاصل تممه بمصادراتها . ثم ان معز الدولة قد فوض حماية كل

موضع الى بعض أكابر أصحابه فاتخذه مسكنا فاجتمع اليه الاخوة وصار القواد يدعون الخسارة فى الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك فان اعترضه معترض صاروا أعداء له فتركوا وما يريدون فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والحوادث وأكثر من إعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم فى الاقطاع فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام فى احشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد الى البصرة فمات أكثرهم فى الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز

فكان نظام الاقطاعات أول فساد بالعراق لانه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الارض واصلاحها وتنميتها

السبب الثانى من أسباب الفساد اختلافان . الاول اختلاف عنصرى بين الاجناد فانهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات فكان بينهما فى أكثر الاحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة لخوف الناس على مابيدهم من المال وقد كادت هذه المنازعات تؤدى سنة ٣٣٥ الى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم فانهم لما رأوا تقدم الاتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد وساعده على ذلك أخواه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الاتراك فاصطنعهم دون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم

والاستطالة عليهم ثم أطلق للاتراك اطلاقات زائدة على واسط والبصرة فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الاموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم . وأما الاختلاف الثاني فهو اختلاف ديني تأججت ناره ببغداد نفسها وبما جاورها من بلاد العراق فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً فقد كتب على مساجد بغداد سنة ٣٥١ ما صورته (لعن الله معاوية بن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفاري ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوما عليه لا يقدر على المنع وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة اعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبي بأن يكتب مكان ما محي لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا في اللعن إلا معاوية ففعل ذلك

وفي سنة ٣٥٢ أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الاسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قبابا عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة

الشيعة ولان السلطان معهم

وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة باظهار الزينة فى البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الاسواق بالليل كما يفعل ليالى الاعياد فعل ذلك احتفالا بعيد الغدير يعنى غدير خُم وهو الموضع الذى يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه عن على من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وضربت الدبادب والبوقات وكان يوما مشهودا

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر وهو الأكثر عددا ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها فيهون أمرها ما عدا ما منشؤه الدين منها وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فانها يشتد توهجها اذا وجدت محضاً يحركها لغاياته ولا أشد من يد السلطان فى تحريكها فاذا لعبت فيها أصبعه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك فى الاحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك إلا بعد أن ينغرس فى نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل الى ذلك لان إحدى الفرقتين تحترم شخصا والأخرى تلعنه فأنى تتفقان

ومع ماأدت اليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله فى شمالى بلاده وجنوبيها أما فى الشمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان وكل يريد الاغارة على ما بيد الآخر

ففى السنة الاولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقى من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التى خدع بها ناصر الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ما غنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار وقتلوا كثيرا ممن اتهموه . واضطر ناصر الدولة أن يطلب من معز الدولة الصلح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد فقبل ذلك معز الدولة

وفى سنة ٣٣٧ سار معز الدولة الى الموصل مريدا الاستيلاء عليها فسار عنها ناصر الدولة الى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولى على جميع ما بيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والرى وطلب منه المدد فاضطر الى مصالحة ناصر الدولة فترددت بينهما الرسل واستقر الامر على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام فى كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم ويخطب فى بلاده لاولاد بويه الثلاثة وإذ ذاك رجع معز الدولة الى بغداد

ولما قامت فتنة روزبهان الديلمى على معز الدولة أراد ناصر الدولة اعادة الكرة على بغداد فسير اليها أحد أولاده فى جيش لكنه لم يتمكن مما أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه ولى وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة يطلب الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار اليه معز الدولة سنة ٣٤٧

فلما قارب الموصل سار عنها ناصر الدولة الى نصيبين فاستولى عليها معز الدولة ثم سار الى نصيبين ففارقها ناصر الدولة الى ميافارقين فاستولى عليها معز الدولة

ولما رأى ناصر الدولة ماصار اليه سار الى أخيه سيف الدولة بحلب فلقيه أخوه وبالغ فى اكرامه وراسل معز الدولة فى طلب الصلح فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة لاخلافه مرة بعد أخرى فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفى ألف درهم وتسعمائة ألف درهم وكان ذلك فى محرم سنة ٣٤٨

وانما أجاب معز الدولة الى الصلح لانه ضاقت عليه الاموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج واحتجوا بأنهم لا يصلون الى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة فاضطر بسبب ذلك الى الانحدار وأجاب الي الصلح وانحدر الى بغداد وعاد ناصر الدولة الي الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سببا فيما يأتى ذكره من الضعف امام الروم

لم يكن هذا وحده الذى يشغل معز الدولة بل كان له فى الجنوب أيضا مشاغل كبرى فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدي أميرا عليها باسم معز الدولة ولكن نفسه كانت تطمع للاستقلال بها والا يرسل الى معز الدولة خراجا فكان معز الدولة يرسل اليه الجيوش والبريدى يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين

وفى سنة ٣٣٦ عزم معز الدولة أن يسير الى البريدي بنفسه فسار اليه سالكا البرية فأرسل اليه القرامطة ينكرون عليه مسيره الى البرية بغير

اذنهم فلم يجبهم على كتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا ولما وصل الى الدرهمية استأمن اليه كثير من عسكر البريدى وهرب هو الى هجر والتجأ الى القرامطة وملك معز الدولة البصرة

وكانت نتيجة مافعله مع القرامطة والاستهانة بهم أن جاؤا الى البصرة سنة ٣٤١ ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبي وزير معز الدولة

وفوق هذا فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهى قوة عمران بن شاهين وكان فى أول أمره جابيا فجبا جبايات ثم هرب الى البطيحة وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديما قرى متصلة وأرضا عامرة فاتفق فى أيام كسرى ابرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضا بخلاف العادة فعجز عن سدها فتبطح الماء فى تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية ولم يفعل من بعده شيئا ثم جاء الاسلام فاشتغلوا بالحروب والجلاء ولم يكن للمسلمين اذذاك دراية بعمارة الارضين فلما ألقت الحرب أوزارها واستقرت الدولة الاسلامية فى قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحى ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء اليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الارز . جاء عمران الي هذه البطائح خوفا من السلطان واقام بين القصب والآجام متحصنا بها واقتصر على مايصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع اليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوى بهم وحمى جانبه من السلطان فلما خاف أن يقبض

استأمن الى أبي القاسم البريدى فقلده حماية الجامدة و نواحي البطائح وما زال يجمع الرجال الى أن كثر أصحابه وقوى واستعد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التى بالبطيحة وغلب على تلك النواحي فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشا لمحاربته قائده وزيره أبو جعفر الصيمرى فانتصر أبو جعفر انتصارا باهرا وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة بوفاة أخيه الاكبر عماد الدولة فاضطر الى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لاصلاحها ففارق البطيحة وكان ذلك منفسا عن عمران فزاد قوة وجرأة فانفذ اليه معز الدولة جيشا ثانيا فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ما كان فيه من السلاح فقوى وطمع أصحابه فى السلطان فصاروا اذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة فان أعطاهم والا ضربوه وكان الجند لابد لهم من العبور عليهم الى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق الى البصرة الا على الظهر فشكا الناس ذلك الى معز الدولة فكتب الي وزيره المهلبي بالمسير الى واسط وأمده بالجيوش فزحف الى البطيحة وضيق على عمران فانتهى الى المضايق التى لايعرفها الا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبي وكان عمران قدجعل الكمناء فى تلك المضايق فلما تقدم المهلبي خرج عليه وعلى أصحابه الكمناء ووضعوا فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا والقى المهلبي نفسه فى الماء فنجا سباحة وأسر عمران القواد والاكابر فاضطر معز الدولة الى مصالحته واطلاق من عنده من أهل عمران واخوته فاطلق عمران من فى أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدولة البطائح فقوي واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من سنة ٣٢٩ الى سنة ٣٦٩ أى

أربعين سنة كان فيها شجا فى حلق بنى بويه لا يقدرون منه على شئ وانتقل الملك منه الى أعقابه ومواليهم الى سنة ٤٠٨ وهذا ثبتهم

(١) عمران بن شاهين ٣٢٩ — ٣٦٩

(٢) الحسن بن عمران ٣٦٩ — ٣٧٢

(٣) أبو الفرج بن عمران ٣٧٢ — ٣٧٣

(٤) أبو المعالى بن الحسن بن عمران ٣٧٣ — ٣٧٣

(٥) المظفر بن على وزير عمران ٣٧٣ — ٣٧٦
وابنه الحسن بالتغلب

(٦) مهذب الدولة ابو الحسن على بن نصر ابن ٣٧٦ — ٤٠٨
أخت المظفر

(٧) أبو الحسين بن مهذب الدولة ٤٠٨ — ٤٠٨

(٨) عبد الله بن نسى بالتغلب ٤٠٨ — ٤٠٨

ثم صارت البطيحة متغلبا لكثير من الاقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة الى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت الى خلفاء بغداد

لم يكن عهد معز الدولة ببغداد الا شرا كله من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان . ولما أحس بقرب منيته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته فى كل مايفعل وبطاعة عضد الدولة ابن عمه لانه أكبر منه سنا وأقوم بالسياسة . ثم أدركته منيته فى ١٣ ربيع الآخر سنة ٣٥٦

ومما حصل من حوادث أهل بيته فى عهده وفاة عمه عماد الدولة

على بن بويه سنة ٣٣٨ باصطخر ولما لم يكن له ولد ذكر طلب من أخيه ركن الدولة أن يرسل اليه ابنه فنّا خسرو الملقب عضد الدولة فأجابه فولاه عهده ولما توفى قام عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت أمرة الامراء الى أخيه ركن الدولة الحسن

(ثانيا) عز الدولة بختيار

وهو ابن معز الدولة احمد بن بويه ولى العراق بعد وفاة أبيه واستمر في سلطانه الى أن خلعه ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ فكانت مدته ١١ سنة قضى منها سبع سنين فى خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد فى سلطانه أسوأ حالا منها فى سلطان أبيه فانه اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين وشرع فى ايحاش كاتبي أبيه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس مع ان أباه أوصاه بتقريبهما لكفايتهما وأمانتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفي كبار الديلم شرها الى اقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر الى مرضاتهم واقتدى بهم الأتراك فعملوا مثل ذلك ولم يتم له على سبكتكين ماأراد من اغتياله لاحتياطه واتفاق الأتراك معه وخرج الديلم الي الصحراء وطالعوا بختيار باعادة من سقط منهم فاحتاج أن يجيبهم الى ماطلبوا وفعل الأتراك أيضاً مثل فعلهم

وفى أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر فى الامر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف الف ومئتى الف درهم كل سنة وكذلك مات سيف الدولة على بن

عبدالله بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه ابوالمعالى شريف . ومات كافور الاخشيدى صاحب مصر سنة ٣٥٦ وبموته اضطرب أمرها وتهيأت الفرصة للفاطميين . ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة على بلاد الرى يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه بيستون بن وشمكير سنة ٣٥٧ ومات أيضاً نقفور ملك الروم الذى هدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال

حال الثغور الاسلامية فى عهد المطيع

كانت الثغور الاسلامية لذلك العهد فى حوزة سيف الدولة على بن حمدان الذى كان متغلبا على حلب والعواصم وديار بكر فكان هو الذى يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها . وكان قد ولى هذه الثغور مولاه نصرا فكانا يتناوبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة عدو كانت الخلافة الكبرى تحتد له وتهتم أعظم الاهتمام بأمره .

فى سنة ٣٣٧ سار سيف الدولة بنفسه الى بلاد الروم فلقوه فاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس . وفى السنة التى تليها دخل غازيا فكان له النصر أولا ولكنه توغل فى البلاد فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضايق فهلك من كان معه من الجند أسراً وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة فى عدد يسير

وفى سنة ٣٤١ ملك الروم مدينة سروج وسبوا اهلها وغنموا اموالهم وخربوا المساجد

وفى سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة البلاد الروميـة وكان له بهـا نصر عظيم وقتل فى تلك الواقعـة قسطنطين بن الدمستق وقد عظم مقتله على أبيه فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغـيرهم وقصـد الثغور فسار اليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث فى شعبان فاشتد القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبة للمسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته والدمستق عند الروم الرئيس الاكبر للجيش والبطارقة قواده

وفى سنة ٣٤٥ سار سيف الدولة الى بلاد الروم فى جيوشه حتى وصل الى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع الى اذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه واعطاه شيئا كثيرا ثم عاد الى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جموعهم وساروا الى ميافارقين بديار ربيعة فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا فى البحر الى طرسوس فأوقعوا بأهلها وقتلوا منهم ١٨٠٠ رجـل وأحرقوا القرى التى حولها . ثم غزوها مرة ثانية سنة ٣٤٨ وغزوا الرها أيضا ففعلوا بها الافاعيل وعادوا سالمين لم يكلم أحد منهم كلما

وفى سنة ٣٤٩ سار سيف الدولة الى بلاد الروم فى جمع عظيم فأثر فيها آثاراً شديدة وفتح عدة حصون وبلغ الى خرشنة ثم ان الروم أخذوا عليـه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهـل طرسوس ان الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبـل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال انه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منـه

فظهر الروم عليه واستردوا ماكان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف فى أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو فى ٣٠٠ رجل بعد جهد وهذا من سوء رأى المستبدين

وفى سنة ٣٥٠ سار قفل عظيم من انطاكية الى طرسوس ومعهم صاحب انطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب انطاكية وبه جراحات

وفى سنة ٣٥١ غزا الدمستق عين زربة وهى من أحصن مدن الثغور فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيخا ولا صبيا وأفلت قليل منهم هربوا على وجوههم فماتوا فى الطرقات وفتح حول عين زربة ٥٤ حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالامان وقد حصل أن حصنا من هذه الحصون التى فتحت بالامان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا ٤٠٠ رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك الا من يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية . وكان صاحب طرسوس قد خرج فى ٤٠٠٠ رجل فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وكان صاحب طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا ما أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم

وفى هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سيف الدولة منهزما بعد أن قتل أكثر أهل بيته

وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التي كانت بظاهر حلب وسبي من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبي وصبية وقتل أكثر من ذلك ولما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر الدمستق باحراق الباقي وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة أيام ثم أراد الانصراف عنها فانصرف عازما على العودة . وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين الا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحيانا بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر

وفى سنه ٣٥٣ حصر الدمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق الروم رستاقها ورستاق اذنة وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة . ثم أن انسانا وصل الى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم الى بلادهم . وبعد تراجع الأسعار عاد ملك الروم الى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقاوم الطرسوسيون مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة أشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثر بينهم الوباء فاضطروا الى الرحيل

وفى سنة ٣٥٤ ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها الى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتى ألف انسان ثم سار الى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الامان فأجابهم اليه وفتحوا

البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا انطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة اليها حتى رخصت الاسعار وتراجع اليها كثير من أهلها ودخلوا فى طاعة الملك وتنصر بعضهم . ومن غرائب العقول أن يجري هذا كله بثغور الاسلام والخلاف والشقاق قد استحكم أمرها بين ولاة المسلمين وأمرائهم

وفى سنة ٣٥٨ دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار فى البلاد الى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها ثم قصد حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع الى بلدان الساحل فأتى عليها نهبا وتخريبا وملك ثمانية عشر منبرا فأما القرى فكثير لا يحصى وأقام فى بلاد الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماشاء ولا يمنعه أحد الا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحيانا وأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة فى قلوب المسلمين وقد عاد ملك الروم بعد ذلك ومعه من السبي مئة ألف رأس ولم يأخذوا الا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فنهم من قتله ومنهم من أطلقه

وكانت هذه الحوادث الجلى سببا لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير العام لحماية الثغور الاسلامية فتطوع منهم عشرون ألفا عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد بن اسمعيل بن القفال الشاشى

أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر . ومما يحزن أن هذا الجيش المتطوع اضطر الى المرور ببلاد الجبل التي في حوزة ركن الدولة وهو ديلمي يكرهه أهل خراسان ويعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم

وفي سنة ٣٥٩ ملك الروم مدينة انطاكية وهي حاضرة الثغور وأضخمها وأخذوا منها سبيا يزيد على عشرين ألف كلهم شباب صبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والاطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاؤن . ولما تم لهم ملك انطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفي غلام سيف الدولة وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة يحاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عن الروم أما هؤلاء فجؤوا وحصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم واعطاهم رهائن على ذلك

وفي سنة ٣٦١ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعي في دفعه ولكنه حمل اليه مالا كفه به عن نفسه فسار جماعة من أهل تلك البلاد الى بغداد مستنصرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والاسر والسبي فاستعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وانه لا مانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وغلقت الابواب وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي

الكوفة فخرج اليه وجوه أهل بغداد مستغيثين مكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين (صاحب البطيحة) وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الاسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنفر العامة ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة وكتب بختيار الى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره باعداد الميرة والعلوفات ويعرفه عزمه على الغزو فأجابه باظهار السرور واعداد ما طلب منه ثم أنفذ بختيار الى المطيع لله يطلب منه مالا فقال المطيع أن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمني اذا كانت الدنيا فى يدي وتجبى الىّ الاموال وأما اذا كانت حالى هذه فلا يلزمني شئ من ذلك وانما يلزم من البلاد فى يده وليس لى إلا الخطبة فان شئتم أن أعتزل فعلت . وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال الى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠ ألف درهم فاحتاج الى بيع ثيابه وانقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قبض بختيار المال صرفه فى مصالحه وبطل حديث الغزو

وفى سنة ٣٦٢ كانت واقعة بين الدمستق وبين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد فاستمد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبة الله فوافع الدمستق فى مضيق لا تجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوسا الى أن مرض سنة ٣٦٣ فبالغ أبو تغلب فى علاجه وجمع الاطباء له فلم ينفعه ذلك ومات هذه كانت الحال فى خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الثغور

الاسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة فى قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون

ومما حصل فى عهد المطيع من الحوادث انتقال خلفاء الفاطميين الى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلى عليها وذلك سنة ٣٦١ فى عهد الخليفة المعز لدين الله معد الفاطمى

موت المطيع

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فلج فأشار عليه سبكتكين مقدم الاتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بداً فخلع نفسه فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣

(٢٤) الطائع

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد ولد سنة ٣١٧ وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيع (١٨ اغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة الى أن خلع فى ٢١ رجب سنة ٣٨١ (١٣ اكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بنى بويه وهم

(أولا) عز الدولة بختيار بن معز الدوله الى سنه ٣٦٧

(ثانيا) عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه الى سنة ٣٧٢

(ثالثا) صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة الى سنة ٣٧٦

(رابعاً) شرف الدولة أبو الفوارس شـيرزيل بن عضد الدولة الى سنة ٣٧٩

(خامساً) بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة

ويعاصره فى بلاد الاندلس الحكم بن عبدالرحمن الناصر (٣٥٠—٣٦٦) وهشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩) وهو الذي كان يحجبه المنصور بن أبي عامر

وبأفريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيرى الصنهاجي نيابة عن الفاطميين الى سنة ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور يوسف الي سنة ٣٨٦

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معد الفاطمى الي سـنة ٣٦٥ وخلفه ابنه العزيز بالله نزار الى ٣٨٦

وباليمن من آل زياد أبو الجيش اسحاق بن ابراهيم الى سـنة ٣٧١ ثم عبد الله بن اسحاق الى سنة ٤٩٠

وبصنعاء من آل يعفر عبد الله بن قحطان الى سنة ٣٨٧ وهو آخر أمراء هذه الدولة

وبحلب سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة الى سنة ٣٨١

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الى سنة ٣٦٩ ثم أبو طاهر ابراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة الى سنة ٣٨٠ وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيـلى أمير بنى عقيل

وفى ديار بكر ابتدأت الدولة المروانيـة الـكردية على انقاض دولة بنى حمدان وأول هـذه الدولة أبو على الحسين بن مروان الذى ابتـدأ ملكه سنة ٣٨٠

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور السامانى (٣٦٦ — ٣٨٧)

وبجرجان الدولة الزيارية والامير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير الي سنة ٣٦٦ وخلفه شمس المعالي قابوس بن وشمكير الى سنة ٤٠٣

وقد ابتدأت فى أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزنة وجدت على اطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التى غربى نهر جيحون وكانت دولة الاتراك الايلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر . وأما بلاد فارس والاهواز والرى والجبال والعراق فهي بيد بنى بويه يتناوبونها كما سيأتى توضيحه

ويعاصر الطائع بفرنسا لوتار الى سنة ٩٨٦ ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان الى سنة ٩٨٧ ثم هو فى كابات أول الأسرة الكاباسيانية الى سنة ٩٩٦

وباستريا أول ملك من جماعة المارغراف وهو ليوبولد الاول كونت دوبابنبرج (٩٨٢ — ٩٩٤)

ولي الطائع وأمر بختيار مضطرب لان الاتراك وفى مقدمهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذى كان سببا لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التى كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم فكتب بختيار الى عمه ركن الدولة بأصبهان والى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن يساعداه على الاتراك فجهز اليه ركن الدولة جنداً مع وزيره ابن العميد وأما عضد

الدولة فكان ميالا الى ملك العراق فتربص ببختيار الدوائر . كرر اليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحثه فلما رأي عضد الدولة أن الامر قد بلغ ببختيار ما يرجوه سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه ارادة الاستيلاء على العراق فسار الى واسط ومنها الى بغداد فتغلب على عساكر الاتراك فى ١٤ جمادى الاولى سنة ٣٦٤ ودخل بغداد ظافراً . وكان يريد القبض على بختيار فوسوس الى جنده أن يثوروا عليه ويشغبوا ويطالبوه بالاموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار ما يسكنهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت الى شكواهم ويغلظ فى معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياما وحينئذ استدعى بختيار هو واخوته اليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الامارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالاحسان اليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لانه كان منافياً لبختيار وقد قابله عضد الدولة بان أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسى وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية اقطاعه

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جداً كاتبه بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذى استاء أيضا مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل اليه ركن الدولة يقويه على ما هو بسبيله ويخبره انه سائر بنفسه الى العراق لاخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سببا لاضطراب الامر على عضد الدوله ولم يقبل فى ذلك قول قائل لانه كان يحب أخاه معز الدولة والدبختيار حبا شديداً ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه الا اعادة بختيار الى ملكه والمسير الى فارس

لم يطل الامر الا بمقدار ماتوفى ركن الدولة سنة ٣٦٦ فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بعهد منه وما عتم أن تجهز الى بغداد وأرسل الى بختيار يطلب منه الطاعة وأن يسير عن العراق الى أى جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج اليه من مال وسلاح فأجاب بختيار الى ذلك وسلم الى عضد الدولة وزيره الامير محمد بن بقية ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لاحد ببغداد وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأس الجسر فى شوال سنة ٣٦٧ وهو الذى رثاه أبو الحسين الانباري بقصيدته المشهورة التى أولها

علو فى الحياة وفى الممات   لحق أنت احدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معها من ملك أبيه وعمه ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئنا وأزال عنها الدولة الحمدانية وبث سراياه فى طلب أبى تغلب الحمدانى فهرب أبو تغلب على وجهه الى بلاد الروم وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر الى الرقة وجعل ما وراءها فى يد سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب. وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والاهواز وفارس والجبال والرى ثم دخلت فى حوزته جرجان سنة ٣٧١ أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير

لم يقم فى آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة واقداما وكان عاقلا فاضلا حسن السياسة كثير الاصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأى محبا للفضائل واهبا باذلا فى موضع العطاء مانعا فى مواضع الحزم ناظراً

في عواقب الامور وهو الذي بني على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم سورا الا أنه كان مع ذلك فخورا يميل الى اللهو واللعب ومن شعره

ليس شرب الكأس الا فى المطر ... وغناء من جوار فى السحر

غانيات سالبات للنهى ... ناغمات فى تضاعيف الوتر

مبرزات الكأس من مطلعها ... ساقيات الراح من فاق البشر

عضد الدلة وابن ركنها ... ملك الاملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير . ومن فضله انه كان لا يعول فى أموره إلا على الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقا الى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به حكى عنه أن مقدم جيشه اسفار بن كردويه شفع فى بعض ابنا العدول ليقدم الى القاضى ليسمع تزكيته ويعدله فقال له ليس هذا من أشغالك انما الذى يتعلق بك الخطاب فى قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهى الى القاضى وليس لنا ولا لك الكلام فيه ومتي عرف القضاة من انسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة . وكان يخرج فى ابتداء كل سنة شيئا كثيراً من الاموال للصدقة والبر فى سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك الى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه الى مستحقيه وكان يوصل الى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم اذا عملوا . أما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك فى تاريخ العلوم فى الدول الاسلامية

ومما يعد من سيئاته انه أحدث فى آخر أيامه رسوما جائرة فى المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجرا خاصا وكان يتوصل الى أخذ المال بكل

طريق . توفى عضد الدولة فى شوال سنة ٣٧٢

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبي كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان اخوته وبنو أعمامه متفرقين فى الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزيل بفارس — وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان

مكث صمصام الدولة قائما بامر العراق والاضطراب لاحق به من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه فانه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير اليه جيشا كانت عاقبته الهزيمة

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الاكراد وعليهم شجاع باذ بن دوستك وهو من الاكراد الحميدية وكان ابتداء أمره انه كان يغزو كثيرا بثغور ديار بكر وكان عظيم الخلقة وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب الى ثغور ديار بكر وأقام بها الى أن استفحل أمره وقوي وملك ميافارتين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعض أصحابه الى نصيبين فاستولى عليها فجهز اليه صمصام الدولة العساكر فانهزمت وقوى أمر باذ وغلب جيوش الديلم ثم سار الي الموصل فملكها وحدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد وازالة الديلم عنها فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره واعد له جيشا عظيما مستوفى العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباذ ديار بكر والنصف من طور عبدين

كانت هذه الاضطرابات والمشاغل سببا لان شرف الدولة صاحب

فارس تجهز يريد الاستيلاء على الاهواز والعراق فسار بجيشه سنة ٣٧٥
فاستولى على الاهواز من يد أخيه ابى الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار
الى البصرة فملكها . بلغ خبره صمصام الدولة فراسله فى الصلح فاستقر
الامر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة
ويكون هذا نائبا عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق
وسيرت اليه الخلع من الطائع لله فلما وردته الرسل بذلك ليحلفوه عاد عن
الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عنها ونفذ تلك العزيمة فلما وصل
واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع
رأيه على اللحاق بأخيه والدخول فى طاعته فسار اليه فقبض عليه شرف
الدولة وسار الى بغداد فدخلها فى رمضان سنة ٣٧٦ وانتهت مدة صمصام
الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهرا

ومن احداث هذا البيت في عهده وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن
ركن الدولة صاحب جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة على بن ركن الدولة
على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدولة سنتين وثمانية
أشهر وقد ابتدأ عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى
الى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام .
ومن فضائل شرف الدولة انه منع الناس من السعايات ولم يقبلها فأمن
الناس وسكنوا

وكانت وفاة شرف الدولة فى جمادى الآخرة سنة ٣٧٩

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر . وللاول تجددت

الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت الى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة الى الاتراك فاشتد الامر على الديلم ومع ماحصل من الصلح بين الفريقين فان الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الاتراك عليهم . وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا

وفى سنة ٣٨١ قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك ان الاموال قلت عنده فشغب عليه الجند فأطمعه وزيره فى أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فارسل الى الطائع وسأله الاذن فى الحضور ليجدد العهد به فاذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل اليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الارض وأجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كانه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فانزله عن سريره والخليفة يقول انا لله وانا اليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت اليه وأخذ مافى داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضى فى ذلك

من بعد ما كان رب الملك مبتسما	الى أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه	لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى	باقرب ماعاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية	قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع الى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع

— * —

(٢٥) القادر

هو أبو العباس احمد القادر بالله بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويع بالخلافة ١٢ رمضان سنة ٣٨١ (١٣ اكتوبر سنة ٩٧٤) واستمر خليفة الى أن توفى فى غاية ذى الحجة سنة ٤٢٢ (١٨ دسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما

كان أبو العباس لما مات أبوه اسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة فى ضيعة وطال الامر بينهما ثم ان الطائع مرض مرضا أشفى منه ثم ابل فسعت اليه نأخيها وقالت له انه شرع فى طلب الخلافة عند مرضك وغير رأيه فيه وأرسل فى القبض عليه فلما وصلت اليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار الى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبى الحسن على بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ فى خدمته وكان ذلك فى سنة ٣٧٩ فاقام عنده حتى قبض بها الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فاجمع رأيه ورأى مستشاريه على أبى العباس فأرسل اليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه الى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقيل على المنبر (اللهم اصلح عبدك وخليفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه. ولما وصلت الرسل الى القادر بالله انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمته خير قيام وحمل اليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله الى بغداد فلما دخل جبل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة

والناس وخطب له ثالث عشر رمضان

والقادر هو ثالث خليفة عباسي لم يكن أبوه خليفة

معاصرو القادر من الملوك

كان الخليفة بالاندلس هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد الى سنة ٣٩٩ ثم خلفه محمد المهدى بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الى سنة ٤٠٣ وقد ثار عليه سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت بينهما خطوب الى أن قتل المهدي وانتهت مدة المستعين سنة ٤٠٨ ثم كانت البلاد الاندلسية ميدانا للنزاع بين أعقاب الامويين والعلويين من ذرية ادريس بن عبدالله فكانت الحال هناك فى اضطراب يشبه ما كان فى الشرق أو يزيد عليه

وكان الامير بأفريقية من آل زيرى النائبين عن الدولة الفاطمية المنصور بن يوسف بلكين الى سنة ٣٨٦ ثم ابنه باديس الى سنة ٤٠٦ ثم المعز بن باديس الى سنة ٤٥٣ وكان الخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية العزيز بالله نزار الي سنة ٣٨٦ ثم ابنه الحاكم بأمر الله منصور الى سنة ٤١١ ثم ابنه الظاهر لاعزاز دين الله الى سنة ٤٢٧

وفى عهده ابتدأت الدولة النجاحية بزبيد على اطلال الدولة الزيادية وكان ابتداؤها على يد المؤيد نجاح سنة ٤١٢ وهو مولى موالى آل زياد وأصله عبد حبشي سمت به همته الى أن تولى ملك تهامة اليمن وما اليها وقد استمر ملكها فيه وفى أعقابه الى سنة ٥٥٤ وهذا ثبتهم

(١)	المؤيد نجاح	٤١٢ — ٤٥٢
	فترة على الداعى الصليحى	٤٥٢ — ٤٧٣
(٢)	سعيد الاحول بن نجاح	٤٧٣ — ٤٨٢
(٣)	جياش بن نجاح	٤٨٢ — ٤٩٨
(٤)	فاتك بن جياش	٤٩٨ — ٥٠٣
(٥)	منصور بن فاتك	٥ ٣ — ٥١٧
(٦)	فاتك بن منصور	٥١٧ — ٥٣١
(٧)	فاتك بن محمد بن فاتك	٥٣١ — ٥٥٤

وانتقل الملك عنهم الى الدولة المهدية وسيأتى حديثها اذ ذاك

أما الجزيرة الفراتية وما اليها من حوض الفرات فكانت منقسمة الى ثلاث أمارات وهي دبار ربيعة وحاضرتها الموصل ودبار بكر وحاضرتها آمد وديار مضر وحاضرتها الرقة

ففى عهد القادر ظهرت الدولة العقيلية التى أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن مقلد العقيلى بالموصل ولم يكن له تمام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمى الا أن النفوذ الفعلى كان لابى الذواد ولم يزل كذلك حتى توفى سنة ٣٨٦ فخلفه أخوه حسام الدولة المسيب بن المقلد . وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها الى أن قتل سنة ٣٩١ فخلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرداش بن المقلد ومن أهم حوادثه السياسية انه خطب للحاكم بأمر الله العلوى صاحب مصر بأعماله كلها وهى الموصل والانبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد لله الذى انجلت

بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب واطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر بالله القاضى أبا بكر بن الباقلانى شيخ الاشعرية ببغداد الى بهاء الدولة يعرفه ذلك فأكرم بهاء الدولة القاضى وكتب الى نائبه ببغداد يأمره أن يسير لحرب قرواش فسار عميد الجيوش لحربه ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله

وقد استمرت هذه الدولة العربية بالموصل الى سنة ٤٨٩ وانتهت على يد السلاجقة كما انتهت الدولة الديلمية وهذا ثبت ملوكها

(١)	حسام الدولة المقلد بن المسيب	٣٨٦ — ٣٩١
(٢)	معتمد الدولة قرداش بن المقلد	٣٩١ — ٤٤٢
(٣)	زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد	٤٤٢ — ٤٤٣
(٤)	علم الدولة أبو المعالى قرواش بن بدران بن المقلد	٤٤٣ — ٤٥٣
(٥)	شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش	٤٥٣ — ٤٧٨
(٦)	ابراهيم بن قرواش	٤٧٨ — ٤٨٦
(٧)	على بن مسلم بن قرواش	٤٨٦ — ٤٨٩

وفى ديار بكر ظهرت دولة الاكراد من آل مروان على يد مؤسسها أبى على الحسن بن مروان قام بالامر سنة ٣٨٠ بعد خاله باذ الذى قدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن الى أهلها وألان جانبه لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يزل ملكا الى أن قتل سنة ٣٨٧ فخلفه أخوه ممهد الدولة أبو منصور بن مروان الى أن قتل سنة ٤٠٢ فتولى بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة احمد بن مروان وهو واسطة عقد آل مروان فان أيامه طالت وأحسن السيرة جدا وكان مقصودا من العلماء

فى كافة الاقطار فكثروا ببلاده وممن قصده أبو عبدالله الكازرونى وعنه انتشر مذهب الشافعى رحمه الله بديار بكر وقصده الشعراء فاجذل مواهبهم وبقى كذلك الى سنة ٤٥٣ وكانت الثغور معه آمنة وسيرته فى رعيته أحسن سيرة وولى بعده ابنه نظام الدولة نصر الى سنة ٤٧٢ ثم منصور بن نصر الى سنة ٤٨٩ وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها

أما ديار مضر فقد استولى عليها لأول عهد القادر بكجور الذى كان واليا على دمشق للعزيز بالله الفاطمى خليفة مصر وفى سنة ٣٧٨ عزله عنها فتوجه الى الرقة فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق فى الانضمام اليه وكاتب أيضاً باذ الكردي المتغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود الى طاعته ويعطى مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم الى شئ فبقى بالرقة يراسل جماعة من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فاجابوه وحينئذ أغرى العزيز بالله نزارا صاحب مصر على قصد حلب فاجابه وأرسل اليه العساكر تتصرف بأمره ولكنه لم ينجح لان سعد الدولة استعان عليه بوالى انطاكية الرومى وبالعرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله ثم سار سعد الدولة الى الرقة فاستولي عليها من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم ان سعد الدولة هلك بعقب ذلك فارسل أهل الرحبة الى بهاء الدولة يطلبون اليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فانفذ لهم أميرا تسلمها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة . ولم تمكث الحال على ذلك كثيرا فان البلاد انتقلت الى حوزة العلويين أصحاب مصر وصار يخطب لهم بالرقة والرحبة الا أن سلطانهم كان اسميا والنفوذ الى رؤساء القبائل

المصرية فكان فيها أولا أبو على بن ثمال الخفاجي ثم استولى عليها عيسى ابن خلاط العقيلي ثم صار أمرها الى صالح بن مرداس الكلابي وكان محسنا للرعية ويدعو للعلويين

أما حلب فكان السلطان بها لاول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان وكان قد عصى عليه بكجور الذى تقدم ذكره وهو أحد مماليك أبيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوى ولكنه لم يفز وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك ان سعد الدولة أراد أن يقصد دمشق ليأخذها من يد العزيز بالله فمات عقب خروجه سنة ٣٨٢ وعهد لابنه أبي الفضائل وأوصى به لؤلؤا أحد مماليك ابيه سيف الدولة فلما توفى سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤ العهد على الاجناد

كان خليفة مصر لا يزال يتطلع الى الاستيلاء على حلب فسير البها جيشا من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كانت عساكره كثيرة ولا قبل للؤلؤ بمقاومتها استنجد بملك الروم بسيل فارسل الى نائبه بانطاكية يأمره أن ينجد أبا الفضائل فسار اليه بحلب حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصى . ولما سمع منجوتكين الخبر سار الى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل وعبر اليهم العاصي وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار الى انطاكية فنهب بلدها وقراها وأحرقها . وأنفذ أبو الفضائل الى بلد حلب فنقل ما فيه من الغلال وأحرق الباقى اضرارا بعساكر مصر . وعاد منجوتكين الى حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ الى رؤساء المصريين يبذل لهم مالا ليردوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلة تعذر الاقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد الى دمشق ولكن ذلك لم يعجب العزيز

بالله وكتب باعادة الكرة على حلب وأرسل الاقوات من مصر الى طرابلس بحرا ومنها الى العسكر فنازل المصريون حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهرا فقلت الاقوات بحلب وعاد لؤلؤ الى مراسلة ملك الروم معتضدا به وقال له متى أخذت حلب أخذت انطاكية وعظم عليك الخطب فجاء ملك الروم منجداً له فلما علم منجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج اليه أبو الفضائل ولؤلؤ . ثم سار بسيل الى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبها وسار الى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه وأقام عليها نيفا وأربعين ليلة ولما أيس عنها عاد الى بلاده . ولما علم العزيز بتلك الاخبار عظم الامر عليه ونادى فى الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك

لم يزل الامر لابى الفضائل حتى سنة ٤٠٢ حيث غزاه صالح بن مرداس الكلابى وكان السلطان الحقيقى فى حلب للؤلؤ وكان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوى بمقتضى اتفاق عقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدمة . غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيرا ولكن صالحا أطلقه مقابل مئتى الف دينار ومئة ثوب واطلاق كل أسير عنده من بنى كلاب . ثم ان غلاما لابن لؤلؤ كان يتولى القلعة غدر به وكاتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لاستاذه فخرج ابن لؤلؤ من حلب الى صاحب انطاكية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلهم من قبله حتى صارت بيد انسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك قدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم

وولى الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشاله على قتله فقتله

وفى سنة ٤١٤ اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طيء وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان على أن يكون من حلب الى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة الى مصر لحسان ودمشق لسنان . فقصد صالح حلب فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الحلبيون يحبون صالحا لاحسانه اليهم ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم فلك من بعلبك الى عانة وأقام بحلب ست سنين وفى سنة ٤٢٠ جهز الظاهر صاحب مصر جيشا سيره الى الشام لقتال صالح وحسان وكان مقدم الجيش أنوشتكين البربرى والالتقاء عند طبرية فقتل فى الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح فجاء الى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد استمرت الدولة المرداسية بحلب الى سنة ٤٧٢ وهذا ثبت ملوكها

(١) صالح بن مرداس	٤١٤ — ٤٢٠
(٢) شبل الدولة أبو كامل نصر	٤٢٠ — ٤٢٩
الفاطميون	٤٢٩ — ٤٣٤
معز الدولة أبو علوان طمل بن صالح	٤٣٤ — ٤٤٩
الفاطميون	٤٤٩ — ٤٥٢
رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة	٤٥٢ — ٤٥٣
معز الدولة (ثانيا)	٤٥٣ — ٤٥٤

أبو ذؤابة عطية بن صالح	٤٥٤ — ٤٥٤
رشيد الدولة (ثانيا) '	٤٥٤ — ٤٦٨
جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة	٤٦٨ — ٤٦٨
أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة	٤٦٨ — ٤٨٢

وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التي تقدم ذكرها

فى المشرق

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتتزلزل جوانبها . كان أميرها نوح بن منصور وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الامر فيها شهاب الدين هارون بن سليمان بن أيلك خان المعروف ببغراخان وكانت دولته غضة جديدة امام دولة رثت بكثرة الاختلاف . ففى سنة ٣٨٣ غزا بغراخان نوحا فى بخارة بممالأة أبى الحسن سمجور أمير خراسان لنوح وكان القصد أن يملك الاول ماوراء النهر كله والثانى اقليم خراسان فسار بغراخان نحو بخارى واستولى على بلادها شيئا بعد شئ . ثم نازل بخارى فاختفى نوح وملكها بغرا ونزلها وخرج منها نوح مستخفيا فعبر النهر الى آمد وأقام بها ولحق به أصحابه يريد اعادة الكرة على بخارى وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل اضطر بسببه للانتقال نحو بلاده وبينما هو سائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد الى دار ملكه وولى الترك بعد بغراخان ابنه ايلك خان . ثم مات بعقب ذلك نوح سنة ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور وبايعه الامراء والقواد

ولما بلغ ايلك خان وفاة نوح سار الى سمرقند وسير الجنود لأخذ

بخارى يقدمها فائق أحد القواد السامانية قبلا فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح أن يكون إسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمرت الحال على ذلك الى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد الجنود السامانيـة على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبدالملك وهو صبي صغير وأعقب ذلك موت فائق وهو مدبر الامر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتكينية قد بزغ بخراسان فسار ايلك خان الى بخارى وأظهر لعبدالملك المودة والموالاة والحميـة له فظنوه صادقا ولم يحترسوا منـه وخرج اليـه بكتوزون وبقية الأمراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتي دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة سنة ٣٨٩ فلم يدر عبد الملك ما يصنع فاختفى فنزل ايلك دار الامارة وبث الطلب والعيون على عبدالملك حتى ظفر به فأودعه بافكند فمـات بها وهو آخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بموته دولتهم كأن لم تغن بالأمس . وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخل فى حوزتها من حدود حلوان الى بلاد الترك بمـا وراء النهر وكانت من الدول العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الايلكخانية فأخذت منهم ولايات ماوراء النهر وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان

الدولة السبكتكينية

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهى مديـنـة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان وهى الحد بين خراسان والهند ويلفظها الخاصة غزنين وكان صاحب جيشها اسحاق بن البتكين وكان من ضـمن غلمانه

سبكتكين وهو المقدم عنده وعليه مدار أمره قدم بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أستاذه اسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأى والصرامة وعاد معه الى غزنة فلم يلبث اسحاق أن توفى فاجتمع جنده على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال وكان يدخر من اقطاعه ما يعمل منه طعاما لهم فى كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم استولى على مدينة بست وقصدار . ولما رأى ملك الهند جيبال مادهاه وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فخرج هذا اليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند الى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه الى ذلك على مال يؤديه اليه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها اليه واستقر الأمر على ذلك ولما أبعد ملك الهند ورأى نفسه فى مأمن خاس بعهده فسار سبكتكين نحوه حتى ورد لمغان وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الاصنام وأقام فيها شعار الاسلام ولما علم بذلك جيبال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة فقوى سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الافغان والخلج

وفى سنة ٣٨٤ لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الأمير نوح بن منصور أن يكل أمرها الى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه فكتب اليه وهو بغزنة يطلعه على الاحوال

ويأمره بالمسير اليه لينجده وولاه خراسان فأجاب الى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها ولما بلغ قائدى نوح الخبر وهما فائق وأبو على ابن سيمجور راسلا فخر الدولة بن بويه يستنجدانه ويطلبان منه عسكرا فأجابهما الى ذلك وسير اليهما عسكرا كثيرا وكانت الواقعة بين هذين الجيشين بنواحى هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التى انهزم اليها أبو على وفائق فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح ابن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة واقب أباه ناصر الدولة فأحسنا السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح الى بخارى وسبكتكين الى هراة

الما علم أبو على بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع فى استردادها فقدم اليها ومعه فائق فخرج اليهما محمود وقاتلهما ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهما قاصدا أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى ممدا لابنه فتقابلت جنوده مع جنود أبى على بنواحى طوس فانهزم أبو على هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين

وفى سنة ٣٨٧ توفى سبكتكين بين بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام عشرين سنة وكان عادلا خيرا كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء وعهد بالملك من بعده لابنه اسمعيل وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند وأرسل اليه محمود من نيسابور يقول له ان أباك انما عهد اليك لبعدى عنه وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وانفاذ ما يخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعيا الى أن

محمودا قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له الملك عاد الى بلخ ومحمود هـذا هو ثالث آل سبكتكين وواسطة عقدهم لقبه الخليفة القادر بيمين الدولة . وكانت هنالك بعض مناوشات بينـه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له فى خراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب للقادر بالله سـنة ٣٨٩ وجعل أخاه نصراً قائدا لجند نيسابور وسار هو الى بلخ فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الاطراف على طاعته

كان عهد محمود عهـد ارتفاع وقوّة فوسع أملاكه فقـد كانت فى الاصل بلاد غزنه ثم انضم اليها بلاد الغور وهى جبال وولاية بين هراة وغزنة وأكبر ما فيها قلعة يقال لهـا فيروزكوه . ثم أدخل جزأ عظيما من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصـل الى قشمير فأسـلم صاحبها على يده وأسـلم كذلك كثير من ملوك الهند وقد عبر نهر الـكنج فى فتوحاته . ومن الجهة الاخرى ضمت اليه خراسان والرى والجبال ودانت له ملوك طبرستان وجرجان ولم يزل فى عزه وسلطانه الى أن أدركته الوفاة سـنة ٤٢١ وعهد بالملك من بعـده لابنه محمـد وكان أصغر من مسعود ولقب بجلال الدولة الا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود فسار اليه وأخـذ الملك منـه وتوفى القادر بالله والملك فى آل سبكتـكين لمسعود بن محمود بن سبكتكين وقد استمرت الدولة فى أعقاب هذا البيت الى سنة ٥٨٢ وهذا ثبت ملوكها

(١) سبكتكين	٣٦٦ — ٣٨٧
(٢) اسماعيل بن سبكتكين	٣٨٧ — ٣٨٨

(٣) يمين الدولة محمود بن سبكتكين ٣٨٨ — ٤٢١

(٤) جلال الدولة محمد بن محمود ٤٢١ — ٤٢١

(٥) ناصر دين الله مسعود بن محمود ٤٢١ — ٤٣٢

(٦) شهاب الدولة مودود بن مسعود ٤٣٢ — ٤٤٠

(٧) مسعود بن مودود ٤٤٠ — ٤٤٠

(٨) بهاء الدولة أبو الحسن علي بن مسعود بن محمود ٤٤٠ — ٤٤٠

(٩) عز الدولة عبد الرشيد بن محمود ٤٤٠ — ٤٤٤

(١٠) جمال الدولة فرخزاد بن مسعود بن محمود ٤٤٤ — ٤٥١

(١١) ظهير الدولة ابراهيم بن عبد الرشيد ٤٥١ — ٤٩٢

(١٢) علاء الدولة مسعود بن ابراهيم ٤٩٢ — ٥٠٨

(١٣) كمال الدولة شيرزاد بن مسعود ٥٠٨ — ٥٠٩

(١٤) سلطان الدولة ارسلان بن مسعود ٥٠٩ — ٥١٢

(١٥) يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود ٥١٢ — ٥٤٧

(١٦) معز الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه ٥٤٧ — ٥٥٥

(١٧) تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه ٥٥٥ — ٥٨٢

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية

وكان بجرجان من الدولة الزيادية شمس المعالى قابوس بن وشمكير الى سنة ٤٠٣ ثم فلك المعالي منوجهر بن بستون بن وشمكير الى سنة ٤٢٠ ثم أنوشروان بن قابوس الى سنة ٤٣٤ وهو الذي انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية

أما السلطان ببلاد العراق فكان لأربعة ملوك من آل بويه يتلو أحدهم الآخر

الاول بهاء الدولة أبو نصر عضد الدولة وهو الذى ولى القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وآذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته سنة ٤٠٣ وكان فى سلطانه العراق والاهواز وفارس وكرمان

الثانى سلطان الدولة أبو شجاع ابن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه بل كان عهد ضعف واستكانة فان جنده ما كانوا يطيعونه وكثيرا ما شغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سبباً لقيام أخيه وهو

الثالث شرف الدولة أبو على بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك العراق فخطب له ببغداد فى آخر المحرم سنة ٤١٢ ونفى سلطان الدولة عن العراق فذهب الى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الاخوان على أن يكون لمشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان الا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فانه توفى سنة ٤١٥ بشيراز وخلفه ابنه أبو كاليجار وفى ربيع الاول سنة ٤١٦ توفى شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلا حسن السيرة

الرابع جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان اذ ذاك بالبصرة واليا عليها وطلب الى بغداد فلم يصعد اليها وانما بلغ واسطا وأقام بها ثم عاد الى البصرة فقطعت خطبته وخطب لابن أخيه أبى كاليجار بن سلطان الدولة الذى كان صاحب الأهواز

وكان بها وراسله الجند فى ذلك فوعدهم أن يجىء ولكنه تأخر لما كان بينه وبين عمه أبى الفوارس صاحب كرمان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلطان وكثر شر الاتراك بها ولما رأى ذلك عقلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصعد اليهم فيملك أمرهم وخطبوا باسمه فى جمادى الاولى سنة ٤١٨ فاعتم أن صعد اليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال مايضمن راحتهم وراحته فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونه وكان ينازعه أخوه أبو كاليجار . وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع

لم يكن للخليفة القادر بالله شىء من السلطان كمن مضى فى عهد سلاطين ابن بويه الا انه ضعف البيت المالك أحيا له شيئا من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك فقد كان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتابا على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين واذا وصل اليه حال أمر فيه بالحق

وكان فى زمنه احداث عظام فى جمع الاصقاع الاسلامية من قيام دول وابادة أخرى وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه الا ما كان من البلاد التى تحت يد الدولة العلوية المصرية فانها كانت تخطب باسم أئمتها ومع ذلك فان المعز بن باديس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده

توفى القادر بالله فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوما

(٢٦) القائم

هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقى خليفة الى ... شعبان سنة ٤٦٧ (٢ ابريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته ٤٤ سنة و٢٥ يوما

كان سلطان العراق لاول عهده جلال الدولة بن بهاء الدولة ولم يكن أمره فى ... بغداد لكثرة شغب الغلمان والاتراك عليه طالبين مرتباتهم التى لم يكن يقدر على أدائها فى أوقاتها لقلة الوارد عليه فلم تجيء سنة ٤٢٦ الا وقد انحل أمر الخلافة والسلطنة جميعا ببغداد حتى ان بعض الجند خرجوا الى قرية يحيي فلقيهم أكراد فاخذوا دوابهم فعادوا الى قراح الخليفة فنهبوا شيئا من ثمرته وقالوا للعمال فيه أنتم عرفتم حال الاكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ اولئك الاكراد لعجزه ووهنه واجتهد فى تسليم الجند الى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة الى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه والى الشهود بترك الشهادة والى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى ذلك جلال الدولة سأل اولئك الاجناد ليجيبوه الى أن يحملهم الى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا اليها أطلقوا وعظم أمر العيارين وصاروا يأخذون الاموال ليلا ونهارا ولا مانع لهم لان الجند يحمون على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر العرب فى

البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا الى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء فى المقابر

ولكثرة تشغيب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطا فى أمر الصلح ومع ماظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيبته سأل الخليفة القائم سنة ٤٣٢ أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ اليهم السلاطين فى مثل ذلك فافتى بالجواز القاضى أبو الطيب الطبرى والقاضى أبو عبد الله الصيرفى والقاضي ابن البيضاوى وأبو القاسم الكرخي وامتنع من الفتيا قاضى القضاة أبو الحسن الماوردى وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردى من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد الى دار المملكة كل يوم فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفا وأقام منقطعا من شهر رمضان الى يوم عيد النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفا فادخله وحده وقال له قد علم كل أحد انك من أكثر الفقهاء مالا وجاها وقربا منا وقد خالفتهم فيما خالف هواى ولم تفعل ذلك الا لعدم المحاباة واتباع الحق وقد بان لى موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزاء ذلك اكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت أذن الحاضرين اليك ليتحققوا عودى الى ما تحب فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالانسان قول الحق حسبما يعتقد لايخشى فى ذلك لومة لائم ولاغضب سلطان

قضي جلال الدولة حياته فى منازعات بينه وبين جنوده وبينه وبين

أبي كاليجار الى أن توفى سنة ٤٣٥ بعد ملك مدته ١٦ سنه و ١١ شهرا قال ابن الاثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ملكه الى هذه الغاية علم أن الله على كل شئ قدير يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء وكان يزور الصالحين ويتقرب منهم وزار مرةمشهدي علي والحسين عليهما السلام وكان يمشي حافيا قبل أن يصل الى كل مشهد منهما نحو فرسخ يفعل ذلك تدينا

استقر في الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محيي الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر بل كان النزاع كثيراً مايستحكم بين الديلم عنصر السلطان و بين الاتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبي كاليجار سنة ٤٤٠

بويع بالسلطان بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب الى ذلك وقال لايجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى فأبى الا أن يكون ذلك لقبه فكان ماأراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر سلطانا حتى ورد الى بغداد السلطان طغرلبك فازاله عن ملكه و نفاه الى قلعة السيرجان و بذلك انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شئ من الصلاح للبلاد بل زادتها فسادا وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع ان أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيرا ما يقع بين الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لانه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيرا ما يدعو الى وقوف بعضهم

ازاء بعض متحاربين وعلى الجملة فان البلاد التى اسولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئا على طول مدتهـم وضخامة دولتهم وأجل هـذه المدة عهد عضد الدولة فناخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبرى عشيرة السلاجقة تنسب الى مقدمها سلجوق ابن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم فى بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغو وكان تقاق مقدم العشيرة الى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الاقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الجند (شباسى) وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر الى ديار الاسلام واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزاً الى عزه وأقام بنواحى جند (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك

فى تلك الاوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهرون بن ايلك خان وقد استولى هرون على بعض بلاده فرأي أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد سلجوق فأنجده بابنه ارسلان فى جمع من أصحابه فقوى بهم السامانى واسترد من خصمه ما أخذه وهـذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية

لم يزل سلجوق بجند حتى توفى وكان له ثلاثة من الأولاد وهم ارسلان وميكائيل وموسى

فأما ميكائيل فغزا غزوة فى بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغو وطغرلبك محمد وجغرى بك داود فأطاعتهم عشيرتهم

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها فخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الايقاع بهم فالتجؤا الى بغرا خان ملك تركستان وأقاموا فى بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلبك وداود انهما لا يجتمعان عند بغرا خان حذرا من مكر يمكره بهم وكان بغرا خان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلبك وأسره فثار داود فى عشائره ليخلص أخاه فأنفذ اليه بغرا خان عسكرا فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلبك من الأسر وانصرف الى جند

لما انقرضت دولة السامانية سنة ٣٨٩ وملك ايلك خان عظم محل ارسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية فى حبس ارسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع ارسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما ايلك فهزماه وبقيا ببخارى

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر الى بخارى للاستيلاء على بلاد ماوراء النهر هرب على تكين من بخارى وأما ارسلان بن سلجوق وجماعته فانهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتهم ما هاله وأراد أن يستعمل معهم الحيلة فكاتب ارسلان واستماله ورغبه فورد عليه فلم يكن من محمود الا أن قبض عليه وسجنه فى قلعة ونهب خركاهاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم فى بلاد خراسان فلم يطمئنوا بها

من جور العمال عليهم فسار منهم أهل ألفي خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها الى اذربيجان ودخلوا مراغه سنة ٤٢٩ وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الامر على أهلها واشتد بهم البلاء

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم ورأى الغز أنهم لا مقام لهم هنالك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت الى الرى ومقدمهم بوقا وطائفة أخرى سارت الى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش

أما الذين ذهبوا الى الري فانهم استولوا عليها ونهبوها نهبا فاحشاً وسبوا النساء وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرم الى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى

وأما الذين ساروا الى همذان فانهم ملكوها أيضا من يد بنى بويه سنة ٤٣٠ ولما دخلوها نهبوها نهباً منكرا لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظاً منهم وحنقا عليهم حيث قاتلوهم أولا وأخذوا الحرم وضربت سراياهم الى أسداباذ وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد

ولم يزالوا على هذا الافساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج ابراهيم ينال أخو طغرلبك الى الرى فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فعلوا بها أولا ولان ابراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لانهم كانوا له ولأخيه طغرلبك رعية فساروا الى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوها ونهبوا أعمالها الى أن بذل لهم سليمان مالا ليفارقوا

عمله . إذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية فانهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه ووصل قرواش الى مدينة السن وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب النجدة واستنجد أيضا دبيس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب والاكراد

عمل الغز بأهل الموصل الاعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب المال ولما اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيرا فخرج الغزو عسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا اليها متفقين فوضعوا السيف فى أهلها وأسروا كثيرا ونهبوا الاموال وأقاموا على ذلك اثنى عشر يوما يقتلون وينهبون

لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان الي طغرلبك يشكوان ماحل بالبلاد من تلك الفئة

بقى قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار الى الموصل وبلغ الخبر الغز فتهيئوا للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولا للغز ثم نصر الله العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وخركاهاتهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش الى نصيبين ثم عاد عنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيثون فسادا ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم ويسمي التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية وهى بقايا من كان مع ارسلان بن سلجوق

أما من كان مع أولاد ميكائيل بن سلجوق فانهم أقاموا بنواحى بخاري كما قدمنا فغص بمكانهم أمير بخارى على تكين فاعمل الحيلة فى

الظفر بهم فأرسل الى يوسف بن موسى بن سلجوق ومناه الاحسان وفوض اليه التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ولقبه بالامير اينانج بيغو وأراد بذلك ان يستعين به وبعشيرته على ابنى عمه طغرلبك وداود وان يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الحيلة على يوسف فلم يكن من على تكين الا ان قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم قتله على ابنى عمه فجمعا قومهما للاخذ بثاره وجمع على تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم احتشد علي تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم الى عبور النهر نحو خراسان فكتب اليهم خوارزمشاه هرون بن التونتامش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا اليه وخيموا بظواهر خوارزم سنة ٤٢٦ واطمأنوا الى خوارزمشاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعا فساروا عن خوارزم الى مفازة نسا ثم كتبوا الى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الامان ويضمنون ان يكونوا عونا له على من يعاديه فلم يفعل وسير اليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم ان هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل اليهم يتهددهم ويتوعدهم فكتب اليهم طغرلبك هذه الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير) فلما ورد الكتاب على مسعود كتب اليهم ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم ان يرحلوا الي آمل على شاطىء جيجون وينهاهم عن الشر والفساد واقطع داهستان لداود وداهستان مدينة عند مازندران بناها عبد الله بن طاهر

بين جرجان وخوارزم آخر حدود طبرستان) واقطع نسا لطغرلبك واقطع فراوة لبيغو وفراوة بلدة مما يلي خوارزم بناها عبدالله بن طاهر . استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له ان هؤلاء القوم اذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعا ثم ساروا منها الى مدينة غزنة فايقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة فى أهلها وخطب له بها أول جمعة فى رجب سنة ٤٢٨ ولقب فى الخطبة بملك الملوك . جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودي وانهزم أقبح هزيمة وسار أخزى سير الى هراة فتبعهم داود الى طوس وكانت هذه الواقعة هى التى ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغرلبك نيسابور وخطب له بها فى شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا النواب فى النواحى

علم ذلك مسعود فاضطر ان يسير بنفسه من غزنة فى جيوش عظيمة حتى وصل بلخ ومنها سار فى أول رمضان سنة ٤٢٩ واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود ان ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر مالا يدخل تحت الاحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبك الى نيسابور فملكها ثانية آخر سنة

٤٣١ وسكن الناس وطمأنهم بعد ان كانوا فى شدة من الفوضى ثم ملك داود بلخ وفى سنة ٤٣٣ ملك طغرلبك جرجان وطبرستان من يد أنو شروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير . وفى سنة ٤٣٤ ملك خوارزم

لما تم له ذلك سار يريد الرى وبلاد الجبل وكان قد سبقه اليها أخوه لامه ابراهيم ينال واستولى على الرى فلما سمع بقدومه سار اليه وسلمه اياها وجميع ماملك من بلاد الجبل فأمر طغرلبك بعمارة الري وكانت قد خربت ثم سار الى قزوين فملكها صلحا وملك أيضا همذان

وبذلك تم له ملك اصقاع كبيرة من البلاد الاسلامية وهى خوارزم وخراسان وبلاد الري ووصلت طلائع جنوده الى البلاد العراقية . أهم ذلك الملك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد من نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل الى طغرلبك فى الصلح فاجابه اليه واصطلحا وكتب طغرلبك الى أخيه ابراهيم ينال يامره بالكف عما وراء ما بيده واستقر الحال على ان يتزوج طغرلبك بابنة أبى كاليجار ويتزوج الامير أبو منصور ابن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك وتم هذا فى ربيع الاول سنة ٤٣٩ وفى سنة ٤٤١ خطب لطغرلبك بديار بكر خطب له بها نصر الدولة ابن مروان صاحبها وفى سنة ٤٤٢ استولى على اصبهان ثم أطاعته اذربيجان وأرسل اليه من بها من الامراء يبذلون له الطاعة والخطبة فابقى بلادهم بايديهم وأخذ رهائنهم . ثم سار الى ارمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فحصرها وأخرب ماحولها وأثر فى بلاد الروم آثارا عظيمة وبلغ فى غزوته هذه الى ارزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد الى

أذر بيجان ثم توجه الى الري فاقام بها الي سنة ٤٤٧

فى هـذا الوقت كانت الأحوال سيئة فى بغـداد فان آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لامن عدو طارئ ولا من عياريها ولصوصها فأعدوا الجمهور لقبول مايغير من هذه الحال . ومما زاد الحال فساداً ما كان من أمر أبي الحارث ارسلان المعـروف بالبساسيرى وهو غلام تركي من مماليك بهاء الدولة فانه أراد أن يزيل الخلافة عن بني العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسي عنـده علم ذلك فكتب الى السلطان طغرلبك مستنجدا مستغيثا وكانت هذه أمنيته فأظهر انه يريد الحج واصلاح طريق مكة والمسير الى الشام ومصر وازالة المستنصر العلوى صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم باعداد الاقوات والعلوفات فعظم الارجاف ببغداد وفت فى أعضاد الناس . وصـل طغرلبك الي حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس الى غربى بغداد وأرسل طغرلبك الى الخليفة يبالغ فى اظهار العبودية والطاعة والى الاتراك البغداديين يعـدهم الجميـل والاحسان فاتفق من ببغداد من الرؤساء والامراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلا تقدم الخليفة الي الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغـداد فخطب له في يوم الجمعة ٢٢ محرم ٤٤٧ ودخلها طغرلبك فى الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بني بويه وهو الملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هـذه الدولة الجـديدة الفتية وهى دولة السلاجقة

هـذه العشيرة استولت على جل ماملكه المسلمون وقد انقسمت الى خمس بيوت

الأول السلاجقة العظمى وهى التى كانت تملك خراسان والرى والجبال والعراق والجزيرة وفارس والاهواز

الثانى سلاجقة كرمان

الثالث سلاجقة العراق

الرابع سلاجقة سوريا

الخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين أبو طالب طغريل بك وحياتها ٩٣ سنة من سنه ٤٢٩ (١٠٣٩) م الى سنة ٥٢٢ (١١٥٧) م وهذا ثبتها

(١)	ركن الدين أبو طالب طغريل بك من	٤٢٩ — ٤٥٥
(٢)	عضد الدين أبو شجاع الب ارسلان	٤٥٥ — ٤٦٥
(٣)	جلال الدين أبو الفتح ملكشاه	٤٦٥ — ٤٨٥
(٤)	ناصر الدين محمود	٤٨٥ — ٤٨٧
(٥)	ركن الدين أبو المظفر بركياروق	٤٨٧ — ٤٩٨
(٦)	ركن الدين ملكشاه الثانى	٤٩٨ — ٤٩٨
(٧)	غياث الدين أبو شجاع محمد	٤٩٨ — ٥١١
(٨)	معز الدين أبو الحارث سنجر	٥١١ — ٥٥٢

وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاورت بك بن داود بن

ميكائيل بن سلجوق وهو أخو الب ارسلان ومدة ملكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٣ (١٠٤١) م الى ٥٨٣ (١١٨٨) م وهذا ثبت ملوكها

(١) عماد الدين قرا ارسلان قاورت بك	٤٣٣ — ٤٦٥
(٢) كرمانشاه	٤٥٦ — ٤٦٧
(٣) حسين	٤٦٧ — ٤٦٧
(٤) ركن الدين سلطانشاه	٤٦٧ — ٤٧٧
(٥) تورانشاه	٤٧٧ — ٤٩٠
(٦) ارانشاه	٤٩٠ — ٤٩٤
(٧) ارسلانشاه	٤٩٤ — ٥٣٦
(٨) مغيث الدين محمد الاول	٥٣٦ — ٥٥١
محيي الدين طغريل شاه بهرامشاه	٥٥١ — ٥٦٣
ارسلانشاه الثانى	
طرخان شاه	
محمد الثانى	٥٦٣ — ٥٦٣

وقد انقرضت دولتهم على أيدى النز التركمان

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ (١١١٧) أى من عهد وفاة غياث الدين أبى شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت سنة ٥٩٠ (١١٩٤) فبقيت ٧٩ سنة وانقرضت على أيدى شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها

(١)	مغيث الدين محمود	٥١١ — ٥٢٥
(٢)	غياث الدين داود	٥٢٥ — ٥٢٦
(٣)	طغريل الاول	٥٢٦ — ٥٢٧
(٤)	غياث الدين مسعود	٥٢٧ — ٥٤٧
(٥)	معين الدين ملكشاه	٥٤٧ — ٥٤٨
(٦)	محمد	٥٤٨ — ٥٥٤
(٧)	سليمانشاه	٥٥٤ — ٥٥٦
(٨)	ارسلانشاه	٥٥٦ — ٥٧٣
(٩)	طغريل الثانى	٤٧٣ — ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٧ (١٠٩٤) أى فى أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاحقة العظمى وانتهت سنة ١١٥ (١١١٧) فكانت حياتها ٢٤ سنة وانتهت على أيدى الدولتين البورية والارتقية وهذا ثبت ملوكها

(١)	تتش بن الب ارسلان	٤٧٨ — ٤٨٨
(٢)	رضوان بن تتش	٤٨٨ — ٥٠٧
(٣)	تقاق بن تتش فى دمشق	٤٨٨ — ٤٨٧
(٤)	الب ارسلان أخرس بن رضوان	٥٠٧ — ٥٠٨
(٥)	سلطانشاه بن رضوان	٥٠٨ — ٥١١

وأما سلاجقة الروم ملوك قونيه واقصرا فكانوا من بيت قطلمش ابن اسرائيل بن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) فى عهد

جلال الدين أبي الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) فمدة حياتها ٢٣٠ سنة فهي أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدى الاتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها

(١)	سليمان بن قطلمش	٤٧٠ — ٤٨٥
(٢)	قليج ارسلان داود بن سليمان	٤٨٥ — ٥٠٠
(٣)	ملكشاه بن قلج ارسلان	٥٠٠ — ٥٠١
(٤)	مسعود بن قلج ارسلان	٥١٠ — ٥٥١
(٥)	عز الدين قليج ارسلان بن ملكشاه	٥٥١ — ٥٨٤
(٦)	قطب الدين ملكشاه بن قليج ارسلان	٥٨٤ — ٥٨٨
(٧)	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٥٨٨ — ٥٩٧
(٨)	ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان	٥٩٨ — ٦٠٠
(٩)	قليج ارسلان بن سليمان	٦٠٠ — ٦٠١
	غياث الدين كيخسرو بن قلج ارسلان ثانيا	٦٠١ — ٦٠٧
(١٠)	عز الدين كيقاوس بن ملكشاه	٦٠٧ — ٦١٦
(١١)	علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه	٦١٦ — ٦٣٤
(١٢)	غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ	٦٣٤ — ٦٤٣
(١٣)	عز الدين كيقاوس بن كيخسرو	٦٤٣ — ٦٥٥
(١٤)	ركن الدين قليج ارسلان بن كيخسرو	٦٥٥ — ٦٦٦
(١٥)	غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٦٦٦ — ٦٨٢
(١٦)	غياث الدين مسعود بن كيقاوس	٦٨٢ — ٦٩١

(١٧) علاء الدين كيقباذ ٦٩١ — ٧٠٠

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ أى ١٤٣ سنة

استخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم

٢٦ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر

٢٧ عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم

٢٨ أحمد المستظهر بن المقتدى

٢٩ الفضل المسترشد بن المستظهر

٣٠ المنصور الراشد بن المسترشد

٣١ محمد المقتفى بن المستظهر

٣٢ يوسف المستنجد بن المقتفى

٣٣ الحسن المستضىء بن المستنجد

٣٤ أحمد الناصر بن المستضيء

وأولهم القائم بأمر الله هو الذى فى عهـده انتهى العصر البويهى وابتـدأ ملك البيت السلجوقى وآخرهم الناصر لدين الله هو الذي انتهى فى عصره ملك السلاجقة

ملك السلطان طغرلبك بغداد وتقرب من الخليفة تقربا عظيما حتى أن الخليفة تزوج ارسلان خاتون واسمها خديجة بنت داود أخى طغرلبك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفـة وتسلمتها وأحضرتها الى

داو الخلافة . ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحدبل ان السلطان طغرلبك تطلع الى أن يتزوج هو أيضاً من البيت العباسى وهو أمر لم تجر به عادة فأرسل سنة ٤٥٣ يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل الى السلطان رسولا أمر أن يستعفى من الاجابة فان أعفى والا تمم الامر على أن يحمل السلطان ٣٠٠,٠٠٠ دينار ويسلم واسط وأعمالها فلما وصل الرسول قال له عميد الملك الكندرى وزير طغرلبك لايحسن أن يرد السلطان وقدسأل وتضرع ولا يجوزمطالبته أيضاًبطلب الاموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ماطلب منه ففوض الرسول الامر الى الوزير فبنى الوزير الامر على الاجابة وطالع السلطان بذلك فسر به وجمع الناس وعرفهم ان همته سمت به الى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك مالم يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن يسير الى بغداد لاتمام ذلك فلما ورد الوزير بغدادرأى من الخليفة امتناعا ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الامر الى عميد الملك فحضر الى دار الخلافة ومعه جمع من الامراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة اسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ماشرف به العبدالمخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الامر يفضى الى فساد ولما رأى الخليفة شدة الامر أذن فى العقد ووكل فيه عميد الملك فجرى العقد فى شعبان سنة ٤٥٤ بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالا كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولى العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل يعقوبا وما كان بالعراق للخاتون زوجة السلطان التى توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان الى بغداد

فاراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت الى دار المملكة فى منتصف صفر سنة ٤٥٥ وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان اليها وقبل الارض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئا كثيرا من الجواهر وغيرها وبقى كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الامراء وظهر عليه كثير من السرور

الحادث العظيم ببغداد

فى السنة التي تلى حكم السلاجقة ببغداد وهى سنة ٤٤٨ كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيرى ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد الاسدى وبين قريش بن بدران العقيلى ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك انهزم فيها قريش وقتامش فوصل خبر هذه الواقعة الى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهرا لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الامر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها الى أخيه لامه ابراهيم ينال ثم عاد الى بغداد فى أوائل سنة ٤٤٩ وقابل الخليفة لاول مرة وفوض اليه الخليفة أمر ادارة البلاد وقد بالغ طغرلبك فى احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم اشارة الى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد سيفا محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركا فعل مافعل من ذلك التعظيم والاجلال تدينا

في سنة ٤٥٠ ترك ابراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال ان المصريين كاتبوه وأطمعوه في الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراءه الى همذان . في ذلك الوقت عاد البساسيرى بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى وصل الى بغداد في ثامن ذى القعدة سنة ٤٥٠ واستولى عليها لانه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوى صاحب مصر وأذن بحي على خير العمل وكانت العامة قد مالت اليه أما الشيعة فلاتحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الاتراك

أما الخليفة القائم فانه خرج من قصره في ذمام رئيس العرب قريش ابن بدران العقيلى استذم منه بذمام الله وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية فاعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فاعطاها الخليفة ثم حمله الى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله في خيمة ثم سلمه الى ابن عمه مهارش بن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله في هودج وسار به الى حديثة عانة فتركه بها آمنا مطمئنا في ذمام العربية الذى يرى الخيانة عاراً

أما البساسيرى فانه سار ببغداد سيرة مالك ورفعت على رأسه الالوية البيضاء التى أرسلت اليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على

أما السلطان فانه استنجد باولاد أخيه ارسلان وياقوتى وقاورت بك فجاؤه بالعساكر يتلو بعضها بعضاً فلقى بهم أخاه ابراهيم ينال بالقرب من الرى فتغلب عليه وأسره ثم أمر به نخنق بوتر قوسه في تاسع جمادى

الآخرة سنة ٤٥١ ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم الا اعادة القائم بامر الله الى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيري انه لاقبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله اليها سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ وخروجها منها سادس ذى القعدة سنة ٤٥١ وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق امام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فُورك الى قريش بن بدران يشكره على مافعله بالخليفة ويخبره انه أرسل ابن فورك للقيام بخدمة الخليفة واحضاره فارسل قريش الى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكشف بلاء الغز عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك الى البرية فانهم اذا علموا ان الخليفة عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فابى ذلك مهارش وقال ان الخليفة قد استحلفنى بعهود ومواثيق لامخلص منها وسار بالخليفة الى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معا حتى وصلوا الى النهروان فى ٢٤ ذي القعدة فخرج السلطان الى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الارض بين يديه وهنأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر من تأخره بعصيان أخيه ابراهيم وانه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفاً وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الامراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعاً الى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذي القعدة سنة ٤٥١

ثم أنفذ السلطان جيشا لملاحقة البساسيرى الذى توجه سمت الشام وسار السلطان في اثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه

وقتلوه وحملوا رأسه الي بغـداد وكان البساسيري هـذا مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمى تقلبت به الامور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحرث وهو منسوب الي بسا مدينـة بفارس كان سيده الاول منها

وبعـد أن تم ماأراده عاد الى الرى التى جعلت دار ملـكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة . وفى سنة ٤٥٥ عاد الى بغـداد ليبنى بابنـة الخليفة التى ذكرنا فيما مضى حـديثها ثم عاد الى الرى وبها كانت وفاته فى يوم الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥

ولما توفى أراد عميد الملك أن يقيم فى الملك بعده ابن أخيه سليمان ابن داود ولـكن لم يتهيأ له ماأراد وتم الامر للسلطان

(٢) عضد الدولة أبى شجاع الب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيـل ابن سلجوق وقد عارضه فى الملك ابن عم أبيه قتلمش بن اسرائيل فقتل دون مراده . استعان الب ارسلان فى ادارة ملـكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتى التعريف به وبما نال المملـكة من الخير العميم على يديه

كان الب ارسلان بعيد الهمـة ثاقب العزم ميمون النقيبة الى بره بالرعية وارادته خيرهم وكان اذا أمر ببناء أوعز بأن يكون اسمى بنيان ويقول آثارنا هذه تدل على علو همتنا وفور نعمتنا . وكانت أظهر أعمـاله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده سنة ٤٦٢ ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبى حاميتها فاساء ذلك الب ارسلان ولاسيما انه بلغه ان الروم عازمون على اعادة الـكرة فاغذ السير الى إذربيجان لانه سمع ان ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لايحصون كثرة ولما قارب خلاط

أرسل اليها بعشرين الف فارس فوقف فى أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك فى رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ونزل على ملاز كرد فسلمت حاميتها . حصل ذلك والعسكر السلطانى مجد فى سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان فى اليوم الذى سلمت فيه حامية ملاز كرد وكان نزول عسكره فى يوم الخميس ٦ ذى القعدة والروم بين خلاط وملاز كرد فأرسل السلطان الى ملك الروم يقول له ان كنت ترغب فى الهدنة أتممنا ماتريد والا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا فظن ملك الروم ان صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالري فكان ذلك مما الهب النفوس الاسلامية وزادها حمية وقال امام السلطان أبو نصر محمد بن عبدالملك البخارى الحنفى للسلطان انك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر . فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لانه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها فى نقطة لاتبرحها السكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم اشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم اليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من امامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الاثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منها منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه الف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجراً وزنه بالرطل الكبير الخلاطي قنطار وكثر عدد الاسرى

من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت ١٢ خوذة بسدس دينار وثلاثة أدراع بدينار

وعاد السلطان مؤيداً ظافراً بعد هذه الواقعة التى لم تقم للروم بعدها قائمة في نواحى أرمينية

وكان عهد الب ارسلان كله عهد نمو وارتقاء فى دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضا فان نظام الملك أسس فى عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها سنة ٤٥٨ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو اسحاق الشيرازى ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفى المملكة ببغداد بنى على ضريح أبي حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهداً ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة

ألم تر هذا العلم كان مشتتا — فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الارض ميتة — فأنشرها فضل العميد أبى سعد

وفي سنة ٤٦٥ توجه الب ارسلان قاصدا بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته حكي عنه أنه قال وهو يقرب من الموت ما كنت قط فى وجه قصدته ولا عدو أردته الا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما فى هذه النوبة فانى أشرفت من تل عال فرأيت عسكرى فقلت أين من له قدر بمصارعتي ومعارضتى وانى أصل بهذا العسكر الى بلاد الصين فكان ما أراد الله وكانت وفاته ٦ ربيع الاول سنة ٤٦٥

ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه

ولأوائل حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ فقام بالامر بعده ولي عهده حفيده

(٢٧) المقتدى بامر الله

أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فان الذخيرة توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القادرى الى غيره ولم يشكوا فى اختلال الاحوال بعد القائم لان من عدا البيت القادرى كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقة فلو اضطر الناس الى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولا هيبة فقدر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها ارجوان وكان يلم بها فلما توفى ظهر انها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبد الله الذى ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة الى أن توفى فجأة فى يوم السبت خامس محرم سنة ٤٨٧ (   ) فكانت خلافته ١٩ سنة وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بنى العباس كان قوى النفس عظيم الهمة أصلح كثيرا من الاحوال الادبية ببغداد فأمر بنفى المغنيات والمفسدات منها وقلع الهرادى والابراج التى للطيور ومنع من اللعب بها لاجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيرا من الماديات فعمرت فى بغداد عدة محال فى خلافته ومنع من اجراء ماء الحمامات الى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر الى النجمى فيغسله هناك

وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة فى عهده ملكشاه الذى ذكرنا قيامه بعد أبيه الب ارسلان

وكان ملكشاه سلطانا عادلا ذا فضل وانصاف شجاعا مقداما صائب الرأى والتدبير أيامه فى دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه الي اقليم إلا فتحه ولما توجه الى الشام وانطاكية بلغ الى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل الى خزانته ووضع فى النواحى التى فتحها من الروم خمسين منبرا إسلامياً ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد الى الرى وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار فى ركابه الى موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاد الى ملكه وتوجه فى السنة الثانية الى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب وهذه السعادة كلها انما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبى على الحسن بن على بن اسحاق رضى أمير المؤمنين الطوسى وكان معدودا من العلماء الأجواد وكان محبا للعلم مجلسه دائما معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية فى سائر الامصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول انى لست من أهل هذا الشأن ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فاذا فرغ لا يبدأ بشىء قبل الصلاة وأسقط فى زمنه كثيرا من

المكوس والضرائب وهو الذي أزال لعن الاشعرية من المنابر وكان سلفه عميد الملك الكندرى قد حسن للسلطان طغرلبك التقدم بلعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف اليهم الاشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل امام الحرمين وأبى القاسم القشيري وغيرهما فلما ولى نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء الى أوطانهم

ومن ظريف الاخبار أن نظام الملك كان اذا دخل عليه امام الحرمين وأبو القاسم القشيرى يقوم لهما ويجلس فى مسنده كما هو واذا دخل عليه أبو على الفارمذي يقوم اليه ويجلسه فى مكانه ويجلس هو بين يديه فقيل له فى ذلك فقال ان هذين وأمثالهما اذا دخلوا على يقولون لى أنت كذا وكذا ويثنون على بما ليس فى فيزيدني كلامهم عجبا وتيها وهذا الشيخ يذكر لى عيوب نفسى وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسى لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه . وكان ينظر فى الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد فى أمرها وعلى الجملة فكان غرة في جبين آل سلجوق ومن حسناته حجة الاسلام الامام الغزالى فهو قرينه فى الطلب ازدانت بهما طوس واختالت على ما سواها من بلاد فارس وكان مؤيدا بقرينين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الانشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور بن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأى والتدبير والدهاء والجود . ومع ماظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحا بل ما زالوا فى سعاياتهم حتى نغل ذلك الأديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته

فأنفذ اليه أحد خاصته برسالة واختار عينا يحصى على الوزير ما يفوه به وكان مضمون الرسالة انك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك فكان جوابه عن تلك الرسالة — قولوا للسلطان أن دواتى مقترنة بتاجك فتى رفعتها رفع ومتى سلبتها سلب . فاشتد من ذلك الجواب غيظ السلطان وكان بعد ذلك ان أحد الملاحدة اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك سنة ٤٨٥

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعش بعده إلا ٣٣ يوما وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقى ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف

مات ملكشاه بعد ان اتسع ملكه اتساعا عظيما فخطب له من حدود الصين الى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال الى آخر بلاد اليمن وحملت اليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد . أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد وعمر الطرق والقناطر والمرابط التى في المفاوز وحفر الأنهار الخراب وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطريق مكة وبنى البلد بأصبهان

كان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود . وكان محمود طفلا وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدى أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب الى ذلك على شروط اشترطها الا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الاكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان فتم ما أرادوا وأرسل تقليده الى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه

وكانت وفاته فى ١٥ محرم سنة ٤٨٧

وفاة المقتدى

فى منتصف المحرم سنة ٤٨٧ توفى المقتدى بالله فجأة بعد ان قدم اليه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم ما فيه ولم يمضه

(٢٨) المستظهر بالله

بويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله واستمر خليفة الى أن توفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و١١ يوما وكانت سنه حين توفى ٤١ سنة وستة أشهر وستة أيام

حال الممالك الاسلامية فى عهده

كان بالاندلس والمغرب الاقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف ابن تاشفين (٤٨٠ — ٥٠٠) ثم من بعده ابنه على الى سنة ٥٣٧

وبأفريقية من آل زيرى تميم بن المعز بن باديس الى سنة ٥٠١ ثم يحيى بن تميم الى سنة ٥٠٩ ثم على بن يحيى الى سنة ٥١٥

وبمصر من الفاطميين المستعلى أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد الى سنة ٤٩٥ ثم الآمر بأحكام الله على المنصور بن المستعلى الى سنة ٥٢٤

وبزبيد من الدولة النجاحية الامير جيش بن نجاح الى سنة ٤٩٨ ثم فاتك بن جيش الى سنة ٥٠٣ ثم منصور بن فاتك الى سنة ٥١٧

وبصنعاء ومهره ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمدانى من سنة ٤٩٢

الى سنة ٥٠٢ ثم عبد الله بن حاتم الى سنة ٥٠٤ ثم معن بن حاتم الى سنة ٥١٠ ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماس

وما عدا ذلك من البلدان الاسلامية فى آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة

كان المستظهر بالله من خيار بنى العباس لين الجانب كريم الاخلاق يحب اصطناع ويفعل الخير ويسارع الى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعى لا يرد مكرمة نطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ الى سعاية ساع ولا ملتفت الى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الاغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان اذا بلغه ذلك فرح به وسره واذا تعرض سلطان أو نائب له الى أذى أحد بالغ فى انكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله

أذاب حر الهوى فى القلب ماجمدا	لما مددت الى رسم الوداع يدا
وكيف تسلك نهج الاصطبار وقد	أرى طرائق فى مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به	من بعد ماقد وفى دهرى بما وعدا
ان كنت أنقض عهد الحب فى خلدي	من بعد هذا فلا عاينته أبدا

تولى ملك العراق فى خلافة المستظهر بالله ملكان من آل سلجوق أولهما السلطان أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه ولاول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين بن نظام الملك ولم يكن فيه شئ من كفاية أبيه وكان أخوه عبدالرحيم اليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الاستاذ على بن أبى على القمى وكانوا جميعا سواسية فى النكوب عن جادة

الاعتدال وسياسة المملكة والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك فى شرابه وقد ذهب الجميع الى بغداد واختاروا المقام فيها لاهين بمغانيها وغوانيها . كان ذلك مجرئا عم السلطان تتش بن الب ارسلان صاحب دمشق أن يقوم طالبا السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر واذربيجان ثم بدا له فعاد الى دمشق لما رأى كثيراً من أمرائه ميالين الى مساعدة بركياروق وانتظم الامر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل الا بمقدار ماأعد تتش للامر عدته فعاد سنة ٤٨٧ بجنوده التى أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر واذربيجار وهمذان ثم أرسل الى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل اليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق فى وقعة كانت بينهما ولم يزل الامر على ذلك حتى لم بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمه فى موضع قريب من الري فكانت الهزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك سنة ٤٨٨ واستقام الامر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه بآراء الوزير مؤيد الملك ابى بكر عبدالله بن نظام الملك الذى استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن فى أولاد نظام الملك أكفى منه وكان وحيداً فى بلاغة النظم والنثر ولما هنأ السلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتك وبمن نقيبتك الا أن مدة ذلك الوزير الايمن لم تطل فان أم السلطان كانت متداخلة تداخلا كثيرا فى سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أرسل وبذل أموالا جزيلة فى الوزارة فاجيب اليها وعزل أخوه واعتقل فاحتال حتى خلص من اعتقاله وتوجه الى محمد بن ملكشاه

الذى كان ملكا على اران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره فى مهماته ثم سلم اليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق. والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من اران فى شرذمة يسيرة حتى وصل دار الملك أصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال اليه العساكر فمالوا اليه

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه فى وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الاخوين بل على البيت السلجوقى كله بل على الاسلام جميعا فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستمرة من سنة ٤٩٢ الى سنة ٤٩٧ خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال . الافرنج تحركوا من مرابضهم للاغارة على البلاد الاسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الاسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الاموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعا فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الامراء الاكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وادلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد باذربيجان والخطبة له فيها وبيلاد اران وارمينية وأصبهان والعراق كلها ماعدا تكريت وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعا وأما خراسان فان السلطان

سنجر بن ملكشاه كان يخطب له فى جيمها وهى من حدود جرجان الى ماوراء النهر ولا خيه السلطان محمد — فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوما والطمع من العسكر زائدا أرسل القاضى أبا المظفر الجرجانى الحنفى وأبا الفرج احمد بن عبد الغفار الهمذانى إلى أخيه محمد في تقرير قواعد الصلح فسارا اليه ورغباه فى الصلح وفضيلته وذكرا له ماشمل البلاد من الخراب وطمع عدو الاسلام فى أطراف الارض فأجاب الى ذلك واستقر الامر بينهما على أن بركياروق لايعترض اخاه محمداً فى الطبل والا يذكر معه على سائر البلاد التى صارت له والا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر فى قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذروذ الى باب الابواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهى الحلة وما اليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الاحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فانه توفى فى ثانى ربيع الآخر سنة ٤٩٨

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه إلا أن أمره لم يتم فان عمه محمدا ماعتم أن قدم الى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده وقد حاول أكبر الامراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن الله حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد الى دست ملكه بأصفهان

لم يكن السلطان محمد موفقا لاختيار كبار مملكته وقد كانت الاعمال الكبرى فى دولة آل سلجوق هى

(١) الوزارة (٢) استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفى (٣) الطغراء وهو رياسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والانشاء (٤) الاشراف وعرض الجيش . قال بعض الكتاب في حق السلطان محمد وقد كثر تعجبي من السلطان يتأنق فى تخير كلاب الصيد وفهوده وانما يقتنى منها مايراه موافقا لمقصوده فيسأل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الافاضل والصدور الاماثل من عرفه ذاك وعرفه زاك وعرقه كريم ومجده قديم وطريقه فى الكفاية مستقيم لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار وأجدر بالاختبار فانهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه فى خدمته . ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير واستمر ملك محمد هذا الي سنة ٥١١ حيث توفى فى ٢٤ ذى الحجة وعمره اذذاك ٣٧ سنة وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وقد أطلق فى حياته المكوس والضرائب فى جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الامراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه

فاختير للملك بعد ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد فى ١٣ محرم سنة ٥١٢

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلا بعد وفاة محمد بن ملكشاه فانه توفى فى ١٦ ربيع الآخر فلم يكن بين رحيلهما من هذا العالم الا أقل من أربعة أشهر

كان فى حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة فى المملكة الاسلامية فى

الشرق والغرب فأما فى الشرق فظهور الباطنية وعيثهم في البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما فى الغرب فاغارة الفرنج على البلاد الاسلامية وبدء الحروب الصليبية ولابد أن نشير الى كل من الحادثين بكلمة لنبين كيف كان ابتداؤهما فان استيفاء مايتعلق بهما يرجع الى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لان الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم والافرنج أعداؤهم

الباطنية

لما نجح الفاطميون باقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت الى نواحى الفرات دار فى خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين الى المشرق حتى يعم بقاع الارض ما كهم وكانت الطريقة التى جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة الى الاقطار فيدعون الناس اليهم سراً ويزينون لهم مايدعون اليه بضروب من الزينة التى مهروا فى ابداعها وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشان عليها رجل كبير يعرف بداعى الدعاة ودرجته تلى قاضى القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاما مسنوناً ومن البلاد التى اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعاتهم اليها البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة فى عهد ملكشاه وسبب هذا الرواج انه لم يكن للدولة أصحاب أخبار وكان الرسم فى أيام الديلم ومن قبلهم من الملوك انهم لايخلون البلاد من أصحاب الاخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الاخبار فلما تولى السلطان الب ارسلان فاوضه وزيره نظام الملك فى هذا الامر فأجابه لاحاجة بنا الى صاحب خبر فان الدنيا لاتخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فاذا

نقل الينا صاحب الخبر خبرا وكان على غرض أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق ومن أجل ذلك اسقط السلطان هذا الرسم فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحا وأول ماعرف من أمرهم انه اجتمع منهم ١٨ رجلا بمدينة ساوة وهى مدينة بين الرى وهمذان فصلوا صلاة العيد فقطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم ثم انهم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان مقيما بأصبهان فلم يجبهم الى دعوتهم نخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهو أول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره الى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو أول قتيل منهم . ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحدا منهم فقتله وهى أول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجارا فقتلناه به .

وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهى بين نيسابور واصبهان وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وتقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان الى قاين نخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل تركمانى فوصل الى قاين وأخبر بالخبر فتسارع أهلها الى جهادهم فلم يقدروا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت اطماعهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة اصبهان وهى قلعة بناها السلطان ملكشاه

كان الداعية الاكبر للباطنية بتلك البلاد هو احمد بن عبدالملك بن عطاش فقدموه عليهم وألبسوه تاجا وجمعوا له الاموال ثم ظهر منهم الرئيس الثانى وهو الحسن بن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبدالملك بن

عطاش ثم رحل الى مصر فلقى بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهما ذكيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه فكان أول مافعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهى من نواحى قزوين فى موضع حصين ولم يكن نظام الملك اذ ذاك قد توفى فلما بلغه الخبر بعث الى تلك القلعة عسكرا فحصروا فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعه بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها

ودخل فى حوزتهم أيضا بعض قهستان وطبس وملكوا كذلك قلعة وسنمكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التى جعلوها حصونا لهم ومعاقل . تمكنت أقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم انه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤساؤهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الأمانى الجميلة التى يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجاب . وقد صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبه الناس الى الارتكاس فى عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت الى جميع أصناف الناس التهم ودب الى البراء السقم وتعين على السلطان ان يكاشفهم مدافعا لئلا ينسبه العوام وأهل الدين الى الالحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك فقد اتهمته رعيته بالميل الى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التى

هى مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية ارسلانشاه بن كرمانشاه ابن قاورت بك . ومن المصيبة انه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس فى كل جيل يميل بعضهم الي الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان فى ابادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالالحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس فى هذا المصاب رأى ولا تدبير

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم ذخول واحن فلما قتلوا جماعة من الامراء الاكابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو فى طاعة السلطان محمد أخى بركياروق مثل شحنة اصبهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك اليه واتهموه بالميل اليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمدا انبسط جماعة منهم فى العسكر واستغووا كثيرا منهم وأدخلوهم فى مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد من مخالفيهم لاأمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسرا بل يلبس تحت ثيابه درعا واستأذن السلطان بركياروق خواصه فى الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنيه وأشاروا على السلطان ان يفتك بهم قبل ان يعجز عن تلافى أمرهم وأعلموه مايتهمه الناس به من الميل الى مذهبهم حتى ان عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا فى المصاف يكبرون ويقولون ياباطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان فى قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا

جماعة منهم ولم يفلت منهم الا من لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون الى الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة براء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم ومن الغريب انه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسى مدرس النظامية ورفيق الغزالى فى الطلب والتلمذة لامام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فارسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة فى العلم فاطلق

وفى سنة ٤٩٤ جمع الامير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعا كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار الى بلد الاسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجنيق فخرب كثيراً من سورها وضعف من بها ولم يبق الا أخذها فأرسلوا اليه الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملؤوها دخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد اليهم سنة ٤٩٧ بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقري وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي وفعل بهم الافعال العظيمة ثم ان أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم انهم لا يبنون حصنا ولا يشترون سلاحا ولا يدعون أحدا الى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفى بزغش بعد عوده من هذه الغزاة

وكان تركهم بعد هذا التضييق عليهم داعيا الى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد فوصلوا الى جوار

الرى فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاؤا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئا

وفى سنة ٥٠٠ رأى السلطان محمد ماوصل اليه احمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فان أمره استفحل بالقلعة التى ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الاموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقا كثيرا لايمكن احصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الاذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ونسى أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة اصبهان التى بأيديهم لان الاذى بها أكثر وهى متسلطة على سرير ملكه فخرج اليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلا يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من اصبهان وسوادها لحربهم الامم العظيمة للذحول التى يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الامراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاق الامر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الاقوات ولما اشتد الامر عليهم كتبوا فتوى فيها (مايقول السادة الفقهاء أئمة الدين فى قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وانما يخالفون الامام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وان يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذي) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم فجمعوا للمناظرة ومعهم ابو الحسن على

ابن عبد الرحمن السمنجاني وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز اقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فانهم يقال لهم اخبرونا عن اما مكم اذا أباح لكم ماحظره الشرع أوحظر عليكم ماأباحه الشرع أتقبلون أمره فانهم يقولون نعم وحينئذ تباح دماؤهم بالاجماع وطالت المناظرة فى ذلك ثم ان الباطنية سألوا السلطان ان يرسل اليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصا من العلماء منهم القاضى أبو العلا صاعد بن يحيي شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا اليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وانما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلج حينئذ السلطان فى حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا الى تسليم القلعة على ان يعطوا عنها قلعة خالنجان وهى على سبعة فراسخ من اصبهان وقالوا انا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمى فيه فأشير على السلطان باجابتهم الى ماطلبوا فسألوا ان يؤخرهم الى النوروز ليرحلوا الى خالنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح وان قال أحد عنهم شيئاً سلمه اليهم وان من أتاه منهم رده اليهم فأجابهم اليه وطلبوا ان يحمل اليهم من الاقامة ما يكفيهم يوما بيوم فأجيبوا . وكان قصدهم المطاولة انتظارا لفتق ينفتق أوحادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل اليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع مايحتاجون اليهم فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الاطعمة مايجمعونه ليمتنعوا فى قلعتهم ثم أنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميرا كان يبالغ فى قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان باخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا ان ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم الى أن يصلوا

الى قلعة الناظر بارجان وهى لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم الى طبس وأن يقيم باقيهم فى ضرس من القلعة الى ان يصل اليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم الى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا الى ذلك فنزل منهم جماعة الى الناظر والى طبس وتسلم السلطان القلعة فأخربها ثم ان الذين ساروا الى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذى بقى بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم جدا وشجاعة زائدة وكان قد استأمن الى السلطان انسان من أعيانهم فدله على عورة لهم فأتى بهم الى جانب لذلك السن لا يرام فقال أصعدوا من هنا فقيل انهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال ان الذى ترون أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقى ثمانين رجلا فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من دخل فخرجوا معهم وأما ابن عطاش فاخذ أسيرا فترك أسبوعا ثم قتل هو وولده ومثل بهما وحملت رءوسهما الى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتى عشرة سنة

وكما اهتم بامر ابن عطاش وقلعته كذلك اهتم بامر الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وما معها فقد كان يعلم ان مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم واخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت مايقارب ستا

وعشرين سنة وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبي نسائهم فسير اليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضا ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الامير انوشتكين شيركير صاحب آبه وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها الى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه سار الى الموت فحصرها وكان انو شتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة فى قتالهم مع جودة رأى وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الامراء أشهرا يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل اليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الامر على الباطنية وعدمت عدهم الاقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الامر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون ان يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا الى ذلك وأعادهم الى القلعة قاصدا ان يموت الجميع جوعا وكان ابن الصباح يجري على كل رجل منهم فى اليوم رغيفا وثلاث جوزات فلما بلغ بهم الامر الى الحد الذى لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر الى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركير ان رحلنا عنهم وشاع الامر نزلوا الينا وأخذوا ما أعددنا من الاقوات والذخائر والرأى ان نقيم على قلعتهم حتى نفتحها وان لم يمكن المقام فلا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد مناثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم

الباطنية ما تخلف عندهم

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات الى وفاة السلطان محمد ابن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم

خطر المغرب

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سببا لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحا وافيا فانها حوادث أجيال اذ قد استمر أمرها من سنة ٤٩٠ الى سنة ٦٩٠ أي قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الاسلامية الدولة الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الاتابكية التي تفرعت عن السلاجقة ودولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن في اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم

امتد سلطان السلاجقة على بلاد الروم (أرمينية والاناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشان بقونية وأقصرا وما اليهما وأخذوا بخنق الروم فقعدوا كل حيلة في استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على ما بقي لهم من الأملاك في آسيا . وكان ملك السلاجقة الروميين في أيام تلك الحوادث السلطان قلبج ارسلان داود بن سليمان ابن قتلمش (٤٨٥ — ٥٠٠)

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها في هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن الب ارسلان

وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة في الملك

وكان خليفـة مصر الفاطمى هو المستعلى بالله أبو القاسم أحمـد بن المستنصر (٤٨٧ — ٤٩٥)

كان البيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن الب ارسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للامير سقمان بن ارتق التركمانى فاستمر فى حوزته الى سنة ٤٨٩ وهي السنة التى سار فيها الصليبيون قاصدين في الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدي هؤلاء المغتصبين

وقـد اضطربت كلمة المؤرخين من العـرب فى السبب الذى حدا بأولئك المغيرين الى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والـكثرة فقال فريق منهم ان هذه الحملة كانت فى الاصل موجهة الى شمال افريقية وكانت اذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعـز بن باديس (٤٥٣ — ٥٠١) وكان رجار الصقلى قد قام فى عهده واستولى على صقلية وحارب تميما فى عقر داره حروبا كانت بينهما سجالا ولما بلغ رجار ماعزم عليه الصليبيون لم يعجبه لانه قال اذا وصلوا الىّ أحتاج الى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم الى افريقية وعساكر من عندى أيضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى مايصـل من المـال من ثمن الغلات كل سـنة وان لم يفلحوا رجعوا الى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بي ونقضت عهدى وتنقطع الوصـلة والاسـفار بيننا وبلاد افريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها . ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقـدس لان الجهاد فى تخليصه أعظم أثرا وأبقى فخرا

وقال فريق آخر ان أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلا الى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا الى الفرنج يدعونهم الى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين

وقال فريق من غيرهم ان ملك الروم هو الذى دعا الافرنج الى ذلك لما خاف على دولته من السلاجقة فانهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل

والذي عليه جمهور المؤرخين أن النيرة الدينية التى أثارها فى أوربا بطرس الراهب بمساعدة البابا أوربانس الثانى هى التى هاجت أنفس الافرنج لهذه الاغارة

وكل هذه الاسباب لا يبعده العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضا والافرنج يميلون الى جعلها حربا دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية فى ذلك العصر

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذى فيه آثار المسيح عليه السلام فعاد الى أوربا شاكيا باكيا مستغيثا متضرعا واستعان بسلطان البابا أوربانس الثانى الذى كان اذ ذاك صاحب الكلمة العليا فى أوربا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية فى قلوب المسيحيين فنجح فى ذلك ولا سيما انه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع فى هذه الحرب فتألف جيوش عظيمة سارت الى طلبتها فى ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره الا أن هذه

الحملة لم تنجح فى مسيرها لانها لم تكن ذات نظام عسكرى فعاثت فى الارض فساداً فقاومها البلغاريون والهونغوريون وأفنوا كثيراً منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية الى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج ارسلان عند قونية فلم ينجح منهم أحد وهذه هى الحملة الاولى من الحرب الصليبية الاولى

قام على أثرها حملة أخرى وهى الحملة الثانيــة يقدمها غودافرو دى بوليون دوق دى لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارانت الايطالى

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التى كانت من أعمال قليج ارسلان وعـددهم عظيم جداً فلقيهم ذلك السلطان مدافعاً عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لـكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحو خمسين يوما وفى نهايتــه سلمت حامية هــذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذى أرسل مع الصليبيـين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم . أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جداً فى مســيره ففنى كثير منــه بالحرب والجوع والتعب والأوبئـة والاختلاف الـكثير بين القواد الذين كان لـكل منهــم مقصد فى العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحــد القواد وهو بودوين وسار الى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك

سار القوم الى انطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغيسيان

فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه مالم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للابراج الذى بذل له الافرنج مالا واقطاعا وكان الافرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق اننا لا نقصد غير البلاد التى كانت للروم لا نطلب سواها وانما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب انطاكية وقد كان ما أرادوا . سار الافرنج بعد ذلك الي معرة النعمان فامتلكوها

كان البيت المقدس فى تلك الايام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون فانهم لما علموا بما أصاب الأتراك على انطاكية أرسلوا جيشا يقدمه الافضل بن بدر الجمالى فاستولى عليه من يد الامير سقمان بن ارتق التركمانى واستناب فيه رجلا يعرف بافتخار الدولة وهو الذى تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا اليه بعد ان حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها . حصروا البيت المقدس نيفا وأربعين ليلة وأخيراً استولوا عليه فى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع بل أساؤا معاملة أهله وقتلوا منهم خلقا كثيراً وورد المستنفرون من الشام فى رمضان الى بغداد صحبة القاضى أبي سعد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد اذ ذاك يتطاحنان يريد كل منهما الانفراد بالملك واقصاء أخيه عنه

ولما تم للافرنج ماطلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا

القائد غودافرو ليكون ملكا هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بقلب ملك بل بحامى قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم الى أوطانهم

وضع غودافرو قانونا لادارة مملكته الجديدة الا أن زمنه لم يطل فانه توفى فى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله فى ملك الرها ابن عمه بو دوين دى بورغ ملكا على الرها وسار هو الى حاضرة ملكه وهو المعروف فى التواريخ العربية باسم بردويل. هكذا وجدت مملكة أفرنجية فى وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هى تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين المصريون يناوشونهم من الجنوب والاتراك من الشرق . ولم تكن المملكة الافرنجية واحدة فى البلاد التى استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وانطاكية والرها وغير ذلك الا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس . وسنتكلم فى حوادثها عند ظهور الدولة الاتابكية والدولة الأيوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الافرنج

(٢٩) المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر ولاه أبوه بالعهد فبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه والده ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة الى أن قتل في يوم الاحد ١٧ ذى القعدة سنة ٥٢٩ (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥)

كان سلطان العراق لاول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه

وكان السلطان سنجر بن ملكشاه فى ذلك الوقت ملك خراسان وما اليها من بلاد وما وراء النهر الى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولته وهو شيخ البيت السلجوقى وعظيمه . فلما توفى أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن اليم وجزع شديد وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الى الخطباء بذكر السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية واطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفى أخوه تلقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود . ثم ان السلطان محمودا أرسل الى عمه سنجر وفدا معه الهدايا والتحف وطلب اليه أن ينزل له عن مازندران فغاظه هذا الطلب وقال ان ولد أخى صبى وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الرى بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودى قد استهان بالعسكر السنجرى لكثرة الاولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لاتلوى على شىء أما سنجر فكان واقفا فى القلب وامامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم فقال اما النصر واما القتل واما الهزيمة فلا وهجم بفيلته على قلب محمود هجوما شديدا فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده ووصل الخبر الى بغداد فى عشرة أيام فاشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل . أما محمود فانه سار الى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فسار الى همذان وهناك راسل ابن أخيه فى الصلح

وكانت والدة سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت مالا حد عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كاحدهم فاجاب الي قولها وبعد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود الى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ فى اكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهراً وردها باطنا ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر الى جميع أعماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولى عهده ورد عليه جميع ماأخذه منه سوى الرى

ولم يكد السلطان محمود ينتهى من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل واذربيجان وذلك سنة ٥١٤ وقد أجج الامراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالمملكة الافرنجية التى صارت شوكة فى جنوبهم وكان وزير مسعود هو الاستاذ أبو اسمعيل الحسين بن على الاصفهانى وهو الذى حسن لمسعود أن يقوم مطالبا بالمملكة ولما بلغ ذلك محمودا كتب اليهم يخوفهم ان خالفوه ويعدهم الاحسان ان أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا الى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس ثم سار كل منهم الى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتتلوا من بكرة الى آخر النهار وابلت الجنود المحمودية بلاء حسنا فانهزم عسكر محمود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمى جنوده ومنهم الوزير أبو اسمعيل الطغرائى فامر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندى فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الامان فاستقبله استقبالا عظيما وفى له بما بذله وخلطه بنفسه فى كل أفعاله فعد ذلك من مكارم محمود ولا عجب فقد علمه ذلك عمه سنجر

كان الخليفة المسترشد بالله فى هذا العصر قد استرد شيئاً من نشاط الخلفاء العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم دبيس ابن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولا شك ان الملوك السلجوقيين لايقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فانهم يتخوفون عاقبته ويرون منه خطرا على نفوذهم ومما يدل على ان ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى حصل بينه وبين نواب الخليفة نفرة فتهدده الخليفة فخاف فسار عن بغداد الى السلطان محمود وشكا اليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه انه قاد العساكر ولقى الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوة وجمعا ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ماهو الآن بيده فأثر ذلك الكلام فى نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل اليه الخليفة يعرفه ماالبلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن وان الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والاقوات لهرب الاكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الاحوال ويذل له على ذلك مالا كثيرا فكان هذا مما زاد فى اغراء السلطان على قصد بغداد فسار اليها مجدا ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك ان جاء السلطان فأثر ذلك فى أنفس العامة تأثيرا عظيما حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما علم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب اليه العودة الى داره فأبى الا أن يعود السلطان

ولا يحضر الى بغداد فلم يلتفت السلطان الى قوله واستمر قاصدا بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابلته بالقوة وكان معه كثير من العامة والجند يدافعون عنه تدينا وقد حصلت مناوشات بين الفريقين فى اول سنة ٥٢١ وكان مع كل جمع عظيم ولما رأى المسترشد بالله ذلك جنح الى الصلح الذى طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان اعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال لاتساوى الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد الى رابع شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ ثم فارقها بعد أن حمل اليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة

وفى سنة ٥٢٤ ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن ابن الصباح

وفى سنة ٥٢٥ توفى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليما كريما عاقلا يسمع مايكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع فى أموال الرعايا عفيفا عنها كافا لاصحابه عن التطرق الى شئ منها

لما توفى خطب لولده داود بالسلطنة فى بلاد الجبل واذربيجان الا انه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد الا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان سنجر فاقبل من خراسان قاصداً دفع مسعود عن السلطنة وسار اليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وفل جيشه وتحكم سنجر فيما بقى ثم أرسل وراء ابن أخيه من يرده فردوه اليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده الى السلطنة بل رده الى كنجه وأجلس الملك طغرل بن أخيه محمد

مكانه وخطب له فى جميع البلاد ثم عاد الى نيسابور فلما رأي ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه الي بغداد ثانيا بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالاكرام ووعده أن يرسل معه جيشا لمحاربة طغرل وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرل حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرل واستقر الامر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبى الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه

كان هذا الخلاف بين البيت السلجوقى مقويا للمسترشد فصار يعد نفسه صاحب الامر الذى يجب أن يطاع لا بالقوة المعنوية وحدها بل بقوة السيف أيضا فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت الى الى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة الا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء فان العصبية الجنسية غلابة مهما كانت الاحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز كثير من عسكر الخليفة الاتراك الى السلطان مسعود فانهزم جند الخليفة أما هو فبقى ثابتا حتى أسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامة أهلها وخرجوا من الاسواق يحثون التراب على رءوسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات فى الاسواق يلطمن

أما الخليفة فقد جعله السلطان فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال

يؤديه الخليفة والا يعود الى جمع العساكر والا يخرج من داره فأجيب الى ذلك ولم يبق الا أن يعود الخليفة الى بغداد الا أنه صادف ان هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك فى يوم الاحد ١٧ ذى القعدة على باب مدينة مراغة وكان المسترشد شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة وكان فصيحا بليغا حسن الخط قال ابن الاثير ولقد رأيت خطه فى غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن مايكتب وأفصحه ولقد حاول أن يعيد شيئا من مجد أهل بيته فحالت الاقدار بينه وبين ماأراد

(٣٠) الراشد بالله

بويع بالخلافة بعد المسترشد بالله ابنه أبو جعفر المنصور الراشد بالله وكان ولى العهد فلما مات أبوه جددت له البيعة فى ٢٧ من ذى القعدة وكتب السلطان الى شحنة بغداد بالبيعه له وحضر بيعتـه ٢١ رجلا من أولاد الخلفاء

لم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظا من أبيه معه بل حاول الراشد أن يثأر لابيه ويخل سلطنـة مسعود فاتفق مع داود ابن السلطان محمود أخى مسعود ومع كثير من أمراء الاطراف على مقاومة مسعود وخلعه ولما سمع بذلك مسعود أقبل مسرعا صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها ولكن سرعان مااختلفت كلمة الامراء الذين حالفوا الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أ كبرهم شأنا عماد الدين زنكى صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد فى رفقة عماد الدين

ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافرا وأمر بجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التي حلف الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده انى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الامر . فافتوا بخروجه من الخلافة . وكانت خلافته ١٠ شهرا و١١ يوما

(٣١) المقتفى لامر الله

هو أبو عبد الله الحسين المقتفى لامر الله بن المستظهر اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضر بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته فى ثامن ذى الحجة سنة ٥٣٠ (٧ سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر فى الخلافة الى أن توفى ثانى ربيع الاول سنة ٥٥٥ (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و ١٦ يوما وكان عمره اذ توفى ٦٦ سنة

ولما بايع السلطان المقتفى صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة الف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده . وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع ما بذل من المجهود العظيم لم ينجح فقد ائتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردي بنواحى أصفهان

استمر السلطان مسعود فى سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه الى أن توفى سنة ٥٤٧ بهمذان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرلبك وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقى فلم تقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت اليها .

وكان رحمه الله حسن الاخلاق كثير المزاح والتبسط مع الناس وكان كريما عفيفا عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الاخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود

أما الخليفة فانه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلجوقية بها وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل مالهم فيها وكل من عنده وديعة لاحد منهم احضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم باراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوى جنده

أصبح ذلك الملك العظيم الذى أسسه طغريل بك واخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهبا تقاسمته دول شتى تعرف بالدول الاتابكية وها نحن أولاء نقتص حديثها

— الاتابكية —

من الدول التركية التى زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدول الاتابكية وبيوتها شتى لاتنتهى الى نسب واحد الا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقى — واتابك كلمة تركية معناها مربى الملك فكان آل سلجوق اذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز اطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام

قد وصل بعض هؤلاء الاتابكية الى درجة الملك فى بعض الاقاليم

الاسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الاسر الاتابكية وهم دول ينتسبون أيضاً الى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنسوق أخبارها بالاجمال حسب ترتيب ظهورها

(١) شاهات خوارزم

ينسبون الى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكا لأمير من أمراء السلجوقيين اسمه بلكباك اشتراه من رجل من غرشستان فقيل له أنوشتكين غرشه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الاوصاف وكان مقدما مرجوعا اليه وولد له ولد سماه محمد وهو بانى هذا البيت علمه أبوه وخرجه وأحسن تأديبه وتقدم بنفسه بالعناية الالهية فولاه الأمير حبشي قائد بركياروق خوارزم ولقبه خوارزمشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسنا ومحله علوا . ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمد خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره . ولم يزل على جلالة القدر والكفاية الى أن توفى سنة ٥٢١ فولى بعده ابنه اتسز فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدما وعلوا ورسخت أقدام هذا البيت فى الملك وقد استمر الى سنة ٦٢٨ حيث زال على أيدى التتر الذين هاجوا البلاد الاسلامية بزعامة جنكيز خان كما سيأتى توضيحه وهذا ثبت ملوك الخوارزمشاهية

(١) أنوشتكين ٤٧٠ — ٤٩٠

(٢)	قطب الدين محمد بن أنوشتكين	— ٥٢١
(٣)	اتسز بن محمد	— ٥٥١
(٤)	ارسلان بن أتسز	— ٥٦٨
(٥)	سلطان شاه محمود بن ارسلان	— ٥٦٨
(٦)	تكش بن ارسلان	— ٥٩٦
(٧)	علاء الدين محمد بن تكش	— ٦١٧
(٨)	جلال الدين منكبرتى بن محمد	— ٦٢٨

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر

(٢) الدولة الأرتقية

تنسب هذه الدولة الى ارتق بن اكسب التركمانى وهو مملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى وقائد من قواده

وأول من أسس هـذا البيت معين الدولة سقمان بن ارتق استولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥ من يد الامير موسى التركمانى فى عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه ثم ضم اليها ماردين

وفى سنة ٥٠٢ انقسمت هذه المملكة الصغيرة الى مملكتيه احداهما بالحصن والثانيـة بماردين فأما مملكة الحصن فاستمرت الى سـنة ٦٢٠ وانتهت على أيدى الأيوبيين — وأما مملكة ماردين فاستمرت الى سنة ٨١١ أى بعد ظهور آل عثمان بمائة واحدى عشرة سنة وانتهت على يد قره قيونلى

وهذه أسماء ملوك الحصن

(١)	معين الدين سقمان بن ارتق	٤٩٥ — ٤٩٨
(٢)	ابراهيم بن سقمان	— ٥٠٢
(٣)	ركن الدين داود بن سقمان	— ٥٤٣
(٤)	قمر الدين قره ارسلان بن داود	— ٥٧٠
(٥)	نور الدين محمد بن ارسلان	— ٥٨١
(٦)	قطب الدين سقمان بن محمد	— ٥٩٧
(٧)	ناصر الدين محمود بن محمد	— ٦١٩
(٨)	ركن الدين مودود بن محمود	— ٦٢٠

وهذه أسماء ملوك ماردين

(١)	نجم الدين غازي بن ارتق	٥٠٢ — ٥١٦
(٢)	حسام الدين تيمورتاش بن غازى	— ٥٤٧
(٣)	نجم الدين البي بن تمورتاش	— ٥٧٢
(٤)	قطب الدين غازى بن البي	— ٥٨٠
(٥)	حسام الدين يولق بن ارسلان بن غازي	— ٥٩٧
(٦)	ناصر الدين ارتق ارسلان بن غازى	— ٦٣٧
(٧)	نجم الدين غازى بن ارتق ارسلان	— ٦٥٨
(٨)	قره ارسلان بن غازى	— ٦٦١
(٩)	شمس الدين داود بن قره ارسلان	— ٦٩٣
(١٠)	نجم الدين غازي بن قرة ارسلان	— ٧١٢
(١١)	شمس الدين صالح بن غازى	— ٧٦٥
(١٢)	المنصور أحمد بن صالح	— ٧٦٩

(١٣) الصالح محمود بن أحمد — ٧٦٩

(١٤) المظفر داود بن صالح — ٧٧٨

(١٥) الظاهر مجد الدين عيسى بن داود — ٨٠٩

(١٦) صالح بن داود ٨٠٩ — ٨١١

وصالح هذا آخر ملك من موالى السلجوقيين

(٣) اتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة سنة ٤٩٧ وأول ملوكها سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين وأصله مملوك للملك تتش بن الب ارسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان أتابك ولده دقاق . وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره فلما توفى دقاق سنة ٤٩٧ خطب اتابكه لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر ١٢ سنة وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدها فملكها ولما عاد منها منعه طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق . وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الافرنج فى القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن الى الناس وبث فيهم العدل فسروا به سرورا كثيراً وقد استمر الملك فى عقبه ٥٢ سنة وانتهى على يد آل زنكى سنة ٥٤٩ وهذا ثبت ملوكهم

(١) سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين ٤٩٧ — ٥٢٢

(٢) تاج الملوك بورى — ٥٢٦

(٣) شمس الملوك اسمعيل — ٥٢٩

(٤) شهاب الدين محمود — ٥٣٣

(٥) جمال الدين محمد — ٥٣٤

(٦) مجير الدين أبق — ٥٤٩

(٤) اتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٢١ وتنسب الى عماد الدين زنكى بن أق سنقر وكان أق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقى وكان معدوداً من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيها ثم التحق بالسلطان بركياروق بعد وفاة ملكشاه وسار فى خدمته . وكان تتش يمنى نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليسطو عليها فأرسل بركياروق اليه الجنود عليهم أق سنقر فالتقى الفريقان عند نهر سبعين قريبا من تل السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتتلوا فانهزم من مع أق سنقر وثبت هو فأسر ثم قتل صبراً وكان أحسن الامراء سياسة وحفظا لرعيته

وقد نشأ ابنه اتابك عماد الدين زنكى فى كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لما لابيه من الايادى البيضاء فى حفظ بيتهم ولانه قتل فى الدفاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذا همة مقداما وكانوا يستعينون به فى مهماتهم فيكفيهم إياها وما زال ينبه ذكره وتقوى همته حتى ولاه السلطان محمود مدينة الموصل سنة ٥٢١ ليقوم بحفظها واصلاح شأنها وجعله اتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليربيه

أظهر زنكى فى ولايته كفاية وقوة وصلاحا وكان له فى جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له وهو رأس الاتابكية من بيت زنكى وقد اقسمت الى أربعة دول

الاولى — اتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها

(١)	اتابك عماد الدين زنكى	٥٢١ ــ ٥٤١
(٢)	سيف الدين غازى بن زنكى	— ٥٤٤
(٣)	قطب الدين مودود بن زنكى	— ٥٦٥
(٤)	سيف الدين غازى بن مودود	— ٥٧٦
(٥)	عز الدين مسعود بن مودود	— ٥٨٩
(٦)	نور الدين ارسلانشاه بن مسعود	— ٦ ٧
(٧)	عز الدين مسعود بن ارسلانشاه	— ٦١٥
(٨)	نور الدين ارسلانشاه بن مسعود	— ٦١٦
(٩)	نصير الدين محمود بن مسعود	— ٦٣١
(١٠)	بدر الدين لؤلؤ	— ٦٥٧
(١١)	اسمعيل بن لؤلؤ	— ٦٦٠

وبدر الدين لؤلؤ ليس من هـذا البيت بل هو مولاهم استقل بأمر الملك بعد سيده نصير الدين محمود وقد انتهت هـذه الدولة على يد المغول

—*—

(٥) اتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤١ وهى السنة التي قتل فيها عماد الدين زنكى فان مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى الذى ملك الموصل ومحمود نور الدين الذى ملك حلب وانتهت سنة ٥٧٧ على أيدى الابوبيين ولم يكن منها الا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكى والثانى الصالح اسمعيل بن محمود

ومحمود نور الدين هذا هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة فى جهاد الصليبيين

(٦) اتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٦٦ بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى بن مودود الذى كان ولى عهد أبيه وهو أصغر الاخوين وهذا ملك الموصل والثانى عماد الدين زنكى بن مودود وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود . وانتهت هذه الدولة سنة ٦١٧ على أيدى الايوبيين وهذا ثبت ملوكها

(١)	عماد الدين زنكى بن مودود	٥٦٦ — ٥٩٤
(٢)	قطب الدين محمد بن زنكى	— ٦١٦
(٣)	عماد الدين شاهنشاه	— ٦١٦
(٤)	عمر	— ٦١٧

(٧) اتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٧٦ بعد وفاة سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهو الاكبر وهذا ملك الموصل والثانى سنجرشاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت فى يد أولاده الى سنة ٦٤٥ حيث أخذها الايوبيون والذين تولوها هم

(١)	معز الدين سنجر شاه	٥٧٦ — ٦٠٥
(٢)	معز الدين محمود بن سنجر شاه	— ٦٤٨
(٣)	مسعود بن محمود	— ٦٤٨

(٨) اتابكية اربل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٩ أسسها زين الدين على كجك بن بكتكين وهو مملوك تركمانى لعماد الدين زنكى جعله اتابك ولده قطب الدين مودود وقد فتح بلادا كثيرة فى بدء الدولة الزنكية كان بيده منها سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية وتكريت وشهرزور وغيرها واستمر كذلك الى سنة ٥٦٣ وقبل أن يموت سلم جميع ما بيده الى قطب الدين مودود ولم يبق له سوى اربل فسار عن الموصل وأقام بها وفى هذه السنة توفى فولى بدله ابنه زين الدين أبو المظفر يوسف وهو الصغير تعصب له مجاهد الدين قايماز وكان أخوه الاكبر مظفر الدين كوكبورى فحاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فسار الى

الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازى بن مودود فأقطعه حران فأقام بها مدة ثم انتقل الى خدمة صلاح الدين يوسف فحظى عنده وتمكن منه وزاد صلاح الدين فى اقطاعه الرها وزوجه أخته وقد حضر معه كثيراً من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة فلما توفى أخوه يوسف سنة ٥٨٣ رده صلاح الدين الي ملكه باربل فاستقر فيه الى ان مات سنة ٦٣٠ وأوصى ببلاده قبل موته للخليفة العباسى فبقت بأيدى العباسيين الى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا

(٩) اتابكية اذربيجان

ابدات هده الدولة سنة ٥٣٦ ومؤسسها هو الامير ايلدكز وكان مملوكا للكمال السميرمي وزير السلطان محمود السلجوقى فلما قتل الكمال سار ايلدكز الى السلطان محمود . ولما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره . ثم ملك أكثر اذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والرى وما اليهما من البلاد وخطب بالسلطنة لارسلانشاه بن طغرل وهو ربيبه وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان ارسلان معه حكم انما كانت له جراية تصل اليه وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت

(١)	شمس الدين ايلدكز	٥٣١ — ٥٦٨
(٢)	محمد البهلوان جهان بن ايلدكز	— ٥٨١

(٣) قزيل ارسلان عثمان بن ايلدكز	— ٥٨٧
(٤) أبو بكر بن محمد	— ٦٠٧
(٥) مظفر الدين أزبك بن محمد	— ٦٢٢

وقد انتهت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم

(١٠) اتابكية فارس (الدولة السلغرية)

- ابتدأت هذه الدولة بفارس سنة ٥٤٣ وتنسب الى سلغر أحد قواد التركمان في عهد السلاجقة وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ على أيدى المغول وهذا ثبت ملوكها

(١) سنقر بن مودود بن سلغر	٥٤٣ — ٥٥٧
(٢) زنكى بن سنقر	— ٥٩١
(٣) دكلا بن زنكى	٥٨١ — ٥٩١
(٤) سعد بن زنكى	— ٦٢٣
(٥) أبو بكر بن سعد	— ٦٥٨
(٦) محمد بن سعد	— ٦٦٠
(٧) محمد شاه بن محمد	— ٦٦
(٨) سلجوقشاه بن سلغر بن سعد	٦٦٠
(٩) ايبش بن سعد بن أبي بكر	— ٦٨٦

(١١) اتابكية لورستان (الهزارسبيه)

ابتدأت هـذه الدولة سـنة ٥٤٣ وهي من فروع الدولة السلغرية اتابكية فارس أسسها أبو طاهر أحد قوادهم وهذا ثبت ملوكهم

(١) أبو طاهر بن محمد	٥٤٣ — ٦٠٠
(٢) نصرة الدين هزارسب بن أبي طاهر	— ٦٥٠
(٣) دكلا بن هزارسب	— ٦٥٧
(٤) شمس الدين الب ارغو بن هزارسب	— ٦٧٣
(٥) يوسف شاه الاول بن الب ارغو	— ٦٨٧
(٦) افراسياب الاول بن يوسف	— ٦٩٦
(٧) نصرة الدين احمد بن الب ارغو	— ٧٣٣
(٨) ركن الدين يوسف شاه الثانى بن احمد	— ٧٤٠
(٩) مظفر الدين افراسياب الثانى بن يوسف شاه	— ٧٥٦
(١٠) شمس الدين هوشانج بن افراسياب الثانى	— ٧٨٠
(١١) احمد	— ٨١٥
(١٢) أبو سعيد	— ٨٢٠
(١٣) حسين	— ٨٢٧
(١٤) غياث الدين	...

وقد انتهت هذه الدولة على أيدى الدولة التيمورية

شاهات ارمينية

ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٣ ومؤسسها هو الامير سقمان القطبي بمدينة خلاط وكان مملوكا لقطب الدين اسمعيل السلجوقي صاحب مدينة من اذربيجان ومن ثم قيل له القطبي نشأ شهما كافيا وكانت خلاط لبني مروان وظلموا واشتهر عدل سقمان فاتفق أهل خلاط وكاتبوه فجاء وفتحوها له وسلموها اليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت

(١)	سقمان القطبي	٤٩٣ — ٥٠٦
(٢)	ظهير الدين ابراهيم شاه ارمن	— ٥٢١
(٣)	احمد	— ٥٢٢
(٤)	ناصر الدين سقمان	— ٥٧٩

سيف الدين بكتيمور ٥٧٩ — ٥٨٩ كان مملوكا لهم وهو صاحب ميافارقين

بدر الدين أق سنقر ٥٨٩ — ٥٩٤ اسمه هزار ديناري وهو مملوك أق سنقر وزوج بنته

المنصور محمد بن بكتيمور ٥٩٤ — ٦٠٣

عز الدين بلبان ٦٠٤

وقد انتهت دولتهم على أيدي الايوبيين

الدولة الغورية

مما يضاف الى الدول التي حدثت في هذا العهد الدولة الغورية وهي دولة قامت على اطلال الدولة السبكتكينية . تنسب هذه الدولة الى

مكان نشـأتها وهو الغُور وهو جبال وولاية بين هراة وغزنة وهى بلاد باردة واسـعة موحشـة وهى مع ذلك لا تنطوى على مدينـة وأكبر مافيها قلعـة يقال لها فيروز كوه قام بهذه البلاد آل سام من سـنة ٥٤٣ وملـكوا ما كان يملـكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملـكهم قائماً الى سنة ٦١٢

وأول من قام من هذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حـدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سـيف الدين سوري بن الحسين فقوى أمره وتمكن فى ملـكه فجمع عسكرا كثيرا وسار الى غزنة طالبا بثأر أخيه فلما وصـل غزنة ملـكها وهرب عنها بهرامشاه الى الهنـد فجمع جموعا كثيراً وعاد الى غزنة وهوى أهلها معه فخرج سورى الى لقائه فلما تصاف العسكران أسلم سورى جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة سـنة ٥٤٤ وكان سورى أحـد الاجواد له الـكرم الغزير والمروءة العظيمة

اختار الغوريه بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهانسوز فأعاد الـكرة على غزنة سنة ٥٥٠ وملـكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمد وأجلسه على تخت المملـكة وخطب لنفسـه ولاخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية

ومات علاء الدين سنة ٥٥٦ فملك بعده غياث الدين محمـد بن بهاء

الدين سام بن الحسن وكان عضده الاقوى أخوه شهاب الدين محمد وقد حسنت سيرتهما وقويت جموعهما فملكا بلاد الغور والافغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين سنة ٥٨٢ بعد أن ملكوا ٢١٣ سنة تقريبا

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم خطب لغياث الدين وتلقب بالقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدويخ ملوكها وقد بلغا منهم ما لم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلى كرسى الممالك التى فتحها من بلاد الهند واقطعها مملوكه قطب الدين ايبك وقطب الدين هذا هو مؤسس بيت سلاطين دهلى الذين استمر ملكهم من سنة ٦٠٢ وهى السنة التى توفى فيها شهاب الدين الغورى الى سنة ٦٨٦ وهذا ثبت ملوك هذا البيت

(١)	ايبك قطب الدين	٦٠٢ — ٦٠٨
(٢)	أرم شاه	- ٦٠٧
(٣)	التمش شمس الدين	-- ٦٣٣
(٤)	فيروز شاه الاول ركن الدين	— ٦٣٤
(٥)	رضيا	— ٦٣٨
(٦)	بهرام شاه معز الدين	— ٦٣٩
(٧)	مسعود شاه علاء الدين	— ٦٤٤
(٧)	محمود شاه الاول نصر الدين	— ٦٦٤

(٩) بلبن غياث الدين . — ٦٨٦

(١) كيقباذ معز الدين

وغياث الدين الغورى وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هى ثانى مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية

وفى عهد المقتفى حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها ان الافرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ماهالهم فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم فقرروا طلب الاعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا لذلك رسلا أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشى أن يكون سلفه أسبق الى الفوز منه فارسل دعاته الى فرنسا وملكها لويز السابع فاجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرها بين يدي المسلمين وأرسلت الدعاة أيضاً الى المانيا وملكها كونراد الثالث فاجب الداعية أيضاً وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية

وقد وصل الى القسطنطينية أولا الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل بن اليكسيوس الاول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكايد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه

ذهب الالمان أولا مجتازين بلاد قونية بلاد السلاجقة فلقيهم هؤلاء بحرب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائبا كسيرا حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بفلول جاشه حتى وصلوا الى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألوانا وذلك سنة ٥٤٢ وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب الى مدينة دمشق والاستيلاء

عليها وكان صاحبها اذ ذاك آخر الدولة الاتابكية وهو مجير الدين أبق بن محمد بن بوری بن طغتكين والامر فى دولته لمولاه معين الدين أنز . سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود افرنج الشام حتى وصلا دمشق سنة ٥٤٣ وحاصروها فزحف اليهم أهل البلد مجدين فى ردهم وأبلوا بلاء حسنا . كان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازي صاحب الموصل فاجاب الداعى وأقبل حتى أتي حلب واستصحب منها أخاه محمودا نور الدين وسارا حتي أتيا حمص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا الى بلادهم من غير أن يحدثوا أثرا وفى سنة ٥٤٩ استولى محمود نور الدين على دمشق

هذه هى الدول التى ورثت ملك السلاجقة العظيم

نعود الآن الى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود. قلنا انه كان عهد الى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلا ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل الى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل اجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم انه دخل الى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح فى قتله عنزان واستقر محمد فى السلطنة وأرسل الى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من اجابته الى ذلك فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحو العراق ووصل اليها فى ذى الحجة سنة ٥٥١ وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامة ونصبت المنجيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب

واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمدا لا يناصحونه لاجل الخليفة والمسلمين ففتروا وقصروا وبينما هم على تلك الحال ورد خبر الى السلطان محمد بان أخاه ملكشاه بن محمود ومعه ايلدكز صاحب بلاد اران والملك ارسلان بن طغرل قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الامراء الذين مع محمد وأموالهم فلما سمع ذلك محمد جد فى القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همذان فى أواخر ربيع الاول سنة ٥٥٢ ولما قارب همذان خرج منها خصومه خائبين خائفين

استقر محمد فى دار ملكه باصفهان وصار العراق للخليفة لا يشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتفى فى زمنين متقاربين فاما محمد فانه توفى بهمدان سنة ٥٥٤ وقد اختلفت قواده بعد موته اختلافا كثيرا فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم الاكثر وطائفة طلبوا ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيرا تم الامر لارسلان بن طغرل بواسطة المقدم يلدكز وكان هذا السلطان ربيبه

أما الخليفة المقتفي لأمر الله فانه توفى ثانى ربيع الاول سنة ٥٥٥ وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم الى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر الى الآن الا أن يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار فى البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء وكان

حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير

(٣٢) المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لامر الله وأمه أم ولد اسمها طاوس رومية ولد سنة ٥١٠ وبويع بالخلافة عقب وفاة والده واستمر خليفة الى أن مات فى تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦
فكانت خلافته ١١ سنة وشهرا وأسبوعا

والمستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين ومن مآثره انه لما ولى أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئا وكان شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فاطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال الخليفة انا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انسانا آخر مثله لاكف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الاموال على أصحابها أيضا

ومن أعماله انه حل المقاطعات وأعادها الى الخراج وهذا عمل حسن الا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا به ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور

وكان ملك السلاجقة لعهده ارسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شيء من السلطان فى بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه

———×———

(٣٣) المستضيء بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله وأمه أم ولد ارمنيـة تدعى غضه بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام واحسان شامل وطمأنينـه وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميـدا ومات سعيدا . وكانت وفاته ثانى ذى القعدة سنة ٥٧٥

وفى عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الايوبية بهمة مؤسسها المقدام صلاح الدين الايوبى يوسف بن أيوب الذى ظهر فى كنف محمود نور الدين الشهيد وكان ذلك فى محرم سـنة ٥٦٧ حيث قطعت خطبة الخليفه العاضد لدين الله واستمر ذلك فى تاريخ مصر والذى خطب له من العباسيين هو المستضىء بالله

وفى عهده توفى خوارزمشاه ايل ارسلان بن أتسز وملك بعـده ابنه سلطانشاه تدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الاكبر علاء الدين تكش جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك

وفى عهده توفى الرجل العظيم ذو القدم الثابتـة فى فعال الخير وفى جهاد الافرنج . هو محمود نور الدين بن زنكى وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمـين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله قال ابن الاثير فى تاريخه وقد طالعت سـير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبـد العزيز أحسن

من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وله اخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة

(٣٤) الناصر لدين الله

هو أبو العباس احمد الناصر لدين الله بن المستضىء بن المستنجد وأمه أم ولد تركيه اسمها زمرد

بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستضىء فى ٢ ذى القعدة سنة ٥٧٥ (٣٠ مارس سنة ١١٨٠) ولم يزل خليفة الى أن توفى فى آخر ليله من رمضان سنة ٦٢٢ (٦ اكتوبر سنة ١٢٢٥) فكانت خلافته ٤٦ سنة وعشرة أشهر و٢٨ يوما وهو أطول خلفاء بنى العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين الا المستنصر بالله معه فانه ولى ٦٠ سنة ولا من خلفاء بنى أمية بالاندلس الا عبد الرحمن الناصر فانه ولى ٥٠ سنة

حال الممالك الاسلامية لعهده

كان فى الاندلس وشمال افريقية دولة الموحدين . وفى عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المرينى سنة ٥٩١ وهو من أعقاب الموحدين

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الايوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الاتابكية

وكان بقونية دولة سلاجقة الروم

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغريل الثانى وهو آخر سلاجقة العراق

وكان بخوارزم وخراسان وما اليها الدولة الخوارزمشاهية والقائم بالامر منهم السلطان تكش بن أيل ارسلان الي سنة ٥٩٦ ثم علاء الدين محمد الى سنة ٦١٧ ثم جلال الدين منكبرتي الى سنة ٦٢٨ وهو آخرهم

وكان بالغور والافغان والهند الدولة الغورية

فى عهد الناصر لدين الله انتهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة ٥٩٠ بقتل طغريل بن الب ارسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذى اتسع ملكه جداً فصار ملكه ممتداً من أقاصى بلاد ماوراء النهر شرقا الى بلاد الرى التي أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالري ثابتاً فان الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل اليها جنداً مع وزيره فاستردها بعد ان حارب عسكر خوارزمشاه لكن ذلك لم يطل فان خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع فحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفى سنة ٥٩٦ توفى وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه محمد وزاد ملكه اتساعا

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذى جعل كثيراً من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر انما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس هذا ببعيد

وكان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنهم وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل

الحادث العظيم فى البلاد الاسلامية

اغارة المغول والتتار

من أكبر الحوادث فى التاريخ الاسلامى خروج طوائف المغول والتتر الى البلاد الاسلامية واستيلائهم على معظمها فى آسيا وشرقى أوربا وأول فتح هذا الباب كان على يدى جنكيرخان المغولى وخوارزمشاه محمد بن تكش الخوارزمى

التتر شعب كبير من الأمة التركية ومنه تفرع معظم بطونها وأفخاذها وهو مرادف للترك عند الافرنج حتى انهم يعدون قبائل الاتراك كافة تترا ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أو اسكوتيا . ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ألنجه خان أحد ملوك الترك فى الازمنة القديمة ولد له ولدان توءمان هما تتارخان ومغلخان نحو ربيعة ومضر فى الأمة العربية

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد الى أن وقع النزاع بين الشعبين فى عهد ايلخان ملك المغل وسونج خان ملك التتر وجر هذا النزاع الى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل ايلخان ملك المغل وصارت السيادة من ذلك الوقت للتتر فاستعبدوا المغل مدة طويلة الى أن جمع المغل جموعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم فعادت السيادة من ذلك الوقت الى المغل وصار

الملك متوارثا فيهم الى زمن يسوكى بهادرخان والد جنكيز

ولد جنكيز خان سنة ٥٤٩ وكان اسمه فى صغره تموجين . توفى أبوه وسنه ١٣ سنة ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغل تموجين فتفرقوا عنه وكان ذلك سببا لحصول الفتن وتمادى الحروب بينهم

ولما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التى لا تساويها عزيمة اجتهد فى أن يلم شعث قومه فنجح في ذلك نجاحا عظيما وعادت قبائل المغل الى الانضمام اليه وكثرت جموعه وعظم أمره فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعا بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الامم التى لا يعلم عددها إلا الله وعاصمة ملكه مدينة قراقروم

ولما لم يبق له معارض فكر فى ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم دينا يسيرون على مقتضاه فوضع لهم اليساق او الياسه وهى كتابهم الذى اليه يرجعون فى معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يستجيزون أن يخلوا بشئ منها

ومما شرعه فيها ان من زنى يقتل لافرق بين محصن وغيره . ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل . ومن بال في الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل . ومن وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل . وان الحيوان تكتف قوائمه ويشق

بطنه ويعرس قلبه الى أن يموت ثم يؤكل لحمه . وان من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح . ومن وقع حمله أو قوسه أو شئ من متاعه وهو يكر أو يفر فى حال القتال وكان وراءه واحد فانه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فان لم ينزل ولم يناوله قتل . وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤنة ولا كلفة . وأن لا يكون على احد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الاطباء ولا من عداهم من ارباب العلوم واصحاب العبادة والزهد والمؤذنين ومغسلى الاموات كافة ولا مؤنة . وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على اخرى وجعل ذلك كله قربة الى الله تعالى . والزم قومه ان لا يأكل احد من يد احد حتى يأكل المناول منه اولا ولو انه امير ومن يناوله اسير . والزمهم ان لا يتخصص احد بأكل شئ وغيره يراه بل يشركه معه في اكله . والزمهم ان لا يتميز احد بالشبع على اصحابه ولا يتخطى احد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه وان مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير اذنهم وليس لأحد منهم منعه . وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده فى الماء ولكن يتناول الماء بشئ يغترفه به . ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى . ومنع أن يقال لشئ انه نجس وقال جميع الاشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس . وألزمهم أن لا يتعصبوا لشئ من المذاهب . ومنعهم من تفخيم الالفاظ ووضع الالقاب وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها اذا أراد الخروج الى القتال وأنه يعرض كل ماسافر به عسكره وينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قصر فى شئ مما يحتاج اليه عند عرضه إياه عاقبه

وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال وجعل على العساكر اذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها اليه . وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات . وشرع ان أكبر الامراء اذا أذنب وبعث اليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقى بنفسه بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه . وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل . ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل . وألزم السلطان باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة .

﴿ تنبيه ﴾ كان من هذه الياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . روى المقريزى فى خططه عن أحمد بن البرهان انه رآها ومنه نقلنا ما ذكرنا

خروج المغول الى البلاد الاسلامية

قد أكثر المؤرخون فى ذكر الاسباب التى دعت جنكيزخان وقومه للخروج الى البلاد الاسلامية فقال بعضهم ان خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب الى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصر لدين الله الى جنكيزخان يحرضه على الخروج الى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر

شوكة خوارزمشاه ويشتغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بنى العباس ان فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الاتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغريلبك شاه السلجوقى ليخلصهم من تحكم البساسيرى حينما أراد تحويل الدعوة الى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق ان هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغل فكانوا كفاراً ولا نبدى هذا الفرق استبعادا للمكاتبه لان ذا الملك لا يبالى بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغى الا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما انه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لان بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الاطراف وبينه وبينهم ذلك الاسد المصور ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يجفل امام جنكيزخان كالحمامة تجفل من صفرها . وهذا السبب وان كان مطمعا لجنكيزخان فى البلاد الاسلامية ولكنه كان يتطلب سببا آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال انه فى سنة ٦١٢ أرسل رسلا الى خوارزمشاه وكانوا من تجار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب الى الآخر وأرسل اليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل الى خوارزمشاه أجاب الى ذلك فرجعوا الى جنكيزخان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيزخان ومكث الامر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين .

وفى سنة ٦١٥ سافر تجار من بلاد جنكيزخان حتى وصلوا الى بلدة أترار وهى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل نهر سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالى فى أخذ أموالهم فأرسل قاصداً الى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيزخان قد قدموا فى زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالى المشؤم الى ذلك وأرسل الى خوارزمشاه ما كان معهم من الاموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها . فلما بلغ علم ذلك الى جنكيزخان أخذه المقيم المقعد وأرسل الى خوارزمشاه يخبره بصورة الحال ويطلب منه غاير خان ذلك الوالى ليقتص منه فلم يكن من الاحمق خوارزمشاه الا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيزخان استشاط غضبا وصمم على قصده وحربه . وعلم خوارزمشاه انه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطين بلة بان جمع عساكره وسار بادئا بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه فلقى هناك جموعا قليلة متخلفة في النساء والصبيان لان جنكيزخان كان غائبا بجنده فى داخل بلاده فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدو القليل فعلم انه له يوما ضروسا اذا تحرك عليه جنكيز وهو لا بد فاعل فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التى على حدود بلاده أن يجلوا عنها خوفا عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهل بهذا العمل السبيل الي عدوه ثم عاد أما جنكيزخان فانه جمع عساكره الجرارة التى تفوت عد العادين وعبر نهر سيحون وليس امامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن قصده

وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفا من الجنود الخوارزمية فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضى بدر الدين قاضيخان يطلب الأمان للناس فأمنهم جنكيز ودخل هو وجند البلد فى رابع ذى الحجة سنة ٦١٦ وأعلن أهله بأن كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه الينا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجار التى باعكم إياها خوارزمشاه فانها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شئ منها ماعنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجردين من أموالهم وأعمل التتر النهب فى البلد وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقتسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس

ثم رحلوا نحو سمرقند وهى قصبة ماوراء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخاري فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيا عن المشى قتل

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفا من جند خوارزمشاه فخاموا عن اللقاء لما دخل قلبهم من الرعب والخور أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة فقاتلتهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بان تقهقروا امامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم كمينا يأتيهم من خلفهم فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد ورجع عليهم الباقون من الامام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظمهم ولما رأي ذلك الباقون

بالبلد من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لان الكل أتراك فطلبوا الأمان فأمنوا وفتحت البلد فخرجوا الى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحتهم فنزعوها واذ ذاك وضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم وفى اليوم الرابع نادوا فى البلد أن لا يتأخر بها أحد ومن تأخر قتلوه وهكذا فعل التتر بسمرقند ما فعلوه ببخارى وكان ذلك فى المحرم سنة ٦١٧

ولما تم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفا من أشداء جنوده وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه فساروا وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيما بغربيه يستعد وقد ملئ قلبه رعبا فلما علم بقدوم التتر عليه لم ير الا أن يهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لا يلوى على شئ وقصد مدينة نيسابور فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار الى مازندران والتتر على أثره ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له فى البحر فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به

وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربة لأنهم ساروا الى غرب خراسان وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية التى قصدت البلاد الاسلامية بالتخريب والافساد قبل أن ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد . ولما أيس التتر من اللحاق به ساروا الى مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها . ثم ساروا

نحو الرى وقد انضم اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار ومن المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون فوصلوا الى الرى على حين غفلة من أهلها فملكوها وفعلوا بها لافاعيل وكانوا ينهبون فى طريقهم كل قرية مروا عليها . ثم ساروا الى همذان فطلب صاحبها الامان فأمنوه هو ومن معه . ثم وصلوا الى قزوين فدخلوها عنوة ويقال ان من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفا . ثم ساروا الى اذربيجان فوصلوا الى تبريز وبها صاحب البلاد اوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشراب ليلا ونهاراً لا يفيق وانما أرسل اليهم وصالحهم فساروا عنه الى ساحل البحر ليشتوا فيه فوصلوا الى موقان وتطرقوا فى طريقهم الى بلاد الكرج فحاربهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا الى اوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم على دفع التتر وكذلك أرسلوا الى الملك الأشرف بن العادل الأيوبى صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام اليهم وظنوا جميعا ان التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضاف اليهم مملوك من مماليك اوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحر من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع اليه خلق كثير وراسل التتر فى الانضمام اليهم فأجابوا الى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعاً حتى وصلوا تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يجدهم شيئا فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى وكانت الوقعة فى ذي القعدة سنة ٦١٧

ولما دخلت سنة ٦١٨ كروا راجعين الى مدينة مراغة فملكوها عنوة

ووضعوا السيف فى أهلها ونهبوا كل ماصلح لهم وما لايصلح أحرقوه .
ثم رحلوا عنها قاصدين اربل لكنهم هابوا الهجوم عليها لخوفهم أن تجتمع الجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا الى همذان وساروا الى بلاد اذربيجان ومنها ساروا الى دربند شروان فاستولوا على مدينة شماخى عنوة وخرجوا من الدربند الى البلاد الشمالية وهي دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التتر فيهم قتلا وسبياً والذى لقى حدهذه الحروب أمة القفجاق فكثر فيهم القتل والأسر فتفرقوا أيدي سبا فى جميع الاقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعز ايبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يداً واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدوا بلغار أواخر سنة ٦٢٠ فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته .

أما جنكيزخان فانه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشاً عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد سنة ٦١٧ ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على

تلك البلاد شيئا بعد شئ دون صعوبة أو مقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمض الا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر

وأرسل جيشاً آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تهيأ لهم بها لما فعله التتر المغربة من أضعاف القوي التي كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزى أن يستولى على الدشت كله فى أسرع ما يمكن

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الاطراف تبتدئ شرقا من بلاد الصين وتنتهى غربا الى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوباً ببلاد الهند وشمالا بالبحر الشمالى كل ذلك تم له فى مدة قصيرة

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية الى أربعة أقسام بين أبنائه الاربعة وهم جوجى وجغطاى وتولى واوكداى

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل أخذه الى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربي لولده الاكبر جوجى

وجعل بلاد ايغور والتركستان وما وراء النهر بأسره لولده الثانى جغطاى

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين الى منتهى

حوافر خيولهم لولده الثالث تولى خان

وجعل بلاده الاصلية والخطا والصين الى منتهى المعمورة الشرقى لولده الرابع اوكداى وجعله ولى عهده من بعده ويصير قاءانا على الكل أو ملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقين بمتابعته وكذا كل من يصير قاءانا من ذريته يجب على الباقين طاعته واتباعه ومن خالفه يجب على الباقين حربه حتى يفئ الى يساق جنكيزخان

هكذا قدر الرجل لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتم كل ماتوقعه

وفى سنة ٦٢٤ أدركته منيته وكان الخليفة العباسي حين وفاته المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر

وجد من آل جنكيز خان أربعة بيوت ورثت الملك وتممت الفتح حتى تهيأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءا كبيراً من اوربا

وبيت تولى هو الذى كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد سلطان التتر على الجزيرة والشام وبلاد الروم وسنذكر ذلك فى حينه

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقد كان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيرا مايفعل الاشياء ثم ينقضها وجعل جل همه فى رمي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها إلا من يلبس منه

سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الا من ينتمي اليه . هذه كانت مشاغله العجيبة والتتر يمعنون فى بلاد المسلمين قتلا وأسراً وتخريبا ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا فى تاريخه الموسوم بالفخرى ثناء جما ومن ضمن ما وصفه به انه كان يرى رأى الامامية والظاهر ان هذا هو الذى حببه الى المؤرخ المذكور

بقى الناصر فى أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت احدى عينيه والاخرى يبصر بها أبصارا ضعيفا وفي آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما وكانت بها منيته

(٣٥) الظاهر بامر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بويع بالخلافة عقب موت أبيه وكان ولى عهده واستمر خليفة الى ١٤ رجب سنة ٦٢٣ فكانت خلافته تسعة أشهر و١٤ يوما

لما ولى أظهر من العدل والاحسان ما أعاد به سنة العمرين . قال ابن الاثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه أعاد من الاموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئا كثيراً وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدده أبوه وكان كثيرا لا يحصى . ولما أمر بأخذ الخراج الاول من جميع البلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الاملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديما قد يبس أكثر أشجارها وخربت

ومتى طولبوا بالخراج الاول لا يفي دخل الباقي بالخراج فأمر ألا يؤخذ الخراج الا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شيء . ومن أعماله ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه الى الوزير وأوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم قد بلغنا كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن الى الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى — فكتب بعض النواب اليه يقول ان هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدناه في السنة الماضية ٣٥ ألف دينار . فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو أنه ٣٥٠ ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل في اطلاق زيادة الصنجة التي للديوان وهي في كل دينار حبة — وتقدم الى القاضي ان كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير إذن . ومنها ان العادة كانت في بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة الى الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع بعض الاصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هذا في حجر عظيم فلما ولي الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أي غرض لنا في معرفة أحوال الناس في بيوتهم فلا يكتب أحد لنا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال انا ندعو الله أن يصلحهم . ومنها انه لما ولي الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الاموال فأصعد ومعه مايزيد على مائة ألف دينار وكتب

مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الامر فى حمله فأعاد الجواب بان يعاد الى أربابه فلا حاجة لنا اليه فأعيد عليهم . ومنها انه أخرج كل من كان فى السجون وأمر باعادة ما أخذ منهم وأرسل الى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع وليس له مال

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان الى الرعية يجدد من العدل ما كان دارسا وأذكر من الاحسان ما كان منسيا . وقبل وفاته أخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أحوج منكم الى امام قوال . وقد قرئ التوقيع فاذا فى أوله بعد البسملة (اعلموا انه ليس امهالنا اهمالا ولا اغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كا لاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هوا كم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من أصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان

سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه والا هلكتم والسلام)

ولم تتمتع الامة بهذا الخليفة طويلا فانه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته

(٣٦) المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر

بويع بالخلافة يوم وفاة والده ١٤ رجب سنة ٦٢٣ (١١ يوليه سنة ١٢٢٦) واستمر فى الخلافة الا أن توفى لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٥ دسمبر سنة ١٢٤٢) فكانت خلافته ١٧ سنة الا شهراً

كان المستنصر شهما جوادا يبارى الريح كرما وجودا وله الآثار الجليلة فى بغداد منها وهى أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول انى أخاف ألا يثيبنى الله على ما أهبه وأعطيه لان الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وأنا والله لا فرق عندى بين التراب والذهب

ولما ولى سلك فى الخير والاحسان الى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بافاضة العدل وان من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته

وفى عهده توفى ملك المغول الكبير جنكيزخان سنة ٦٢٤ وحل محله فى بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته الى الغرب

وأرسل فرقة الى بلاد اذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين منكبرتى وخافهم أهل اذربيجان خوفا شديدا ولم يكن امامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذى لم يجد له نصيرا لانه وتر الملوك المجاورين له طرا .

قال ابن الاثير تعليقا على هذه الحال (فما نرى من ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو قال الله تعالى (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

وكان مقتل جلال الدين فى منتصف شوال سنة ٦٢٨ قتل شريدا طريدا لم يفده هذا الملك العظيم الذى ورثه عن أبيه وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية الى حدود العراق ولم يتهيأ للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض وهم عن عدوهم لاهون غافلون . صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن الى آن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الديني

(٣٧) المستعصم

هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفى بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر بن اسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور ففى آبائه سبعة عشر خليفة

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله فى عاشر جمادى الآخرة

سنة ٦٤٠ (٦ دسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة الى أن قتل بين يدي هولا كو خان فى ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية

قال ابن طباطبا كان المستعصم رجلا خيرا متدينا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطا مليحا وكان سهل الاخلاق وكان خفيف الوطأة الا انه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الامور وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الاغانى والتفرج على المساخرة وفى بعض الاوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا لبس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام الا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء

حال التتر

قلنا فيما تقدم ان جنكيزخان لما حانت منيته قسم ممالكه الى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولى خان جعل له خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين الى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولى فى مملكته الجديدة يتوسع فى الفتح ويمد بلاده الى الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفى سنة ٦٥٤ فى عهد المعتصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهى عند بلاد العراق فخلفه فى الملك ابنه هولا كو خان حفيد جنكيزخان

خأهمه التوسع فى الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك

قال المؤرخون ان أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا فى نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم الى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوءه مايلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الاكبر وكان يزيد فى مساءته ان أهل البيت العباسى كانوا يساعدون أهل السنة لانهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الامر منهم وقد حصل فى أواخر عهد المستعصم ان أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا فى قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبى بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال ان الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته ان تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته . وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمي بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردى فى تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمى الى وزير اربل منها (انه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوى المعظم وقد نهبت العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثيل بقول شخص من غزية

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمرا فصبر جميل

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أميـة أم نيام

ومنها

وزير رضى من حكمه وانتقامه بطى رقاع حشوها النظم والنثر
كما تسجع الورقاء وهى حمامة وليس لها نهى يطاع ولا أمر

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون

ووديعـة من سر آل محمد أودعتها ان كنت من أمنائها
فاذا رأيت الكوكبين تقارنا فى الجدى عند صباحها ومسائها
فهناك يؤخذ ثار آل محمـد وطلابها بالترك من أعدائها

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم

وابن طباطبا العلوى يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمى قال فى تاريخه وقد نسـبه الناس الى انه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة فان السلطان هولاكو لما فتح بغـداد وقتل الخليفة سـلم البلد الى الوزير وأحسن اليه وحكمه فلو كان قـد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه اه والله أعلم بمقدار هـذا البرهان فى الانتاج

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد وفى منتصف محرم سنة ٦٥٦ نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى باقفال الابواب فجد المغول فى القتال حتى ملكوا الاسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الاسوار تم لهم ملك البلد

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن ان يخرج الى هولاكو فأمره هولاكو أن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده فى نهب تلك المدينة التى كانت حاضرة الاسلام كله ثم تقدم باحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاكو جواهر نفيسة ولآلئ ودررا معباة فى أطباق ففرق هولاكو ذلك على أمرائه

وفى رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفى أول مرحلة قتله هو وابنه الاوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد ان مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة واشتفت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملة فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الاسلامية فقد قتل معظم أهلها وقليل منهم من نجا وقد استبقى المغول جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد ان فنى أكثر أهلها قوم جاؤا مع هولاكو من أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد ان كانت عاصمة المسلمين

حال الدولة الاسلامية عند سقوط الدولة العباسية

(١) كان بغرناطة من البلاد الاندلسية دولة بنى نصر والقائم بالامر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ — ٦٧١)

(٢) بشمال افريقية دولة الموحدين والقائم بالامر منهم أبو حفص عمر المرتضى بن اسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ — ٦٦٥)

(٣) وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالامر منهم يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ — ٦٨١)

(٤) وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالامر منهم أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن ابى حفص (٦٤٧ — ٦٧٥)

(٥) وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالامر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ — ٦٧٥)

(٦) وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالامر منهم المنصور نور الدين على بن المعز عز الدين ايبك (٦٥٥ — ٦٥٧)

(٧) وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالامر منهم المظفر بن يوسف ابن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ — ٦٧٤)

(٨) وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦—٦٨٠)

(٩) وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج ارسلان الرابع (٦٥٥ — ٦٦٦)

(١٠) وبماردين من الدولة الارتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ — ٦٥٨)

(١١) وبفارس من الاتابكية السلغرية أبو بكر بن سعد بن زنكى بن مودود (٦٢٣ — ٦٥٨)

(١٢) وبلورستان من الاتابكية الهزارسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ — ٦٥٧)

(١٣) وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ — ٦٨١)

اجمال القول فى الدولة العباسية

تولى العباسيون الخلافة الاسلامية سنة ١٣٢ حيث بويع لأولهم أبي العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم الى سنة ٦٥٦ حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلا بين يدي هولاكو خان المغولى من اعقاب جنكيز خان موحد التتر الخارج بهم الى بلاد الاسلام . جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بنى العباس على عرش بنى أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم . استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فتوسط ملك الخليفة منهم نحو ١٤ سنة وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسى ٤٦ سنة وأقلها سنة فما دونها

مكثت الدولة العباسية ١٠٠ سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الاسلامي (ما عدا بلاد الاندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف فى وجه جنودهم الا منافسيهم فى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بنو عمهم من آل أبى طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حينا وتلمع حينا ثم تجىء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهى هذا الدور بوفاة الواثق سنة ٢٣٢

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من ٢٢٢ الى ٣٣٤ أخذت الدولة فيه فى النزول شيئا فشيئا وضعفت تلك المكانة التى كانت لهم فى أنفس الامم الاسلامية واجترأ الامراء بالاطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم الا العراق وفارس والاهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر الى أن يتولى بغداد مملوك تركى أوديلمى يطلق عليه أمير الامراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخليفة من الامر شئ

قام فى هذا العصر اثنا عشر خليفة . وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفى الذى ملك بنو بويه فى آخر عهده ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانى سنوات ونصف ولم يمت منهم موتا هادئا الا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع وكان استيلاء بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤

جاء بعد ذلك دور ثالث من ٣٣٤ الى ٤٤٧ ليس للخليفة فيه الا اسم الخلافة والسلطان الفعلى لأمة فارسية هى الأمة الديلمية التي يمثلها سلطان من بنى بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم مايقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل مايراد منه لا مايريد

وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان الديني لمباينتهم له فى العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل على وآل بيته على من عداهم وانما رضوا ببقاء الخليفة العباسي ليكون أمره عليهم هينا يبقونه متى رأوا فى بقائه خيراً لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا فى ذلك مصلحتهم

وقد قام فى هذا الدور المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم ٢٢ سنة ونصف والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذي يليه والثلاثة الاولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه

جاء بعد ذلك دور آخر من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ انتقل السلطان الفعلى فيه الى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا فى بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بنى بويه فان هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تدينا وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والاجلال مايقضى به منصبهم الدينى

وقد ولى فى هذا الدور المقتدى والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى والمستنجد والمستضيء ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء فى هذه المدة على حال واحدة فانهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئا من نفوذهم الفعلى في بغداد والعراق والذى ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق في عهد المقتفى وانقضت دولة السلاجقة سنة ٥٩٠ على يد خوارزمشاه ونفوذهم فى العراق قد اضمحل تماما

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية ٦٦ سنة لم يكونوا

فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق الى أن قام المغل والتتار بحركتهم التى ابتدأت باقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الاسلامية فاخمد أنفاس الدولة العباسية وأزالها من بغداد على يدى هولاكو حفيد جنكيزخان سنة ٦٥٦

فللدولة العباسية أدوار

١٠٠ سنة عصر القوة والعمل من ١٣٢ — ٢٣٢

١٠٢ « عصر استبداد المماليك الاتراك من ٢٣٢ الى ٣٣٤

١١٣ « عصر استبداد الملوك من آل بويه من ٣٣٤ الى ٤٣٧

٩٤ « عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من ٤٤٧ الى ٥٣

١٢٦ « عصر استعادة العباسيين شيئا من نفوذهم السياسى مع تغلب السواد من ٥٣٠ الى ٦٥٦

ونريد أن نوضح هنا الاسباب الرئيسية التى أدت بهذه القوة الهائلة الى الضعف ثم التلاشى

(١) ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الاسلامية من أول نشأتها على العصبية العربية فهى التى كانت عمادا لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم القضاء على العصبيات الجزئية العربية واحياء العصبة الكلية فقد ورد عنه كثير من الاحاديث التى تنهي عن دعوة الجاهلية وهي قولهم يا لفلان وبعض هذه الاحاديث يخرج الداعى بدعوة الجاهلية عن الاسلام كقوله عليه السلام ليس منا من دعا بدعوة الجاهلة وسبب

ذلك ان هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف فى سبيلها وكانت نتيجةذلك أن تآخى العدنانى والقحطانى والمضرى والربعى والقيسى والكلبى — بعد أن كانوا أوزاعا يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعا امام الامم التى تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية . الدين كونها وهي تنصرته حتى صار أحدهما رادفا للآخر فى نظر الامم التي غالبها العرب على أمرها

سارت الامة العربية على ذلك فى صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليه تؤيدهم تلك الوحدة التى أنالها الدين قوة لاتقهر

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل في دينهم من الامم الاخرى مالهم من الحقوق وعليهم ماعلى العرب من الواجبات الا أنهم لايدلون اليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعى لاتمكن مقاومته

ولما حصلت الفرقة بين على ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد من جميع القبائل العربية اليمانون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وانما كانت فرقة أثارها الدين فى صدور قوم والتنافس فى الدنيا فى صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين المظبمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزيين بين الأمة العربية فان عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلى وقد أضعف ذلك كثيرا من

قوة العصبية العربية

انتقل الامر الى بنى أمية وتولاه منهم معاوية بن أبى سفيان شيخ بنى عبد مناف فدانت له الأمة والقت بأيديها الأدعرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الاسلام يقضي عليه وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الاثر وقد اتضح ذلك وضوحا جليا بعد انتهاء البيت السفيانى وعودة الانقسام أيام قام مروان ابن الحكم منازعا قرنه العائذ بالبيت وهو عبدالله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا فى قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثرا تمكن منها حتى قال فى ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر ابن الحارث الكلابى كلمته التى اولها

اريني سلاحى لا أبالك اننى ۞ أرى الحرب لاتزداد الا تماديا

وفيها

فلا تحسبونى ان تغيبت غافلا ۞ ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ۞ وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وفيها

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ۞ وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمى بقرقيسيا وصارا يطلبان كلبا واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحى الجزيرة مجاورا لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا

الجوار الى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر الى عمير يقول له

ألا من مبلغ عني عميرا رسالة ناصح وعليه زاري
أتترك حي ذي يمن وكلبا وتجعل جدنا بك في نزار
كمعتمد على احدى يديه فخانته بوهن وانكسار

وقتل في بعض الايام عمير بن الحباب

وقد نطق شيطان التفريق على السنة الشعراء المتباينين في الانساب والمتقاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون مايخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ماتؤثره كلماتهم فكل ماأصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الاخطل التغلبي من شعراء تغلب ذوي الصوت المسموع فلماصالح زفر بن الحارث عبدالملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الاخطل من كلمة لهم

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصا فبايعوا لك قسرا بعد ماقهروا
ضجوا من الحرب اذ عضت غواربهم
وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي القيسي

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف ان تصطك يوما فتصطدم عليك أواذيّ البحور الزواخر
تكن مثل اقذاء الحباب الذي جرى به الماء أو جاري الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعرا لدى السورة العليا على كل شاعر

يصول بمجر ليس يحصى عديده ويسدر منه ساجيا كل ناظر

فاجابه الجحاف على البديهة

بلى سوف نبكيهم بكل مهند ونبعى عميرا بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة الى تغلب فاوقع بها وقعة شديدة

وقد قال هذا الشيطان الخبيث في تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة الى الله منها المشتكى والمعول

فسائل بنى مروان مابال ذمة وحبل ضعيف لايزال يوصل

وقال الجحاف

أيامالك هل لمتنى أو حضضتنى على القتل أم هل لامنى كل لائم

ألم أفنكم قتلا وأجدع أنوفكم بفتيان قيس والسيوف الصوارم

بكل فتى ينعى عميرا بسيفه اذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حيت هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكان الولاة بالامصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالى اليمانى يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحى وكذلك كان الربعى والقيسى والتميمى وكان يظهر ذلك واضحا فى الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى ان الدولة الاموية كانت ترتكز على العصبية العربية لأنها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التى ترتكز عليها . وكان من الامم التى ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهي أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيي مااندرس من تاريخها . رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لان كثيرا

من الفرس كانوا قد دانوا بالاسلام فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أو الاسلام فاتجه فكر قادة الأمة الى صدمة العرب باسم الاسلام وكان بنو العباس اذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعي لاسترداد حقهم من بني أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس في مساجلة بني عمهم من بني أمية وانما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأمرين الاول انه يصعب ان تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بني أمية لان العرب لم يمسوا باذى من جانب تلك الدولة بل كانت في الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثاني ان شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون في جانب والربعيون في جانب والمضريون في جانب . أما الفرس فمن السهل اثارة عواطفهم اما بحكم العصبية العنصرية واما بحكم الاسلام ورد الخلافة الى نصابها من آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم وتأثير الاول في الخاصة من أبناء الامة الفارسية وتأثير الثاني في العامة

قامت الدولة العباسية وليس لها عصبية عنصرية تشد ازرها وتحمي بيضتها وانما عصبيتها هؤلاء الموالي المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالي الى استرجاع ما كان لآبائهم من المجد الذي يتوارثون ذكره . وقد وجد من هؤلاء الموالي في بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة في الفارسية وفي الاسلام جعلهم العباسيون في مقدمة من يعتمدون عليه

لم يترك العباسيون في مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استمالوا بها لتكون لهم ملجأ اذا رأوا من الموالي نكوبا عن جادة نصرتهم وميلا الى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيرا من رجال

العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر الا أنهم لم يلتفتوا الى ازالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على انماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر

لذلك كله يمكن ان نقول انه لم يكن للدولة العباسية فى بدء حياتها عصبية قومية متحدة الاوصال وثيقة العرى وانما كان الاسلام هو الذى يجمع بين تلك القوى والدين وان كان جامعا قويا لكنه ان لم يكن مدعما بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان مما اعتبره أساسا لقوته ومنبعا لحياته اماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم الى رجل يختارونه من الموالى ويجعلون قيادة جنودهم الى موال والى عرب ولكنهم كانوا دائما تحت تأثير الظنون والريب التى تحوم حول عقولهم من استبداد الموالى بالسلطان فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالى الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر مافعله المنصور بقائد العباسية الاكبر أبى مسلم الخراسانى وبوزيره الاول ولأبى مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر فى احياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه امام ريب أبى جعفر وغيرته على ملكه ان يشاركه فيه أحد ولا يمكن ان نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان الى قومه وليس بنو العباس فى نظره الا واسطة لذلك فهو اذا عز مراده معهم يتحول بدون ابطاء الى بنى عمهم من آل على . ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر له قائد فارسى على دين قومه من الوثنية وهو سنباذ وجمع لذلك جموعا عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا ان غولب بالعصبية العربية

فان أبا جعفر أعد له جهور بن مرار العجلى وهو من رجال ربيعة فكسر قوته ويقال انه قتل من قومه فى الموقعة نحوا من ستين ألفا . وقام يطلب بثأره أيضا الراوندية فى الهاشمية نفسها فوجلوا والذى كان الفارس المعلم فى يومهم قائد عظيم أيضا من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيبانى

والخلاصة ان الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هى العنصر العربى وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثانى عنصر الموالى وأهمهم أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقى لاختلاف الغرض الذى يرمى اليه كل منهما

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالى كان منتجاً بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيلهم حظا فى الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد اشتهر من الموالى عدد عظيم فى الصدر الاول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر الي بيت خالد البرمكى وما وصل اليه يحيي بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك في مخاطباتهم وفى القصائد التى مدحوهم بها ووردت اليهم خزائن الارض وجبايات الاموال وتزلف اليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفرا منهم كلمات تدل على انهم يريدون التحول الى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها الى آل على كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالى وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية

كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم فى دينهم ونسبة الزندقة اليهم الى غير ذلك مما يثير الظنون التى لا بد منها فى دولة لا تعتمد على عصبية قومية

ولا مراء فى انه كان لبعض هذه الاسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لاخيه الامين وكان الداعى اليها هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى وكان الذى ظنه الرشيد وهجس في نفسه ان البرامكة سوف يحرشون بين الاخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بما ينتجه ذلك وهذا سبب من الاسباب الكثيرة التى منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم والذلك لم نر وزيرا عباسيا تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الاموال واغتصاب النفوس ولا يمكن ان يكون سبب ذلك المال وحده بل ان المنازع السياسية وميل الموالى الى استرداد عز الآباء كان له دخل كثير

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء الى أحدهما كلما رابهم من الآخر شىء الا انه قلما نسب الى المصطفين من العرب فكرة خيانة للدولة أو ارادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعد أو غدر بمن ائتمنهم وانما كانت العيوب التى تسند الى بعضهم وتدفع الخلفاء الى عقوبتهم هى التقصير فى أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها

جاءت الوقائع بين الامين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراسانى لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهرى وهو أول بيت من الموالى منح خراسان على طريق الاستقلال . والذى

كان يزيد فى قوة هذه العناصر ان المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان الى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم اليهم ملوك ماوراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق فى قومه فقدم بغداد ليستزيد عزا بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد تواردا مطردا حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة انه يعتمد عليها فى اقامة دولته ويستغنى عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضا أما العرب فلأمر ما كان هو وأخوه قليلى الاعتماد عليهم ويظهر ان ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الابناء أو الموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الأتراك ظنا من الخلفاء انهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وان الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم لشجاعتهم ووفرة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر فى تأييد قوتها مع ان هذا العنصر يباينها فى الاخلاق وفى العادات ويذكر وطنه الذى ينتمى اليه ولا ينساه ان هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهى ان يكون صغوهم اليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق فى قومه يميل الى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الافشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكا لاشروسنة وكان هو معظما في قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه باله الآلهة

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد فى الدولة وما دريا انهما بعملهما هذا قد ساما عز الخلافة الى غلمان الأتراك يتصرفون فيها باشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدي الاغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى ان الافشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل الى المشرق حتي يستولى على خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظمة كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لايرون لهم ان يستأثر الافشين بهذا الملك العظيم

كان فى حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربى ضعفا عظيما فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها الى مواطنها فى القفر والصحراء والذين بالمدن لم نبق لهم عصبيات يستندون فى حياتهم اليها وكذلك ضعف الموالى الخراسايون لضعف ثقة الخلفاء بهم فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الاتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به وليس امام الخلفاء الا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت أيديهم الى حياة الخلفاء والى أموالهم والى كل شئ عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التى لم يجدوا أمامهم ما يردها لا من العرب ولا من الابناء

الذى كان أول الخلافة شر وأما هذا فهو نهاية الشرور

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بنى العباس ذا نتائج سيئة فانه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما فى الاطراف فقد رأى الولاة ان قد آن لهم ان يستقلوا بما تحت أيديهم

لانهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ فى عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض الا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (فى منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة فى الادارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء باعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحيانا) على السكة وارسال شئ من المال والهدايا الى بغداد وقد حصل ذلك فى المغرب والمشرق والجنوب والشمال فى آن واحد ولا قبل للدولة بارسال الجنود لاعادة الحكم العباسى الفعلى الى تلك الولايات لان غلمان الأتراك قلما يهمهم ذلك ماداموا آخذين بخلاقيم الخلفاء فى حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس الى الرضا بما بذل لهم

صار المتغلبون يقتتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء الا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب بن الليث الصفار أن يستولى على قلب الخلافة ويزيل عنها المتغلبين عليها من الاتراك لولا ماظهر من تشدد أبى طلحة الموفق الذى كان ولى العهد وصاحب السلطان فى عهد المعتمد على الله والذى أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولى على الدولة وهو عنصر الاتراك نفس بعضه على بعض ماأتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن تتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب اليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح فى احياء شئ من قوة الخلافة الا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هو فقد الدولة للعصبية القومية التى يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخاطف لايلبث أن يزول ويضمحل أمره . فان الضعف عاد بعد الموفق وابنه

المتضد الى أشد مما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبنى العباس والسلطان الحقيقى لما بقى بأيديهم من البلاد للاتراك الى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة اخوة من بيت عريق فى الشرف القومي وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الاتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بامامة بنى العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين الاول مرضاة الجمهور البغدادى فقد كان معظمه يدين بامامتهم ويفضلهم على آل على والثانى ان الخليفة العباسى يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لانه لامانع دينيا يمنعهم من ذلك أما الخليفة العلوى فانه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئا وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فاضاعت أثرها ومع مانال الديلم من هذا السلطان فانهم لم يهملوا العنصر التركى الذى كان كثيرا بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الاتراك على الديلم .

وفى أوائل المئة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل فى الاسلام حديثا وفارق وطنه متجها الى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ماوراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقى قاد هذا البيت جماعة الغز الى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التى كانت بأطراف المملكة الاسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بنى العباس لانهم كانوا مبالين الى ازالة هذه الدولة الديلمية التى كانت غالية

في تشيعها والادلاء بالامور الى دولة أخرى تدين بامامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب اليهم مادب الى من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعا بني العباس الى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية

ولم يكن لهم مايعتمدون عليه من العصبية الا بقاياهم واليهم من المماليك فاعادوا في العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم في منتصف القرن الثالث

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائرا مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصبية القومية التي يعتمد عليها الا أن توازن القوى في الاول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ والمقام الديني هو الذي ظل حافظا لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالي

(٢) منافسة العلويين

لامراء في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب الى قلوب الجمهور من الامم الاسلامية وهم لهم أطوع لأن المؤثر الديني يكون مستحكما ولذلك صادفت الدعوة الى أهل البيت نجاحا عظيما في صدر المائة الثانية من الهجرة

وكان أهل البيت الذين لايعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل

منهما يسابق الآخر فى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاما أحدهما فهو البيت العباسي الذى ينتمى الى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثانى فهو البيت العلوى الذى ينتمي الى على بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة

وقد حاول البيت الاول أن ينال الخلافة قبل العباسيين فى عهد بنى أمية ففشل قام الحسين بن على مطالبا بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن على بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام على أثره ابنه يحي بن زيد/ فكانت نتيجته كابيه — ذلك مع ميل الجمهور العراقى لهم وعطفه عليهم

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا باهل خراسان فى احياء بيتهم وكانت الدعوة اليهم مبهمة فى أول الامر لايزيد الداعى فى دعوته على انه يدعو للرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم الا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصبية خصومهم فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بنى أمية

حرك ذلك من غيرة بنى عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم ان جمهوراً كبيراً كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون ان كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافى أما هؤلاء فهم الخصم الذى يخاف جانبه لانهم يشاركونهم فى السبب الذى قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما كان لهم فى نظر الجمهور الشيعي مايفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا

دعوا إلى أنفسهم أحدثوا فى العصبية التى قامت عليها الدولة انقساما ولا يدرى حينئذ لمن تكون الغلبة

ولما كانت المدينة النبوية هى مقام أبناء على من بنى حسن وحسين راقبهم العباسيون سرا واذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهى درجة الخلافة ويريهم ان خلافة بنى عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التى مرت عليهم فى عهد أسلافهم من بنى أمية الا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن الا معززا لدواعى الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذى هم أولى به واذا كان غصب الاجنبى الحق مؤلما للنفس فرؤيته عند القريب أشد إيلاما ولا سيما اذا ظن من ضاع حقه انه يجد من الانصار من يساعدونه على نيله

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ماظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط فى مصادره وموارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه ابراهيم الذى ثار بالبصرة

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بنى عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهفوا الحد فى استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التى أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون الى

تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على على بن أبي طالب بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين الى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذى بالهم . وصاروا كالطائر المحبوس فى قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن على الذى ثار بمكة فى مدة الهادى سنة ١٦٩ فحيل بينه و بين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة

أفلت من تلك الموقعة ادريس بن عبد الله وأخوه يحيي فاتجه الاول غربا مارا بمصر ومخترقا شمال أفريقية حتى أتى المغرب الاقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الادارسة فى طرف الدولة من الغرب واتجه الثانى نحو المشرق وذهب الى نواحى الديلم الا ان قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل . وقد أظهرت حوادث هذين الاخوين ان من موالى العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بني العباس الذى كان على بريد مصر فانه هو الذى سهل لادريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيي البرمكى الذى سهل ليحيي بن عبد الله طريق الافلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد الى ان يربى على من كان قبله فى النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد فى عقوبة من يتهم بالميل اليهم وشدة التضييق على من بقي بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق الى بغداد ليقيم تحت نظره

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الامم الاسلامية وهى أمة البربر بالمغرب الاقصى ان تخرج عن طاعتهم معتقدة انها نالت حظا أعلى من حظ سائر الامم الاسلامية لانها ظفرت برجل من آل

البيت النبوى ومن أبناء ابنتـه واضطر الرشيد ان يزرع بافريقيـة دولة الاغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقا بجزء من داره يجتهد ان يفصل بين ماتناولته النار وبين سائر البيت وهذا مافعله الرشيد

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقا بالدولة ماذا رأى . رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدولة يميلون الى العلويين ويكرهون ماينالهم من الشر فاراد ان يتقرب اليهم ببعض مايرغبون فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم على الرضا الذي يتولاه أكثر شيعة آل على وولاه عهده ويظن انه فعل ذلك ارضاء للحسن بن سهل وزيره الاكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الاعظم فى سوق الخلافة اليه واخراجها عن أخيه الامين وكان الحسن يتشيع وينسب الى الزندقة أيضاً ولكنه رأى ان النتيجة لم تكن على مايرغب فانه وان أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه ابراهيم بن المهدى فلم يكن أمامه مايرأب به هذا الصدع الا أن احتال فى التخلص من الحسن بن سهل بان وضع له قوما تناولوه باسيافهم ثم مات بعقب ذلك على الرضا فنسب قوم ذلك الى المأمون أيضاً والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الادلة مايقوى هذه التهمة

عادت الامور بعد موت هذين الى مجراها ورجع أهل بغداد الى المأمون وانحرفوا عن عمه . ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلى بن أبى طالب وأعلن ذلك فى كلامه وفى كتبه حتى اذا رأى منهم الميل الى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه

بعد ثورة اليمن فامر ألا يدخلوا عليه واضطر لان يجارى أباه فى الاحتياط فاسس دولة باليمن تشبه دولة الاغالبة بافريقية وهى الدولة الزباديه والغرض من الدولتين واحد

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم اياهم بالاقامة برأي منهم فى بغداد أو فى سامرا بعد اختطاطها

ولم يكن الخلفاء منهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الاحسان الى العلويين والتصريح بتفضيل علي على غيره من شيوخ الصحابة وكان فى ذلك على سيرة جده الرشيد الا أنه زاد عليه فقد كان يصرح فى مجالسه بانتقاص على بن أبى طالب ويبيح للمجان من جلاسه الهزؤ والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع الى العلويين ويؤذيهم فى أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون فى قصائدهم فينتقصون آل على ويفيض عليهم الهبات الوافرة وهدم قبر الحسين بن على ونهى الناس عن زيارته وشدد فى ذلك تشديداً عظيما فكان الناس من ذلك فى هم وحزن حتى ان شاعره الكبير أبا عبادة البحترى لما مات وولي المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال

رددت المظالم واسترجعت	يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبى طالب بعد ما	أديع بسربهم فابذعر
ونالت أدانيهم جفوة	تكاد السماء لها تنفطر
وصلت شوابك أرحامهم	وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حظهم ما نأى	وصفيت من شربهم ما كدر

وأين بكم عنهم واللقا ء لا عن تناء ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاؤكم واخوتكم دون هذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة وحدا حسام قديم الأثر
يشاد بتقديمكم فى الكتا ب وتتلى فضائلكم فى السور
وان عليا لأولى بكم وأزكى يدا عندكم من عمر
وكل له فضله والحجو ل يوم التفاضل دون الغرر
بقيت امامَ الهدى للهدى تجدد من نهجه مادثر

مع ان البحترى له فى المتوكل المدح الجليلة والمراثي المؤثرة

ثم آل على ثلمة أخرى فى سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسس الحسن بن زيد دوانه فى الديلم ولم يفلح بنو العباس في القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التي كانت تغضى حياء وتخاف تدينا

رأى العلويون فى النصف الثانى من القرن الثالث ان ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاما خاصا عرف بنظام الدعوة ساروا فى ذلك على أثر الدعوة العباسية الا أنهم حلوها بشيء من المقدمات وبثوا دعاتهم الى جميع الاقاليم الاسلامية غربا وشرقا ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل سريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أى شيء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا فى الاسلام مالم يخطر ببال مسلم ان يقوم به مما قدمنا ذكره . ثم قام على أثرهم الفاطميون بأفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز

واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقد حصل ان اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة الى التمكن من الأمر وخطب فعلا للعلويين على منابر بغداد نحواً من سنة

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن فى نسب العلويين المصريين وكتبوا فى بغداد محضرا وقع به العلماء والفقهاء وكبار بنى هاشم وقالوا فيه ان نسب العبيديين بمصر غير صحيح وانهم أدعياء ملعونون مع انه نسب للشريف الرضى نقيب الطالبيين ببغداد قوله

مامقامى على الهوان وعندى	مقول صارم وأنف حمى
واباء محلق بى عن الضيم	كما راغ طائر وحشى
أى عذر له الى المجد إن ذل	غلام فى غمده المشرفى
ألبس الذل فى ديار الاعادى	وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا	ى اذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا	س جميعاً محمد وعلى
ان ذلى بذلك الجو عز	واوامى بذلك النقع رى
قد يذل العزيز مالم يشمر	لانطلاق وقد يضام الأبى
ان شراً على اسراع عزمى	فى طلاب العلا وحظى بطى
ارتضى بالاذى ولم يقف العز	م قصوراً ولم تعز المطى
كالذى يخبط الظلام وقد أقـ	ـمر من خلفه النهار المضى

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يثبتها فى ديوانه وهى مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فان مثل

هذه الاشياء لم يفدهم فائدة ما

ومما زاد الامر بلية ان بنى بويه الذين استولوا على بغداد فى منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور فى بغداد بما يشتهون من العادات التى كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن على رضي الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون الى السلطان بالتشيع .

وفى أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بنى العباس

استمر هذا النزاع السياسى بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام . واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال ان السبب فى هيج التتار واغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهى الكرخ

من ذلك نرى ان النزاع بين آل العباس وآل على استمر من أول خليفة الى آخر خليفة وكان ذلك سببا من أسباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره من خلل العصبية التى كانت عمدة العباسيين

ويمكن ان يعد هذا السبب من متممات السبب الاول

(٣) ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربى حافظ عليه العرب فى جاهليتهم وبذلوا دونه

أموالهم وأبناءهم وأنفسهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الامم كالفرس والروم وحوادثهم فى ذلك مأثورة تحفظها بطون الصحف ولسنا بصدد أن نقصها . لما جاء الاسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمرا حتما لاهوادة فيه قال تعالى فى سورة الاسراء (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا . وقال وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ماتفعلون) الى غير ذلك من الآيات القرآنية التى شددت فى وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساسا تقوم عليه الأمة الاسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنو أمية هـذا المنحى لان العنصر العربى كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال انها كانت دولة عربية محضة وقد اعتـد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التى فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمـين حياته وقالوا انها أول غـدرة فى الاسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شـيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لوقتلته وحييت فقال عبـد الملك أولست بحى فقال الشيخ العربى حياة من لا يوثق له بعهـد ولا عقد . فانظروا كيف عـد العربى هذه الحياة كلا حياة ولم يصل الى علمنا فى هـذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الامة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدى عنصر غير عربى ظهر عنها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على انه ليس للعهود فى نظر خلفائها كبير قيمة فقد قتل المنصور فى حياة السفاح ابن هبيرة بعـد أن أمن أمانا لاشك ولا حيلة فيه وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراسانى

مشيد الدعوة العباسية وكانوا لايحبون أن ينفدوا أمراً دون مشورته .
ثم أعادالمنصور هده الرواية نفسها مع أبى مسلم بعدأن أمنه ثم فعل مثل
ذلك مع عمه عبدالله بن على بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما
كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال انه يعطيه الامان أجابه
محمد بقوله وأما أمانك الذى عرضت فأى الامانات هو أأمان ابن هبيرة
أم أمان أبى مسلم أم أمان عمك عبدالله بن على والسلام وهده كلمةشديدة
الوقع سيئة التأثير لانها وصمه عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول اللهصلى
الله عليهوسلم فى حراسة دينه وسياسة الأمة

وهذا الذى حصل فى صدر الدولة كان مجرئا لمن أتى بعد ذلك أن
يحاولوا التخلص مما تفضى به العهود اذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما
العهود التى نعقد لتولي الخلافة فانهم جعلوها من الاشياء التى يسهل حلها
وان كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق فعل ذلك المنصور مع
عيسى بن موسى الذى عقدله السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه
محمداً المهدى وهذا التقديم وان كان قد تم بطلب عيسى ورضاه الا أنا
نعرف كيف توصل المنصور الى الحصول على هدا الرضا من الاساءات
المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن يخلع طاعة المنصور
ويفتن الأمة وفى رأيي انه لو وجد [illegible] لفعل وان كان قد آثر عنه شعر
يفيد انه آثر مصلحة الامة على مصلحة نفسه وهو قوله

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما أما صغار واما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدى مثل ذلك معه فعزل عن العهد بمرة وقد ارتكب من الوسائل ماارتكبه أبوه

وفعل الامين ذلك مع أخيه المأمون فادى ذلك الى الفتنة الشعواء التى كانت بين سنة ١٩٤ الى سنة ١٩٨ قاست الامة فى أثنائها مصاعب هائلة . ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهى أن أمثال هذه العهود لست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم الى القواد والامراء فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الاقدام على فك تلك القيود التى حلفوا الايمان الوثيقة على الوفاء بها

كتب الرشيد أمانا ليحيى بن عبدالله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث فى الوجوه التي يبطل بها الامان وحمل فقهاء وقته الواسطة فى ذلك فنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل فى الدين مع الاهواء ومنهم من سارع الى هوى الخليفة وصار يبدى الاوجه التى ينتقض بها الامان

كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت الى فرقة الامة فاضعفت عصبية الدولة وآل الامر بخلفائها الى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم فى التاريخ التفصيلى والله أعلم

فهرس الكتاب

{ تم الفهرس }